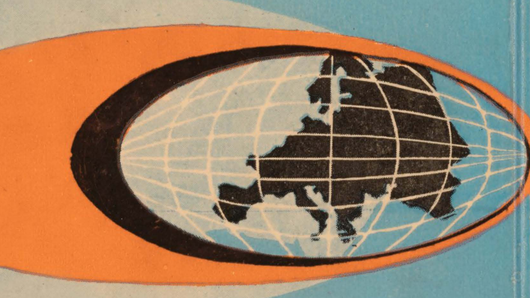
الدكتور محمد فؤاد شكري

دراسة
في التاريخ الأوروبي المعاصر
(١٩٣٩ - ١٩٤٥)



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الدكتور محمد فؤاد شكرى

دراسة في التاريخ الأوروبى المعاصر

(١٩٣٩ - ١٩٤٥)



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الفهرس

خرائط الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــدير

هذه قصة سنوات لا أخال القارىء الكريم قد نسى شيئا مما حملته فى طياتها من مفاجآت وحوادث سببت للإنسانية آلاما مبرحة وأدخلت على حياة الأمم تغييرات ظاهرة مازال الجنس البشرى يئن من آثارها ، وكان لنا نحن المصريين نصيب من هذه التجربة المؤلمة . فمن منا لايذكر ليالى الغارات الجوية الطويلة وحلكة ظلامها ، ومن منا لايذكر الرعب الذى استولى على النفوس عند ما كاد العدو يطرق أبواب الاسكندرية أيام معركة العلمين الحاسمة ، ومن منا لم يسكن إلى نفسه هنيهة يسألها المصير لو أنه قدر للنازيين وأحلافهم أن يغمروا وادى النيل بجحافلهم ولو إلى زمن قصير ، ومن منا لم يتشوق لمعرفة شىء صحيح عن ذلك « النظام الجديد » الذى كانت تشيد بذكره أبواق الدعاية النازية من محطات إذاعتها وقتذاك فتحدثت عنه كأنما كان غاية ما ابتكره إنسان لسعادة إنسان ، وكأنما كان الغرض منه بناء عالم مثالى وثيق الأركان تكثر فيه الخيرات وتعيش فيه الشعوب محررة غنية وتحيا حياة مطمئنة رخية . لقد فاجأتنا جميعا الحرب الهتلرية الخاطفة فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ فأذهلت هذه المفاجأة الأكثرين وإن كان هناك قلائل ممن كانوا يتوقعون قيام الحرب قبل نشوبها فعلا ببضع سنوات منذ وصل أدولف هتلر إلى منصب مستشارية الريخ الألمانى فى شتاء عام ١٩٣٣ وزادت مخاوفهم عندما أحرق النازيون الريخستاج فى آخر فبراير من العام نفسه . وشاءت المصادفات أن أكون بانجلترا فى صيف ذلك العام ، فألفيت نفسى وسط خضم من النشرات والكتب والمطبوعات والأحاديث والإذاعات ينقسم أصحابها فريقين أحدهما يحذر العالم مما سوف يتعرض له من أخطار وشرور جسيمة من جراء وصول الهتلريين إلى الحكم والآخر يحاول أن يجد فى الاستجابة لرغبة الشعب الألمانى وسيلة مؤاتية تحول دون انتشار المذاهب الهدامة وتقيم من ألمانيا حاجزا منيعا يقف فى وجه البلشفية الروسية يمنعها من التغلغل فى أوربا الوسطى والوصول إلى أوربا الغربية كذلك ، على أنه كان مما استلفت نظرى فى لندن فى صيف ذلك العام أن الانسان اينما سار فى شوارعها أو جلس فى مطاعمها كان يقابل طائفة من الألمان

الهاربين من وجه النازية فى بلادهم . وبدأ الحديث من ذلك الحين عن مشكلة اللاجئين ولما يمض على الهتلريين فى الحكم أربعة شهور .

وفى صيف عام ١٩٣٤ اتيحت لى الفرصة لمشاهدة بعض العواصم الأوربية فوجدت عجبا: باريس لاتزال تتأرجح بين اليسار واليمين وتكاد تفترسها الفوضى على أثر ما اتضح من أن بعض الوزراء فى حكومة المسيو (شوطان) Chautemps كانوا ضالعين مع المحتال الفرنسى (ساشاستافيزكى) Sacha Stavisky فى عملية إصدار سندات مالية مزيفة ، فانتحر ستافيزكى فى فبراير ١٩٣٤ عند افتضاح أمره وكثرت الإشاعات بأن المسئولين هم الذين رأوا التخلص منه بقتله فاستقال رئيس الحكومة ووقعت التحامات دموية بين الشرطة والمتظاهرين الذين ثاروا ضد حكومة (دلاديه) Daladier الجديدة . وعندما زرت باريس فى صيف ذلك العام كان الفاشيون الفرنسيون بزعامة (دى لاروك) de la Rocque يحملون بشدة على الجمهورية ، ويثيرون الاضطراب فى كل مكان ، وكان دى لاروك يدعو لتأييد مبدأ « الزعامة المسئولة » فى فرنسا أى نفس المبدأ الذى كان يرتكز عليه النظام النازى فى ألمانيا .

وفى روما كان موسولينى Mussolini قد بلغ ذروة مجده وحتم الفاشيست على كل زائرى عاصمتهم من الأجانب وقتذاك أن يزوروا المعرض الفاشيستى الكبير حيث كانوا يعرضون « تاريخ » الحركة الفاشية فى صور وأشكال منوعة ويضعون فى ابهاء المعرض عدة آثار تفسر ماحدث وقت ظهور الحركة الفاشية وزحف الفاشيين على رومه ، على أن أهم ما استلفت نظرى فى ذلك الوقت أمران : أولهما أن وزارة الخارجية الايطالية ما كانت تأذن فى تلك الأيام لأحد من الباحثين الذين يدرسون التاريخ بالاطلاع على الوثائق الخاصة بالدبلوماسية الايطالية فى القرن التاسع عشر ، تخالف بهذا العمل مادرجت عليه الحكومات الأوربية الأخرى ، وقد اتضح فيما بعد أن ايطاليا كانت تعد العدة للاعتداء على الحبشة واعتبرت لذلك الوثائق التاريخية القديمة من أسرار الدولة التى يجب أن يمنع الباحثون من معرفة شىء عنها ، وأما الأمر الثانى فهو أنه على الرغم من صلابة بنيان الدولة الفاشستية الظاهرى وما كانت تذيعه الدعاية الايطالية من أن الدوتشى والشعب الايطالى كانا يدا واحدة وكتلة متماسكة فقد قابلت أفرادا عديدين ينقمون على حكومة موسولينى ويضمرون لها العداء ولا يحملون الشارة الفاشية إلا مرغمين لأنه بدون هذه الشارة التى تدل على أنهم قيدوا أسماءهم فى نقابات العمل المتعددة كانوا معرضين للاحتجاز بدوائر الشرطة أو السجن إذا قوى الاشتباه فى أمرهم ،

وفى فينا كان الحرس الأهلى (Heimwehr) الذى استندت إليه حكومة (دلفوس) Dollfuss قد قام بحركة واسعة لإبادة الاشتراكيين الديمقراطيين فى النمسا فاستمرت المعركة

فى ڤينا أربعة أيام (١٢ — ١٦ فبراير ١٩٣٤) وكانت انتصارات الحكومة (والهايمڤهر) كبيرة ، وظن دلفوس أن الأمر قد استتب له ونال مؤازرة ايطاليا الفاشية ؛ ولكن دلفوس كان قد أخرج على مايبدو من حسابه قوة أخرى جديدة بدأت تنمو ويقوى شأنها فى النمسا منذ وطد الهر هتلر دعائم الحكم النازى فى المانيا . وسمع الكاتب عديدين من النمساويين يتحدثون عن تأييدهم للنازية وتعاليمها ويتوقون للانضمام إلى المانيا الكبرى وتحقيق (الانشلوس) Anschluss ويضمرون لليهود عداوة عظيمة ؛ ومع أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى إخماد حركة الاشتراكيين الديمقراطيين كعمل مجيد فإنهم ما كانوا يرضون عن دلفوس واعتماده على موسولينى وايطاليا ويريدون إبعاده من الحكم . وعندما لقى الكابتن روم Roehm وغيره من رؤساء كتائب الهجوم (S. A) حتفهم فى ألمانيا فى آخر يونية ١٩٣٤ فى حركة التطهير الواسعة للتخلص من العناصر التى اتهمت بالاعتدال زادت حماسة أنصار النازية فى النمسا ، واكتنفت حكومة دلفوس الصعوبات من كل جانب وفى ٢٥ يوليه اغتال النازيون وصنائعهم دلفوس وهو بدار المستشارية . فعبأ موسولينى جيشه على الحدود حتى يمنع تدخل المانيا الهتلرية فى شئون النمسا؛

أما ماحدث بعد ذلك من ازدياد بطش النازيين وسطوتهم فى أوربا فإن القارىء الكريم سوف يجد ذلك مبسوطا فى فصول الكتاب ؛ ويكفى أن أذكر الآن ما كان لهذه الحوادث الجسام من أثر حملنى على التفكير فى أمر النازية ومعرفة شىء عن أصولها . وقد أتيحت لى فى صيف عام ١٩٣٧ الفرصة مرة أخرى لزيارة انجلترة وفرنسا : فوجدت باريس مشغولة بمعرضها الدولى العظيم ؛ أما لندن فكان الحديث فيها يدور حول ماعرف وقتذاك باسم سياسة « التهدئة والتسكين » ؛ ومعناها من الوجهة العملية التسليم بكل ما كان يريده النازيون من توسع على حساب الدول المجاورة وعدم إزعاجهم فى شىء حتى لاتتأزم الأمور فتنساق الدول الغربية مرغمة إلى الدخول فى حرب كان لايرغب فيها أحد من أبناء فرنسا أو انجلترة؛ ووجد أنصار التهدئة والتسكين مسوغا لسياستهم من تلك الوعود التى كان لايبخل بها الهرهتلر عقب كل حادث من حوادث اعتداءاته المتكررة على الحقوق والالتزامات التى أقرتها وأوجدتها الاتفاقات الدولية ، فكان من نتائج هذه السياسة عقد اتفاق ميونخ Münich المشهور فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ لاقتطاع السوديت من تشكوسلوفاكيا وضمها إلى ألمانيا النازية ؛ واعتقد رئيس الوزارة الانجليزية وقتذاك المستر نيفل تشمبرلين Neville Chamberlain أنه نجح فى المحافظة على السلم فى العالم لأنه عاد إلى بلاده يحمل فى حقيبته تصريحا مشتركا وقعه الهرهتلر وألغى بمقتضاه الحرب كوسيلة لفض ما قد يحدث من خلاف أو نزاع بين انجلترة وألمانيا فى المستقبل. ولكن هتلر جريا على عادته مالبث حتى نبذ وعوده ظهريا واغتصب البقية الباقية

من تشكوسلوفاكيا فى مارس ١٩٣٩ . وكان إقدامه على هذه الخطوة منذرا ببداية تحول الدول الغربية من سياسة التهدئة والتسكين إلى خطة مقاومة القوة بمثلها ؛ ومن ذلك الحين لم يغب عن متتبعى تطور الحوادث فى أوربا أن الحرب لابد واقعة . وظلت حفنة يسيرة من أنصار التهدئة يبذلون كل جهد لتجنيب العالم ويلات الحرب المدمرة وحاول رجال المال فى لندن وغيرها استمالة النازيين إلى السلم بأن صاروا يعرضون على المانيا قروضا مالية عظيمة ويعدون بفتح الأسواق لتجارتها ولكن جهودهم باءت بالفشل ؛ وفى سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت انجلترة الحرب على المانيا وتبعها سائر حلفائها وذلك عقب إغارة الألمان على بولندة ؛ ثم أحرز النازيون انتصارات باهرة وافتتحوا معظم بلدان أوربا الوسطى والغربية وأتاح لهم محور برلين — رومه السيطرة على ايطاليا واسبانيا وخشيت كل من السويد وتركيا بأسهم وبقيت انجلترة وروسيا وحدهما تحملان فى أوروبا عبء النضال ضد المانيا ، وبعد أن بسط النازيون سلطانهم على أوربا بدأت دعايتهم تتحدث عن النظام الجديد ، وعن إنشاء عالم مثالى لا فى أوربا وحدها بل وفى سائر القارات التى كان يطمع النازيون فى امتلاكها تحقيقا لأهدافهم فى بسط السيطرة الجرمانية على العالم أجمع .

وفى أثناء ذلك كله عظم الاهتمام بمعرفة شيء مما كان يجرى من حوادث خلف تلك الجدران العالية التى شيدها النازيون حول قلعتهم الأوربية والتى ظنوا أن أحداً لن يجد بها ثلمة ينفذ منها ليشهد بناظريه ما كان يفعله النازيون عند تطبيق هذا النظام الجديد الذى بشرت به دعايتهم وكانت قد أتيحت لى الفرصة قبل ذلك فدرست شيئاً عن النازية وأساليبها فى السنوات القليلة التى سبقت نشوب الحرب الهتلرية ووجدت فى نفسى ميلا إلى مواصلة هذه الدراسة لا سيما عند ما بدأ (روميل) زحفه فى الصحراء صوب الاسكندرية . وحدث فى غضون ذلك أن ندبتنى وزارة المعارف فى أغسطس ١٩٤١ مفتشا بالتعليم الثانوى فوجدت لدى فى أثناء السفر الطويل من بلد إلى آخر متسعا من الوقت قرأت فيه ما وقعت عليه يداى من مؤلفات ومطبوعات تتناول تاريخ الأمة الألمانية والحركة النازية والسياسة الأوروبية فى السنوات التى سبقت قيام الحرب الهتلرية . ووصلت من دراستى هذه إلى نتيجتين أولاهما أن هذا النظام الجديد الذى روج له النازيون إنما هو شر نظام انتجته قريحة إنسان ، وثانيتهما أن تطبيق هذا النظام فى أوروبا سوف يكون الأداة التى يهدم بها النازيون أنفسهم تلك القلعة التى خيل إليهم أنهم قد أحكموا تأسيس بنيانها ؛ ثم وجدت من واجبى أن أبسط شيئاً مما وصلت إليه من نتائج فشجعنى على إلقاء بحث فى هذا الموضوع جميع إخوانى من أساتذة مدرسة الزقازيق الثانوية الكرام وعلى رأسهم حضرة المربى النابه الاستاذ الكبير السيد هاشم عوض ناظرها

وقتذاك . وفى مساء ١٠ مايو ١٩٤٣ ألقيت بالقاعة اليونانية بالزقازيق محاضرة موضوعها (النازى والنظام الجديد فى أوربا) ، وقد شجعنى مالقيته من اهتمام حضرات الأفاضل الذين تكرموا بالاستماع إلى هذه المحاضرة على المضى فى دراستى منذ ذلك الحين إلى وقت زوال الهتلرية . والآن أقدم إلى القارىء الكريم قصة انهيار المانيا السريع وهى قصة مروعة حقا ، راجيا أن أكون قد وفقت فى إبراز صورة واضحة لذلك النظام الذى أرادت المانيا الهتلرية أن تفرضه على أوروبا فأثارت مقاومة الشعوب ضدها وكان تطبيقه السبب الذى أدى إلى انهيارها فى النهاية .

على أن هذا البحث ما كان يمكن أن يتم فى صورته الحاضرة من غير تلك المعاونة الصادقة التى تفضل على بها حضرات الأخوان الكرام الاساتذة المحترمين عبد المقصود العنانى المدرس الأول للمواد الاجتماعية بمدرسة الحلمية الثانوية وسيد محمد خليل المدرس بالقبة الثانوية والاستاذ فؤاد بطرس زكى ليسانسيه فى التاريخ من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وعبد الرحمن محمود عبد التواب مفتش الآثار العربية ..... فلحضراتهم جميعا خالص شكرى وتقديرى .

دكتور
محمد فؤاد شكرى

القاهره : ديسمبر سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

الريخ الثالث

فى شهر نوفمبر من عام ١٩١٨ سرت روح التمرد والعصيان فى صفوف الجيش والبحرية الألمانية واندلع لهيب الثورة فى (كييل) و (همبورج) وعدة مدن أخرى ففى برلين خرجت الجماهير الصاخبة إلى الشوارع تطلب «الصلح والحرية والخبز ! » . وفى ٨ نوفمبر أعلن قادة هذه الثورة من الاشتراكيين الديمقراطيين أن آل هوهنزلرن قد نزلوا عن عرش أجدادهم ، ثم نادوا بقيام الجمهورية ، وأرغم القيصر ولهلم الثانى على ترك العرش ، وأعلن الاشتراكيون الديموقراطيون الجمهورية . ومع ذلك ظلت المظاهرات على شدتها ووقعت الالتحامات العنيفة فى طول البلاد وعرضها ، وخصوصا بين الاشتراكيين والشيوعيين . ووسط هذه الثورات والاضطرابات تغير وجه التاريخ فى ألمانيا . فقـــد انعقدت الجمعية الوطنية لوضع دستور (ويمار) ، ووقع الوفد الألمانى فى (فرساى) على شروط الصلح — فى ٢٨ يونيه ١٩١٩ — وفى أغسطس من السنة نفسها بدأت قانونا حياة (الريخ الثانى) أو (جمهورية فرساى) — على حد قول الهر هتلر — وهى جمهورية ويمار المعروفة .

ومع أن تاريخ هذه الجمهورية يشتمل على العوامل التى مهدت بشتى الطرق لقيام السيطرة النازية فى ألمانيا ، فيكفى أن نشير الآن إلى كثرة ظهور الأحزاب السياسية التى تألفت فى حياة هذه الجمهورية . وكانت هذه الأحزاب جميعها ترغب فى إعادة الطمأنينة إلى البلاد ، وتنشد الاســـتقرار الداخلى وتريد غسل العار الذى لحق بألمانيا المغلوبة فى معاهدات فرساى ، وتعمل على رد اعتبارها بين مجموعة الدول الأوربية الكبيرة . وكان من بين هذه الجماعات السياسية حزب العمال الألمان لمؤسسة (أنتون دركسلر) Anton Drexler وهو من العمال المتعطلين . وكان عدد أعضاء هذا الحزب عند إنشائه فى عام ١٩١٩ ستة مالبثوا أن صاروا سبعة عندما انضم إليهم فى العام نفسه (أدولف هتلر) . ومن ذلك الحين بدأت هذه الجماعة صفحة جديدة من حياتها . فأخذ الحزب ينمو ، واتسعت دائرة نشاطه ، وأطلق عليه هتلر اسم « حزب العمال الألمان الوطنى الاشتراكى »

ومع أنه لايعنينا فى هذا الفصل سرد تاريخ هذا الحزب ، فمن الواجب أن نشير إلى حقيقة واحدة : هى أنه ظل ينمو ويقوى ساعده فى الوقت الذى ساءت فيه أحوال ألمانيـا

الاقتصادية ، سواء أكان ذلك من أثر التضخم المالى الذى قضى على الطبقة المتوسطة ، أم من أثر الأزمة العالمية الاقتصادية المعروفة فى الثلاثينات الماضية ، وهى الأزمة التى طوحت بملايين العمال إلى خارج المصانع،ونشرت البطالة فى كل بلد ودولة ، فقد أعطت هذه الظروف جماعة هتلر النازيين الفرصة لرد أسباب ذلك الاضطراب الكبير إلى قسوة معاهدات الصلح فى فرساى ، وإلى جشع اليهود ، وإلى خيانة الشيوعيين وأعداء الوطن الداخليين الذين تعمدوا إشعال الثورة فطعنوا جيش القيصرية فى ظهره ، ومكنوا حلفاء الحرب العالمية الماضية من الانتصار على المانيا وإذلالها . كما جعلت هذه الظروف من السهل على الحزب النازى أن يسرف فى بذل الوعود يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يستميل إلى صفوفه جماعة العسكريين الناقمين بسبب الهزيمة وكبار رجال المال الحانقين لضياع أرباح صناعة الحرب ، والسياسيين المحترفين من رجال العهد البائد التواقين إلى استئناف نشاطهم السياسى، وأفراد الطبقة المتوسطة (البورجوازى) الذين هدر الإملاق كرامتهم ، والعمال المتعطلين الذين تذوقوا مر العيش وشظفه ، وغير هؤلاء من الطوائف والجماعات التى حنت إلى يد الزعيم القوى تسيطر من جديد على تنظيم حياتها ونشاطها ، وتتكفل بمسئولية تصريف شئونها حتى تصل بها إلى بر السلامة دون أن تحملها مشقة التفكير فى تدبير شىء من ذلك : شأن الألمان فى كل زمان ومكان .

وفى هذه الظروف الشاذة ، كبر حزب النازى وترعرع . فقد نشرت الصحيفة الألمانية (فولكشير بوبختر) فى عدد خاص صدر فى ٢٣ مارس ١٩٣٢ إحصائية بعدد أعضاء هذا الحزب منذ تأسيسه إلى قبيل وصول أدولف هتلر إلى مستشارية الريخ الرلمانى يتبين منها أن الأعضاء الذين كانوا سبعة فى عام ١٩١٩ ومنهم هتلر نفسه ، قد بلغوا ٣,٠٠٠ فى ١٩٢٠ و ٢٧,٠٠٠ فى ١٩٢٥ و ٤٩,٠٠٠ فى ١٩٢٦ و ٧٢,٠٠٠ فى ١٩٢٧ و ١٠٨,٠٠٠ فى ١٩٢٨ و ١٧٨,٠٠٠ فى ١٩٢٩ و ٣٨٩,٠٠٠ فى ١٩٣٠ و ٨٦٢,٠٠٠ فى دبسمبر ١٩٣٢ و ٩٢٠,٠٠٠ فى يناير ١٩٣٢ .

وهذه الإحصائية إنما نهدف من وراء إثباتها إلى توضيح حقيقتين : الأولى ، إزدياد عدد أعضاء الحزب فى سنوات الأزمة الاقتصادية ، والثانية ، أن عدد الأعضاء بالقياس إلى مجموع الأمة الألمانية كان فى الواقع صغيراً ضئيلا ، ولا يدل بأى حال من الأحوال على أن الحزب النازى كان مرآة الرأى العام الصحيح فى المانيا. بل إن هذه الحقيقة الأخيرة لاتلبث أن تزداد وضوحا إذا انتقلنا إلى الشهور التالية عندما اشترك النازيون فى الانتخاب لمجلس الريخستاج فى ٦ نوفمبر ١٩٣٢ . فقد نالوا وقتذاك ١١,٧٠٥,٢٥٦ صوتا من ٣٦,١٣٨,٨٩٢ . أى

بنسبة ٣٢ ٪ تقريباً . ومع أن زعيمهم بلغ منصب المستشارية فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ بفضل مناورات سياسية وحزبية سوف يأتى ذكرها ، ومع أن النازيين سيطروا على أداة الانتخاب وأحكموا التدبير والتنظيم ، واستطاعوا إثارة الرعب فى قلوب الشعب الألمـــانى من خطر البلشفية عقب حريق الريخستاج المدبر فى ٢٧ فبراير من العام نفسه، فقد نالوا فى الانتخابات التالية فى ٥ مارس ١٩٣٣ نحو ١٥,٨٧٤,٩٧٣ صوتا أى بنسبة ٤٣,٩ ٪ . فلم يكن للنازين حتى فى أوج عظمتهم الأغلبية التى تمكنهم من الانفراد بالحكم فى المانيا ، والإدعاء بأنهم يمثلون الشعب الألمانى حقيقة .

ومع ذلك استطاع النازيون أن يفرضوا سيطرتهم التامة على بلادهم وبذلك أستطاعوا أن يصلوا إلى فرض هذه السيطرة على الشطر الأكبر من القارة الأوربية ، ثم باتوا يطمعون أخيراً فى التمتع بالسيطرة على بقية أنحاء العالم .

ولم يكد هتلر يتسلم زمام الحكم حتى أخذ يعمل جاهداً على تنفيذ برنامجه الضخم بعد أن أصبح صاحب الحول والطول فى المانيا .

فمن أقواله المأثورة : « إن الريخ الأول هو دولة بسمارك ، والريخ الثانى هو جمهورية فرساى ، والريخ الثالث هو دولتى » . أى أن الريخ الثالث يبدأ من اليوم الذى عُين فيه أدولف هتلر مستشاراً للريخ الألمانى فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ . وقد ظلت دولة أدولف هتلر قائمة إلى أن زالت من الوجود بسبب تحالف الديمقراطيات ضدها وتحطم ذلك النظـام الجديد ، الذى شاءت أن تفرضه فرضا على شعوب أوربا .

ومنذ قيام الريخ الثالث مرت سياسة المانيا الخارجية فى مرحلتين : تميزت الأولى منهما ، بمحاولة تمزيق معاهدات فرساى بشتى الوسائل تحت ستار العمـل على استرداد مكانة المانيا كدولة عظيمة بين الدول الأوربية ، أما المرحلة الثانية فقد تميزت بانتصار المانيا فى هذه المناوشات التمهيدية وإقدام الريخ على تلك المغامرة الجريئة التى قصد منها بسط السيطرة الجرمانية على أوربا إما بالوسائل السلمية وإما بخوض غمار الحروب .

لذلك لم تكد تنقضى شهور معدودات على وصول هتلر إلى منصب المستشارية حتى أقدمت ألمانيا فى اكتوبر ١٩٣٣ على الانسحاب من مؤتمر تخفيض السلاح . والخروج من عصبة الأمم ، ثم أخذت من ذلك الحين تتسلح علانية وفى غير توان . بينما وقفت الدول الغربية مكتوفة الأيدى حتى لقد رفضت فرنسا ما تقدمت به بولندة من عروض للقضاء على النازية وهى ماتزال فى مهدها . وعلى ذلك فقد نشدت بولندة السلامة فى توقيع ميثاق عدم اعتداء مع ألمانيا فى ٢٦ يناير ١٩٣٤ ، كان من أثره أن استطاع الريخ تأييد جماعة النازيين فى دانتزج

الحرة أرضا ومدينة وفى ٣٠ يونيو من العام نفسه قضى الهتلريون فى ألمانيا ذاتها على المعتدلين من أعضاء الحزب الوطنى الاشتراكى فى حركة التطهير الواسعة التى كان من ضحاياها الكابتن (روم) وزملاؤه الذين أخذوا على النازية تطرفها . وفى الشهر التالى دبر النازيون قتل مستشار النمسا (دولفوس) على الرغم من الصداقة القائمة بين هذا المستشار وزعيم ايطاليا الفاشية وقتذاك بل ان قتله كان بسبب هذه الصداقة ذاتها ولم يسفر ضجيج موسولينى وزغاؤه عن شىء !

ثم أحرزت ألمانيا الهتلرية نصرا جديدا عندما أوقف رئيس الوزارة الفرنسية (لافال) كل مساعدة للجماعات المعارضة للنازية فى أقليم السار وذلك عندما اتخذت العدة للبت فى مصير هذا الأقليم بالتصويت العام ، فحصل النازيون فى ١٧ ينـاير ١٩٣٥ على أكثرية ساحقة مكنتهم فى شهر مارس من إدماج السار فى ألمانيا . وفى هذا الشهر نفسه أعلن أدولف هتلر أن ألمانيا ترفض المواد العسكرية الخاصة بعـدم تسلحها فى معاهدات صلح ڤرساى ، فأدخل التجنيد الإجبارى فى البلاد ثم مزقت انجلترا وألمانيا من مواد هـذه المعاهدات ما يتعلق بالتسليح البحرى ، ووصلتا إلى اتفاق جديد أجاز لألمانيا إنشاء اسطول بنسبة ٣٥ ٪ من قوة الاسطول البريطانى ثم بناء اسطول من الغواصات مساو لاسطول الغواصات البريطانى . وظنت انجلترا — وعلى رأسها حكومة رمزى مكدونلد فى ذلك الحين — إنها إذا أقامت جبهة متحدة من ايطاليا وفرنسا إلى جانبها لمراقبة ألمانيا النازية فأنها تستطيع ضمان السلم فانشأت جبهة ستريزا Stresa ولكن هذه الجبهة كان مقضيا عليها بالفشل منذ تأليفها . لأن موسولينى عندما انضم إليها كان يرجو فى نظير ذلك أن تطلق يده فى ارض الحبشة . لذلك لم يطل عمر جبهة (ستريزا) أكثر من أسبوعين وغزت ايطاليا بلاد الحبشة.

ولما ترددت الدول فى توقيع « العقوبات » على ايطاليا على نحو جدى ووجد الهر هتلر أن ايطاليا الفاشية بعد أن أصبحت من وقت اعتـدائها على الحبشة وانفصام عرى الصداقة بينها وبين الدول الغربية وخصوصا بريطانيا قد صارت مرتمية فى أحضان ألمانيا ، أقدم الزعيم الألمانى على تحطيم اتفاقات لوكارنو Locarno وأرسل جنده فى مارس ١٩٣٦ لاحتلال منطقة الراين (وهى منطقة تقرر أن ينزع سلاحها منذ ١٩١٩) وأفاد هتلر من هذه المغامرة عندما فشلت الدول الغربية وبخاصة (فرنسا وانجلترا) فى الاتفاق على عمل مشترك فيما بينهما للمحافظة على اتفاق لوكارنو وتعزيزه . ثم لم تلبث أن رفعت « العقوبات » عن ايطاليا فى صيف العام نفسه وكان معنى هذا انهيار عصبة الأمم فكان من أثر ذلك أن جرؤ (أرثر جريزر) Grieser رئيس مجلس شيوخ مدنية دانتزج الحرة ومن كبار النازيين على امتهان العصبة مرة بعد أخرى . وعلاوة على ذلك أفاد هتلر من حاجة ايطاليا إلى صداقته ، فضغطت الدولتان (ألمانيا وايطاليا) على النمسا للحصول من هذه الدولة الضعيفة على عدة امتيازات

فى مصلحة ألمانيا فى صيف العام نفسه . وفى هذا الوقت أيضا شجع الحليفان الجديدان الثورة المندلعة فى أسبانيا ضد حكومتها الجمهورية (٦ يوليه ١٩٣٦) ، فأخذا من ذلك الحين يؤيدان علنا الجنرال (فرانكو) Franco وأنصاره الفاشيين ، بارسال عتاد الحرب والرجال لمساعدة الثوار، ولم تستطع بريطانيا بسبب تردد فرنسا أن تفعل شيئا سوى إرغام هذه الدولة الاخيرة على اتخاذ موقف « الحياد » ، والموافقة على اتباع سياسة « عدم التدخل » فى شئون اسبانيا . أما روسيا السوفيتية فقد ظلت وحدها تمد الجمهورية الاسبانية بالمعونة . وحيال هذا الضعف الظاهر من جانب الدول الغربية ، رأت بلجيكا فى أغسطس ١٩٣٦ أن السلامة فى اتباع خطة « الحياد » ، فانفصلت عن الدول الغربية وأدى انفصالها إلى تقصير خط الدفاع عن حدود فرنسا الشرقية، ومنذ اكتوبر اتفقت كل من ايطاليا والمانيا فى (برختسجادن) على اتباع سياسة مشتركة عمومية . وعندما منعت بريطانيا الحكومة الاسبانية من إثارة مسألة التدخل الايطالى الألمانى فى اسبانيا أمام عصبة الامم جرؤ الهر هتلر على تمزيق البقية الباقية من مواد معاهدات فرساى ؛ حتى إذا ماحذر (بلوم) رئيس الوزارة الفرنسية الالمان من المساس بمراكش الاسبانية أعلن الالمان والايطاليون فى يناير ١٩٣٧ أن المانيا وايطاليا سوف تتبعان من هذا الحين سياسة مشتركة على أساس ماتقتضيه مصالح « محور برلين — روما » الذى خرج إلى عالم الوجود فى (برختسجادن) ؛ فكان معنى هذا قيام محالفة المانية ايطالية صريحة ضد الديمقراطية ثم الشيوعية فى أوربا وفى العالم أجمع . وبذلك تبدأ المرحلة الثانية من مراحل سياسة النازيين الخارجية .

ومما يميز هذه المرحلة وقوع عدة حوادث جسام أدت فى النهاية إلى اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية . فقد ظل الالمان والايطاليون فى الشهور التالية بين يناير ويولية ١٩٣٧ ، وعلى الرغم من الوعود الشفوية المتكررة التى أصدروها لتقرير رغبتهم فى التزام خطة « عدم التدخل » يعملون لتأييد الثوار الفاشيين فى أسبانيا بكل وسيلة حتى ظهر فى أوائل العام التالى أن النصر فى النهاية سوف يكون من نصيب (فرانكو) وجماعته وأن الهزيمة السياسية ولا شك سوف تكون من نصيب تلك الدول الديمقراطية التى التزمت سياسة « عدم التدخل » . وعلاوة على ذلك أفاد النازيون من توتر الموقف السياسى فى أوربا كل فائدة ، فأقدم هتلر على غزو النمسا ، ثم ضمها إلى المانيا عنوة واقتدارا (فى ١١ مارس ١٩٣٨) ؛ وحول النازيون أنظارهم بعد ذلك صوب جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، فأسفر اتفاق ميونخ (فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨) بين بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا عن سلخ بلاد السوديت وضمها الى المانيا . ومع أن الهر هتلر كان قد أكد للمستر تشمبرلين أن السوديت آخر مايطمع

فيه من الأراضى الأوربية ، فإنه مالبث حتى نقض عهده فى مارس من العام التالى وضم مقاطعتى بوهيميا وموراڤيا التشيكية فى حكومة واحدة تحت الحماية الألمانية واحتل سلوڤاكيا . وفى ٢٢ مارس طلبت المانيا أرض (ميميل) من (ليتوانيا) واستولت عليها ؛ وفى أول سبتمبر اعتدت المانيا على بولندة ، ثم قرر هتلر يوم الاعتداء عليها أن يضم مدينة دانتزج الحرة إلى الريخ الثالث .

وكان الاعتداء على بولندة الشرارة التى أشعلت نار الحرب العالمية الثانية ؛ ومع ذلك كفلت وحشية الغزو الالمانى إخضاع بولندة فى وقت قصير لاسيما وقد اضطرت الجيوش الروسية إلى اختراق حدود بولندة الشرقية حتى إذا كان آخر سبتمبر اقتسمت المانيا والروسيا البلاد البولندية فيما بينهما، ثم استطاعت المانيا التفرغ للجبهة الغربية فاكتسحت جحافلها فى ربيع ١٩٤٠ خمس دول مستقلة فاحتلت الدانمرك فى ابريل ، واخضعت النرويج بين ٩ ابريل و١٠ يونيه ، وغزت فى ١٠ مايو تلك الدول التى ظلت محايدة وهى بلجيكا وهولندة ولكسمبرج ؛ وبعد تسليم الملك ليوبولد البلجيكى حطم النازيون مقاومة الحلفاء. فسقطت باريس فى أيديهم فى ١٤ يونيه ثم احتلوا شطراً كبيراً من فرنسا بما فى ذلك شواطئها الشمالية والغربية بمقتضى هدنة عقدت مع فرنسا فى ٢٢ يونيه ، وفى أغسطس ١٩٤٠ بدأت معركة بريطانيا . وفى سبتمبر تدفق الالمان على رومانيا بموافقة حكومتها . وفى ١٩ نوفمبر اجتمع الملك البلغارى بوريس بالهر هتلر فى برختسجادن ، فكان النظام الجديد ، موضع الاحاديث التى دارت بينهما، وأسفر هذا الاجتماع عن تدفق جيوش النازيين على بلغاريا فى فبراير ١٩٤١ ،حتى إذا كان يوم ٢ مارس من العام نفسه ، أعلن (فيلوف) Filoff رئيس الوزارة البلغارية أن الحكومة الالمانية طلبت إرسال جنودها إلى بلغاريا متعهدة فى الوقت نفسه بأن مهمة هؤلاء الجنود وقتية ، وأن الغرض من إرسالهم المحافظة على السلم فى البلقان . بَيْد أنه لم يلبث أن اتضح فى الشهر التالى أن «السلم» المقصود إنما كان اتخاذ بلغاريا قاعدة للهجوم منها على يوغسلافيا واليونان؛ وقد احتل النازيون هذه البلاد مع شركائهم الايطاليين فى أوائل ابريل ؛ وفى مايو احتل الالمان جزيرة كريت ؛ وفى يونيه ١٩٤١ بدأ الغزو الالمانى لروسيا .

٭ ٭ ٭

تلك إذن كانت الحرب الخاطفة . وفيها انتصر الالمان على طول الخط كما شهدنا حتى نهاية عام ١٩٤١ . ولكن هذه الانتصارات كانت ضئيلة القيمة فى الواقع إذ كان الالمان قد خسروا معركة بريطانيا، وكان فى استطاعة الانجليز أن يحشدوا أكبر قواتهم الامبراطورية ، أو يضموا

إلى صفهم الديمقراطيـة الامريكية الـكبرى ، الولايات المتحدة ، ثم غيرها من الشعوب الحرة فى الشرق والغرب . لمنازلة عدوهم فى معركة حاسمة .

ومن جهة أخرى صادف الالمان منذ البداية عدة صعوبات سببتها هـذه الحرب الخاطفة أهمها ، أن كثيرا من مراكز الانتاج الصناعى والزراعى مالبث أن دمر أو تعطل بفعل الحرب، كما أن أسرات عديدة سرعان ماصارت تفر أمام جحافل النازيين الزاحفة على بلادها ، يطلب أفرادها مكانا أمينا يلجأون إليه من شبح الموت الذى يطاردهم ؛ وكان من هؤلاء الحيـارى الفارين كثير من الزراع والصناع الذين هم دعامة الانتاج الاقتصادى فى أوطانهم؛ وعدا هذا فقد فضـل عديدون من زعماء الصناعة فى البلاد المهددة بالغزو والاحتلال مغادرة منشآتهم الصناعية والهجرة إلى الدول المحايدة أوَ المتحالفة ضد المانيا ؛ فنجم من ذلك كله أن حل الارتباك محل الجهد « المنظم » ، وتوقف الانتاج أوكاد فى البلدان المخربة المنهوبة . فماذا يصنع النازيون لتدارك هذه الحال ؟

كان لابد من إصلاح أداة الإنتاج الاقتصادى بأى ثمن لأمور واضحة جلية ؛ فالحرب ما تزال مستعرة الأوار والتعبئة الكاملة تقتضى الانتفاع بكافة الموارد لمواصلة القتال . ناهيك بالرغبة فى إحراز النصر ضد بريطانيا ، ولا يتسنى كل ذلك بغير استقرار تلك الشعوب المغلوبة على أمرها واستكانتها إلى العمل المنتج فى الحقل والمصنع . ولـكن كيف يطمئن المغلوبون إلى التعاون مع الغالبين إذا كان مجرد العيش فى ذلة هو ما ينبغى عليهم أن يطمعوا فيه ؟ لابد إذن من تخدير أعصابهم ؛ ولابد إذن من التمويه عليهم . وكان الحيارى الذين أصابتهم الهزيمة ونزلت بهم الكوارث أشد الناس إقبالا على تصديق كل قول مموه وتعليل النفس بقرب إنقشاع الغمة ؛ وعرف شيطان النازى هذا الضعف فى الشعوب المقهورة فراحت الدعاية تدق الطبول وتنفخ فى الأبواق مبشرة بأن شمس (النظام الجديد) سوف تبدد تلك الحلوكة المخيمة على الدول التى خضعت لسلطانهم .

وما كان النازيون يقصدون من تخدير أعصاب المغلوبين استئنـاف النشاط الاقتصادى وتوفير أسباب التعبئة الكاملة فحسب ؛ بل أن كسب الوقت كان من أهم أهدافهم ، حتى تتوطد دعائم ذلك النظام ، وحتى تمر فترة من الزمن تـكفى لتغلغله فى كيان أوربا الاقتصادى والسياسى. لأن هذا التغلغل من شأنه أن يرغم الشعوب المغلوبة على تعود هذا النوع الجديد من الحياة ، فيكـفل مرور الزمن ورسوخ العادة إخماد المقـاومة رويدا رويدا ويضمن استسلام الشعوب الى العيش فى ظل السيطرة النازية فى النهاية . فاذا ما انقضى زمن طويل على سريان هذا النظام صار من المتعذر على الديمقراطية حتى بعد انهزام الهتلريين وانقضاء دولتهم اجتثاث هذا النظام من أصوله ومحو أثره من الوجود .

وكانت الدعوة إلى النظام الجديد وسيلة مؤاتية تتيح الفرصة باسم المساهمة مع المانيا المنتصرة في تشييدصرح الحضارة الجديدة لأولئك النفعيين من الكويسلنجيين واللاقاليين الذين لاتخلو منهم أمة مقهورة ، ولأولئك المغامرين المكبوتين من الكتاب وأشباه المفكرين الذين إذا فشلوا فى حياة الفكر الحر الطليق وازوّر المجتمع عنهم وأهمل أمرهم تلمسوا فى فلسفة (النظام الجديد) ينبوعا جديداً ينهلون منه — كأنما قد تفتقت أذهانهم هم وحدهم حتى فهموا ما استغلق على غيرهم — ثم انقلبوا يكيدون لأبناء أوطانهم انتقاما لما توهموه غمطاً لمواهبهم وازدراء لثمرات قرائحهم .

وعلى ضوء الاعتبارات السابقة نستطيع أن ندرك لماذا لم تعمل النازية على الدعاية للنظام الجديد فى بداية العراك ولماذا لم يكن النظام الجديد نفسه من أهداف الحرب ، فلم يسمع به أحد إلا بعد انهيار فرنسا وإخفاق الألمان فى معركة بريطانيا . وعلى ذلك فقد بدأت الدعوة لهذا النظام وئيدة وانية فى شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤٠ ولم تبلغ ذروتها إلا فى اغسطس وسبتمبر، وكان الغرض منها اقناع الشعوب المهزومة بأن النازيين إنما يريدون إعادة تنظيم الحياة الأوربية فى عالم مثالى جديد ، وأن بريطانيا هى العقبة الكأداء التى تحول عنادها وإصرارها على المقاومة دون تحقيق هذا النظام ، وأنه لاسبيل إلى تشييد صرح هذه الحاضرة المثالية إلا بالتعاون مع النازيين حتى يمكن أن توضع أسس ذلك البنيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يريدونه للعالم ، وأن من شروط النجاح فى هذا العمل الباهر أن يتم التضامن الوثيق مع المانيا من أجل مكافحة الانجليز وإرغام بريطانيا العظمى على التعاون مع النازيين وأحلافهم فى إقامة هذا النظام والاعتراف بمزاياه وإنها لكثيرة .

الفصل الثانى

النظام الجديد

وهنا يصح للقارىء يسأل وما أمر هذا النظام الجديد ؟ .

ونحن إنما نستمد معلوماتنا عن هذا النظام من كتب النازيين ونشراتهم وصحفهم وما إلى ذلك وفى مقدمة هذه المصادر كتاب (كفاحى) للهر هتلر ويعتبره النازيون ضروريا لتقريب الإشتراكية الوطنية إلى أذهان الجماهير على الرغم من صعوبة أسلوبه وغموض معانيه،وكذلك مؤلفات (الفرد روزنبرج) Rosenberg رسول النازيين وفيلسوفهم الأكبر ومن بينها كتابه فى عام ١٩٢٢ عن مبادىء الحزب الإشتراكى وأهدافه ، وكتابه المشهور فى عام ١٩٣٠ عن « خرافة القرن العشرين » . وقد أعد هذا الكتاب لطبقة المفكرين من «ذوى المواهب العقلية» الذين توسم فيهم النازيون القدرة على إدراك مايدق فهمه على الجماهير من خفايا هذه الوطنية الإشتراكية ، أما كتاب المطالعة أو القراءة الأولية فقد وضع لجماعة الشباب الهتلرى . ومن بين تلك المصادر كذلك كتاب (ارنست برجمان) Bergmann عن « عقائد الدين الجرمانى الخمس والعشرين » ، وبحوث كل من (روبين) Dr Ruppen و (هينكل) Hinkel و (ازوالد شبنجلر) Spengler و (فردريك سيبورج) Sieburg ، والأستاذ (ارنست هوبر Hauer وغيرهم . وكذلك لا ينبغى أن يفوتنا أن نذكر برنامج الحزب النازى نفسه وقد وضع فى عام ١٩٢٠ .

ويتضح مما يذكره جميع هؤلاء الكتاب أن (التعاليم النازية) ترتكز على حقيقة أساسية واحدة ، هى أن الحضارة الحالية يهودية فى صميمها تنكر البطولة وترفض النضال والصراع من أجل الحياة ، فتحرم الإنسان لذلك من صفات النبل والشرف.ولذلك كانت هذه الحضارة التى يقوم عليها النظام اليهودى العالمى فى الوقت الحاضر ملوثة بجراثيم الانحلال وينخر فيها الفساد ولامفر من تحطيمها فى النهاية حتى ينفسح الطريق لقيام نظام آخر معارض لهذا النظام اليهودى المادى . وعلى أساس هذه المغالطة استند النازيون فى رسم تلك القواعد التى شيدوا عليها صرح النظام الجرمانى الجديد فى ألمانيا أولا ومن بعد ذلك فى أوربا .

وخلاصة هذه القواعد أنه كان للوطنية الإشتراكية فضل السبق فى إدراك حقيقة العالم فى وضعه الصحيح ، فهى لذلك صاحبة الحق وحدها فى قيادة الحرب الصليبية أى حربه

الصليب المعقوف من أجل بعث الانسانية وإحيائها وتغيير النظام القائم ، على أن يتم ذلك البعث والتغيير على أيدى جنس بشرى كتبت له السيادة منذ الأزل على بقية شعوب العالم : الأمر الذى لايتسنى حدوثه قط دون ان يطبق ما أسماه النازيون « مبدأ الزعامة » أو « الزعامة المسئولة » Feuhrer Prinzip ومعناه أن تنقاد الحياة فى الدولة لتنظيم عسكرى دقيق من شأنه تركيز السلطة فى شخص زعيم مطلق التصرف يطيعه المجتمع طاعة عمياء . ويكون وحده المسئول عن هذا المجتمع . ويفسر ذلك (فردريك سيبورج) فى قوله « إن الجرمانى يتميز فقط بمقدار الخدمة التى يؤديها للدولة ؛ فلا ينبغى أن يوجد بألمانيا مجرد أفراد عاديين من البشر ؛ وإنما المطلوب هو وجود جرمانيين يفنون أنفسهم فى تأدية هذه الخدمة والدولة التى من هذا النوع تعرف باسم دولة الزعامة Feuhrerstaat وشعارها « أمة واحدة ، ودولة واحدة وزعيم واحد »

ولذلك لم يلبث ؛ زعيم هذه الوطنية الأشتراكية (أدولف هتلر) أن نال بفضل مبدأ الزعامة المسئولة ، حقا مقدسا يتحتم بمقتضاه على كل جرمانى أن يدين له بالطاعة العمياء وينفذ إرداته دون مناقشة . وقد وضح ذلك (هانز فرانك) Hans Frank وكان من فطاحل القانونيين النازيين — عندما قال فى خطبة له فى اكتوبر ١٩٣٥ : « أن الاعتراف بقدسية القوانين التى يوقع عليها أدولف هتلر باسمه لهو أعظم واجباتنا إطلاقا لأنها مستلهمة من روح الأمةالجرمانية ذلك أن الله وحده أعطاه السلطة فهو لذلك الرسول الذى أرسله الأله ليذود عن حقوق الجرمان فى العالم » بل لقد تطرف النازيون فى هذا الخلط إذ أكد (فابريكوس) Fabricus أن الزعيم هتلر إنما ينتمى إلى « أولئك الذين ينفذون إرادة الله ويحققون حياة السيد المسيح فى هذه الحياة الدنيا على نحو منقطع النظير »

ومن أسس التعاليم النازية كذلك أن الجرمان هم سادةالجنس البشرى وهم أولئك الذين قدر لهم من الأزل أن يؤلفوا الطبقة الحاكمة فى العالم ، ويعتمد النازيون فى ذلك على أن الشعب الجرمانى أرقى الأجناس البشرية وأنقاها قاطبة . ورغبة فى تدعيم هذه السيطرةالعالمية ابتدع النازيون ما أسموه « نظرية الدم » وبمقتضاها وزعت أجناس البشر طبقات ومنازل . فوضعوا فى الطبقة العليا الجرمان أهل الريخ الألمانى (Reichdeustche) ، ويليهم فى نفس الطبقة العليا الجرمان الذين لايعيشون فى الريخ ويعرفون باسم « الأقرباء » (Volksgenosse) أو (Volksdeutsche) . ويأتى بعد هؤلاء النورديون الخلص ، (أمثال الدانمراكيين والنرويجيين والسويديين) ، ثم النرلنديون والنورمانديون ، ثم الانجلو سكسون وغيرهم من « الأقرباء » التيوتون ؛ أما الطبقة السفلى فقد وضعوا فيها الزنوج ، ثم وزعوا فيما بين هاتين

الطبقتين العليا والسفلى بقية الأجناس الأخرى بالترتيب التالى : الطورانيون،ومنهم الأتراك والهنغار ، ثم المغول ومنهم الفن والبلغار ، ثم الأجناس الخليطة مثل الرومانيين ، ثم السلاف ثم اليهود ، ثم شبه الزنوج .

ومما تجدر ملاحظته أن النازيين أخرجوا من هذا التقسيم الكلت واللاتين ، على أن يجرى اختيار الطبقة التى يليق فى نظر النازيين وضعهم فيها حسب الظروف ومقتضيات الأحوال مسترشدين فى اجراء هذا الاختيار بأمور ثلاثة : هى وثوق الصلة والقرابة التى تربط بين هذين الجنسين والأجناس التى تتألف منها الطبقة العليا ثم درجة نقاوة الدم وأخيرا مقدار استعداد هذين الجنسين لممارسة شئون الحكم .

وعدا هذا أنكر النازيون أن آسيا والشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض كانت جميعها مهد الحضارة ، بل ادعوا أن أقدم ثقافات العالم إنما ظهرت فى البقاع النوردية،أى فى طرف بحر البلطيق الغربى ، ولذلك سهل عليهم الإدعاء بأن عبقرية الجنس الجرمانى ونشاطه أو حيويته هما وحدهما اللذان أخرجا إلى الوجود كل ما كان ذا قيمة فى عالم الفن والعلم والصناعة . وفضلا عن ذلك سوغ النازيون فكرة السيطرة الجرمانية بادعائهم أن الجرمان من الناحية البيولوجية الصرفة أصلح الأجناس قاطبة للنضال من أجل البقاء ، ومن شأن هذه الصلاحية ذاتها أن تمكنهم فى النهاية من السيطرة على العالم أجمع ، فالأقدار وحدها إذن هى التى اختارت الجنس الجرمانى لهذه السيطرة .

وقد ترتب على القول بوقوع الاختيار على الجرمان منذ الأزل لممارسة هذه السيطرة العالمية أن أصبح من الواجب على الجرمانيين ألا يعترفوا بغير قانون واحد هو ذلك القانون الجرمانى الذى يخول هذا الجنس المختار ان يفعل كل ما يحقق فى النهاية دعم السيطرة الجرمانية العالمية ، مهما كانت هذه الفعال مخالفة للقواعد الخلقية والأحكام القانونية المعروفة ، بل رفض الجرمان أن يعترفوا بهذه القواعد والأحكام بدعوى أنها من مخلفات الحضارتين الرومانية والمسيحية وكل منهما فى نظر النازيين حضارة منحلة تمسكت بها أجناس وضيعة ولا يمكن أن يسترشد بمبادئها الجنس الجرمانى الرفيع الشأن سواء أكان ذلك فى حياته الدخلية أو فى علاقاته الخارجية مع الدول وسائر الأمم . وإلى جانب هذا ،اعتبر النازيون أن الغرض من كل نشاط خارجى إنما هو تعزيز الكيان الجرمانى الداخلى ، حتى يستطيع الريخ أن يبذل بفضل القوة التى يكسبها نشاطا خارجيا جديدا لا تلبث ثمرة نجاحه أن تندمج فى الكيان الجرمانى الداخلى فيبذل الريخ بفضل ذلك نشاطا خارجيا أقوى ، وهكذا يستمر هذا النشاط قويا مجددا حتى يتم للجنس الجرمانى « المبجل » احراز السيطرة على العالم . أى أن التنظيم الداخلى فى نظر النازيين

كان حجر الأساس فى بنيان « دولة الزعامة » والاداة التى لاغنى عنها لتحقيق السيطرة الجرمانية العالمية .

وقد استرشد النازيون فى هذا التنظيم الداخلى بقواعد مرسومة أهمها ضرورة استخدام جميع القوى البشرية والمادية الموجودة فى الدولة واستغلالها إلى أقصى حدود الاستغلال ، وذلك لتهيئة أداة الحرب والقتال التى تمكن الجرمان من الاستيلاء على الأرض التى يدعى النازيون أن من حقهم أن يملكوها ، ثم توطيد مركزهم كأسياد مسيطرين على هذا العالم . وكان معنى ذلك أن يعبىء النازيون جميع الأيدى العاملة ثم أدوات الصناعة والزراعة وسائر وسائل الانتاج فى الدولة وهو عمل شاق جسيم ما كان يستطيع النازيون أن يقدموا عليه دون الالتجاء إلى الحيلة والدهاء تارة والقسوة الصارمة والغدر تارة أخرى حتى يزيلوا ما يوجد من عقبات داخلية قد تحول دون تنفيذه .

وعلى ذلك فقد اصطنع النازيون الاعتدال فى أول الأمر مع مخالفيهم من المواطنين الذين لم ينضووا تحت لواء الوطنية الأشتراكية . وأفاد النازيون من هذا الاعتدال المصطنع لأنهم كما سبق القول لم يكونوا بالأغلبية التى تستطيع الأنفراد بالحكم عند وصولها إليه كما استطاعوا عن طريقة تسخير جميع الأيدى العاملة والانتفاع بموارد الثروة التى كان يملكها رجال الصناعة والمال ولم يكن هؤلاء قد أدركوا بعد جسامة الخطر الذى يتهددهم وكان غرض النازيين من تسخير هذه القوى إعداد آلة الحرب اللازمة لتنفيذ برنامجهم .

وفى سبيل تهيئة وسائل الحرب استرشد النازيون فى إدارة شئون الدولة بمبدأ الاكتفاء الذاتى أو الأوتاركية الاقتصادية Economic Autarchy حتى تستطيع الدولة فى وقت الحرب مقاومة الحصر البحرى إذا استلزمت ذلك خطة الدفاع وحتى تجد من المواد الداخلية المستمدة من انتاج الأرض ما يكفيها إذا اتخذت خطة الهجوم . أضف إلى هذا أن الأوتاركية الاقتصادية من شأنها إيجاد « الموازنة » بين العوامل الداخلة فى تكوين الدولة الاقتصادى ، فلا تصبح الدولة صناعية صرفة أو زراعية صرفة وقد عارض النازيون فى أن تظل دولة الريخ صناعية صرفة لأن النازية نظرت دائما إلى الزراعة كعمل حيوى لتربية العقل السليم فى الجسم السليم وهى تربية ضرورية لإنشاء ذلك الجنس وتلك الطبقة من السادة الجرمان الذين كان من حقهم ممارسة شئون الحكم والسيطرة على العالم دائما .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن العمل بمبدأ الاكتفاء الذاتى يحرم على النازيين إنشاء الصلات التجارية مع العالم الخارجى وبخاصة لأنهم كانوا يخشون أن تؤدى هذه الصلات إلى ضياع ذلك الخلق الجرمانى « الرفيع » الذى يميزهم من غيرهم كأمة . ومع ذلك أجاز النازيون التجارة

ومع العالم الخارجى فى حالات معينة أهمها أن تكون هـــذه التجارة وسيلة يتمكن النازيون بفضلها من تجهيز أداة الحرب وإعدادها بكل سرعة ثم تحقيق (الاكتفاء الذاتى) نفسه وذلك إما بافتتاح الأقاليم الغنية بالموارد الطبيعية التى كانت تنقصهم ، وإما بتهيئة الوسائل لإنتاج ما يمكن أن يستعيضوا به عن تلك الأشياء التى لم توجد فى داخل دولتهم ، وهذا فضلا عن جلب الكماليات التى قد يطلبها الشعب لمجرد الترفيه عن نفسه كاللبن مثلا ، ثم إجاز النازيون الاتجار مع الأمم الأخرى إذا نجم من ذلك ربح لهم أو توقعوا إصابة هدف سياسى معين من وراء هذه التجارة .

وكان من قواعد التنظيم الداخلى كذلك أن توجد الدولة مجتمعا من أفراد متجانسين فى تركيبهم الجثمانى والعقلى وتعمل للمحافظة على كيانه وضمان رقيه وذلك حتى تحقق غرضا أسمى بفضل إشرافها على التربية والتعليم هو تنشئة إجيـال جديدة من الشباب القادرين على حمل السلاح وبذل النفس فى سبيل تأدية الرسالة الجرمانية على خير وجوهها وحرص النازيون لذلك على أن ينشئوا شبابهم تنشئة صارمة حتى يصبحوا قساة غلاظ الأكباد لا يعرفون شفقة ولا رحمة وأصحاب عجرفة وعنجهية وكبرياء لا تلين قلوبهم الصلدة لعاطفة حب أو صداقة . بل إن النازيين كان يشترطون الالتحام فى المعارك الدموية كآخر مرحلة من مراحل التعليم والتربية لتنشئة أولئك الرجال الأفذاذ (Supermen) الذين تتألف منهم طبقة الأسياد المعدة للحكم والسيطرة وكانت الأعمـال اليدوية الوضيعة من نصيب تلك الشعوب المسخرة المغلوبة على أمرها .

ومع أنه كان من واجب الدولة على حد قول النازيين المحافظة على كيان المجتمع وضمان رقيه فقد كان من رأيهم أن على الدولة أن تضحى بهذا الواجب المزدوج إذا دعت الحاجة الملحة إلى إنصرافها بدلا من تحقيق هذه الغايات إلى امتلاك تلك الأراضى التى كان من حق الجنس الجرمانى أن يمتلكها فى سبيل الوصول إلى السيطرة العالمية .

* * *

هذه إذن كانت أهم القواعد التى بنى عليها النازيون صرح النظام الجديد فى أوربا ؛ ومن الواضح أنهم كانو يعتبرون الجنس الجرمانى أرقى أجناس البشر إطلاقا وأنقاها دما . ومن حقه بفضل هذه الرفعة ونقاوة الدم أن يتمتع بالسيطرة على العالم ولا بد للوصول إلى هذه السيطرة من تسخير سواد الأمة الألمانية لخدمة طبقة السادة الممتازين أصحاب الحكم فى الدولة ثم تسخير سواد الشعوب الأوربية وشعوب العالم جميعها لخدمة الجنس الجرمانى وكانت دعامة هذا النظام الجديد ومساك حياته « الزعامة المسئولة » أى تلك الزعامة التى كانت مسئولة فى

داخل الريخ عن الشعب الألمانى ، وفى خارج الريخ عن بقية شعوب العالم فى النهاية . وهى زعامة تقوم على أساس الطاعة العمياء لشخص الزعيم فى جميع التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الريخ وفى أوربا وفى العالم ؛ وأما رسالة الجنس الجرمانى فكانت لا تقتصر على تقويض أركان الحضارة الرومانية المسيحية فى أوربا بل تريد أن تفرض على الإنسانية نوعا جديداً من الحضارة التى عرفوها باسم حضارة الصليب المعقوف أو حضارة الأرض والدم ، الأرض التى تخلق العقول السليمة فى الأجسام السليمة والدم الذى يخول الجنس الجرمانى حق السيطرة العالمية .

* * *

وكان النازيون يعتقدون أنه لا معدى لهم عن إخضاع القارة الأوربية لسيطرتهم الجرمانية حتى يتسنى لهم أحراز السيطرة العالمية واستندوا فى ضرورة إمتلاك القارة إلى أنه كما تحتم عليهم أن يقيموا فى داخل ألمانيا كتلة صلدة متماسكة قوية تمكن الريخ من احتلال ذلك المركز المعد له فى أوربا ، فانه تحتم عليهم كذلك أن يضموا إلى هذا الريخ أرضا شاسعة فى القارة الأوربية ذاتها حتى يؤلفوا من هذه الممتلكات كتلة أخرى صلدة متماسكة تمكن الجرمانية من فرض سيطرتها التامة على سائر أنحاء العالم . لأن النازيين كانوا يعتبرون أوربا مركز العالم أو المحور الذى يشد إليه ويجذب حوله أقاليم الأرض وبلدانها بفضل الروابط التاريخية والثقافية والاقتصادية والصناعية والعسكرية التى ربطت بين أوربا وكل أقطار العالم .

ولذلك فكر فلاسفة النازيين وجهابذتهم تفكيرا طويلا عميقا فى الطرق والوسائل التى يجب أن يتبعوها من اجل « جرمنة » القارة الأوربية وأسفر هذا التفكير الطويل العميق عن نظرية عرجاء مشوهة هى نظرية « الحكم بحق الدم » وهى تكمل فى الحقيقة نظرية «الزعامة المسئولة » ومعناها أن تكون السيطرة الحكومية فى جميع البلدان المفتتحة والتى خضعت لقواعد النظام الجديد من نصيب الجنس الجرمانى وحده فيباشر أبناؤه شئون الحكم بها ويحرم أهلها فى الوقت نفسه من ضمانات القانون الألمانى والأنظمة الألمانية التى وضعت لصون نقاوة الدم والشرف الألمانى . وكان ذلك منشأ الصلة بين هذه النظرية ونظرية الدم السابقة بيد أنه مما تجدر الإشارة إليه أن السادة النازيين ما كانوا يقصدون فى يوم من الأيام تطهير أو تنقية دماء تلك الأجناس الوضيعة غير الجرمانية لأنهم امتنعوا عن إدماجها فى الجنس الجرمانى « المبجل » .

وعلى ذلك فقد سلك النازيون عند محاولة «جرمنة» أوربا طريقين ، فقد ميزوا بين المناطق التى يقطن بها جرمانيون أنقياء الدم وما زالت واقعة خارج حدود دولة الريخ الثالث وقتذاك

والمناطق التى تقطنها شعوب غير جرمانية ، فسموا الأولى (المناطق المفقودة) ، أى تلك التى خسرها الجرمان فى العصور السابقة وبات من واجبهم أن يعيدوها إلى أحضان الجرمانية ويدمجوها فى الريخ الألمانى بشريطة أن يجرى ذلك من غير إعداد أو تهيئة سابقة فتسرى عليها القوانين الألمانية مباشرة وتخضع بمجرد هذا الاندماج لجميع الأنظمة النازية . وأما عند جرمنة المناطق الأخرى فقد وجدوا من الضرورى إجراء إعداد وتهيئة سابقة قبل إدماج هذه المناطق فى الريخ الألمانى نهائيا . واتبع النازيون فى ذلك عملية ذات شبه كبير بما يعرف بنظام الدوائر ذات المركز الواحد ، وتفسير ذلك أن النازيين كانوا يبدءون باعتبار الريخ مركزا لدائرة أولى يضم محيطها عدة أقاليم تقطن بها أجناس غير جرمانية فصاروا يعملون لإعداد وتهيئة هذه الأقاليم الواقعة فى داخل محيط الدائرة حتى إذا ما فرغوا من ذلك أدمجوها فى مركز الدائرة وهو الريخ الألمانى واستطاعوا بفضل ذلك أن يؤلفوا من الريخ والأقاليم المندمجة فيه مركزا ثانيا لدائرة أخرى جديدة أجروا بداخلها نفس العملية وهكذا دواليك حتى يتمكنوا من « جرمنة » شطر من القارة الأوربية قبل أن تنزل بساحتهم الهزيمة .

وكان الأسلوب الذى اتبعه النازيون فى تهيئة وإعداد الأقاليم التى أرادوا إدماجها فى الريخ الألمانى سهلا قوامه ضمان سيادة الجنس الجرمانى أولا ثم ربط هذه الأقاليم بالريخ الألمانى ربطا وثيقا من الناحية الاقتصادية على أساس أن يكون الغنم كله فى نصيب الألمان والغرم كله واقعا على الأهلين الذين صاروا يسخـّرون فى خدمة الريخ . وفضلا عن ذلك فان النازيين ما كانوا يتورعون عن استخدام جميع الحيل والطرق الشيطانية لإبادة العناصر الأجنبية فى الأقاليم التى أرادوا إعدادها قبل إدماجها فى الريخ ، فكان من وسائلهم تلك الهجرة الاختيارية التى أسفرت عن « إرغام » اليهود على مغادرة ألمانيا ؛ ثم اقتلاع أسرات بأكملها من مواطنها بقضها وقضيضها للعيش والعمل فى مناطق غريبة بعيدة كما فعلوا مع التشيك واليهود فى بقية أوربا ؛ ثم إقفار البلاد من أهلها وسكانها وذلك بمنع النسل أما بالتفرقة بين الزوج وزوجه على غرار ما فعلوا مع البولنديين عندما نقلوهم للعمل الانتاجى فى الريخ ، وأما بتعقيم الأفراد تعقيما إجباريا ، أو العمل بنصيحة فلاسفة النازيين أمثال (بانز) Banse و (جونثر) Geunther وغيرهما ممن أشاروا باستخدام الطرق العلمية لتقليل العناصر الأجنبية أو إبادتها وكان غرضهم من ذلك التخلص من البولنديين وإفناءهم ، ومن هذه الطرق قتل المرضى وذوى العاهات بدعوى الاشفاق عليهم من أن تستبدبهم الآلام على نحو ما فعلت ألمانيا مع الأشرار والمعتوهين والمرضى الميئوس من شفائهم وغير المرغوب فى وجودهم عموما واستطاع النازيون أن يقتلوا حوالى مائة ألف شخص فى داخل الريخ نفسه فى مدة عامين (١٩٣٩ ، ١٩٤٠)

وتولى هذا العمل الرهيب رجال الجستابو فاختاروا مراكز هذه المجزرة فى البلدان الثلاثة الآتية : (جرافنيك) Grafeneck بالقرب من (شتوتجارت) ، (هارثيم) Hartheim و (بيرنا) Pirna بالقرب من درسدن .

وكان من أثر هذه الأساليب الجهنمية أن انتشرت « موجات الانتحار » التى ذهب ضحيتها كثيرون فى بلدان أوربا المقهورة . من ذلك ما جاء فى جريدة (لونوفوطان) البارسية فى عدد ١٦ يناير ١٩٤١ أن حوالى نصف سكان بلدة (أبفيل) Abbeville القريبة من ساحل القنال الانجليزى لقوا حتفهم فى موجة انتحار غريبة جعلت هؤلاء المنكوبين يلقون بأنفسهم فى نهر (السوم) أو يختفون من عالم الوجود دون أن يتركوا أثرا وراءهم وقد اتضح بالكشف الطبي على بعض الجثث التى أمكن العثور عليها فى النهر أن الوفاة إنما حدثت من جراء ضربات شديدة على الرأس بآلة ثقيلة ، أى أن الوفاة لم تكن بسبب الغرق .

* * *

وقد كسب الألمان الجولة الأولى من معركة السيطرة على أوربا وفى أثناء الأعوام الثلاثة الأولى من إنتصارهم ظهر كأنما قد توطدت أركان قلعتهم الأوربية نهائيا فمضوا يطبقون النظام الجديد فى البلدان التى افتتحوها وإحتواها الريخ الثالث ضمن حدوده .

وظهر عند تطبيق النازيين هذا النظام الجديد أنه كان يشتمل على ناحيتين إحداهما سياسية والأخرى اقتصادية يتممان بعضهما بعضا وهدفهما المشترك فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوربية ، مستندين إلى ذلك التراث التاريخى القديم الذى انحدر إليهم من دولة الجرمان العتيدة ذات السيطرة على أوربا فى العصور الوسطى . وعلى ذلك فقد ارتكزت الفكرة الرئيسية التى قامت عليها « جرمنة » أوربا على جوهر التنظيم الأوربى فى تلك العصور . فقد أنكر النازيون أن العالم الأوربى استطاع خلال القرون العشرة الماضية أن يقطع شوطا بعيداً فى تكوينه الاقتصادى والسياسى حتى ظهرت تلك الدول التى جمعها إطار الخريطة الأوربية فى عام ١٩٣٩ ، وهى الدول التى بنت وجودها فى الحقيقة على قيام (الدولة الوطنية) منذ أن أخذ فى التصدع كيان العصور الوسطى السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وعلى وجه الخصوص منذ بزغت شمس القرن السادس عشر . فمن أقوال (الفريد روزنبرج) المشهورة « كانت الدولة الوطنية المثل الأعلى الذى أرادت أن تحققه الثورة الفرنسية . أما الثورة الوطنية الاشتراكية العظيمة (أى الثورة النازية) فقد تمخضت عن مولود جديد ، هو الأمبراطورية الجنسية . . . ولذلك ينبغى أن تزول الدولة الوطنية من الوجود أو تتحول إلى امبراطورية قوامها الجنس وحده » .

ولما كان النازيون ينقمون على الحضارة الأوربية أنها يهودية مادية ويريدن إزالتها ، فقد سهل على الدعاية النازية كخطوة تمهيدية ، وفى سبيل الدعوة إلى السيطرة الجرمانية أن تمجد تراث العصور الوسطى على اعتبار أن الحضارة فى تلك العصور بلغت أوجها فى الفترة التى ظل الجرمان فيها قوام الأمبراطورية الرومانية المقدسة . فذكرت إحدى صحفهم (Deutsche Allegemeine Zeitung) فى عدد ٢٧ يناير ١٩٤١ « لا نجد نحن الألمان مايخجلنا من العصور الوسطى ؛ بل على العكس من ذلك كانت تلك العصور فترة من الزمن تثير الاعجاب وتدعو حقا إلى الفخر بها لأنها أنتجت نوعا من الحضارة أو الثقافة الممتازة وهذا على الرغم من ذيوع بعض الآراء الطريفة التى نجح الانجليز فى الإيحاء بها إلى الأمريكيين عن هذه العصور ، حتى انطبعت فى أذهان هؤلاء كأنها حقائق ثابتة » . وقبل ذلك ببضعة أعوام ذكر (ملرفان در بروك) Moeller Van Der Bruck فى كتابه الذى ظهر عن المانيا وأمبراطوريتها الثالثة ، فى عام ١٩٣٤ « نحن لا نفكر فى أوربا القائمة اليوم لأنها حقيرة وتافهة ؛ ولكننا نفكر فى تلك التى قامت بالأمس ، والتى سوف تقوم فى الغد بفضل ما يمكن انتشاله وانقاذه منها ! نحن نفكر فى المانيا الخالدة على ممر الأيام والدهور ! فى المانيا القديمة ! أى تلك التى مضى ألفان من الأعوام على ظهورها » . وقبل ذلك أيضا ذكر الاستاذ (بانز) Banse فى كتابه عن « المجال والأمة فى عالم الحرب » . ان من واجب النهضة الجرمانية أولا أن تعمل على بعث الروح الجرمانية من الأعماق ثقافيا وسياسيا على أن يكون من غرضها جعل التفكير والحديث والنشاط (أو العمل) جرمانيا خالصا فى الأرض الجرمانية ومن واجبها ثانياً أن تجعل الأرض التى تقطن بها شعوب جرمانية داخلة بأملكها ضمن حدود دولة موحدة قوية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون الدولة الألمانية المعروفة بحدودها المرسومة فى عام ١٩١٤ » .

وفى الواقع أراد النازيون إعادة الخريطة الأوربية إلى ما كانت عليه بين عامى ٩١٨ ، ١٢٦٨ ميلادية أى من وقت قيام أسرة سكسونيا إلى سقوط آل هوهنشتاوفن . فنشروا فى كتاب المطالعة الأولية للشبيبة الهتلرية خريطة بعنوان « الجرمان يحققون وحدة أوربا » . وهى خريطة الإمبراطورية الرومانية المقدسة حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية أى بحدودها الممتدة من جنوبى مملكة الدانمرك فى الشمال إلى أعلى الحذاء الإيطالى فى الجنوب ؛ وتقع فى داخل حدود هذه الإمبراطورية الجرمانية كل من دوقية بوهيميا ومارك (أو عواصم) موراڤيا والنمسا ودوقية كارينثيا وفريزلند ودوقية اللورين . وكل هذه كانت تقطن بها شعوب جرمانية ؛ وفى شرقى هذه الحدود رسم النازيون دوقية بولندة ثم مملكة هنغاريا ؛ وفى الغرب رسموا مملكة

برجنديا . وقد أظهر النازيون فى هذه الخريطة مملكة الدانمرك ودوقيـة بولندة ومملكة هنغاريا ومملكة برجنديا كدويلات أو إمارات تدين بالتبعية والطاعة للامبراطورية الرومانية المقدسة .

هذه إذن كانت الخريطة التى أراد النازيون أن يرسموها للمجتمع الأوربى الحديث لإحياء المجد القـديم على حد قولهم أو لتحقيق سيطرة السادة الجرمان على أوربا . وفى السنوات الثلاث الأولى استطاع النازيون إدراك ما أرادوا إلى حد كبير ، ذلك بأنهم أدمجوا فى الريخ الثالث كل المناطق الجرمانية مثـــل النمسا (التى سميت بالعواصم الشرقية Ostmark) ، والسوديت ودانتزج والممر البولنـدى ، وأقاموا من دانتزج والممر البولندى ما أسموه الأقليم أو المقاطعة الشرقية Ostgebiet ، وأسموه كذلك أقليم الملاحظة أو المراقبـة Warthegau وعينوا عليه حاكما هو (زعيم الأقليم) Gauleiter ؛ ثم أدمج النازيون أرض (أوبين ومالميدى) Oupen-et Malmédy ، وكانت هذه مقاطعة بلجيكية منذ عام ١٩١٩ ؛ ثم اللورين على أن تـكون جزءاً من مقاطعة ألمـانية أسموها العواصم الغربية Westmark . وفضلا عن ذلك عمد النازيون إلى تهيئة كل من لكسمبرج والإلزاس وشلزويج — هولشتين الدانمركية لإدماجها جميعا فى الريخ الألمـانى واتخذوا من التدابير ما يكفل ذلك فأبعدوا العناصر الأجنبية القاطنة بها كاليهود أو الفرنسيين أو البولنديين ؛ ثم جعلوا (الريخمارك) العملة المتداولة قانونا فى هذه الأقاليم وأدخلوا لكسمبرج والالزاس واللورين ضمن سياج ألمانيا الجركى وقد مر بنا كيف جزأ النازيون تشيكوسلفاكيا وأنشأوا من بوهيميا ومورافيا حكومة واحدة وضعوها تحت الحماية الألمـانية . على أن هذه « الحماية » ما لبثت أن أدمجت فى الريخ الثالث ابتداء من أول أكتوبر ١٩٤٠

وكان من أثر الهدنة التى وقعها الألمـان مع الفرنسيين فى غابة (كومبين) Compiègne فى ٢٢ يونيه ١٩٤٠ أن رسمت خريطـة فرنسا على نحو أسفر عن اقتطاع جميع الأرضين التى كانت تقطن بهـا شعوب جرمانية حوالى عام ٩٠٠ ميلادية ، ثم انضمام هذه الأراضى من الناحية العملية إلى ألمانيا . فقد استرشد النازيون باعتبارات عسكرية واقتصادية معينة عندما احتلوا أقاليم السواحل الفرنسية المطلة على القنال الانجليزى والمحيط الاطلنطى ولـكن هذه الاعتبارات وحدها لا تفسر سبب استيلائهم على شمبانيا وبرجنديا وأقليم جبـــال الجورا الصخرية . ومن السهل معرفة السبب الذى دعاهم إلى احتلال هذه الأقاليم إذا روجعت خريطة (شعوب أوربا حوالى سـنة ٩٠٠ م) . وهى خريطة رسمها (شبرد) W. R. Shepherd فى أطلسه التاريخى المعروف ؛ إذ يتضح من هذه الخريطة أن النازيين إنما اقتطعوا من فرنسا جميع الأقاليم التى كانت تسكنها شعوب جرمانية حوالى القرن التاسع الميلادى .

ولم يقف النازيون عند ذلك بل إنهم جزأوا يوغسلافيا ، فأنشأوا دولة كرواتيا الجديدة Croatia فى مايو ١٩٤١ ورسموا لها نفس الحدود التى كانت لمملكة كرواتيا القديمة حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ، ثم أدمجوا فى الريخ أجزاء يوغسلافيا الأخرى التى كانت تابعة للملكة الجرمانية أو الأمبراطورية الرومانية المقدسة فى ذلك الحين وهى كرنيولا Carniola وسلوفينيا .

أما بولنده ، التى كانت فى القرن العاشر الميلادى تدفع الجزية للامبراطورية الرومانية المقدسة أى للأمة الجرمانية فقد أراد النازيون أن يقيموا بها « حكومة » على غرار دوقية بولندة القديمة ولم يكن يقطن بها جرمانيون ولذلك فانه بمجرد إخضاعها واقتطاع تلك الأراضى التى اقتسمتها فيما بينها كل من ألمانيا والروسيا وسلوفاكيا ، أنشأ الريخ مما تبقى من أرضها ، الحكومة العامة لبولندة Le Gouvernement Général ، وعين (هانز فرانك) Hanz Frank حاكما عليها ويعد من فطاحل رجال القانون النازيين ، وكان يشغل وقتذاك منصب وزير العدل فى الريخ الألمانى . ولما كان معروفا أن نظرية نقاوة الجنس الجرمانى تمنع النازيين من محاولة «جرمنة» العناصر الأجنبية فقد أصبح من المتوقع أن تظل هذه «الحكومة العامة» بمثابة دولة بولندية يقطن بها إلى جانب البولندين أولئك اليهود الذين طردهم الألمان من البلاد التى استحوذوا عليها . وخصص النازيون لإقامة اليهود مساحة معينة عند لوبلين Lublin قرب الطرف الجنوبى الشرقى لهذه « الحكومة العامة » واهتم النازيون بتوثيق الروابط الاقتصادية بين هذه « الحكومة العامة » وألمانيا على أساس استغلال مرافق البلاد لفائدة الريخ وتسخير أهلها فى خدمته . غير أنه سرعان ما حدث فى ١٥ أغسطس ١٩٤٠ أن أفصح (هانز فرانك) عن نوايا الريخ الجديدة عندما قال « نحن نقيم الآن فى هذه البلاد وكجرمانيين لن نغادرها أبداً ، ولذلك فإنا سوف نعامل هذه البلاد فى المستقبل كجزء لايتجزأ من ألمانيا الكبرى ، لاغنى عنه لمجال قوتها (Macht-raum) ولن ينظر إليها على أنها أقاليم محتلة فحسب » .

وكان مما دعا النازيين إلى تغيير خطتهم الأولى انهم وجدوا من السهل عليهم بعد انتصاراتهم الساحقة فى مايو ١٩٤٠ ، أن يتبعوا أسلوب « الدوائر ذات المركز الواحد » من أجل جرمنة بعض أجزاء بولندة المتاخمة للريخ ، فأرادوا انشاء كتلة جرمانية من تلك (الحكومة العامة) التى أسسوها ، وذلك بإقصاء وإبادة العناصر البولندية وغيرها من العناصر التى كانت تقطن بهذا المركز الجديد الذى أرادوا انشاءه فضلا عن التمهيد لإعداد دائرة الحكومة العامة قبل إدماجها فى الريخ الألمانى وبناء على ذلك ألغى الألمان فى ديسمبر ١٩٤٠ « الرعوية البولندية » قانونا وأصبح البولنديون فى وضعهم الجديد بمثابة «القصر» أو «المحميين» Schutzgbefohlene ثم مالبث حتى ظهر أثر تطبيق النظام الجديد من الناحية العملية فى فرض ضريبة إضافية قدرها

١٥ ٪ يدفعها البولنديون المقيمون فى الحكومة العامة ، علاوة تلك الضرائب التى تدفعها الطبقتان الأخريان ، طبقة جرمان الريخ Reichdeutsche ، وطبقة الجرمان الأقرباء Volksdeutsche ، أى أن البولندين صاروا هم واليهود فى مستوى واحد ، وكانت هذه الضريبة الإضافية تدعى ضريبة «الموازنة الاجتماعية» (Sozialausgleichsabgabe) وكان الغرض من ذلك أن يدفع البولنديون الضريبة الإضافية على حد قول النازين كنوع من التفكير أو التعويض عن ذلك المركز الوضيع الذى كانوا يشتغلونه بالقياس إلى مركز طبقة الجرمان الرفيعة الشأن ، ولم ينتظر الهتلريون حتى تتم عملية إعداد «الحكومة العامة» لإدماجها فى الريخ الألمانى نهائيا بل عمدوا إلى تجزئة أرضها إلى إقطاعيات أعطيت للنازيين الذى صاروا يؤلفون طبقة «البارونات» على غرار ماحدث إبان العصور الوسطية. ومما عزز هذا التنظيم الاقطاعى، أن العلاقة بين الجرمان (النازين) والشعب البولندى كانت تشبه فى جوهرها علاقة السيد برقيق الأرض فى إقطاع العصور الوسطى ؛ وفضلا عن ذلك فقد اختار النازيون الموظفين الذين أوفدوهم إلى بولندة لتطبيق (النظام الجديد) بها من حثالة القوم ثم تفتق ذهنهم عن اصطلاح جديد أضافوه إلى معجم اللغة الألمانية ، ترجمته الحرفية « صالح أو لائق للخدمة فى بولندة » Polendiensttauglich . وكانوا يطلقونه على كل شخص سيء السمعة يميل إلى الإجرام وإتيان المخازى ؛ فإذا ارتكب أحد الألمان جرما يستحق عقوبة الحبس طبع النازيون على تذكرة تحقيق الشخصية أو بطاقة العمل المعطاة له كلمة « لائق للخدمة فى بولندة أما إذا تكرر إجرامه ألحق على الفور بالخدمة فى بولندة .

* * *

وفى الواقع كان هناك عدا ما ذكرنا أدلة كثيرة ، تشير إلى رغبة النازيين فى الرجوع بأوربا إلى التنظيم الذى كان سائدا خلال العصور الوسطى على أن المهم فى ذلك كله أن هؤلاء النازيين كانوا متأثرين بالاعتبارات التاريخية والسياسية والاقتصادية والعسكرية التى سلف بيانها فأرادوا فتح القارة الأوربية بأسرها : من (نارفيك) شمالا ، إلى بحر إيجه جنوبا حتى يمكنهم إتساع رقعة ممتلكاتهم من امتلاك ذلك المجال الذى عدوه ضروريا لاستمرار حياتهم (Lebens-raum) وقوتهم (Macht-raum) . وقد أدرك هذه الأطماع الظاهرة حلفاء النازيين وأولئك الذين تعاونوا معهم ، فاعترف (موسولينى) فى خطاب له فى ٢٣ فبراير ١٩٤١ بدخول كل من فرنسا المحتلة وبلجيكا وهولندة ولكسمبورج ، واسكندناوه والدانمرك فى نطاق النفوذ الألمانى . وكان هناك ميدان واحد فحسب يستطيع أن يجد فيه مجالا للتوسع

حلفاء النازيين والمتعاونون معهم من أمثال إيطاليا وأسبانيا ولم يكن هذا الميدان سوى القارة الأفريقية .

* * *

إما وقد أفلح النازيون إلى حد كبير فى تحقيق حلم العصور الوسطى ورسموا للقارة الأوربية تلك الخريطة التى مكنهم إنتصارهم من تخطيطها فان معرفة النتائج التى أسفر عنها تطبيق النظام الجديد فى البلدان المفتوحة من شأنه أن يبين مقدار مالحق بالشعوب المقهورة من أذى جسيم فى عهد السيطرة النازية إذ أن تطبيق النظام الجديد من الناحية الاقتصادية خاصة كان معناه سلب الشعوب المغلوبة ونهب كنوزها وتجريدهامن وسائل العيش وحرمانهاحق الحياة فى أمن واستقرار وقد اتبع النازيون عدة أساليب شيطانية حتى يكسبوا سرقاتهم الصبغة القانونية كابتكار ما أسموه سياسة الريخمارك وإصدار أوراق نقد معينة وسك قدر من العملة الصغيرة كى يستخدمها الجنود الألمان فى البلدان التى افتتحوها ثم المطالبة بنفقات الاحتلال الألمانى فى أوربا المحتلة ، هذا عدا أعمال السلب والنهب سافرة كانت أو مقنعة مما يدخل فى قائمة الأسلاب والمغانم .

وكان المقصود من سياسة الريخمارك أن يصبح المارك الألمانى Reichmark العملة المتداولة قانونا فى جميع البلدان التى خضعت لسيطرة النازيين . وذلك حتى يسلب النازيون الشعوب المغلوبة على أمرها وينهبوها . فقد عمد النازيون إلى وضع سعر (المارك) حسب مشيئتهم وأهوائهم يرفعون قيمته أو يخفضونها تبعا لما كان عليه سعر العملة المحلية فى البلدان المفتتحة فتجدهم مثلا فى هولنده ولكسمبرج وأوبين وما لميدى وغيرها يرفعون سعر المارك بدرجة عظيمة حتى تصبح العملة المحلية رخيصة بالقياس إلى الريخمارك مع أنها كانت فى تلك البلدان ذات قيمة أعلى من قيمة المارك الألمانى قبل الغزو النازى . وفى البلدان التى أدمجها النازيون مباشرة فى الريخ الثالث مثل دانتزج والنمسا وغيرها خفض هؤلاء سعر المارك الألمانى حتى تصبح قيمته متساوية مع قيمة العملة المحلية وكان سعر هذه العملة أقل من سعر الريخمارك قبل الفتح الألمانى . ومما هو جدير بالذكر أن رفع الريخمارك وخفضه كان من حيث الشكل عملا قانونيا لا غبار عليه .

وكان المقصود من خفض سعر الريخمارك صون العلاقات التجارية والاقتصادية واستقرار هذه العلاقات بين البلدان التى أراد النازى إدماجها فى الريخ وبين الريخ نفسه ، أما فى غير ذلك من البلدان التى كانوا لايريدون إدماجها فى الريخ فانهم كانوا يقصدون من رفع سعر الريخمارك إعطاء الفرصة للألمان حتى يتمكنوا من شراء منتجاتها بأبخس الأثمان فضلا عن

استطاعتهم أن يبيعوها المنتجات الألمانية بأثمان باهظة ، أضف إلى هذا أن بعض هذه البلدان التى قصد النازيون أن ينهبوها كان يقطن بها عناصر أجنبية كالبولنديين فى (وارثجو) Warthegau والبلچيكيين والفرنسيين فى لكسمبورج والبلجيكيين فى (أوپين وملميدى) وكان هؤلاء يمتلكون الشطر الأكبر من ثروة هذه البلاد المادية والنقدية وعلى ذلك أعطى رفع الريخمارك الفرصة للنازيين حتى يغتصبوا لأنفسهم تلك الثروة بأقل ثمن ممكن ، وعلاوة على ذلك فانه لم يكن يقصد من وضع سعر للريخمارك على هذا النحو الاستيلاء على السلع والمنتجات والغلات الزراعية فحسب بل تمكين الألمان على وجه الخصوص من شراء أسهم الشركات والمؤسسات الصناعية والمالية بأثمان بخسة أى الاستيلاء على شطر كبير من رؤوس الأموال منقولة كانت أو ثابتة كخطوة لاغنى عن اتخاذها فى تلك البلدان المفتوحة تمهيداً لفرض سيطرة الجرمان الاقتصادية على أوربا بأجمعها فى النهاية .

وقد ظهر أثر وضع سعر للريخمارك فى التبادل التجارى كذلك بين الريخ الألمانى وتلك البلاد التى خضعت لسلطان النازيين . فمن المعروف أن التجارة الدولية تؤثر دائماً فى سعر العملة بمعنى أنه إذا زادت صادرات دولة عما تستورده نتج عن ذلك (فائض) فى ميزانها التجارى واعتبر ذلك فى صالحها كما أنه ينهض دليلا على أن السعر يرتفع فى الدولة المستوردة عما هو عليه فى الدولة المصدرة ، وفى ظروف التجارة الدولية العادية ، تسعى الدول التى زادت وارداتها على صادراتها من أجل إعادة الموازنة وإزالة هذا (الفائض) باتخاذ وسائل شتى معروفة من أهمها محاولة زيادة الصادرات وعقد القروض الخارجية والدفع من أرصدة الذهب وغير ذلك . ولكن التبادل التجارى بين الريخ الثالث والبلدان المفتتحة كان يخضع لقواعد أخرى .

فقد عمد النازيون من أيام الفتح الأولى إلى استنزاف جميع منتجات الدول المغلوبة على أمرها لحاجتهم إلى هذه المنتجات صناعية كانت أم زراعية فعظمت صادرات الدول المفتتحة إلى الريخ دون أن تستطيع استيراد شىء يذكر من ألمانيا ونجم عن ذلك أن صار لهذه الدول كافة (فائض) لمصلحة ميزانها التجارى أى أن الريخ الألمانى أصبح — بمعنى آخر — مديناً لهذه الدول بمبالغ طائلة . حتى لقد بلغ دين الدانمرك على الريخ الثالث حتى يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٤١ ٨٤٩ مليون كرونر وهذا فضلا عن قروض من نوع آخر نشأت من قيام الدانمرك بنفقات الاحتلال الألمانى لبلادها وقد بلغت هذه النفقات حتى ٣١ ديسمبر ١٩٤١ حوالى ٩٠٧ مليونا أى أن الاحتلال الألمانى كلف هذه البلاد مدة عام ونصف مايزيد على ١٧٠٠ مليون كرونر . وفى أول يناير ١٩٤٢ بلغ دين الدانمرك على ألمانيا ٢٠٠٠ مليون كرونر .

ومع هذا فقد منع الألمان تلك الدول « المصدرة » التى ظلت دائنة للريخ بأموال طائلة من أن تستورد من دولة أدولف هتلر شيئاً من تلك السلع والمتاجر اللازمة لها والتى كان لا غنى عن استيرادها حتى تتعادل كفتا الميزان التجارى بين الريخ وهذه الدول المغلوبة على أمرها من جهة ، وحتى تستخلص هذه الدول ماكان لها من ديون جسيمة على المانيا من جهة أخرى . وقد ابتكر شيطان النازى وسيلة أخرى للإمعان فى نهب الأمم المقهورة إذ صار الريخ يمتنع عن دفع أثمان السلع المصدرة إليه بدعوى عدم إخراج العملة الألمانية من الريخ واعتاض عن ذلك بأن صار يطلب إلى البنوك المركزية فى البلدان المفتتحة أن تقوم بسداد المطلوب من الريخ لحساب تلك البلاد على شريطة أن يكون الدفع بالعملة المحلية الوطنية نفسها فلا يكون السداد بالريخمارك الألمانى . ولما كانت قيمة الريخمارك تزيد كثيراً على قيمة العملة المحلية حسب السعر الحكومى فى البلدان المنهوبة فقد ترتب على ذلك أن أضحت الأثمان التى يدفعها النازيون للسلع والمتاجر المصدرة إليهم بخسة ضئيلة وعلاوة على ذلك كان معنى تكليف البنوك المركزية بالدفع من الناحية العمليـة خصم هذه الأثمان من حساب نفقات الاحتلال الألمانى التى فرضوها على البلدان المحتلفة وبفضل هذه الأساليب الملتوية صار الألمان يستولون على منتجات البلاد المقهورة ، دون أن يدفعوا شيئا من أثمانها ؛ ولا جدال فى أن هذا العمل كان ضربا من السرقة يستره قناع قانونى زائف .

وكان من خطط النازيين عند فرض السيطرة الجرمانية الاقتصادية على أوربا اتخاذ برلين مركزا للتجاة الأجنبية فى هذه القارة حتى تحتل برلين ذلك المركز الممتاز الذى استمتعت به لندن فى عالم الاقتصاد والمال قبيل الحرب الأخيرة فأصروا على أن تجرى المعاملات التجارية والمالية بين أية دولة وأخرى عن طريق برلين دائما ؛ مثال ذلك أنه إذا كان أحد الهولنديين مدينا بمبلغ من المال لشركة بلجيكية فانه يستحيل عليـه أن يسدد حسابه بالدفع رأسا إلى الشركة البلجيكية ، بل صار حتما عليه أن يدفع هذا الدين بالريخمارك إلى مؤسسة معينة أنشأها الألمان فى برلين لمباشرة جميع العمليات التجارية والمالية الخاصة ببلجيكا فتتولى هذه المؤسسة الدفع بالريخمارك إلى الشركة البلجيكية ؛ أما ما كان يحدث فعلا فهو أن تـكلف هذه المؤسسة (البنك المركزى) فى بلجيكا بأن يقوم هذا البنك بعملية الدفع من حساب نفقات الاحتلال بالطريقة التى سبق بيانهـا . أضف إلى ذلك أن الألمـان كانوا يحتمون على الدول المحتلة التى تتبادل التجارة فيما بينها أن تودع برلين مبلغا من الريخمارك يرصد لحسابها ويستخدم فى أعمال التصفية التجـارية ؛ ويتـكون هذا الرصيد بسبب إرغام هـذه الدول على تصدير منتجاتها إلى الريخ ومطالبتها بتأدية خدمات مالية معينة وأجبارها على إعطاء ضمانات من الذهب والسندات

وما إلى ذلك من وسائل أخرى بيد أن هذه الدول ما كانت تحصل على شىء من الريخ فى مقابل إنشاء هذا الرصيد ذلك بأن الريخ درج دائماً على الدفع عن طريق البنوك المركزية بالأساليب التى سبق ذكرها ؛ على أن الريخ إلى جانب ذلك كله كان يحصل على عمولة كبيرة فى نظير قيامه بهذه العمليات المالية والتجارية بين الدول . فكان من نتائج ذلك كله أنه أصبح من المتعذر على أية دولة من الدول التى خضعت لسلطان النازيين أن تنظم شئون حياتها الاقتصادية على النحو الذى كانت تقتضيه مصلحتها أو بما يمكنها على الأقل من مواجهة مطالب الألمان الاقتصادية والمالية المرهقة .

وثمة ترتيب آخر ابتكره النازيون لصرف مرتبات جنودهم فى البلدان المحتلة . فقد اخترعوا ما أسموه « سندات إذنية عسكرية » Wehrmachtspverflichtung ، وكانت هذه من فئات كبيرة (٥٠,٠٠٠ ريخمارك فما فوق) وتحمل تعهداً بدفع قيمتها . وقصر التعامل بهذه السندات الإذنية العسكرية على البلدان التى تصدر فيها ومنع التعامل بها فى داخل الريخ نفسه كما أنه تعذر تحويلها إلى الماركات الألمانية بالرغم من أن القيمة المدونة بها كانت بالريخمارك . ثم طبع النازيون أوراق بنكنوت أسموها أوراق مكاتب أو بنوك الأقراض الألمانية Reichskreditkassenschiene ومهمة هذه المكاتب أو البنوك إصدار أوراق البنكنوت من الفئات الصغيرة (٥٠ ، ٢٠ ، ٥ ، ٢ ، ١ ، ٠,٥٠ ريخمارك) علاوة عن سك عملة نقدية صغيرة للمعاملات اليومية وكان من المتعذر كذلك التعامل بهذه الأوراق والنقود خارج المنطقة المحتلة التى كانت تصدرها ومن باب أولى الريخ نفسه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن تلك السندات الإذنية وأوراق البنكنوت ما كانت فى الحقيقة إلا وسيلة لإقراض مبالغ معينة للجنود الألمان تمكنهم من شراء منتجات البلدان المحتلة ، وذريعة يتخذها الريخ للامتناع عن صرف مرتبات الجنود بالعملة الألمانية حتى لا تنتقل العملة الألمانية إلى البلدان المفتوحة أو تنفق بها ؛ وفضلا عن ذلك أرغمت (البنوك المركزية) فى البلدان المحتلة على قبول هذه السندات الإذنية والبنكنوت والنقود وتحويلها إلى عملة محلية على أن ترصد فى مقابل ذلك السندات الإذنية العسكرية وغيرها لحساب الريخ الختامى فتخصم قيمتها من نفقات الاحتلال ووعد النازيون بتسوية حساباتهم فى آخر الأمر مع البلدان المحتلة عند انتهاء الحرب . وبلغت قيمة ما أصدرته البنوك المتنقلة فى بولنده فى العامين الأولين من الاحتلال ١٠٠٠ مليون ريخمارك وفى النرويج والدانمرك ٥٠٠ مليون ، وعندما امتدت الحرب إلى الأراضى المنخفضة صدر قرار فى ١٥ مايو ١٩٤٠ أجاز لتلك البنوك إصدار أو « إقراض » ماقيمته ٣٠٠٠ مليون ريخمارك لقوات الاحتلال النازية وهيئاتها فى الدانمرك والنرويج وهولندة وبلجيكا ولكسمبورج وفرنسا ،

فبلغت قيمة ما صدر حتى أواخر عام ١٩٤١ فى جميع البلدان المحتلة — ماعدا تشكوسلفاكيا — ٤٠٠٠ مليون ريخمارك أو حوالى ٣٤٠ مليون جنيه انجليزى . ولم يكن إصدار هذه السندات الإذنية وما إليها يستند إلى غطاء كاف من الذهب أو غير ذلك من الضمانات الثابتة ، ثم ما لبثت كمية الأوراق والعملة المتداولة أن زادت ولكن اختفت من الأسواق السلع والمنتجات ، لأن الألمان كانوا يستولون عليها أولا بأول مما أدى إلى تضخم فى النقد كبير ، ارتفعت بسببه أثمان الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً جعل الشعوب المقهورة وقتذاك تعيش فى ضنك وبؤس شديدين .

وكانت (نفقات الاحتلال الألمانى) من وسائل السلب والنهب التى تفتقت عنها أذهان النازيين فقد استغلت الدعاية النازية فى البلدان المحتلة مسألة تعويضات الحرب التى فرضها الحلفاء على ألمانيا المهزومة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وطفق دعاتهم يتحدثون عن تلك الأضرار البليغة التى أصابت بلادهم بسبب هذه التعويضات ثم أخذوا يطمئنون ، الدول المقهورة بأنهم بالرغم من انتصارهم لايريدون أن يفرضوا أية تعويضات من ذلك النوع عليها بل يكتفون عوضاً عن ذلك بتحصيل النفقات التى يسببها احتلال الجنود الألمان لبلادهم حتى إذا وضعت الحرب أوزارها لم يعد للريخ وجه للمطالبة — كما فعل الحلفاء فى الحرب السابقة — بأية تعويضات عند عقد الصلح النهائى . ولم يكن ذلك كله إلا وعوداً كاذبة لأن الغرض من نفقات الاحتلال كما فرضها الألمان على البلدان المحتلة إنما كان مجرد السلب والنهب . ذلك بأن النازيين لم يقدروا قيمة نفقات الاحتلال على أساس ما كانت تستطيع أن تدفعه البلدان المفتتحة دون إرهاق لمواردها أو تعطيل لمرافقها وإنتاجها ؛ بل أنهم لم يحاولوا اتخاذ مايتكلفه جند الاحتلال الألمانى من نفقات معتدلة كانت أم فادحة أساسا لتقديرهم وإنما قدر النازيون نفقات الاحتلال على أساس ما كانت الدول قبيل انهيارها قد خصصته من أموال فى ميزانياتها للدفاع عن سلامتها فى أثناء الحرب مع العلم بأن النفقات المخصصة للدفاع فى أوقات الحروب إنما هى نفقات غير عادية ويستلزم تقديرها تقليل المصروفات فى أبواب الميزانية الأخرى . وعلى ذلك كانت نفقات الاحتلال التى طلبها النازيون جسيمة مرهقة بلغت نسبتها فى فرنسا مثلا ١٤٠ ٪ من مجموع ميزانية الحرب فى عام ١٩٣٩ ، وفى بوهيميا ومورافيا حوالى ١١٤ ٪ من مجموع ميزانية الحرب فى تشيكوسلوفاكيا للعام نفسه وهكذا كان الحال فى سائر البلدان المحتلة ؛ ويتبين جسامة ما نهبه الألمان بسبب نفقات الاحتلال هذه إذا وقفنا على حقيقة التعويضات التى أرغمت ألمانيا على دفعها بعد صلح فرساى ، فقد بلغ مادفعته إلى الحلفاء المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى ١٠ بليون مارك تقريبا فى مدة سبع سنوات بين عام ١٩٢٤ ، ١٩٣١ ، وذلك

عندما كان الاتفاق الخاص بالتعويضات ما يزال سارياً ؛ ولكن الألمان استطاعوا أن يجمعوا من فرنسا وبلجيكا وهولنده والدانمرك والنرويج وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا فى سنة واحدة من سنوات سيطرتهم على أوربا حوالى ٧ أو ٨ بليون مارك . أى أنهم جمعوا فى عام واحد حوالى ٨٠ ٪ مما دفعه الألمان من « تعويضات » كانت موزعة على سبع سنوات بل إن التعويضات التى دفعتها ألمانيا إلى فرنسا فى خلال هذه السنوات السبع كانت أقل من ٤ بليون مارك . أما النازيون فقد استمروا حتى نهاية الحرب يحصلون مثل هذا المبلغ من فرنسا كل ستة شهور كنفقات احتلال . ومما يجدر ذكره أن ألمانيا فى سنوات التعويضات السابقة (١٩٢٤ — ١٩٣١) استطاعت أن تعقد قروضاً خارجية بلغت ٢٥ بليون مارك ، أى ما يزيد على ما دفعته هى من تعويضات مرتين ونصف مرة . من المعروف أن ألمانيا لم تسدد معظم هذا الدين بل رفضت أن تدفع التعويضات بعد عام ١٩٣١ وزيادة على ذلك منع النازيون فى ظل نظامهم الجديد الدول المحتلة من أن تعقد أية قروض ؛ وظلت ألمانيا متمسكة بنفقات الاحتلال حتى وقت انهيارها .

غير أن كل هذه الوسائل لم تكن كافية لسد جشع النازيين ونهمهم ، فلجأوا إلى حيل أخرى لابتزاز الأموال واغتصاب ثروة البلدان المقهورة وكان من أساليب النهب والسلب التى درجوا عليها مصادرة أملاك العدو ، وقد بلغت قيمة هذه الأملاك فى بولندة مثلا ١٠٠ مليون جنيه انجليزى — والاستيلاء على رؤوس أموال الأعداء المستثمرة فى البلدان التى احتلها النازيون : وقد بلغت قيمة رؤوس الأموال البريطانية وحدها حوالى ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات الانجليزية ؛ والاستيلاء كذلك على أملاك اليهود ومصادرة ثرواتهم وكانت قيمتها فى الريخ الثالث وحده تتراوح بين ٢٥٠ ، ٥٠٠ مليون جنيه انجليزى وفى تشيكوسلوفاكيا حوالى ١٢٥ مليون جنيه انجليزى ؛ هذا إلى مصادرة أموال الجمعيات أو الهيئات التى اعتبرها الريخ معادية له على غرار ما فعلوا فى هولندة بمقتضى قرار أصدروه فى ٦ يوليه ١٩٤٠ — وبجانب هذا كله فرض النازيون الغرامات على المجالس البلدية والسلطات المحلية فى المدن ، مثال ذلك إنهم فرضوا على بلدة (تروندهيم) Trondheim فى النرويج غرامة قدرها ٦٠,٠٠٠ كراون أو ما قيمته ١٣,٠٠٠ دولاد ، نظير ما بدا منها من العداء نحو الجنود الألمان ، كما فرضوا على (لهاى) فى هولنده مبلغ ٦٠,٠٠٠ جلدر أو ٣٠,٠٠٠ دولار مقابل إتلاف ثلاث سيارات عسكرية ألمانية كانت متروكة على قارعة الطريق ؛ وعلى مدينة باريس ٢٠ مليوناً من الفرنكات أو ٤٠٠,٠٠٠ دولار . لأن أحد الأفراد رفع العلم البريطانى فوق أحد الفنادق بدلا من علم الصليب المعقوف ؛ وعلى (أورليان) بفرنسا مليوناً من الفرنكات لتعطيل

أسلاك التليفون ثم تكررت الغرامة ثلاث مرات وللسبب نفسه أجبرت المدن النرويجية (ستافنجر) Stavanger و (روجالند) و (هوجيسند) على دفع غرامات بلغ مجموعها ٥٠٠,٠٠٠ (كراون) .

ولم يكن هذا كل ما نهبه النازيون من البلدان المحتلة . فقد استولى الألمان بمقتضى اتفاقات الهدنة التى عقدوها مع البلدان المغلوبة على أسلاب كثيرة كما أنهم ما لبثوا حتى صادروا الذهب المودع بالبنوك ، فبلغ مقدار ما جمعوه حتى أواخر عام ١٩٤١ حوالى ٩٠ بليون مارك أو ٣٦ بليون دولار أو ٩٠٠٠ مليون جنيه انجليزى . وهذا المبلغ بالذات على حد قول الهر هتلر فى سبتمبر ١٩٣٩ ، يساوى كل ما أنفق على التسليح فى ألمانيا منذ أن وصل النازيون إلى الحكم فى بداية عام ١٩٣٣ إلى وقت سيطرتهم على أوربا .

* * *

ولم تقف أعمال السلب والنهب التى انطوى عليها النظام الجديد عند هذا الحد فقد عمدوا إلى نقل الآلات وأدوات الصناعة بله المعامل برمتها من البلدان المفتوحة إلى الريخ الألمانى ؛ وإرغام (العمال) على الهجرة إلى ألمانيا والعمل فى مناجمها ومصانعها وحقولها ؛ ذلك بأن الألمان كانوا قد أنشأوا منذ ١٩٣٥ ما أسموه (الوحدات المتحركة الاقتصادية) ووضعوها تحت إشراف الجنرال (توما) أحد قوادهم ، وكانت مهمة هذه الوحدات فى وقت السلم أن تقسم ألمانيا إلى « أقاليم دفاعية » (Wehrkreise) بلغت ثمانية عشر أقليما وذلك لتعبئة النشاط الاقتصادى فى البلاد استعداداً للحرب ؛ حتى إذا نشبت فعلا أصبحت مهمة هذه الوحدات المتحركة أن تنقل أدوات الصناعة وآلاتها من المناطق المعرضة للخطر فى داخل الريخ نفسه إلى أماكن أكثر أمناً وكذلك نقل أدوات الصناعة من البلدان المفتتحة إلى الريخ الألمانى ، وقد نجم عن هدم المصانع ونقل آلاتها إلى ألمانيا أن انتشرت البطالة فى البلدان المحتلة وحرم ملايين العمال وسائل العيش فى بلادهم . وابتدع النازيون لحل مشكلة البطالة الطارئة « علاجاً » زاد من بؤس الشعوب المحتلة ، ذلك بأن النازيين كانوا فى حاجة مستمرة إلى الأيدى العاملة لإدارة ومواصلة الإنتاج الحربى فعمدوا إلى إرغام العمال المتعطلين فى بلادهم على « الهجرة » إلى ألمانيا للعمل بمصانعها ، وابتكروا وسيلة شيطانية لإحصاء هؤلاء العمال المتعطلين وإجبارهم على الذهاب إلى ألمانيا وذلك بأن سلطات الاحتلال النازية ما لبثت حتى ألزمت العمال العاطلين أن يقيدوا أسمائهم بسجلات مكاتب العمل نظير إعطائهم (بطاقة بطالة) ينالون بمقتضاها مكافأة معينة يعتاضون بها عما كان يدفع لهم من أجور فى أثناء العمل ؛ وكان العمال لا يستطيعون الحصول على المقادير المخصصة لهم ولأسراتهم من المؤن والأغذية إلا إذا أبرزوا هذه البطاقات

إلى جانب بطاقات التموين العادية المعطاة لهم ، غير أن السلطات النازية كانت تشترط فى الوقت نفسه أن يجد العمال المتعطلون عملا ملائما فى زمن قصير ، وكان ذلك مما يستحيل تنفيذه للأسباب التى بسطناها . وعلى ذلك كان يطلب إلى هؤلاء العمال إما أن يرضوا بالذهاب إلى ألمانيا واما أن تسحب منهم بطاقات البطالة فاذا رفضوا السفر إلى ألمانيا كان من السهل بعد ذلك على مخازن البيع الحكومية أن تتذرع بشتى الوسائل حتى لا تصرف مقادير التموين المخصصة للعامل وأسرته . ولم يكن للعامل أزاء ذلك إلا أن يقبل الذهاب إلى ألمانيا حتى يطرد شبح الجوع عن نفسه وذويه .

وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية الألمانية أن عدد العمال الأجانب فى ألمانيا حتى ٢٧ اكتوبر ١٩٤٠ بلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ منهم حوالى ٥٠٠,٠٠٠ من أسرى الحرب . وفى يناير ١٩٤١ بلغ عددهم ٢,٠٠٠,٠٠٠ . وكان لا يدخل فى عدادهم التشيك لأن العمال من التشيك صاروا لا يعدون من الأجانب بعد إدماج (حماية بوهيميا ومورافيا) فى الريخ الألمانى منذ أول اكتوبر ١٩٤٠ ثم زاد عدد العمال الأجانب فى الريخ بعد أن وافقت إيطاليا فى فبراير ١٩٤١ على إرسال ٣٢٠,٠٠٠ عامل إلى ألمانيا ، وكان من أثر حملة الألمان فى بلاد البلقان أن أسر الألمان حوالى ٥٠٠,٠٠٠ من يوغوسلافيا أرسلوا منهم للعمل فى الريخ ٢٥٠,٠٠٠ ؛ وكذلك جمع النازيون من مملكة كرواتيا الجديدة ٥٠,٠٠٠ عامل وبلغ عدد الأسرى من البريطانيين واليونانيين الذين أرسلوا للعمل فى ألمانيا ٢٣٠,٠٠٠ . فكان عدد الأجانب المشتغلين فى ألمانيا حتى صيف ١٩٤١ بين ٢,٧٠٠,٠٠٠ و ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل يضاف اليهم عدد من التشيك وأسرى الحرب الذين كانوا يشتغلون بعض الوقت فقط

وكان هؤلاء جميعاً يعملون فى ظروف قاسية مرهقة إذ أن متوسط ساعات العمل فى الأسبوع الواحد بلغت حوالى ستين ساعة على أقل تقدير وكان العمال يقيمون فى ثكنات ثم طلب اليهم أن يدفعوا من أجورهم الضئيلة نفقات السكن والطعام عدا بعض الضرائب المحلية والتأمين ضد المرض والحوادث وما إلى ذلك . وأما إذا استطاع العامل بعد هذا كله أن يرسل شيئا من المال لمساعدة أسرته فان حكومة الريخ كانت تستولى على ما يرسله ثم تكلف بنوك الدول المحتلة بدفع ما تساويه هذه المبالغ من العملة المحلية .

ولعل اقسى مافى هذه المسألة أن الألمان كانوا يرسلون هؤلاء العمال الأجانب إلى المناطق المعرضة لغارات الطائرات البريطانية ، وقد ذاق العمال الدانمركيون الأمرين بسبب اشتغالهم فى مصانع وأحواض (لوبيك) و (همبورج) وغيرها . بل أن الألمان ما كانوا يسمحون بوقف العمل حتى فى أثناء الغارات وهلك بسبب ذلك عدد عظيم من العمال الهولنديين بميناء (همبورج) فى إحدى الغارات الشديدة فى نوفمبر ١٩٤١ . أما النازيون فقد فسروا هذه الكارثة بقولهم « إن هؤلاء العمال كانوا متعبين إلى حد لم يدع لأحد منهم فرصة لمغادرة المكان والالتجاء إلى المخابىء » .

الفصل الثالث

أوروبا « الحرة »

طبق (النظام الجديد) أول ما طبق فى البلدان المحتلة وكان ينطوى على ضروب من السلب والنهب حرص النازيون على أن يصبغوها بصبغة قانونية ولذلك فقد بات من المتوقع ألا تخضع الشعوب المقهورة لسيطرة النازيين ، وأن تعمل على تقويض أركان النظام الجديد الذى فرضه الألمان عليهم بشتى الطرق ؛ وقد سبق القول أنه كان من أهداف الدعاية النازية استمالة بعض العناصر فى البلدان المحتلة إلى التعاون مع النازيين فى سياسة النظام الجديد بدعوى المساهمة فى تشييد صرح ذلك العالم المثالى الذى يكفل تحت زعامة الريخ الثالث كل طمأنينة وعيش سعيد للشعوب الأوروبية كافة . ومع أن النازيين قصدوا من هذه الدعاية دعم السيطرة الجرمانية على أوروبا ، ثم على العالم أجمع ؛ ومع أن تطبيق النظام الجديد أسفر قبل كل شىء عن نهب هذه الشعوب المقهورة وتسخيرها فى خدمة «السادة» الجرمان ، فقد أفلح النازيون فى تصيد طائفة من المغامرين الذين قبلوا التعاون معهم فى كل بلد فتحوه . فقد وجدوا فى فرنسا أنصارا يؤيدونهم بزعامة (لافال) و (دارلان) ومارسيل ديا Déat ؛ ثم فى النرويج الميجر فيدكون كويسلنج Vidkun Quisling ؛ وفى تشيكوسلفاكيا الكولونيل مورافيش Moravec والدكتور فوسيك Fousek وغيرهما ؛ فى يوغسلافيا الجنرال نديش Nedié (عن سربيا) والدكتور بافليش Pavélic (عن كرواتيا) ؛ وفى هولندة الدكتور مسرت Mussert ؛ ثم فى الدانمرك كلا من فريتز كلوسن Frits Clausen ، والدكتور سكڤينوس Scavenius (وزير الخارجية) وپيترسن Petersen (وزير العدل) ؛ ثم فى اليونان تسولاكجلو Tsolakoglu.

غير أنه إذا استثنيت فرنسا حيث كان يحاول الماريشال (پيتان) و (لاقال) و (ديا) استمالة شطر كبير من الشعب الفرنسى للتعاون مع الريخ الثالث ، لأصبح عدد الكويسلنجيين فى كل بلد من البلدان المفتوحة والمحتلة لا يزيد فى الحقيقة على ٥ ٪ من مجموع سكانها بل إن هذه النسبة تقل كثيراً فى بولندة وتشيكوسلفاكيا وسربيا واليونان والنرويج ودول البلطيق فلا يزيد فى هذه الدول عدد المتعاونين مع النازى على ١ ٪ من السكان . وفى بولندة على وجه الخصوص لم يستطع النازيون استمالة أحد إليهم ، فلم يجدوا بها غير الجرمان الأقارب

Volksdeutsche على استعداد لمؤازرتهم . والاوكرانيون وحدهم هم الذين كانوا يميلون إلى التعاون مع الهر هتلر .

ولذلك لم يكن سواد الشعب فى هذه الدول المغلوبة على أمرها يوماً من الأيام قانعاً بالعيش الذليل فى ظل الاستغلال النازى المرهق ، والأدلة على ذلك متوفرة ، فهناك الصحف النازية نفسها فى الريخ وفى البلدان المحتلة والمفتوحة كانت تشكو مر الشكوى من امتناع الشعوب المقهورة عن التعاون مع الريخ فى دعم أركان النظام الجديد ؛ كما كانت هذه الصحف تنشر بعض أخبار المقاومة المنظمة لتعطيل الإنتاج الإقتصادى على وجه الخصوص ؛ ثم هناك الأخبار والنشرات التى كانت تتسرب إلى العالم الخارجى ؛ هذا إلى جانب ما يقصه عدد من سعداء الحظ الذين أفلتوا من معسكرات الاعتقال أو من قبضة الجستابو الملطخة بالدماء .

ومن هذه المعلومات كافة يتبين أن مقاومة هذه الشعوب المقهورة كانت على نوعين : إيجابية وسلبية .

فقد اهتم الغزاة الألمان دائماً من بداية الفتح ، فى البلدان التى سقطت فى قبضتهم بتجريد الجيوش الوطنية والمدنيين من الأسلحة لأن النازيين الذين يعرفون حق المعرفة مقدار كراهية هذه الشعوب المغلوبة لهم لم يطمئنوا إلى العيش بين وطنيين مسلحين . ولذلك تشدد النازيون فى جمع الأسلحة وكلف الجستابو ورجال الشرطة بهذه المهمة ، ووقع النازيون عقوبة الإعدام فوراً فى البلدان المفتوحة على كل ممتنع عن تسليم ما لديه من أسلحة وذخيرة . ومع ذلك أخفق النازيون فيما أرادوا إخفاقاً ملموساً . إذ استطاع أهل الدول المهزومة إخفاء عدد لا يستهان به من الأسلحة سرعان ما ظهر أثرها فى حوادث الاغتيال المتكررة التى ذهب ضحيتها كثيرون من الألمان ومن صنائعهم الذين قبلوا التعاون معهم . ومع أن الألمان عمدوا إلى اتباع طريقة أخذ الرهائن ثم إعدام المئات منهم عند وقوع حوادث الاغتيال ، فإن هذه القسوة لم تفد شيئاً فى ردع الوطنيين أو تخفيف وطأة هذا النوع من المقاومة الإيجابية . بل إن هذه البلدان المفتوحة والمحتلة سرعان ما أصبحت مراكز شديدة الخطر للمقاومة الإيجابية ضد السيطرة النازية .

وكان تنظيم أول مراكز المقاومة الإيجابية فى تشيكوسلفاكيا ، وسبب ذلك أن حكومة هذه البلاد أدركت من أيام (ميونخ) المعروفة أن الحرب لا محالة واقعة ، وأن الوطن سوف يسقط عاجلا أو آجلا تحت نعال الألمانيين ، وأن الاحتلال الأجنبى لبلادهم سوف يطول أمده فعمدت الحكومة منذ سبتمبر ١٩٣٨ بوضع الإرشادات والتعليمات المفصلة لتوضيح ما ينبغى أن يقوم به أهل البلاد من ضروب المقاومة ضد العدو فى المستقبل ، وبعد انهيار

الجيش التشيكوسلفاكى . وكان أهم ما عنى به التنظيم الحكومى السرى التأكد من وجود أكبر مجموعة ممكنة من الأسلحة الحديثة لدى الأهالى ، كالبنادق والمدافع الرشاشة وغير ذلك مخبأة فى حرز مكين يعجز الجستابو أو الجيش الألمانى عن العثور عليه . وكذلك نظمت الحكومة جيش المقاومة الإيجابية تنظيما دقيقاً ، فأنشأت الرتب العسكرية ووزعتها على العسكريين والمدنيين على السواء فكان هناك القواد والضباط والجنود وهكذا .

فما هو إلا أن احتل الألمان من غير قتال بلاد السوديت فى اكتوبر ١٩٣٨ ، ثم بوهيميا ومورافيا فى مارس من العام التالى حتى خرجت إلى عالم الوجود هذه المقاومة الإيجابية المنظمة تبغى إلحاق الأضرار البليغة بعتاد الحرب النازى واغتيال الألمان وصنائعهم . وقد برع التشيكوسلفاكيون فى هـــذا النوع من المقاومة حتى أن « حامى » بوهيميا ومورافيا (هيدريش) Heydrich والمعروف باسم « جزار مورافيا » ، الذى اغتيل فى ٢٧ مايو ١٩٤٢ على أيدى جمعية سرية تابعة للجيش الوطنى ، رأى أن يوقع عقوبة الإعدام على ٤٠٠ من القواد وأركان الحرب والموظفين والصناع والفلاحين التشيك ؛ كما قبض على عدد من الوطنيين بلغ (١,٤٠٠) ، ووجه الجستابو إلى هؤلاء جميعاً طائفة من التهم المنوعة : منها أنهم نجحوا فى إخفاء بعض الأسلحة التى أنتجتها المصانع التشكية للحرب لأسباب وطنية وإنهم نظموا حركة المقاومة المعروفة باسم « الإبطاء المتعمد » فى الإنتاج وإنهم قاموا بأعمال « تخريب » واسعة ؛ أو كانوا على اتصال مستمر بطريق اللاسلكى مع لندن ؛ أو أتلفوا آلات وأدوات الصناعة العسكرية الألمانية وهكذا . وكان من بين الذين أعدموا (الدكتور فرانكنبرجر) ، وهو من كبار رجال وزارة الزراعة ، اتهمه الجستابو بالعمل على تعطيل تسليم الحبوب والغلات الزراعية الأخرى (التشيكية) إلى سلطات الاحتلال الألمانى . ومع ذلك ، وعلى الرغم من بطش الجستابو وقسوة الاحتلال النازى ، فقد ظلت تشيكوسلفاكيا من مراكز المقاومة الإيجابية القوية ضد النازى فى أوربا .

وأما ثانى المراكز الهامة لهذه المقاومة الإيجابية فكان يوغوسلافيا إذ جعل نشاط الجماعات السرية المنظمة حياة الجند الألمان والإيطاليين والهنغاريين والبلغاريين الذين يحتلون بلادهم حياة شقاء وإرهاق مستمر ؛ فهناك شطر من الجيش اليوغسلافى السابق تحت قيادة الجنرال دراجا ميخائيلوفتش كان يعمل جدياً كوحدات مدربة على القتال العنيف فى غابات البوسنة ، ثم فى سائر أنحاء البلاد بعد ذلك ؛ وهناك جماعة التشتنك Cetnik كانت مهمتها العمل فى الجبل الأسود وكرواتيا ودلماسيا ؛ ثم هناك جماعة الشيوعيين ويعرفون باسم (البارتيزان) Partisans كانت مهمتهم الهجوم على مدن يوغسلافيا الشمالية ؛ ثم

أخيرا هناك ، حزب الفلاحين الكروات ، القديم وكانت يوغسلافيا الجنوبية ميدان نشاطه .

وكان جيش الجنرال ميخائيلوفتش يتراوح بين العشرين والمائة ألف جندى نظامى ، ويضم إليه عدداً من النساء . وقد درب هذا الجيش بحيث كان من السهل على جنده خلع الأردية العسكرية وإخفاء السلاح فى الليل ، حتى إذا بدأ النهار عادوا إلى أعمالهم العادية كفلاحين أو رعاة خنازير أو صناع أو عمال وهكذا . فلا يمضى وقت قصير حتى يلتحم هؤلاء ثانية فى معركة دامية مع جيش الإحتلال ، وعبثا كان يحاول الجستابو والجند الألمان عقب المعركة البحث عن الأسلحة أو الذخائر أو الأردية العسكرية . وفى خريف ١٩٤١ خاض هذا الجيش غمار معركة حامية فى (سابى) Saboé استخدم فيها اليوغسلافيون المدافع الثقيلة تحت أنوف الجستابو وسلطات الاحتلال . ومن ضروب المقاومة التى برع فيها هذا الجيش الهجوم على السكك الحديدية ومناجم الفحم ومحطات توليد الكهرباء والجسور والقناطر ومخازن الذخيرة وثكنات الجند الألمان والمطارات وهكذا .

وفى كثير من الأحايين كان يتعاون (التشتنيك) و (البارتيزان) و (حزب الفلاحين الكروات) مع جيش ميخائيلوفتش . إلا أن مهمة (التشتنيك) الأساسية كانت مفاجأة جيش الاحتلال فى جماعات شبه عسكرية سريعة الحركة مسلحة بأسلحة من الطراز الأول ، فينزلون بالعدو أضراراً بليغة ويفرون بسلام . وأما مهمة (البارتيزان) و (الفلاحين الكروات) فكانت إرهاق المدن التى يحتلها الألمان والإيطاليون واغتيال الخونة والألمان المتغالين فى أساليب التعذيب والإجرام ، ثم تخليص الرهائن والغنائم أو تعطيل نقلها .

وعندما كانت هذه الجماعات تعمل متضامنة كانت تؤلف قوة كبيرة وجد الألمان والايطاليون من جراء نشاطها أن يحتفظوا فى هذه البلاد فى أثناء الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٢ بعدد من الفرق العسكرية لايقل عن ست أو سبع فرق على الرغم من الحاجة الملحة إلى استخدام هذه القوة العسكرية فى ميادين القتال. وهناك أدلة متعددة على مقدار ماأنزلته هذه القوات بالألمان وحلفائهم وصنائعهم من خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد الحربى . فقد حدث فى يولية ١٩٤٣ أن قتل الوطنيون اليوغوسلافيون ما لايقل عن ٤٠٠ إيطالى عندما هجموا فجأة على الثكنات الإيطالية فى جزر دلماسيا التى تقع فى البحر الادرياتيكى تجاه إيطاليا . وقد ترتب على هذا الهجوم أن إيطاليا لم تلبث أن أعلنت التعبئة العامة فى ألبانيا ؛ وكذلك ألغيت إجازات جميع أفراد قوات المحور فى البلقان وأرسلت سريعا النجدات الكبيرة إلى اليونان . بيد أنه لم تمض أيام قلائل على هذا الحادث المروع حتى اشتبك اليوغوسلافيون الوطنيون مع الألمان فى معركة كبيرة فى منطقة وادى كارينكا التى تبعد نحو ٥٠ إلى ٦٠ ميلا

جنوب سراجيفو الشرقى عاصمة البوسنة ؛ ثم حدث فى شهر سبتمبر من العام نفسه أن التحم اليوغوسلافيون الشيوعيون مع الألمان ومع جماعة الأوستاشى الكرواتية الموالية لهم فى منطقة (سنج) ، كما استعرت نيران الحرب بينهم وبين الألمان فى الجبل الأسود وفى الهرسك ، وغنم اليوغوسلافيون كميات كبيرة من الذخائر واستولوا على عدة مدن . وفى اكتوبر كانت قوات الجيش اليوغوسلافى الوطنى لاتزال تواصل عملياتها الهجومية بنجاح فى الجبل الأسود والهرسك والبوسنة . ودارت معارك عنيفة فى ساحل دلماسيا وفى سلوفينيا وعلى حدود ألبانيا وفى كرواتيا ، خصوصا مقاطعة سلافونيا على طول حـــدود هنغاريا ؛ ثم استطاعت العصابات الوطنية أن تقف على بعد ميل واحد من زغرب وأن تقطع خطوط تموين المدينة ، هذا عدا ما فعلته من أعمال التخريب المتعددة كانتزاع خطوط السكك الحديدية ونسف الجسور فى جميع هذه المناطق . واضطر الألمان من جراء ذلك إلى اتخاذ عدة تدابير منها ما أذاعه راديو بودابست منذ يوليه عن استعداد القيادة العسكرية الألمانيــة فى سربيا لمنح مكافأة مالية كبيرة لمن يأسر الجنرال ميخائيلوفتش حيا أو ميتا ، أو يستطيع استبعاد شره بأية وسيلة كانت ؛ وفى اكتوبر أعلنت الحكومة المجرية الأحكام العرفية فى مناطق المجر الجنوبية وفى المناطق المحتلة وفى المنطقة المتاخمة لدولة كرواتيا الضالعة مع الألمانيين . وفى ١٤ اكتوبر أذاع الراديو الألمانى أن الفيلد ماريشال روميل تولى القيادة العليا للأعمال الحربية الموجهة ضد الثوار اليوغوسلافيين ؛ وعبثا حاول الألمانيون استمالة زعيم حزب الفلاحين الكرواتى عندما عرضوا عليه منصب رئيس الدولة إذا أيد الألمان وحث العصابات الكرواتية على التخلى عن نشاطهم ، فوضعه الألمان تحت رقابة شديدة ؛ وكان من جراء تسليم إيطاليا أن صارت الوحدات الإيطالية الباقية فى يوغوسلافيا تتعاون مع الجيش اليوغوسلافى الوطنى فى الجبل الأسود وفى سلوفينيــا وفى دلماسيا ، وفى اكتوبر كانت جميعها تقاتل إلى جانب اليوغوسلافيين . وفى ٢٦ من الشهر نفسه أحرز اليوغوسلافيون الأحرار انتصارا عظيما عندما استولوا بعد قتال عنيف على بلدة (فارس ـــ ميدان) وهى آخر مركز للصناعات الثقيلة فى البوسنة كان لايزال فى أيدى الألمان . وفى أواخر عام ١٩٤٣ تفوق فى الميدان المارشال (تيتو Tito) يقود القوات (الوطنية) وسمى جيشه بجيش التحرير ، واستطاع أن يقض مضاجع الألمان ، حتى تمكن جيشه ـــ إلى جانب القوات الوطنية الأخرى ـــ أن يشغل ما لايقل عن أربع عشرة فرقة ألمانية ، واضطر الألمان إلى جلب إمدادات من اليونان وألبانيا لا تقل عن خمس فرق . وفى بداية عام ١٩٤٤ كان القتال لايزال محتدما فى جميع ساحات الجبهة فى شرق البوسنة وفى كرواتيا وبالقرب من زغرب وفى دلماسيا وغيرها .

وقد نجم عن نجاح هذه الجيوش الوطنية تعطيل السكك الحديدية الرئيسية والخطوط الاحتياطية الممتدة صوب الجنوب الشرقى إلى البلقان واليونان ، كما عطلت الملاحة فى نهر الدانوب باغراق السفن فى مجرى هذا النهر ، فاختل النقل من جراء ذلك بين ألمانيا وبلاد البلقان اختلالا كبيرا . وهكذا لم يلبث أن وجد الألمان الذين بنوا آمالا عريضة على إمكان الاستفادة من استغلال ثروة يوغوسلافيا المعدنية والاستيلاء على غلاتها الزراعية أن الفشل يحيق بخططهم جميعا .

وقد سبقت الاشارة إلى الأساليب التى اتبعها النازيون فى إبادة البولنديين واليهود منهم خاصة . ولذلك فقد ظلت بولندة منذ سقوطها فى أيدى النازيين مركزا رئيسيا من مراكز المقاومة الإيجابية والسلبية فى أوربا النازية . ومع أن الألمانيين ارتكبوا مع أهل هذه البلاد فظائع تقشعر من هولها الأبدان إلا أن ذلك لم يخفف شيئا من حدة هذه المقاومة ؛ بل على العكس من ذلك ، قويت هذه المقاومة وزادت عنفا من جراء هذه الفظائع . وكان من المنتظر بعد الغزو ، منذ أن تم للنازيين ما أرادوا من تنظيمات تضمن لهم السيطرة وبخاصة فى أثناء عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، أن يرتفع قليلا ذلك الكابوس الجاثم على صدور البولنديين . ولكن هروب الكثيرين منهم إلى الخارج للقتال مع جيوش الأمم المتحدة ، ثم إصرارهم على المقاومة فى داخل بلادهم ، وزيادة مشاغل الألمان من جانب آخر منذ اشتعلت الحرب الروسية الألمانية كل ذلك جعل النازيين يمعنون فى أساليبهم الوحشية لابادة البولنديين . فأوقعوا بيهود وارسو مذابح كانت أقساها مذبحة شهر مايو ١٩٤٣ المروعة ، كما أكثروا من اعتقال المئات من المثقفين ، وفى يونية أتهم حوالى السبعمائة شخص من هؤلاء بأنهم اشتركوا فى هيئات سرية تعمل ضد الألمان . واشتد بطش النازيين فنسفوا بالديناميت أو أحرقوا ٢٠٠٠ (ورشة) ٣٠٠٠ متجرا ، ١٠٠ ألف بيت فى المنطقة المخصصة لليهود فى مدينة وارسو وحدها . ومن بين المآسى التى وقعت فى عام ١٩٤٣ أن النازيين لم يلبثوا أن نقلوا الأطفال البولنديين الذين تزيد أعمارهم على أثنتى عشرة سنة مع غيرهم من المراهقين إلى معسكرات العمل الإجبارى فى ألمانيا وحدث عندما وصلت فى شهر مارس قوافل كثيرة من صغار الأطفال إلى بوميرانيا وكانت أعمار أغلبهم تختلف بين أربع سنوات وعشر أن هرع النساء البولنديات فى هذه الجهات لتولى هؤلاء الصغار بعنايتهن . فقامت سوق لبيع الأطفال وكان الحراس الألمان يبيعون الطفل الواحد بأربعين ماركا فحسب . ولم يكن غريبا بعد هذا كله أن تصبح بولندة من مراكز المقاومة الخطيرة فى أوربا المحتلة .

وقد حاول النازيون بشتى الوسائل أن يخمدوا هذه المقاومة بنوعيها (سلبية وإيجابية)

وهى لا تزال فى مهدها ولكنهم أخفقوا . فلم تلبث الصحف النازية أن نشرت أخبار المقاومة وكان أهم ماشكت منه ظهور العصابات المسلحة من « اللصوص وقطاع الطرق» البولنديين الذين دأبوا على مفاجأة مراكز الشرطة الألمانية المنعزلة والحراس الألمان ، ومقر قيادة الجستابو نفسه . بيد أنه لم يكن من أغراض هذه العصابات المسلحة الاستيلاء على المال أو الطعام ، بالرغم من انتشار المجاعة فى بولندة ؛ بل إن أهم ما كان يعنى هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق العثور على أولئك «الجلادين» و «الجزارين» الألمان الذين أهلكوا ألوف البولنديين ليقتلوهم ويستولوا على سلاحهم وذخيرتهم . ومنذ خريف ١٩٤١ نظمت هذه العصابات المسلحة ، ونجم عن هجومها المتكرر على مخازن الذخيرة والسلاح أن صارت بولندة تحتفظ بقدر وافر من الأسلحة والذخائر مخبأة فى جهات متعددة انتظارا لليوم الذى يستطيع البولنديون فيه رفع راية الخلاص والاقتصاص من « جلاديهم » وقت الهجوم على قلعة هتلر الأوربية .

وكانت اليونان كذلك مركزا رئيسيا للمقاومة الايجابية فى أوربا . فقد أنزل الألمانيون والايطاليون الذين اشتركوا فى احتلال هذه البلاد كما أنزل الألمانيون فى كريت ، والبلغاريون فى مقدونيا صنوف العذاب بالأهلين . ولعل أقسى ما نزل بهم حرمانهم من الأطعمة واستيلاء سلطات الاحتلال على العقاقير الطبية والضمادات وما إلى ذلك ، حتى انتشرت المجاعة المخيفة فى اليونان وكريت ، ومات الأطفال من الجوع والبرد والمرض ، وسقط الرجال فى شوارع المدن منهوكى القوى ؛ وظلت جثث الموتى مبعثرة فى الطرق . وقد بلغ عدد ضحايا الجوع والتعب والبرد والمرض خمسمائة فى كل يوم من أيام سنة ١٩٤٢ ، واشتدت وطأة المجاعة فى العام التالى ، حتى ذكرت المصادر العليمة فى أنقرة أن حوالى خمسمائة يونانى من طبقة العمال فى أثينا وبيريه ماتوا جوعا فى النصف الأول من شهر أكتوبر (١٩٤٣) ؛ وفى نوفمبر كانت اليونان تواجه كارثة وطنية لا مثيل لها بسبب ما تعانيه من نقص فى الأطعمة . أضف إلى ذلك أن « السادة » الألمان والايطاليين ثم البلغاريين بعد ذلك ظلوا يتفننون فى إبتكار الأساليب لالحاق الأذى بالأهلين كأنما الغرض من الاحتلال هو إبادة الشعب اليونانى عن بكرة أبيه ولذلك كله لم يكن هناك بد من أن تكون اليونان من مراكز المقاومة الشديدة فى البلقان . فان فلول الجيش اليونانى الباسل ظلت تحارب فى جبال (أبيروس) ومقدونيا وتساليا وطراقية وكريت . حتى اضطر الأيطاليون بسبب هذه المقاومة العنيدة إلى الاحتفاظ (١٩٤٢) بعدد من الفرق لا يقل عن ست عشرة فرقة فى اليونان وكريت ، وأرغم الألمان على الاحتفاظ بثمان فرق . وفضلا عن ذلك فقد عمد الألمان إلى إعتقال عدد كبير من أهل القرى وبخاصة فى كريت بمثابة رهائن ، وأعدموا معظمهم ؛ ثم صاروا يحرقون القرى كلما نشبت بينهم وبين

العصابات اليونانية أو الكريتية معركة من المعارك ؛ أو اعتدى اليونانيون على ضباط الاحتلال الألمان أو الإيطاليين ، أو أتلفت عصاباتهم القطارات أو عطلت النقل العسكرى. ومع ذلك أعد رجال العصابات بجزيرة كريت فى شهر سبتمبر ١٩٤٣ جيشا من ١٥,٠٠٠ محارب ، بينهم جنود من البريطانيين والنيوزيلنديين للهجوم على حاميات المحور عندما يغزو الحلفاء هذه الجزيرة وتتصدع أركان القلعة الهتلرية ، واستطاعت العصابات الكريتية إنشاء مستودع للأسلحة بفضل الهجوم على حاميات المحور وقوافله ، وألفوا لهم قيادة عامة تحت أوامر الجنرال (مانداكاس) . وقد استمرت أعمال المقاومة فى اليونان على شدتها ثم لم تلبث أن امتدت إلى المناطق التى كان يشملها الاحتلال البلغارى فى شمال اليونان ؛ ثم احتج اليونان على الاحتلال البلغارى لمقدونيا ونزح كثيرون من سكان هذه المناطق المحتلة إلى الجبال حيث ألفوا العصابات تحت قيادة ضباط الجيش اليونانى . ومع أن النازيين عندما غزوا بلاد اليونان واجتاحوها صادروا جميع السفن الشراعية ، فقد استولى رجال العصابات على عدد من هذه السفن وسلحوها بالمدافع السريعة وصاروا يستخدمونها لنقل الإمدادات إلى الأسر الجائعة . وفى نوفمبر شرع الألمان يعدون العدة للقيام بأعمال حربية هجومية ضد خمسين ألف جندى من رجال العصابات اليونانية المرابطين فى المنطقة الجبلية بين تساليا وأبيروس .

* * *

وكان من أساليب المقاومة الإيجابية ، ما يعرف باسم « حركة الإبطاء المتعمد » فى العمل والانتاج (Go-Slow Movement) ؛ وكذلك أعمال التخريب (Sbotage) وهذان النوعان فى الحقيقة من أشد ضروب المقاومة الإيجابية خطرا على النازيين ، فى وقت اشتدت فيه حاجتهم إلى كل ما يمكن إنتاجه من أغذية وأردية صوفية وقطنية وأسلحة وذخائر ومصنوعات وغيرها ، لأعداد التعبئة العامة ومساعدة النازيين على إحراز السيطرة الجرمانيـة فى القارة الأوربية . ثم دعم هذه السيطرة فى النهاية .

فمن المعروف أنه كان يوجد لدى الألمان فى الحرب العالمية الثانية من الأغذية الاحتياطية — بفضل ما سلبوه من الدول الخاضعة لسيطرتهم — كمية تزيد على ما كان لديهم من الأغذية فى الحرب الأولى . بيد أن « التخريب » الذى كان يحدث فى أدوات الانتاج كان أعظم خطراً عليها بلا مراء من تخريب أعوام الحرب الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وكذلك أدت حاجة الألمان الملحة إلى المنسوجات الصوفية والقطنية إلى تدبير حملة الشتاء المعروفة فى عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ ، من أجل جمع الملابس الصوفية والقطنية . ودل اهتمام الألمان بهذه الحملة على أن مخازنهم ومصانعهم فى الريخ وفى البلدان الخاضعة لهم ، قد أصبحت خالية من الصوف

والقطن ، حتى كان الجنود الألمان المرسلون للقتال فى الميدان الروسى يرتدون ملابس النساء الداخلية من صوفية وقطنية طلبا للتدفئة .

وعدا ذلك دلت الحملة الروسية على أن القيادة العسكرية الألمانية أخطأت التقدير إلى مدى بعيد ، فقد ظل القتال على شدته منذ نشوب الحرب مع الروسيا فى صيف ١٩٤١ . ولذلك لم يستطع الهر هتلر الاستغناء عن مقاتلته فى شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ لارسالهم من ميدان القتال إلى المصانع والمناجم وغيرها لإنتاج الأسلحة والذخائر الضرورية لهجوم الربيع . بل على العكس من ذلك أرسل النازيون منذ يناير ١٩٤٢ سيلا من القوات الجديدة إلى الجبهة الشرقية، حتى أقفرت المصانع تماما من العمال الألمان واضطر النازيون إلى الاعتماد كل الاعتماد على الصناع والعمال الأجانب الذين جلبوهم بكثرة عظيمة من البلدان المحتلة للعمل فى المصنع والمنجم والحقل ، مع العلم بأن الألمان كانوا حتى صيف ١٩٤١ يستخدمون من هؤلاء العمال ومن بينهم أسرى الحرب ، حوالى ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل كما سبق ذكره ،

بيد أن الاعتماد فى الإنتاج على العمال « الأجانب » سواء فى داخل الريخ أو فى الدول المحتلة ، لم يلبث أن مهد الفرصة لظهور حركة الإبطاء المتعمد كأسلوب من أساليب المقاومة الإيجابية الشديدة . ومعنى الإبطاء المتعمد : الاهمال المقصود فى العمل ، وإتلاف الآلات بدعوى جهل طرق استعمالها ، وتضييع الوقت سدى فى مناقشات لاطائل تحتها ؛ وتظاهر العمال بالغباوة والبلادة والجهل والخوف فى المصنع ، وعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات على الرغم من إلقائها عليهم المرة بعد المرة ، وترك المواد والآلات تسقط وتتحطم أو تتلف « سهوا » أو « قضاء وقدرا » وهكذا مما يجر إلى تبديد الوقت والجهد ويؤدى فى النهاية إلى نقص الإنتاج إلى حد ملحوظ .

ولم تكن حركة الابطاء المتعمد هذه مقصورة على المصنع وحده ، بل كانت منتشرة فى الحقل وفى مصالح النقل بالسكك الحديدية والأنهار وغيرها ؛ وفى المنازل حيث يقوم بخدمة « السادة » الألمان النساء البولنديات خاصة ، فيتعمد العاملون فى هذه النواحى بسبب إبطائهم الشديد تضييع الوقت سدى ، ثم تخريب أو إتلاف الآلات والأدوات وما إليها ؛ وكل ذلك بدعوى الجهل والنسيان أو التظاهر بالغباوة ومن أمثلة ذلك وضع الزجاج أو المسامير خطأ أو سهوا فى علف المواشى ، أو إحراق الملابس الصوفية أو تعمد الابطاء فى أوقات الحصاد حتى تتلف المزروعات بتعرضها للعواصف والعوامل الجوية ، أو إخفاء الحبوب ، أو ذبح الماشية ، أو تعريضها للموت فجأة ، ولعل أكبر نجاح صادفته هذه «الحركة» كان فى مناجم الفحم حيث يتعذر على الملاحظين الألمان مراقبة كل عامل على حدة . ومع أن

النازيين كانوا يوقعون عقوبات شديدة ، تبلغ حد الاعدام على كل من تثبت عليه تهمة الابطاء المقصود أو إتلاف الآلات وغيرها أو التخريب عموما فقد ظلت حركة « الابطاء المتعمد » على شدتها بل كثيرا ما وجد العمال الأجانب وسيلة للانتقام شر انتقام من رؤساء العمل الألمان الذين كانوا يشتدون فى ملاحظة العمال المشتغلين فى المصانع وغيرها ويوقعون عليهم العقوبات الصارمة لابطائهم .

وقد نجحت حركة الابطاء المتعمد وانتشر التخريب فى أوربا النازية انتشارا كبيرا ، فصارت الشعوب المقهورة يبارى بعضها بعضاً فى إتقان هذا النوع من المقاومة الايجابية . فامتاز البولنديون — إلى جانب قيامهم بأعمال التخريب الكبيرة — بالبراعة فى إرهاق أعصاب الأسرات الألمانية التى اعتمدت فى إدارة منازلها على « الخدم » البولنديين ، كما اعتمدت فى أعمال زراعتها على سواعدهم فأنزل البولنديون بهذه الأسرات خسائر فادحة فى المنزل وفى الحقل على السواء . أما النرويجيون الذين كانوا يشتغلون فى المصانع وأحواض السفن الألمانية فقد اتخذوا لهم شعاراً : « العمل مدى ساعتين فى اليوم لحساب هتلر وست ساعات لحساب الملك ها كون ! » . ولم يقل عنهم حماسة فى ذلك البلجيكيون والهولنديون والتشيك . ومن الحوادث التى تدل على إمعان التشيك فى هذا النوع من المقاومة ، ما وقع فى فينا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما ألقى القبض على ثلاثة منهم وأعدموا رميا بالرصاص « لادعائهم — كما جاء فى التقرير الرسمى — أنهم من رجال الجستابو حتى يستطيعوا المضى فى أعمالهم غير القانونية ! » . والحقيقة هى أن هؤلاء الرجال كانوا بدعوى تنفيذ أوامر الجستابو ، يكلفون المصانع إنتاج أشياء ومصنوعات لاداعى لها ، اقتضى صنعها استهلاك كمية كبيرة من الخامات سدى ، إلى جانب تضييع جهود العمال وأوقاتهم فى هذه المصانع .

* * *

وكان من آثار هذه « الحركة » أن نقص الانتاج كثيرا فى المصانع التى كانت تشتغل فى أوربا النازية لحساب الألمان . مثال ذلك أن الانتاج فى تشيكوسلفاكيا فى خريف ١٩٤١ كان يقل ٤٠ ٪ عما كانت هذه الدولة تنتجه فى الظروف العادية . هذا على الرغم من توفر الخامات والأيدى العاملة بها . وفى مصانع (سكودا) المشهورة قل الانتاج بنسبة ٣٣ ٪ وفى مصانع مدافع (برن) Bren المعروفة قل الانتاج بنسبة ٤٠ ٪ . وفى مناجم الفحم البلجيكية قل الانتاج منذ خريف ١٩٤١ بنسبة ٣٦ ٪ . ومع أن الألمان أحضروا إلى هذه المناجم عمالا كثيرين ، وزادوا من ساعات العمل بها ، فقد ظل الانتاج فى ديسمبر ١٩٤١ ويناير ١٩٤٢ ينقص ٣٠ ٪ عن إنتاج العام السابق .

* * *

أما الفرنسيون فقد كانوا فى طليعة الشعوب التى أتقنت هذا النوع من أنواع المقاومة الإيجابية . حقيقة ظل الفرنسيون فى بادىء الأمر فى شبه ذهول كبير من صدمة ذلك الانهيار الذى حطم فى نفوسهم كل أمل وكل رجاء فى المستقبل ، حتى نجحت الدعاية النازية فى استمالة الأنصار والمتعاونين مع رسل النظام الجديد فى فرنسا ؛ ولقيت هذه الدعاية كل تأييد من جانب حكومة ڤيشى . ولكن الأساليب النازية لم تلبث أن أزالت الغشاوة الثقيلة التى أسدلت على عيون الفرنسيين وأبصارهم عندما وجدوا « السادة » الألمان لا يبغون من تطبيق النظام الجديد سوى نهب فرنسا وسلبها ؛ كما أنهم ظلوا محتفظين بالأسرى الفرنسيين كرهائن حتى يضمنوا سكون هذا الشعب المقهور إلى العيش الذليل وإرغامه على الرضا وقبول السيطرة الجرمانية على أمل الإفراج عن هؤلاء (المليونين) من الرجال الذين ينتظر عودتهم الأهل والأقرباء فى كل بيت من بيوت فرنسا تقريباً ؛ وهذا أيضاً عدا حوالى ١٠٠,٠٠٠ عامل فرنسى ، حتى أغسطس ١٩٤٢ أرغموا على العمل فى ألمانيا بالوسائل التى تقدم ذكرها . وكان من عوامل إحياء الأمل والرجاء فى قلوب الفرنسيين إخفاق الألمان فى معركة بريطانيا ، وإخفاقهم الأول فى الحملة الليبية المعروفة ، وكذلك عنف القتال فى الجبهة الروسية . فأفاق الفرنسيون من سباتهم رويدا رويدا ، ثم أدركوا أن الجحافل النازية لم تعد تلك الجيوش المظفرة والتى يستحيل قهرها .

لذلك بدأ الفرنسيون منذ أواسط عام ١٩٤١ يتقنون أساليب المقاومة الإيجابية ولما كان النازيون يعتمدون على العمال الفرنسيين فى المصانع الفرنسية لإنتاج آلات الحرب ، فقد وجد الفرنسيون مجالا واسعاً « للتخريب » و « والإبطاء » فى المصانع . ومن ذلك الحين كشف الألمان أن الطائرات التى تخرجها المصانع الفرنسية لا تصلح للملاحة الجوية ، وأن كثيرين من طياريهم يفقدون الحياة عند محاولة اختبارها قبل إرسالها إلى ميدان القتال ؛ كما كشفوا أن « خرطوش » البنادق والمدافع المرسل من المصانع الفرنسية يصل فى الغالب خاليا من المواد المفرقعة . وفى مرسيليا وجد الألمان أن جزءا كبيرا من الأغذية المعدة لتموين الجيش الأفريقى يتلف ويعطب قبل إنزاله إلى سفن النقل . ومن طريف ما يذكر عن أساليب حركة الإبطاء المقصود أن ضابطا نازيا عهد إليه فى إنشاء مطار فى فرنسا فى أرض ممهدة نوعا . فاستخدم فى هذا العمل عددا كبيرا من الفرنسيين ولكن انقضت أربعة شهور دون أن يتم إعداد هذا المطار . وعند البحث اتضح أن سبب ذلك هو أن العمال الفرنسيين كانوا يتظاهرون دائما بعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات الألمانية . فإذا طلب إليهم مثلا إقامة بناء فى ناحية ما حفروا الأرض بدلا من ذلك ، وإذا طلب إليهم العكس أقاموا عليها بناء أو شقوا بها

ترعة أو حفروا فيها خندقا وهكذا . حتى لم تعد الأرض بعد هذه الشهور الأربعة تصلح لإنشاء المطار على الاطلاق وكان الفرنسيون يعمدون إلى المناقشة والجدل مع رؤساء العمل الألمان دائما عند إعطاء التعليمات الخاصة بأى عمل فى المصنع أو فى الحقل ؛ فيتخذون من الجدل الطويل وسيلة لتضييع الوقت وتحقيق فكرة « حركة الابطاء المتعمد » . ولم تفلح عقوبات الألمان الصارمة ومنها الاعدام فى إخماد هذه المقاومة .

وكان من أسباب ازدياد المقاومة ما طلبه الهر هتلر من تقديم فوج جديد من العمال الفرنسيين عددهم (٤٧٠,٠٠٠) يرسل منهم إلى ألمانيا قبل نهاية شهر يونيه من عام ١٩٤٣ (٢٢٠,٠٠٠) ، او أن يوضعوا على الأقل تحت تصرف جماعة (تودت) فى فرنسا ذاتها بينما يقدم الباقون وعددهم (٢٥٠,٠٠٠) فى أثناء الأشهر الثلاثة التالية ، فقابل الشبان الفرنسيون هذا الطلب بكل أنواع المقاومة العنيفة ، واعتصم أهل مقاطعة سافوى بالجبال فرارا من التعبئة ، وبلغ عدد الذين لجأوا إلى الجبال والغابات حوالى الثلاثة آلاف ؛ ثم حدث مثل هذا تماما فى البرينيه العليا وبريتانى والفنديه ، وبلغت نسبة الهاربين فى هاتين المقاطعتين الأخيرتين ٧٥ ٪ من الأهلين ؛ وقذف الشعب فى إحدى موانى بريتانى الصغيرة ببعض رجال النازى إلى البحر ؛ واتسعت حركة العصيان بين الفلاحين فى مدن أخرى وتفاقمت تفاقماً كبيراً . وفى مقاطعتى سانت كلو وجورا عظمت المظاهرات احتجاجا على نقل العمال الفرنسيين عنوة إلى ألمانيا ، ووقع اعتداء على رجال الشرطة ؛ وعندما أرغم العمال الفرنسيون على الذهاب إلى القطارات لحملهم إلى ألمانيا عطل المتظاهرون سير هذه القطارات ، وأتاحوا الفرصة لفرار كثير من هؤلاء المجندين . وفى سافوى أخذ الإيطاليون يحاصرون الشبان الفرنسيين الذين التجأوا إلى بلدة (أنسى) الصغيرة ؛ ولم يعدم هؤلاء بدورهم وسيلة للانتقام من مطارديهم فانقضوا فجأة ذات يوم من أيام شهر أغسطس على أحد المراكز الإيطالية على حدود سويسرة وقتلوا قائد هذا المركز . بينما احتدمت المعارك فى الشهر نفسه فى سافوى العليا بين رجال العصابات والقوات المسلحة ، واضطر الألمان إلى إرسال النجدات لاحتلال منطقة الحدود بأكملها ، فوصل فى سبتمبر إلى دوفينى وإيفيان وغيرها حوالى ٩٠٠٠ جندى ألمانى لمحاولة القضاء على (الماكى) وهى « عصابات » الوطنيين الفرنسيين الذين اعتصموا بالجبال فى سافوى العليا فراراً من العمل تحت إمرة الألمان . وفى سبتمبر كان عدد عصابات (الماكى) حوالى ١٢,٠٠٠ من الشبان المزودين بالأسلحة والأدوات الخاصة وأجهزة الراديو ، وكل ما يفيد فى تخريب السكك الحديدية بنوع خاص .

وقد روى مراسل جريدة « جازيت دى لوزان » قصة ما يجرى فى المنطقة الجبلية من

الحوادث ، فقال :ـــ « ترى شابا من عمال المزارع يبدو مسالما لاخوف منه يدخل بدراجته مزرعة معينة خصصت له . ثم يستقر فى حجرة من حجرات بيت صاحب المزرعة بعد تبادل كلمات مع زوجته . ولا يكاد يستقر به المقام فى تلك الحجرة حتى يخرج من حقيبته جهاز اللاسلكى ويأخذ فى استخدامه . ويجد هذا الشاب بعض الصعوبة فى الاتصال بالذين يريد الاتصال بهم . ومع أنه يعلم أن فى استطاعة سيارات « البوليس» السرى الألمانى معرفة مكانه بعد عشرين دقيقة من استخدامه جهازه اللاسلكى فانه يظل يرسل رسالته إلى نهايتها . على أن إرسال هذه الرسالة يستغرق عادة مدة طويلة حتى إن الشاب لايكاد ينتهى من عمله حتى يرى إحدى سيارات الجستابو تدخل المزرعة ، ويخرج منها الجنود الألمان مسرعين إلى الحجرة التى كمن فيها الشاب وهم يطلقون النار دون إنذار إلى أن يقع الشاب صريعا مضرجا بدمائه . ويمكن أن يقال ، قياسا على ما يحدث هناك أن قانون هذه العصابات لايعرف رحمة ولا شفقة إذ أن أنباء هذا الحادث لاتكاد تنتشر فى البلاد وتبلغ مسامع رؤساء هذه الجماعة حتى يعمدوا إلى حيلة للانتقام . ذلك بأن سيارة « البوليس » السرى الألمانى بعد أن تلتقط رسالة مستعجلة تقصد إلى « جراج » معين ويخرج منها جنود الجستابو ويتقدمون نحو أبواب « الجراج » وبينما هم يحاولون فتح هذه الأبواب إذا بوابل من رصاص المسدسات يفاجىء الألمان ويقتلهم جميعا عدا السائق . فانه يضرب ضربا أليما ويطلق سراحه » . وفى الواقع يحيا هؤلاء الشبان حياة محفوفة بأشد الخطر ويضحون بكل شىء حتى بأرواحهم فى سبيل إداء واجباتهم .

ومنذ استسلام إيطاليا (٨ أغسطس وسبتمبر ١٩٤٣) ترك الجنود الإيطاليون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر فى أيدى الثوار فى مقاطعتى سافوى وسافوى العليا ، كما أن عددا من الضباط والجنود الإيطاليين الذين لم يستطيعوا الالتجاء إلى سويسرة لم يلبثوا أن انضموا إلى هؤلاء « الثوار » كى لا يتمكن الألمان من نزع سلاحهم . وفى نوفمبر نشب القتال بين الألمان والوطنيين الفرنسيين فى عدة مدن منها تولوز ومرسيليا ثم لم يعد نشاط الوطنيين مقصورا على الجبال ، بل أخذ يمتد بسرعة فى جنوب فرنسا وفى بريتانى . وفى تولوز اعتدى الوطنيون على الجنود الألمان وقتلوا كثيراً منهم ، وفى مرسيليا وقعت مصادمات خطيرة فى الشوارع قتل فيها عدد من الألمان ، وفى (كان) وغيرها صار لا ينقطع صوت إطلاق الرصاص كلما أرخى الليل سدوله . وقد يكفى أن نذكر آخر الإحصائيات التى عملت وقتذاك عن خسائر الفرنسيين الوطنيين لمعرفة مبلغ ما وصلت إليه المقاومة الإيجابية فى فرنسا من عنف وشدة . فقد قدر عدد ضحايا الوطنيين الفرنسيين فى حوادث المقاومة بنحو (٤٠,٠٠٠) ، هذا بينما بلغ عدد المسجونين لاشتراكهم فى حركة المقاومة السرية نحو نصف مليون .

* * *

ويتضح مبلغ خطر هذه المقاومة الإيجابية من مراجعة طائفة من حوادث التخريب التى وقعت فى أوربا النازية بين أغسطس ١٩٤١ ، ونوفمبر ١٩٤٣ .

ففى شهر أغسطس ١٩٤١ كان عدد حوادث السكك الحديدية فى بولندة ، — حسب الإحصاءات الرسمية الألمانية — ١٢٨ حادثا أى بما يزيد على أربعة حوادث يوميا .

وفى ليلة من ليالى سبتمبر ١٩٤١ استولى حوالى ٤٠٠ من التشتنيك و ١٥٠٠ من المدنيين على مناجم الفحم فى لجسلانى Ljeslani فى البوسنة (فى يوغسلافيا) ؛ وكان يقوم على حراسة هذه المناجم ٧٥ رجلا قتلوا جميعهم فى ملحمة دامية نسفت بعدها هذه المناجم بالديناميت . ثم ضرب التشنيك محطة توليد الكهرباء المجاورة قبل إنسحابهم . وقدرت الحكومة الكرواتية هذه الخسارة بمبلغ ١٢ مليون كونا (العملة الكرواتية الجديدة) .

وفى ١٦ سبتمبر ١٩٤١ نسفت بالديناميت فى بولندة قنطرة السكة الحديدية الرئيسية بين (برسلاو) و (وارسو) ؛ وهذا الخط من أعظم خطوط التموين أهمية بين ألمانيا والجبهة الشرقية (الروسية) .

وفى ١٠ أكتوبر أذاع الحاكم الألمانى فى أقليم (أليسوند) Allesund) فى النرويج أن الأهالى ألحقوا أضراراً جسيمة بالتحصينات الألمانية .

وفى ١٥ ديسمبر نسفت بالديناميت فى بلجيكا الشرقية الأسلاك الرئيسية فى محطة (بريسو شارات) Bresoux Charatte لتوليد الكهرباء وهى تمد ألمانيا الشمالية الغربية .

وفى ٤ نوفمبر نسفت بالديناميت أجزاء فى منجم فحم (موتيجنى) فى أقليم (جراند — ليبج)

وفى يناير ١٩٤٢ أصدر رئيس الشرطة فى باريس أمرا بالقبض على عصابة من المحاربين يتزعمها عامل يبلغ من العمر ٢٢ سنة . مهمتها إشعال الحرائق فى المصانع وتخريب الآلات .

وفى الشهر نفسه أعلنت الحكومة الألمانية رسميا أن صعوبة تموين يوغوسلافيا واليونان بالطعام ناشئة من أن عدداً كبيراً من موظفى السكك الحديد اليوغوسلافية قد انضموا إلى جيش الجنرال ميخائيلوفتش وإلى جماعات (التشتنيك) .

وفى ٢ فبراير عين الماجور كويسلنج رئيسا لحكومة النرويج ، فتبع ذلك سلسلة من أعمال التخريب ، إذ أشعلت الحرائق فى محطة السكة الحديد فى (أوسلو) ؛ ثم انفجرت عدة قنابل فى بناء البرلمان النرويجى (Storting) وفى الجامعة والمسرح الحكومى ؛ ثم أشعلت النيران فى أكبر مصنع نرويجى للمطاط فى (أسكيم) Askim ، وفى مصنع آخر فى (درامن) Drammen وقد خرب المصنعان تماما ؛ وكذلك اشتعلت النيران فى (برجن) وفى (لكسفاج) Laxevaag فى مصنع للآلات وفى أحواض السفن .

وفى ٢١ مايو ١٩٤٣ أذيعت أنباء عن وقوع إضطرابات خطيرة فى عاصمة بلجيكا وأن الوطنيين البلجيكيين دمروا أخيرا ٣٣ قاطرة منها ٥ قاطرات كانت تجر ١٨ مركبة محملة بالذخيرة وعطلوا أو حطموا مؤسسات هامة أخرى .

وفى ٣١ مايو ١٩٤٣ أشعل رجال عصابات التخريب النار فى أعظم مصنع نسيج فى رومانيا للمرة الثانية وأتلفوا ألوف الكيلو جرامات من المواد الخام وقدرت الخسائر ببضعة ملايين لى

وفى اليوم نفسه أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن المخربين نسفوا ثلاث محطات مترو فى منطقة لييج . وقد نسف منزل عمدة بلدة شوشين .

وفى ٣ يونيه دمر الوطنيون الفرنسيون منجما يستخرج منه البوكسيت وهو أهم مصدر للألمونيوم وكذلك دمروا فى المدة القصيرة السابقة نحو ٣٠٠ قاطرة ، ١٢٠٠ عربة مشحونة بمعدات الحرب والمواد الغذائية والجنود ، ثم نسفوا ثلاثة جسور .

وفى ١٨ يونيه قتل أكثر من أربعمائة جندى ألمانى كانوا فى طريقهم إلى اليونان عندما هاجمت جماعة من المخربين القطار الذى كان يقلهم فى متروفيكا فى كرواتيا وأخرجوه عن الخط وقد ثأر الألمان لأنفسهم باحراق المدينة ولم تعد القطارات تمر بهذه المنطقة لكثرة حوادث التخريب فى السكك الحديدية حتى بلغ المعدل خمسة قطارات فى اليوم الواحد على الرغم من الوحشية التى يستخدمها الألمان فى التشفى والانتقام .

وفى ٢٨ يونيه أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن ثلاثة من البلجيكيين وفرنسيا أعدموا على أثر وقوع أنفجار شل حركة النشاط فى منجم فحم فى (لامبوسارت) بمقاطعة هانيوات فى بلجيكا . وكذلك نشرت الصحف السرية البلجيكية فى هذا الوقت خبرا مفاده أن ٣٨ قاطرة و ٢٥١ عربة وست (ورش) تابعة للسكك الحديدية دمرت فى خلال شهر واحد ، وقالت أحدى الصحف السويدية أن الوطنيين البلجيكيين نسفوا بالديناميت القضبان الحديدية بين (كوترى) و (موسكرون) ، وبين (تيرلمون) و (لوفان) فى عدة أماكن . وقد خرج قطار محمل بالجنود النازيين العائدين إلى ألمانيا عن القضبان ، واعتدى الوطنيون كذلك على عدة قطارات ألمانية محملة بالجنود والعتاد الحربى فى (غنت) و (جودارفيل) و (ترموند) و (لييج) .

وفى ٢٣ يوليه جاء من اليونان أن العصابات دمرت جسرين على نهر لوروس ، ثم هاجمت القوات المعادية التى كانت تريد إصلاح الجسرين وقطعت المواصلات التليفونية بين بعض المدن .

وفى ٢٣ اغسطس أذيع من ستوكهولم نبأ خاص جاء فيه أن أكبر مصنع للألمنيوم فى الدانمرك ، وهو مصنع « دانسك اليومنيوم فابريك » فى كوبنهاجن دمر تدميراً تاما بفعل الأيدى المخربة

وفى ٢٧ أغسطس وردت الأنباء بأن الجنود الألمان أطلقوا النيران على المتظاهرين فى ساحة — الراد هوسيلادن — الواقعة فى قلب كوبنهاجن. وقد اشتدت مقاومة الدانمركيين للنازيين حتى أذيع عن طريق الراديو الدانمركى أن الضرر الذى أحدثه المخربون بمصنع المعدات الكهربائية فى كوبنهاجن يقدر بمائة ألف جنيه استرلينى على قاعدة أسعار ما قبل الحرب. وقد ظهر من التحقيق أنهم دخلوا المصنع وهم يحملون المسدسات وتغلبوا على الحراس ووضعوا ثلاث قنابل أحدثت ضرراً مروعا.

وفى ٢٩ أكتوبر وضعت العصابات الفرنسية أربعين طنا من المواد المتفجرة فى مصنع بارود بمدينة (لانجو) فحدث إنفجار مروع سمع فى أنحاء ولاية المارن العليا وأحدث الانفجار ضررا بليغا.

وفى ١٧ نوفمبر حدث إنفجار فى (جرينوبل). نسفت من جرائه محطة توليد الغاز، وكذلك مصنع الأسلحة والبارود الألمانى.

وفى ١٩ نوفمبر جاء فى الأنباء التى أذيعت من زوريخ أن أعمال التخريب فى إزدياد مطرد فى موانى، كونستنتزا وڤينا ولتز وباساد الواقعة على نهر الدانوب وكانت تخرج من هذه الموانى، صنادل مشحونة طعاما من النمسا ورومانيا عادة إلى ألمانيا.

٭ ٭ ٭

وفيما يلى بعض الأمثلة التى توضح مبلغ الضرر الذى ألحقته هذه المقاومة الإيجابية بأداة الحرب الألمانية.

من ذلك أن حوالى مليون ونصف خرطوشة صنعتها الشركة (الوطنية البلجيكية) لصنع الأسلحة فى (هرستال) Herstal، لم يلبث أن وجدها الألمان عند وصولها إلى ألمانيا خالية من المواد المفرقعة؛ كما أن شركة (ستروين) الفرنسية انتجت كمية كبيرة من أجزاء الدبابات وجدها الألمان غير صالحة للاستخدام، فانتقموا من عمال هذه الشركة، بأن اختاروا منهم عدداً أعدموهم رميا بالرصاص أمام زملائهم؛ ومن هذه الأمثلة كذلك أن النازيين عندما احتلوا فرنسا الشمالية وأحصوا ما يمكن أن تنتجه مصانعها من دبابات وطائرات قدروا ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع فى الشهر الواحد بمائتى دبابة وخمسمائة طائرة. وعلى أساس هذا التقدير وزعوا الخامات على المصانع؛ ومع ذلك وجد الألمان بعد مدة أن متوسط ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع فى الشهر الواحد لا يزيد على خمسين طائرة، وأربعين دبابة.

٭ ٭ ٭

على أنه كان من أهم عوامل المقاومة بنوعيها (الإيجابى والسلبى) تأليف ذلك الجيش

الكبير الذى يضم تحت لوائه جميع الشعوب المغلوبة على أمرها فى أوروبا النازية ، والتى تتوق إلى الخلاص من نير النازى وطغيانهم ، هذا الجيش هو جيش النصر (V. Army). وعلامته حرف (V) المشهور. ومقر قيادة هذا الجيش فى لندن ، ويتولى تنظيمه الكولونيل (بريتون) Britton . وكان لجيش النصر عدة فروع منظمة فى الدول المحتلة ، بل لقد امتد نشاطه إلى كل بلد وقرية من بلدان أوربا النازية وقراها وكان يربو عدد « جنده » على ملايين كثيرة من الرجال والنساء . ومع أن أكثر هؤلاء كانوا عزلا من السلاح ، إلا أنهم لم يعدموا وسيلة تمكنهم دائما من النضال ضد الخونة والكويسلنجين وغيرهم من أنصار العدو الذين باعوا أرواحهم رخيصة للنازيين فى أوربا .

وكانت مهمة جيش النصر الكبرى مراقبة هؤلاء الخونة والكويسلنجين لمنعهم من إلحاق الأذى بأوطانهم عن طريق التعاون مع النازيين ، ومحاولة فض جماعاتهم وأحزابهم . وكان لدى جيش النصر قوائم كاملة بأسماء هؤلاء ، فكان جنود هذا الجيش يكشفون أمر الخونة للناس ويخطون أسماءهم على الجدران فى الشوارع ويرهقونهم بتكرار الوعيد والتهديد فى خطابات يرسلونها إليهم من غير إمضاءات ، وكثيرا ما كان يختفى نفر من هؤلاء الكويسلنجين دون أن يتركوا أثرا وراءهم ، أو إذا أمكن العثور على جثة واحد منهم ، وجد حرف (V) مرسوماً عليها . ولم يفلح النازى والجستابو فى حراسة أنصارهم أو فى تعطيل جهود جيش النصر. بل إن جند هذا الجيش كثيرا ما وجدوا فى الظلام الدامس من جراء الإغارات الجوية المتكررة فى فرنسا وبلجيكا وهولندة فرصة مواتية للمضى فى نشاطهم ، فكانوا يفتحون المجارى ، ويزيلون بوابات وحواجز القنوات (خصوصا فى هولندة) ، ويغيرون وضع المصابيح الحمراء لتضليل الدوريات الألمانية ، وكثيراً ما كان رجال الجستابو يجدون فى الصباح عددا من الجند الألمان ملقى فى المجارى أو فى القنوات أو مصابا بحادث .

وكان جيش النصر يمضى فى نشاطه وفق برنامج منظم فيذيع قائده (الكولونيل بريتون) على الأثير أسماء الخونة ذوى الخطر الذين ينبغى التخلص منهم ، أو أسماء أولئك الذين يعملون كجواسيس لحساب الجستابو ، فلا ينقضى وقت قصير حتى يكون أكثر هؤلاء قد اختفوا من الوجود ، بينما يعمد الجستابو أنفسهم إلى قتل الجواسيس الذين تذاع أسماؤهم حرصا على سلامة نظام « البوليس » السرى الألمانى نفسه .

وفى الحق أن جيش النصر كان يطيع أوامر قائده وإرشاداته بكل دقة ومن أمثلة ذلك أن (الكولونيل بريتون) نشر فى بداية عام ١٩٤٢ اسم الدكتور وليم منجلبرج Mengelberg من كبار الموسيقيين الهولنديين ، بين أسماء الخونة الذين يتعاونون مع النازى ، لحدث فى

أول احتفال موسيقى أقامه (منجلبرج) فى امستردام بعد هذه الإذاعة أن قابله الجمهور فى قاعة كادت تكون خالية ، بكل أنواع الاستنكار حتى شعر (منجلبرج) بتعذر الإقامة فى وطنه واضطر إلى مغادرة هولندة والطواف فى سويسرة والبورتغال يقيم بها الاحتفالات الموسيقية !

غير أن أكبر الخدمات التى كان يؤديها جيش النصر ، إنما هى نشر المقاومة السلبية وتنظيمها فى أنحاء أوربا النازية .

* * *

وكان يقصد بالمقاومة السلبية امتناع الشعوب المقهورة عن التعاون مع النازيين الذين يحتلون بلادهم ؛ وعدم الدخول معهم فى غير الصلات التى تفرض الظروف الواقعية وجودها وفى حدود الاتفاقات أو التنظيمات الرسمية أو شروط الهدنة ، وما إلى ذلك ؛ وإعطاء كل معونة ممكنة لقوات الأمم المتحدة فى الحرب ضد النازى ، ويدخل فى ذلك : تغذية الرأى العام عن طريق الصحافة السرية الحرة — وسيأتى الكلام عنها — وذلك لتأليف كتلة وطنية متماسكة ، ترفض التعاون مع الألمان ، وتعد العدة لاستقبال يوم الخلاص من نيرهم ؛ ثم إيواء الطيارين البريطانيين وغيرهم من طيارى الأمم المتحدة الذين ينجونمن الموت عند سقوط طائراتهم فى أرض (العدو) ؛ وتدبير فرار هؤلاء الطيارين ومعاونتهم على اجتياز الحدود أو عبور المانش بسلام إلى شواطىء انجلترة ؛كما حدث فى النرويج والدانمرك وهولندة وبلجيكا وفرنسا ،ثم تسهيل مرور « اللاجئين » والفارين من معسكرات الاعتقال الألمانية ، كالبولنديين واليهود وأسرى الحرب ؛ وترك الأنوار مضيئة من أعلى النوافذ (سهوا) وقت الغارات على أمل إرشاد الطائرات المغيرة إلى أهدافها .

وهكذا كثرت أساليب هذه المقاومة السلبية وتنوعت ، وكانت أعظم ظهوراً فى البلدان التى لا تساعد جغرافيتها أو ظروفها السياسية أو وقوعها تحت رقابة جيش الاحتلال ورجال الجستابو الشديدة على اتقان أهلها أساليب المقاومة الايجابية ؛ ومن ثم امتازت كل من الدانمرك وهولندة وبلجيكا وبولندة وفرنسا أخيرا بإتقان أساليب المقاومة السلبية ، ولو أنه مما ينبغى ذكره أن هذه البلاد جميعا قد أخذت تتحول من مجرد أتباع أساليب المقاومة السلبية الآنفة إلى القيام بأعمال التخريب على نطاق واسع والاشتباك مع العدو فى معارك دامية

وكان الدانمركيون أصحاب الفضل الأول فى ظهور نوع المقاومة المعروف باسم « إعطاء الكتف البارد » للضيوف النازيين (Den kold Skudde) : أى إهمال أمرهم ، وعدم الاهتمام بهم ، والتمسك بحرفية الاتفاقات الرسمية فى المعاملات التى لا مناص من وجودها بين الألمان والدانمركيين ، مما أحاط العلاقات المحدودة القائمة بين النازيين وأهل البلاد بجو من

« البرود » الشديد . وكان الملك الدانمركى (كرستيان) نفسه زعيم هذه الحركة التى كانت تجعل النازيين يشعرون بعمق الهوة التى تفصل بينهم وبين الشعب الدانمركى كما كانت تجعل من المستحيل على هؤلاء النازيين أن ينتظروا من الدانمركيين غير العداوة الشديدة نحوهم . ومن مظاهر هذه الحركة امتناع الشابات الدانمركيات عن مخالطة الألمان أو الاجتماع بهم فى المراقص والحاق الإهانة والأذى بأنصار المعاونة مع النازى من جماعة (فريتز كلوسن) Clausen ؛ والتظاهر بجهل اللغة الألمانية ، أو الإجابة على ما يلقيه الألمان على الجمهور من أسئلة باللغة الانجليزية ، وكذلك وضع الورود والأزهار على قبور الطيارين الانجليز الذين يجدون مثواهم الأخير فى الدانمرك ورسم حرف النصر — V — والحروف الأولى من اسم سلاح الطيران الملكى البريطانى (R. A. F.) على جوانب قبورهم . إلى غير ذلك من الأمور التى دفعت أحد الواصلين من الدانمرك يصف هذه المقاومة بقوله : « من المشكوك فيه أن يلقى أى غاز من ضروب المقاومة نوعا أشد إزعاجا وإيلاما مما يلقاه الألمان فى الدانمرك ! » .

بيد أن الدانمركيين لم يقنعوا بهذه الأساليب ، بل أخذت تظهر إلى عالم الوجود حركة سرية واسعة النطاق غرضها التدمير والتخريب فى المصانع التى تشتغل لحساب ألمانيا ، حتى أضطرت حكومة برلين فى أواسط عام (١٩٤٣) إلى أرسال « بلاغ نهائى » بشأن القضاء على هذه الحركة الخطيرة ، والمطالبة بمحاكمة الذين يقترفون أعمال التخريب أمام محاكم ألمانية بدلا من المحاكم الدانمركية التى لا تعترف بعقوبة الأعدام . وفى أغسطس أعلنت حالة الطوارىء فى عدة مدن هامة مع أن الملك (كرستيان) لم يلبث أن أصدر نداء إلى شعبه ناشده فيه التمسك بأهداب الهدوء والنظام ، وسواء أحدث ذلك نتيجة ضغط السلطات الألمانية عليه أو لأنه كان لا يزال يفضل خطة « أعطاء الكتف البارد » للضيوف الألمان ، — فإنه لم تمض ساعات من صدور هذا النداء حتى عادت حوادث التخريب سيرتها الأولى ، بل واشتدت وطأتها ، ودمر المخربون مصنع (دانسك اليومنيوم فابريك) فى كوبنهاجن ، — مما سبق ذكره — وعلى ذلك احتل الألمان فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٣ مدينة كوبنهاجن احتلالا تاما ؛ وأذاع راديو (كالاندبرج) وكان تحت سيطرتهم ، نداء يحض العمال فى كوبنهاجن على عدم الانقياد إلى دعاة الاستفزاز والثوره ، « الذين يوزعون منشورات غفلا من التوقيع يدفعونهم بها إلى أعمال التخريب والتدمير » .

ومع هذا فقد ذهبت نصائح الألمان سدى ، وترتب على الاحتلال الجديد وقوع حوادث خطيرة ؛ منها التحام الجنود الألمان مع الدانمركيين فى مناوشات دامية ، ونسف مستودعات الذخيرة فى منطقة الأحواض فى كوبنهاجن ، وفرار جزء من الأسطول الدانمركى إلى موانىء

السويد ، وإقدام البحارة الدانمركيين على إغراق جميع البوارج الحربية التى كانت فى ميناء كوبنهاجن والتى لم تستطع الخروج من الميناء ، ثم تمكن عدد كبير من ركوب الزوارق البحرية وفروا عليها إلى السويد أيضا .

وعندما قدمت السلطات الألمانية بسبب هذه الحوادث ، إنذاراً إلى حكومة الدانمرك طلبت فيه السيطرة العامة على البلاد ، رفضت الحكومة هذا الإنذار ، وهدد الملك بالاستقالة إذا قبل إنذار الألمان ، فأعلن (فون هانيكين) القائد العام الألمانى الأحكام العرفية فى منشور جاء فيه « إن الحوادث الأخيرة برهنت على أن الحكومة الدانمركية عاجزة عن المحافظة على النظام فى الدانمرك . ولما كانت الاضطرابات التى يسببها سماسرة العدو موجهة ضد الجيش الألمانى ، فأنى بناء على ذلك أعلن الأحكام العرفية فى البلاد كلها » . وكانت الخطوة التالية ، أن اعتقل الألمان الملك والوزراء وولى العهد وأسرته ، وحدثت من جراء ذلك التحامات عنيفة بين جنود الحرس والألمان عند قلعة (سود جنفرى) التى اعتقل بها الملك ، على بعد عشرة أميال شمالى كوبنهاجن ، وكذلك وقعت التحامات أخرى فى ثكنات (ربجر-سيورجس) وفى مدينة (سفند بورج) و (مستفيد) بجوار كوبنهاجن . وزيادة على ذلك أعتقل الألمان جميع الضباط النظاميين فى الدانمرك وقبضوا على رئيس حزب المحافظين ، وزعيم هذا الحزب فى البرلمان ووزير الشئون الكنسية السابق وزعيم الشباب المعروف (إكسل مولر) ، وأحد الشيوخ ، وزعماء نقابات العمال ، ثم شرعوا يضطهدون اليهود ، فقبضوا على رئيس الجالية اليهودية فى كوبنهاجن وكان شيخاً يناهز الثانية والسبعين ، ومعه خمسون من زعماء اليهود ، كما عمدوا إلى أخذ « الرهائن » لتقوية الحكم الإرهابى ، وهددوا باعتقال زعماء العمال « كرهائن » حتى يخمدوا موجة الإضراب التى اكتسحت (هلسنجوير) وتسع مناطق أخرى ثم زادت الأزمة تعقداً عندما استقال فى آخر الأمر (سكافينوس) رئيس الوزارة ورجال حكومته ، ورفض رجال « البوليس » الدانمركى أداء يمين الإخلاص للقائد الألمانى العام (فون هانيكين). ونجم عن هذا الأمر الأخير أن احتل رجال الجستابو وجنود الهجوم جميع مراكز الشرطة بالعاصمة فى آخر أغسطس ١٩٤٣ .

ومع هذا ، فان الإجراءات الألمانية الصارمة لم تأت بالنتيجة المرغوبة ؛ فقد استمرت الاضطرابات فى كوبنهاجن وفى غيرها من المدن ، واتسعت حركة التخريب فى الفترة التالية واضطر الألمان بسببها إلى إصدار منشور جديد يعمم حالة الطوارىء فى الدانمرك كلها ويصر على التشدد فى تنفيذها (٧ سبتمبر) ؛ ولكن أحدا لم يرتدع . فقد جاء فى نبأ من استكهولم فى ٢٩ أكتوبر أن المواصلات والحركة العامة قد عطلت فى أنحاء الدانمرك بسبب ظهور حركة

تخريب جديدة واسعة النطاق ، وأن العصابات دخلت محطة ومصنعاً لآلات اللاسلكي التي تكشف اقتراب الطائرات المغيرة » فقتلت حارساً وتغلبت على بقية الحراس وحطمت جزءاً من المصنع بالقنابل ؛ وأن عصابات أخرى أشعلت النار في مخازن الألمان في (أودنسى) و (اسبرج) .

وفي أواخر عام (١٩٤٣) كانت هذه المقاومة لاتزال على أشدها ، فالمصانع تنقطع عن العمل ، ويضرب عمالها لأتفه الأسباب ، وتكثر حوادث النسف والتدمير بدون توقف في جميع أنحاء البلاد ؛ من ذلك نسف قطار حرب ألماني كان ينقل قوات ألمانيـة إلى الدانمرك لتعزيز الحامية النازية فيها . وإزاء هذه المقاومة الخطيرة ، اضطر الألمان على ما يبدو ، إلى تعديل خطتهم بعض الشيء ، فبعث الهرهتلر في أواخر نوفمبر رسالة إلى الملك كرستيان الذي كان لايزال حتى هذا الحين في شبه اعتقال رسمي ؛ يقول فيها إنه يقدر موقف الملك ويدرك الصعوبات التي تكتنفه من كل جانب ، وأنه لهذا يتوق إلى مقابلته للبحث عن الوسائل التي تكفل علاج هـذه المشاكل من الجانبين ، « لاسيما أن الدانمرك أصبحت في مفترق الطرق ، ويجب أن تساهم بنصيب كامل في جهود المحور الحربية » . وهذا الغرض الأخير كان يستحيل على الملك قبول تحقيقه . لذلك رفض (كرستيان) هذه المقابلة واعتذر عن ذلك بأنه لايزال مقيد الحرية ولا يستطيع فعل شيء مادام محروما من الحرية الكاملة في العمل ، ومالم يرد وزارؤه المعزولون إلى مناصبهم ؛ هذا إلى أن حالته الصحيحة لاتمكنه من تجشم مشاق الأسفار ولما كان يعرف أن هناك ما يشغل الفوهرر في الوقت الحاضر ، فقد أمل أن تتاح لهما فرصة أخرى للاجتماع في وقت قريب ! وهكذا جاء رد الملك كرستيان مثلا في الحقيقة من أمثلة حركة « إعطاء الكتف البارد » للضيوف النازيين ، التي يتقنها الملك الدانمركي الاتقان كله .

وكذلك أتقن الهولنديون أساليب المقاومة السلبية ، وبذل النازيون من مدة جهوداً جبارة لاقناع سواد الشعب الهولندي بأن الألمان يلقون إقبالا على معاشرتهم والتعاون معهم من جانب شطر كبير من أهل البلاد ؛ وحتى يقيموا الدليل على صحة دعواهم أكثروا من نشر الصور الشمسية المزيفة . فنها ماأظهر جماعة من الضباط الألمان يجلسون في أحـد الأندية إلى جانب شابات هولنديات ، أو بعض الجنود الألمان يتحدثون مع الأطفال ويلاعبونهم وهكذا ، كما نشروا صورا جميلة (مزيفة أيضاً) لهتلر الطفل ، ترسمه كملاك طاهر ، وذلك حتى يجتذبوا قلوب الهولنديين إلى محبة زعيمهم . ولكن الأخفاق التام كان نصيب هذه المحاولات المزرية جميعاً .

بل على العكس من ذلك ، لم يلبث الهولنديون بدورهم أن عمدوا إلى أعمال التخريب والتدمير

واتخاذ جميع الوسائل التى تؤدى إلى تعطيل الانتاج وإثارة القلاقل والإضطراب فى أنحاء البلاد وتتضح خطورة الحالة فى هولندة وما بلغت إليه من التوتر أن رئيس الجستابو فى هذه البلاد اضطر إلى إصدار عدة أوامر (فى أواخر يولية ١٩٤٣)، جاء فى أحدها . « أن على قوات البوليس العسكرى والمدنى إطلاق النار فى الحال وبلا إنذار على كل تجمهر يشاهد فى الميادين العامة أو الشوارع يشترك فيه أكثر من خمسة أشخاص » ; أضف إلى هذا إعلان الأحكام العرفية فى جميع البلاد الهولندية على أيدى « سايس إينكارت » حامى هولندة النازى . . وقد جاء فى مرسوم هذه الأحكام ما نصه : « يحاكم أمام المجلس العسكرى ويحكم عليه بالإعدام كل شخص يشترك فى الاجتماعات العامة مهما يكن نوعها ; وكل من يرفض أن يقوم بالعمل المكلف به ولو كان رفضه سلبياً ; وكل من يشترك فى الاعتصاب أو يضرب عن العمل ، وكل من يحمل سلاحا أو يكون السلاح فى حوزته ; وكل من يتمرد أو يثور ضد السلطات العامة ; وكل من يكتب أو ينشر أو يوزع منشورات من شأنها إثارة الخواطر أو تعكير صفو النظام العام ولهذه الفقرة الأخيرة أهمية خاصة لأنهـــا تشير إلى وجود وذيوع ما يعرف فى أوربا النازية باسم « الصحف السرية » ; وهذا إلى أنها تتضمن اعترافا واضحا بخطر الدور الخفى الذى كانت تلعبه هذه الصحافة الحرة فى تقويض أركان النظام الجديد لا فى هولندة وحدها ، بل وفى أوربا الهتلرية جميعها .

• • •

وقد انتشرت المقاومة السلبية فى البلدان المحتلة فى أوربا النازية حتى أن الأطفال وصغار السن لم تكن حماستهم تقل عن حماسة البالغين وكبار السن فى إظهار كراهيتهم للالمان ، وإصرارهم على عدم التعاون معهم . من ذلك أن جريدة (لوپاى رييل) Le Pays Réel البلجيكية ، وهى صحيفة (ليون ديجريل) Dégrelles من كبار أنصار النازى فى بلجيكا ، شكت ذات يوم من أن المدارس تحرض الأطفال على الثورة » ; ثم ذكر المحرر لإثبات ذلك « أنه صادف تلميذتين صغيرتين تنشدان فى الترام أنشودة وطنية تنتهى بما معناه أن بريطانيا العظمى سوف تكسب الحرب لا محالة ; فلما سألهما أين تعلمتا هذه الأنشودة أجابتاه : « فى المدرسة » ولم يلبث البلجيكيون أن أخذوا يحتلون مكاناً ظاهراً بين الشعوب المقهورة التى أتقنت أساليب المقاومة السلبية ضد النازى ; ومما لاشك فيه أن هذه المقاومة كانت تستمد قوتها من « الصحف السرية » المتعددة التى ما فتئت تعمل على نقل أخبار العالم الخارجية إلى البلجيكيين فى صورتها الصحيحة ، وتحض أهل البلاد على عدم التعاون مع الألمان وتحيى فى نفوسهم الأمل فى قرب ساعة الخلاص ، وتشجعهم على التآزر فى سبيل إلحاق الأذى بآلة الحرب الألمانية .

ومع أنه كانت هناك فئة من البلجيكيين الضالعين مع الألمان إلا أنها كانت أقلية لاتذكر وقد أصبحت موضع الكراهية والازدراء فى البلاد كما أن للعمال والمهندسين البلجيكيين الذين سخرهم الغزاة لأنتاج مايحتاجون إليه لم يكونوا يزيدون على عشر السكان ؛ ومع هذا فقد اتحدت كلمتهم على تعويق الإنتاج بكل مافى طاقتهم من حيلة أو جهد ، أضف إلى ذلك أن ملك البلجيكيين (ليوبولد) قد لزم العزلة منذ مدة طويلة فى قصره فى (لاكن) على بعد عشرة كيلو مترات من بروكسل ؛ لايقابل أحداً من الغزاة ، ويأبى التعاون معهم ، ولذلك تركه الألمان فى مقره مقيد الحرية ، غير عابئين به ، كما قالوا « مادام لا يستطيع شيئاً فى سجنه الحالى » .

* * *

وكان من أهم أنواع المقاومة السلبية تدبير المظاهرات فى البلدان المحتلة احتجاجا على أساليب النازى الحكومية ولإقامة البرهان على أن هذه الشعوب المغلوبة ترفض التعاون مع النازيين إطلاقا . وفى أغلب الأحيان وكان الطلبة يتزعمون هذه المظاهرات ، كما حدث فى (مظاهرات الجامعات الهولندية) فى عام ١٩٤٠ ، فى جامعتى (دلفت) Delft وليدن Lyden عندما احتج الطلبة على إخراج الأساتذة اليهود من هاتين الجامعتين . بل إن إصرار (سايس إنكارت) Seyss Inquart حاكم هولندة النازى على تشريد اليهود الهولنديين وإبادتهم سرعان ماأسفر عن وقوع التحامات دموية بين الهولنديين الوطنيين من جانب والنازيين والهولنديين المتعاونين معهم من أنصار (مسيرت) Mussert - كويسنلج هولندة - من جانب آخر ؛ ووقعت هذه المعارك خصوصاً فى أمستردام ولهاى فى شهر يناير وفبراير ١٩٤١ .

وفى العامين الأخيرين امتدت عدوى المظاهرات إلى البلدان الأخرى التى وطد النازيون فيها أقدامهم ، فجاء من (أثينا) فى مايو من عام ١٩٤٣ أن الطلبة فيها أحدثوا شغباً على أثر حادث قتل فيه الجنود الإيطاليون أحد الطلبة اليونانيين ، وقد اعتصم الطلبة فى أحد أبنية الجامعة ، وأخذوا يرجمون الجنود الإيطاليين بالحجارة وهم ينشدون النشيد الشيوعى الدولى وكذلك جاء من ساوفا كيا فى الشهر نفسه مايفيد قيام مظاهرات كبيرة فى المدة الأخيرة فى شرق هذه البلاد احتجاجا على قلة المواد الغذائية بها ، ووقوع حوادث محزنة أمام المتاجر الخالية . وفى شهر نوفمبر من العام نفسه (١٩٤٤) جاء من استوكهلم أن سياسياً أجنبيا زار فينا بعد مؤتمر موسكو (أغسطس ١٩٤٤) أفضى إلى مراسل جريدة (داجنس) فى زوريخ بتصريح جاء فيه قوله : — « تجتاح النمسا كلها موجة من التفاؤل حتى لقد زاد فيها نشاط الجمعيات السرية وأعمال التخريب زيادة ملحوظة . وقد أعيد تأليف اللجنة الوطنية التى أنشئت فى خريف

سنة ١٩٤١ ، وعهد اليها بادارة الأعمال السرية فى البلاد ، واختيرت لجنة فرعية للجنة المعروفة باسم لجنة المقاومة لغرض واحد هو عرقلة أعمال النازى . وقد أصدرت هذه اللجنة منشوراً دعت فيه جميع العاملين ضد النازى إلى توحيد صفوفهم والتعاون فى أعمالهم ، وناشدت النمساويين جميعاً الاهتمام بالاشتراك مع جميع الشعوب المقهورة وخاصة جيرانهم منها فى الجهود التى تبذلها لتظفر بحريتها ؛ وكان هذا المنشور يتضمن آراء عملية بشأن طريقة تنظيم المقاومة ويطلب إلى الجنود أن يفروا إلى إقليم الحدود وينضموا إلى الوطنيين المحاربين ، وكثيرا ما كان يحدث الاعتداء على الموظفين وجنود الهجوم الألمان مما أدى إلى القبض على الناس جملة وصدور أحكام كثيرة بالإعدام . ويقول مصدر آخر إن عقد مؤتمر موسكو شدد عزائم المقيمين فى التيرول ، وستيرمارك ، فأخذوا يشعلون نيرانا هائلة فى أعلى الجبال ؛ وقد سارت مظاهرات فى أحياء العمال فى فينا ورفعت الرايات النمساوية على كثير من المبانى ، فتدخل جنود الهجوم الألمان حينئذ ، وقبضوا على مئات من الناس ، وقد أبدى السكان مقاومة عنيفة فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين . وقد شوهدت أعلام كثيرة مرفوعة كتبت عليها العبارة التالية : — « لتحي الجمهوريه النمساوية » .

وفى باريس دبر الطلبة المظاهرات ضد النازى ، ومن أمثلة ذلك المظاهرات التى دبرها الطلبة فى الحى اللاتينى فى أغسطس ١٩٤٠ ، فى أثناء معركة بريطانيا ، وعقب فشل الألمان فى هذه المعركة ، وقد أطلق الألمان الرصاص على هؤلاء المتظاهرين فى كل مرة . ثم مظاهرة ١١ نوفمبر ١٩٤٠ وهذه دبرها الطلبة واشترك فيها أهل باريس لإحياء ذكرى الهدنة بزيارة قبر الجندى المجهول تحت (قوس النصر) . ولم ينفض المتظاهرون فى ذلك اليوم إلا بعد إطلاق رصاص المدافع الرشاشة عليهم فى ميدان (الاتوال) Place de l'Etoile ، وقبض الجستابو على مائة وخمسين طالباً تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وثمانى عشرة سنة ، لم يعرف أهلهم عن مصيرهم شيئا منذ ذلك الحين . وهناك عدا ذلك ، المظاهرات والالتحامات العديدة التى سبقت الإشارة إليها عند الكلام عن مقاومة الفرنسيين ضد تعبئة العمال لتسخيرهم فى العمل الإنتاجى فى ألمانيا . وكان من جراء أقدام الريخ على تعبئة العمال الفرنسيين أن توجه طلاب الجامعة والمدارس العليا فى باريس إلى الماريشال (بيتان) فى يولية ١٩٤٣ بالخطاب التالى :

« امتنعنا منذ أكثر من عامين عن كل مظاهرة من شـــأنها أن تعكر صفو الأمن العام وتعرقل أعمال الحكومة ، ولكن سكوتنا لايعنى إننا قبلنا الحوادث التى وقفنا منها موقف المتفرجين المنكوبين . فقد وقع حادث ترحيل آلاف العمال الفرنسيين إلى ألمانيا موقع الإشمئزاز والسخط فى نفوسنا وكان إعجابنا كله متجها إلى الكثيرين من زملائنا الذين تركوا

البلاد لمواصلة الكفاح ضد العدو الذى يحتل أرضنا ويستغلنا . وقد كنا فى الوقت نفسه نعلل النفس بآمال النهضة الوطنية التى كنت تمثلها فى نظرنا والتى وعدتنا بها فى رسائلك . ولكن الحوادث مع الأسف كذبت وعودك وأدت إلى انهيار صرح آمالنا . فقد رأينا فرنسا تزداد خضوعا للألمان وذهبت إلى حد التطوع تحت أعلام قاهرها تلك الأعلام التى بدأ النصر يتحول عنها . أما الآن فقد أزفت الساعة التى يجب علينا فيها أن نستأنف تقاليد الجامعة التى كانت فيما مضى تعرب للوك بكل حرية عن شكاوى الأمة وتعبر بكل قوة عن مطالب الفرنسيين إننا مثلك نبغض تلك الأكاذيب التى أضرت بنا ضررا كبيرا . ويجب أن نضيف إلى هذه الأكاذيب أكذوبة الهدنة والتعاون التى دفعت بنا إلى قبول ماقبلته بلجيكا وهولندة والنرويج وبولندة ويوغوسلافيا مكرهة . ولنذكر بوجه خاص أكذوبة « الحملة فى سبيل الحضارة » تحت لواء زعيم ينكر جوهر هذه الحضارة ويحتقر حقوق الإنسان ، وتلك الأكذوبة الأخرى التى تنحصر فى استبدال خمسين ألف مريض من الأسرى بخمسمائة الف عامل ونحن الآن نرفض أن نكون ألعوبة لمثل هذه الأكاذيب ، ونصرح بأن الواجب يقضى على جميع الفرنسيين بأن يرفضوا رفضاً تاماً كل أمر يرمى إلى العمل لتأمين انتصار ألمانيا . وإنه لمن العار علينا أن نعمل فى سبيل قضية نعلم حق العلم أنها غير عادلة ولا تتفق مع استقلال فرنسا والمحافظة على حضارة البشر . فجميع زملائنا سيهربون متى وجدوا الفرصة المؤاتية بدلا من أن يساهموا فى تعزيز أداة الحرب الألمانية . إن فرنسا ملأى بالغابات والجبال حيث يمكننا انتظار الساعة التى نستطيع فيها الانضمام إلى جيش تحرير الوطن . أما من يستطيع منا الفرار فلن يتردد فى الانضمام إلى الزعماء الذين يمثلون روح المقاومة ويستحقون ثقتنا وإعجابنا وسيسافر الذين يكرهون منا على السفر إلى ألمانيا وهم يعتزمون مساعدة إخوانهم العمال على تحطيم الروح المعنوية فيها ، وتخريب مهمات عدونا اللدود . إننا لسنا من الملكيين ولا من المجانين ، ولكننا طلبة وطنيون وسنكافح ونتألم مع زملائنا البواسل فى جامعات وارسو وبلغراد ولوبليانا وأكسفورد وكمبردج وهارفرد ، ومونتريال ، ولوفان ، ولينين ، فى سبيل انتصار مثلنا المشتركة » .

* * *

هذه صورة موجزة لما كان يجرى من ضروب المقاومة فى أنحاء أوربا النازية وقد ألحقت أضرارا لايستهان بها بعتاد الحرب الألمانى من جهة ، كما عطلت أداة الإنتاج الاقتصادى إلى درجة كبيرة . وقد ظهر كيف أرغمت هذه المقاومة الألمان على الاحتفاظ بقوة مسلحة كبيرة فى جميع البلدان المقهورة لصيانة قلعتهم الأوربية من أن تنهار جدرانها ، هذا عدا جيش

الجستابو الجرار الذى انبث أعضاؤه فى كل قرية ومدينة لتأييد الاحتلال الألمانى ، ولمراقبة أعداء « النظام الجديد » فى أوربا الهتلرية . فأبقى الألمان عدة فرق فى البلقان منذ تحولت هذه البلاد ، بفضل الجيوش والعصابات اليوغوسلافية واليونانية خصوصاً إلى ميادين قتال جديدة ، أصبح من واجب النازيين أن يخوضوا فيها غمار معارك دموية عنيفة حتى يعيدوا فتحها من جديد ؛ وبدأوا يدفعون أثمانا غالية « لانتصاراتهم » ؛ ثم عبأ الألمان قوى « البوليس » النظامى ، ورجال الجستابو فى بقية أوربا النازية لصون الأمن ، والقضاء على عناصر الفوضى والاضطراب ، والمحافظة على حياة رجال الاحتلال الألمان ، وحياة معاونيهم الكويسلينجيين من أهل البلاد الذين قبلوا التعاون معهم .

ومع ذلك — فإن هذه المقاومة لم تكن وحدها مصدر كل متاعب النازيين فى أوربا فسرعان ماصارت مقاومة أهل البلاد المقهورة ، منذ أفاقوا من الذهول الذى أصابهم على أثر صدمة الغزو الأولى ، تستند إلى تيار خفى لم يلبث أن زادها قوة على قوة ، وأقض مضاجع الألمان وشرع يقوض أركان النظام الجديد فى أوربا . هذا التيار الخفى ، هو « الدعاية المضادة » أو الدعاية الخفية ، ذلك السلاح السرى الذى ظل نصله مرهفا رغم أنوف النازيين لافى أوربا النازية وحدها بل وفى الريخ الثالث ، دولة أدلف هتلر نفسه .

الفصل الرابع

الدعاية الخفية

كانت الدعاية من الأسلحة القاطعة التى أجاد النازيون استخدامها كل الإجادة منذ قبضوا على أزمة الحكم فى ألمانيا . ومن الحقائق المعروفة الآن ، أنهم كانوا يقصدون من نشر دعايتهم إلى تأييد أركان الحزب النازى فى دولة الريخ الثالث ، ثم إدماج الريخ فى الحزب النازى نفسه ،وفرض مبادئهم وتعاليمهم فرضاً على الشعب الألمانى ، حتى يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التى كانوا يرون أنه لاغنى عن وجودها إذا أرادوا الوصول إلى السيطرة العالمية المنشودة وكانوا يقصدون كذلك إلى تهيئة بقية الشعوب الأوربية وإعدادها لاعتناق هذه المبادىء والتعاليم ، وقبول سيطرة السادة النازيين عليهم . وقد نجحوا فى داخل بلادهم نجاحا منقطع النظير كان من نتيجته أن أصبح الحزب يسيطر كل السيطرة على الحياة الألمانية ، ويدفع بالأمة دفعا عن يقين وعقيدة ، أو دون تفكير وتدبر أو تحت ضغط ماسلطوه من صنوف الإرهاب على الشعب الألمانى ، إلى مناصبة الأمم الأخرى العداء . والالتحام معها فى معارك الحرب الطاحنة . ولم يكن من أهداف (الدعاية) الداخلية بطبيعة الحال أن يعود الشعب الألمانى التفكير مطلقاً ، لأن التفكير من شأنه أن يبعث المرء على أن ينقد كل ما يعرض له من مشاكل ، ويدعو إلى مناقشة أعمال رجال الحكم ، ويسبب لذلك صعوبات جمة تتطلب جهودا معينة لازالتها ، ولا يتفق وجودها مع برامج النازيين وخططهم .

ومن ناحية أخرى ، أصاب النازيون نجاحا كبيراً فى بقية أوربا . وبخاصة فى فرنسا والأراضى المنخفضة والبلقان ، فظهر فى هذه البلدان التى خضعت لطغيانهم سلماً ، أو من غير مقاومة تذكر ، فريق من الكويسلنجيين تقدم ذكرهم ، قبلوا التعاون مع النازيين ، وأيدوا السيطرة الأجنبية فى بلادهم . ومع أن خروج كل هؤلاء إلى الميدان ، بمجرد وقوع الاعتداء النازى على أوطانهم ، كان مفاجأة دهش لها العالم . فان الحقيقة هى أن النازيين ظلوا منذ مدة طويلة يلقون بشباكهم فى البلاد المجاورة لهم وكذلك فى الأقطار البعيدة عنهم حتى يتصيدوا الموالين لهم ؛ وحتى يجذبوا إليهم الأنصار والمؤيدين ، يشترونهم بالمال تارة وبالوعد (أو الوعيد) تارة أخرى . ولعبت الدعاية النازية فى ذلك كله دورا دل على مهارة فائقة ، واستطاعت أن تقنع كثيرين من هؤلاء الموالين والأنصار ، بالأمور ،

التى شاء النازيون أن يقف العالم كله على « حقيقتها » . ومن هذه « الأمور » — على سبيل المثال — : أن اليهود والشيوعيين يأتمرون بالعالم ؛ وأن من الخير كل الخير أن تتحد الشعوب الأوربية مع النازيين فى بناء حضارة جديدة ؛ وأن الكاثوليك أيضاً مع أعداء الحضارة ؛ وأنه ينبغى أن يمهد السبيل إلى ذلك كله بأزالة ما لحق بألمانيا من إساءات فى معاهدات صلح فرساى المعروفة ، وإدخال هذه الدولة فى زمرة الدول الكبيرة على قدم المساواة معها وإشراكها فى توزيع موارد العالم الأولية ، ومن بين هؤلاء « المقتنعين » بصحة هذه الأقوال وجد النازيون ضالتهم ؛ وبفضل مؤازرتهم استطاعوا شيئاً فشيئاً تحطيم روح الشعوب المعنوية حتى إذا جد الجد وأزف موعد الغزو ، اعتمد النازيون على تسليم أهل هذه البلاد فى غير حرب أو مقاومة . ثم كان لهم ما أرادوا حتى قيل إن الجيش الألمانى فى فتوحه الخاطفة الأولى دخل بلاداً كان قد سبق فتحها وإخضاعها منذ مدة طويلة .

بيد أن دور الدعاية النازية لم ينته فى الحقيقة عند ذلك ؛ بل سرعان ما طلب إليها بعد الانتصار الخاطف أن تنشر الدعوة بين الشعوب المقهورة لقبول النظام الجديد على نحو ما تقدم ذكره . ومن ذلك الحين صار النازيون يحرصون على تفسير معنى النظام الجديد ، ويقيمون البرهان بعد البرهان على أنه النظام الذى يكفل من جميع النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دعم أركان تلك الحضارة الجديدة التى أطالوا الحديث عنها فى السنوات الماضية . ثم اجتهدوا حتى يحببوا أساليبهم وطرائقهم إلى أهل البلاد المفتوحة ، وينشروا بينهم تعاليمهم ومبادئهم ويشوقوهم إلى الاقبال على مناصرتهم وتأييدهم والتعاون معهم لا لتعزيز شكل الحكم الجديد وتأييد أداته ، بل ومن أجل إقصاء العناصر المعارضة جميعها ، والقضاء على المقاومة بمختلف أنواعها ، وتسخير الأهلين فى إنتاج عتاد الحرب ، ثم اشراكهم أخيرا فى معارك الحرب القائلة .

واعتمد النازيون على الصحافة والراديو فى نشر الدعوة إلى النظام الجديد ، ووجدوا فى إثارة الإشاعات والأقاويل سلاحا ماضيا لا يقل فى أثره عن فعل الكلمة المكتوبة ، أو الأحاديث التى ينقلها الأثير إلى كافة الأرجاء ؛ واستند النازيون فيما كانوا يذيعون إلى مبادىء معينة . وصلوا إليها كما قالوا بعد دراسة سيكولوجية الجماعات والشعوب . وأهمها : أن التكرار الكثير من شانه أن يلصق فى ذهن المخاطب نوع الصورة أو الفكرة التى يريد أصحابها أن تعلق فى ذهنه وتتغلغل فى فؤاده ؛ وأن الكذب الفاضح يجد من سامعه قبولا وتصديقا ، لأن الشخص إذا اعتاد الكذب « الصغير » فى حياته اليومية ، صار لا يصدق الأكذوبة الصغيرة ؛ بل الأكاذيب الضخمة وحدها هى التى تترك أثرا عالقاً فى نفسه ؛ وأن مثل

الجماهير فى قدرتهـا على التفكير كالقطيع من الغنم الذى لا إدراك له ولا تمييز عنـده .

ولما كان من شرائط نجاح «الدعاوة» أن تظل الآراء والأقوال الموحى بها والمنقولة إلى الجماعات من نوع واحد وعلى وتيرة واحدة ، فقد أصبح ضروريا أن تحاط هذه الجماعة بسياج قوى يعزلها عن غيرها من الجماعات ، فلا تجد الآراء والأقوال المغايرة طريقا تنفذ من هذا السياج إليها . ولذلك انشئت « الرقابة » وصارت مهمتها فى الدول الديكاتورية وفى ألمانيا بطبيعة الحال ، السهر على أن يكون الكتاب والناشرون والقصيصون والمهيمنون على التعليم وتربية النشء ومن اليهم ، كالرسامين ، ومديرى المسارح، ومخرجى الصور المتحركة وشركات النشر والتوزيع ، من طراز معين . ذلك بأن هؤلاء جميعا من أصحاب العلم والرأى ، وينبغى لذلك أن يسير تفكيرهم فى مجرى واحد ، فلا يترك الفكر حتى يخرج عن هذا الطريق المرسوم أو يطغوا على جوانب هذا المجرى . ولما كانت عدوى الرأى والفكر أخطر من غيرها على النظم القائمة وكانت الصحف السيارة ، بفضل ماتنشره من أخبار أو تعده من بحوث مبسطة تقرب المعانى وما تشاء من آراء إلى أذهان الجماهير ، وتوحى إليها بما تريد أن توحى به ، أعظم أداة إلى جانب الراديو لاذاعة مايبغى أصحابها وكتابها إذاعته ، وضع النازيون مراسلى الصحف على وجه الخصوص تحت رقابة شديدة ؛ ثم صار الرقيب لاينشر رسائلهم إذا اشتملت على خبر أو رأى من شانه أن يفتح أذهان القوم ، أو يجعل الشك من ناحية مايعيشون فيه يتسرب إلى نفوسهم .

ولذلك لم تكد الدعاية النازية تبدأ فى نشر الدعوة إلى النظام الجديد من أواسط عام ١٩٤٠ تقريبا حتى طبق النازيون « الرقابة » الصارمة فى البلاد المفتوحة ،فسيطروا على الصحافة وعلى « الراديو » . وكانت لهم فى ذلك أساليب وطرائق منوعة . الغرض منهـا جميعا تنظيم نشر الأخبار وإذاعة الآراء التى يوافق النازيون على نشرها وذيوعها . ومن بين تلك الأساليب والطرائق أن يحدث نشر الخبر فى البلدان المفتوحـة فى وقت واحد ، على شريطة أن يدرج الخبر أو يديع المقال فى صفحة معينة وفى مكان معين فى جميع الصحف وفى جميع المدن . وإذا كان الغرض ترويج فكرة معينة والإيحاء برأى من الآراء لخدمة مآربهم أفرغوا هذه الفكرة وهذا الرأى فى قوالب منوعة تستسيغها أفهام الجماهير والشعوب التى يراد نقل الخبر اليها أو نشر الرأى المعين بين ظهرانيها . والغاية من ذلك ألا يتسرب خبر أو يذيع رأى لايرغب النازيون فيه ، وأن يكون النشر مقصورا على مايريدون أن يعرفه سواد الناس وخاصتهم ، وفى الصيغة التى تروقهم .

ولهذا التصرف فى نظر النازيين عدة مزايا أولها : تهيئة الفكر حتى يقبل تفسير حادثة

معين سبق أن دبر النازيون وقوعه منذ مدة . مثال ذلك ، الحملة العنيفة التى أثارها النازيون ضد بولندة بدعوى أن البولنديين يسيئون إلى الأقلية البولندية التى تنتمى إلى أصل ألمانى (Volks genosse) فى بلادهم شر إساءة ، ولا يتورعون عن ارتكاب كل جرم من أجل إفناء هذه الأقلية . وذلك حتى يشعلوا نيران الحقد والكراهية فى نفوس الألمان ضد الشعب البولندى ، وحتى يستنكر الرأى العام الأوربى أعمال البولنديين الاجرامية المزعومة ، فلا تجد بولندة من يعطف عليها حينما تنزل بها الكارثة ، ويجتاح الألمان أرضها .

والمزية الثانية ، هى أن يألف أهل الريخ أنفسهم ، بسبب ماتغمرهم به الدعاوة النازية من أخبار وآراء متلاحقة وعلى وتيرة واحدة ، — السكون إلى مايتلقونه من زعمائهم والرضى بما يلقى فى روعهم ، فينصرفون عن إعمال الفكر والروية ، إطمئنانا إلى أن قادتهم انما يقومون بمهمة التفكير وإعمال الرأى بدلا عنهم فيصبحون فى الحقيقة شبه آلات مسيرة يحركها الزعماء ويوجهونها حسبما يريدون .

ولزيادة احكام هذا الجهد التوجيهى المنظم ، — أو كما يسميه النازيون «Gleichschaltung» عنى النازيون بكل صغيرة وكبيرة من مسائل النشر ، فأصدروا أوامر عدة تقيد الصحف فيما تنشره وترغمها على اتباع أنظمة خاصة فى تدوين الأخبار . ولما خشوا أن تتسرب إلى الصحف آراء مغايرة لآرائهم على الرغم مما قد يتخذونه من إحتياطات ، حرص النازيون على أن يكون محررو الصحف والكتاب من الأفراد الذين يثقون بهم كل الثقة ، ويطمئنون إلى ميولهم ونوع تفكيرهم ؛ ومن ثم أخذوا يبعدون عن إدارات الصحف فى جميع البلدان المحتلة ، الكتاب والمحررين المشكوك فى إخلاصهم ، والذين يعتبرونهم من أعداء النظام الجديد وأحلوا مكانهم أفراداً من الذين يقبلون التعاون معهم ؛ ثم لم يلبث أن دعاهم الحرص إلى إنشاء صحف محلية تكتب باللغة الألمانية فى عواصم البلدان المفتوحة ، حتى يضمنوا تنفيذ التعليمات التى تصدرها مراكز الدعاوة الألمانية الرئيسية فى الريخ ، على علاتها ومن غير تعديل أو تحوير يذهب ولا شك بقيمتها وأثرها ، مهما كان التعديل أو التحوير طفيفا فى ظاهره . ومن ثم أصدر النازيون فى باريس صحيفة Pariser Zeitung الألمانية ، وفى وارسو Warschauer Zeitung كما أصدروا صحفا أخرى فى كركاو ، وبلغراد ، وبراج ، والنرويج ، والدانمرك ، وكراوتيا ، وسلوفاكيا ، هذا عدا المئات بل الآلاف من الصحف الصغيرة والمجلات المصورة والنشرات وغير ذلك . ومع أن هذه الصحف كانت تصدر فى بلدان مختلفة ، فقد جاءت جميعها متفقة فى الشكل والتبويب وفى نوع الأخبار والبحوث التى تنشرها ، حتى لتكاد تكون كلها فى الحقيقة نسخا متعددة من صحيفة واحدة ، فلا يشعر القارىء بأى اختلاف ، ولا يميز بعضها عن بعض سوى مايدرج فى مكان الأنباء المحلية .

* * *

وكان من أثر هذه الرقابة الصارمة ، وهذا « الجهد التوجيهى المنظم » الذى تقوم عليه الدعاوة النازية وإدارتها ، أن وجد أهل البلاد المقهورة أنفسهم آخر الأمر فى عزلة كاملة عن بقية العالم ، يقرأون مايسمح به « التنظيم » النازى فحسب ولا يدرون من أحوال الشعوب الأخرى غير مايجيز النازيون معرفته . ولكن سرعان مانجم عن هذا الوضع الشاذ رد فعل عميق فى نفوس هؤلاء المقهورين ؛ والسبب فى ذلك ، تلك العزلة ذاتها التى فرضت عليهم فى وقت عظمت دعاوة النازيين إلى النظام الجديد ، وكثرت أقاويلهم التى وصفوا بها « مزايا » النظام المزعومة . هذا بينما وجد الأهلون بالبرهان الساطع مما يلمسونه فى حياتهم اليومية أن هذه الدعاوة وهذه الأقاويل كاذبة لأنه بدلا من العيش فى ظل حياة وادعة مطمئنة ـ كما أسرف النازيون فى وعودهم ـ أصبح الأذى من نصيبهم ، وصار الظلم ينزل بهم من كل جانب ، ويعيشون عيش الذل والضعة فى كنف نظام ، يعمل على انحلال الأسرة وتشتيت أفرادها ، ويسخر الشباب والنساء وكبار السن والصغار فى العمل الانتاجى المرهق لمصلحة الريخ وحده ، ويسلب أقوات الأهلين ويتركهم يتضورون جوعا ويموتون من العرى والبرد زرافات ووحدانا كما حدث فى بلاد اليونان وغيرها . لذلك صار من الطبيعى أن ، يداخلهم الشك فى كل مايقرأونه ويسمعونه عن النظام الجديد ، وباتوا لا يصدقون ماتروجه الدعاية النازية من ادعاءات وأقاويل عن مزايا هذا النظام ويتوقون إلى الخلاص منه ،

ومنذ شعرت هذه الشعوب المقهورة بأن الدعاية النازية : انما تريد أن تضللهم بما تنشره عليهم من أكاذيب لم يكن المقصود منها فى الحقيقة سوى إخماد الروح المعنوية فيهم وتسخيرهم فى خدمة مآرب النازيين ، وإحكام السيطرة الجرمانية على الشعوب الأوربية المحقرة . بدأعهد ماصار يعرف فى تاريخ المقاومة فى أوربا المحتلة باسم « الدعاوة المضادة » « أوالدعاوة الخفية »

والواقع أنه كان من المنتظر أن تظهر إلى عالم الوجود هذه « الدعاوة المضادة »، عندماتنتهى موجة الفتوح الخاطفة النازية وبمجرد أن تفيق الشعوب المقهورة من أثر صدمة الغزوالعنيفة إذ يسترد المذهول ، سمعه وبصره ، ويستعيد إدراكه ووعيه ؛ ومن ثم يصبح فى استطاعته أن يميز بين أقوال النازيين وفعالهم ، ويمعن النظر فيما يشاهده حوله . ولم يكن من السهل على المغلوب المقهور أن يفيق من ذهوله ، ما دامت آلة الحرب النازية الضخمة ماثلة أمامه ، وما دام النازيون المنتصرون يستأثرون بأكاليل الغار ، ويدوسون تحت نعالهم شعوبا برمتها . وما دام النصر حليفهم فى كل مكان وزمان . لذلك أصبح من الضرورى أن تلحق بالنازيين الهزيمة ، وأن تعترض أعمالهم العسكرية بعض العقبات الكأداء ، حتى يزول من الأذهان ذلك

الزعم بأنهم شياطين لا سبيل إلى قهرهم ، وحتى يدرك أهل البلاد المفتوحة أنهم بشر يقعون فى الخطأ ويعتريهم الضعف وأن مقاومتهم والتغلب عليهم فى حيز الإمكان .

ولما كانت التعاليم النازية لا تستند إلى شىء من المبادىء التى أخذ بها العالم المتحضر منذ أجيال وقرون ، ولما كانت دعواهم فى إنشاء النظام الجديد الذى يريدونه دعوى عات جبار لا يرضى عن إذلال الشعوب غير الجرمانية بديلا ، ولما كان البرهان قد قام على أن النازيين بشر قد يفلت النصر من أيديهم ، وقد تدركهم الهزيمة ، فإنه سرعان ما اجتمعت الأسباب التى أفضت إلى ظهور ضروب المقاومة المختلفة التى شهدناها فى أوربا المحتلة ، وإلى ظهور الدعاوة المضادة . وغنى عن البيان أن المقاومة والدعاية الخفية سارتا جنباً إلى جنب ، بل إن الذى حدث فعلا هو أن الدعاوة المضادة سبقت المقاومة بعض الشىء ، كما أنها كانت فى الحقيقة من أساليب المقاومة السلبية المبكرة ، هذا إلى أنها كانت من عوامل انتشار المقاومة ذاتها وتوجيهها كما سيأتى ذكره بعد .

وعلى ذلك كان من أسباب ظهور الدعاوة المضادة ، مسلك النازيين أنفسهم فى تطبيق النظام الجديد فى أوربا المحتلة ، كما كان من عواملها المباشرة هزيمة النازيين فى معركة بريطانيا المشهورة (من ٨ أغسطس إلى ٣١ أكتوبر ١٩٤٠) هذا على الرغم من جهودهم الجبارة المتوالية ، وبخاصة عندما أطلق (جورنج) سلاحه الجوى على لندن فى ثمانية وعشرين هجوماً كبيراً فى وضح النهار ما بين السادس من شهر سبتمبر والخامس من شهر أكتوبر ، فقد تطلع أهل البلاد المقهورة إلى نتيجة هذا الصراع العنيف ، ولم تفد « رقابة » النازيين الصارمة شيئاً فى كتم أخبار الخسارة الجسيمة التى نزلت بسلاحهم الجوى . وفى هذه الشهور العصيبة أخذ ينمو الشعور بضرورة المقاومة لدى الشعوب المغلوبه . ثم لم يلبث أن وجد هـــذا الشعور مكاناً فى صحف البلدان المحتلة تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من وجود « الرقابة » الصارمة التى أنشأوها . فكان فشل النازيين فى هذه المعركة الجوية الهائلة موضع أحاديث القوم وتعليقاتهم ، بل وموضع « نكاتهم » فى بعض الأحايين . وزادت جرأتهم عندما صار البريطانيون بعد ذلك يرسلون الحملات الجوية المدمرة على أوربا المحتلة وعلى ألمانيا ذاتها — وهى التى قال عنها جورنج ، أنها محوطة بحلقة حديدية من الاستحكامات القوية — فتكررت إغارات البريطانيين على فرنسا الشمالية والغربيه وعلى الدانمرك وهولنده وبلجيكا والنرويج . ومن هذه الأحاديث والتعليقات بدأت تظهر « الدعاوة المضادة » ، ووجدت هـذه الدعاية الخفية فى بادىء الأمر طريقها إلى الصحف التى أجاز النازيون صدورها . فقد صارت هذه الصحف تنقل أخبار المعارك الجوية إلى قرائها بكل دقة وأمانة ، وكثيراً ما حاول محرروها

الإفلات من الرقابة الصارمة وقد نجحت محاولاتهم فى بعض الأحايين . ومن أمثلة ذلك أن صحيفة بلجيكية نشرت ذات يوم خبراً فحواه أن « خمسين قاذفة قنابل ألمانية شوهدت تطير صوب بريطانيا ، ولم يعد منها ست وأربعين » فجاءها إنذار شديد من سلطات الاحتلال الألمانية . ولم تكد تمضى بضعة أيام حتى نشرت هذه الصحيفة نفسها خبراً آخر عن قاذفات ألمانية ذهبت للإغارة على بريطانيا فقالت : « شوهدت اليوم ٣٤ قاذفة ألمانية تطير صوب انجلترة ، وقد عادت منها ٤٣ طائرة إلى قواعدها سالمة ! » ، فأغلقت السلطات إدارة هذه الصحيفة . وهناك تلك الصحيفة الدانمركية التى أرادت أن تنقل إلى قرائها خبر إغارة موفقة قامت بها الطائرات البريطانية ودمرت مصنعاً كان يشتغل لحساب ألمانيا فى هـــذه البلاد ، ومنعت سلطات الاحتلال نشر خبر هذه الإغارة ، حتى مضى يومان ، فذكرت إدارة الأخبار الألمانية فى اليوم الثالث من وقوعها ، أن الإغارة التى حدثت لم تكن ناجحة وأن كل ما أصابه الطيارون الانجليز بقذائفهم كان بقرة واحدة . فانتهزت الصحيفة الدانمركية إذاعة خبر الغارة ، وحاولت أن تبين لقارئها مدى الضرر الحقيقى الذى نجم عنها ، على خلاف ما أدعته الدعاية النازية ، فأثبتت الخبر كما صاغته السلطات الألمانية ، ثم أضافت التعليق الآتى : « ولا تزال هذه البقرة تحترق ! »

وبطبيعة الحال لقيت قصة البقرة التى لا تزال تحترق ، ذيوعاً كبيراً ، لا يقل فى الحقيقة عن ذيوع قصة الطيارات النازية الثلاثة والأربعين التى عادت إلى قواعدها سالمة ! ووجد الأهلون فى الأراضى المنخفضة والدانمرك وغيرها فى ترديد هاتين القصتين على وجه الخصوص وسيلة للسخر بالسادة النازيين الذين ظلوا فى فترة الحرب الأولى يمنون النفس بقهر البريطانيين وغزو بلادهم ، وأعلنوا عن هذه الأمنية العزيزة لديهم مراراً وتكراراً ، وأكثروا من ترديدها زهواً وافتخاراً حتى وضعوا « أغنية » فى هذا المعنى :

« نحن ذاهبون (أو مبحرون) إلى انجلترا » Wir fahren gen Engelland ، وصارت الدعاية النازية تذيع هذه الأغنية فى برامجها وأصبحت الأغنية المفضلة أيضاً من الجند النازيين فى كل مناسبة . وكان الغرض من إذاعة هذه الأغنية وترديدها إخماد أى أمل لدى الشعوب المقهورة فى إمكان الاعتماد على بريطانيا فى نجدتهم . ولذلك لم يكد يظهر فشل النازيين وعجزهم ، وتعرف حكاية الطائرات الثلاثة والأربعين وقصة البقرة ذات الحظ السيء حتى زالت هيبة الألمانيين إلى حد كبير من النفوس ، كما تزعزع الاعتقاد فى أن النصر لابد أن يكون دائماً من نصيب السادة الألمان ، ثم اتخذ السخر بالنازيين فى هولنده وبلجيكا والدانمرك وفرنسا خصوصاً أشكالا متنوعة . منها أن أهل الموانيء فى هذه البلدان المفتوحة صاروا

ينقبون عن الاعلانات القديمة وجداول مواعيد قيام السفن فى القنال الإنجليزى ، حتى إذا عثروا على عدد من هذه الجداول أو الاعلانات ، أعادوا لصقها على جدران ثكنات الجند الألمان ، والبنايات العسكرية الألمانية ، ثم كتبوا فى ذيلها يستفهمون : « وما موعد قيام المركب التالية إلى انجلترة ؟ » . وفضلا عن ذلك فإن كثيرين من أهل هذه الموانىء صاروا يعترضون الجند الألمان فى الطريق حتى يسألوهم إذا كانوا يعرفون أن الهر هتلر قد ابتاع حديثاً أقوى جهاز للراديو فى العالم ! فإذا لم يكن الجندى لبقاً متيقظاً وسأل بدوره ولماذا يشترى الهر هتلر هذا الجهاز ، أجابوه على الفور : « لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تأتيه بانجلترة ! » ولعله كان من نتائج إخفاق الألمان فى مشروع غزو انجلترة إختفاء « الأغنية » السابقة ، ثم ظهور أغنية أخرى سماها أصحاب « الدعاوة المضادة » ، بأنشودة « عدم الوصول قط إلى هناك — أى انجلترة — » "Niegelungenlied"

* * *

وكان من أسباب نمو « الدعاوة المضادة » قيام الحرب بين ألمانيا النازية والروسيا فى يونيه ١٩٤١ . صحيح أن النصر ظل حليف الألمانيين فى المعارك الأولى من هذه الحرب ، واقتطع النازيون من دولة السوفييت أقاليم شاسعة ؛ وكان من المنتظر أن يضعف إيمان الشعوب المقهورة من جراء هذا الإنتصار السريع فى بداية الحملة الروسية . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لعدة أسباب : منها أن اشتباك النازيين فى حرب مع الروسيا التى لاتعرف الجماهير عنها سوى أنها من الأقطار السحيقة ذات الموارد التى لاتنضب من الرجال الصالحين لحمل السلاح ، لابد وأن يخلق لأداة الحرب النازية مشاكل عويصة ، لا يكفى النصر السريع لتذليلها ما دام هذا النصر غير حاسم ، وما دامت الجيوش الروسية الجرارة تتخذ خطة المراوغة والاستدراج ، وتفوت على النازيين كل فرصة للالتحام مع أعدائهم فى معركة فاصلة ترغم الروس على التسليم وطلب الهدنة ثم الصلح مع ألمانيا . وقد أصابت الشعوب المغلوبة كبد الحقيقة فى تفكيرها هذا ، وسرعان ماوضح على الرغم من الإنتصارات الأولى ، أن النازيين لايستطيعون شن الحرب الخاطفة فى أملاك الاتحاد السوفيتى ذات الأطراف المترامية ومناطق الإنتاج الكثيرة المتباينة . ولذلك فانه بدلا من أن يكون النصر النازى المبكر فى هذه الحرب سببا فى إخماد « الدعاوة المضادة » ، أصبح على العكس من ذلك من أسباب ازدياد « الدعاية الخفية » وانتشارها

أضعف إلى هذا أن الحملة الروسية — على نحو ماسبقت الإشارة — اقتضت إرسال مئات الألوف من الألمان المجندين إلى جبهة القتال ؛ هذا إلى جانب الفرق المتعددة من أبناء الدول

البلقانية الضالعة مع النازيين خصوصاً . ونشأت عن هذه الحال معضلة جديدة فى الريخ الثالث . هى تزويد المصانع المشتغلة فى إنتاج عتاد الحرب الألمانى بالأيدى العاملة . وعمد النازيون إلى تذليل هذه الصعوبة بنقل العمال الأجانب للعمل بالمصانع والمناجم الألمانية ، ثم تنظيم إنتاج المصانع والمناجم فى البلدان المحتلة تحت إشراف سلطات الاحتلال ورجال الجستابو . وقد تقدم بحث مشكلة العمال الأجانب فى الريخ عند الكلام عن « الاقتصاد النازى » فى أوربا . ولذلك كانت تعبئة الأيدى العاملة وتسخير الأهلين فى الإنتاج الألمانى من أهم أسباب نمو حركة « الدعاوة المضادة » ، ثم إمعان أهل هذه البلدان المغلوبة فى اتباع خطة المقاومة بنوعيها معا : السلبى والإيجابى .

وزيادة على ذلك ، فانه سرعان ماظهر أن الحملة الروسية قد كلفت النازيين أثمانا باهظة فى العتاد والرجال ؛ وأن تقهقر الروس أمام الجحافل النازية الزاحفة عليهم ، كان يجرى وفق خطة موضوعة إلى حد كبير . لأن الروس علمتهم تجارب الحروب الماضية منذ أكثر من مائة عام — وبخاصة إبان حملة نابليون المشهورة على بلادهم فى عام ١٨١٢ — ، أنه كلما أوغل العدو فى أرضهم الشاسعة وبعد عن مراكز تموينه ، سهل على عصابات المقاتلين الروس قطع خطوط مواصلاته وإرهاق مؤخرته ، مما يجعل النصر بعيدا عن متناول يده والغلبة فى نهاية الأمر لهم ومن المعروف أن الروس اتبعوا فى حملة نابليون خطة « الأرض المحروقة » . واتبعوا فى الحرب الهتلرية الماضية خطة إحراق الأرض بما عليها ، وتدمير المرافق وأنابيب المياه وتخريب المساكن وإقفار القرى والدساكر من أهلها ، ونقل مخزونها من المؤن والأغذية وذلك حتى لايجد الفاتح مأوى أو مأكلا أو موضعا لراحة أو استجمام . وقد ظهرت نتائج ذلك كله عندما اعترف النازيون بأن الحرب الروسية سوف يطول أمدها ، وأن الشتاء سوف ينزل عليهم ببرده القارس وهم فى الميدان الشرقى المتعب ، وأن أساليب الحرب الخاطفة والوحدات الميكانيكية السريعة ، لاتفيد شيئا فى كسب نصر سريع ، على غير ما كان جمهور القادة وسواد الشعب الألمانى يتوقع ، وهناك أدلة كثيرة على أن النازيين ما كانوا ينتظرون أن يمتد أجل الحرب إلى شتاء العام التالى (١٩٤١ — ١٩٤٢) . وقد أحدثت هذه الخيبة المرة أثراً عميقاً فى نفوس النازيين كما أحيت آمالا عريضة فى صدور الشعوب المقهورة . وفى الفصول التالية سوف نتحدث عن أثر هذه الخيبة فى داخل ألمانيا ذاتها .

* * *

وفى نهاية العام نفسه (ديسمبر ١٩٤١) ، جد عامل آخر كان ذا أثر بعيد فى نمو الدعاية الخفية ، وانتشار الدعاوة المضادة فى أوربا النازية : هذا العامل هو دخول الولايات المتحدة

الامريكية الحرب ضد النازيين وأحلافهم . وجاء دخول الولايات المتحدة الحرب — إلى جانب اعتبارات أخرى قيمة — بمثابة الهزيمة الشنيعة لأداة الدعاية النازية . فقدكان انضمام هذه الديموقراطية العظيمة إلى جانب البريطانيين والأمم المتحدة معهم فى الصراع ضد طغمة النازيين نذيرا بأن الحملة الروسية المشئومة على السادة النازيين سوف تزداد شؤما عليهم بمرور الأيام والشهور ، وأن الحرب سوف تجد ميادين جديدة خارج القارة الأوربية تنتقل اليها ، ولا يكون للنازيين أمل الإنتصار فيها أو الإحتفاظ بالقدرة على السبق فى العمليات العسكرية دائماً ، وأن الحلفاء الجدد عاملون ولا شك على إيجاد جبهات للقتال ثانية ، وثالثة ، توزع جهد النازيين وتشتت قوى إنتاجهم ، وأن عتاد الحرب من مؤن وأغذية وخامات وذخائر وأسلحة وعقاقير وأدوية ، وأيد عاملة ورجال ، سوف يتدفق تدفقا على روسيا المحاربة الصامدة ، وأن أى أمل لدى النازيين فى النصر لابد وأن ينقضى ويزول عاجلا ، وأن فرصة التحرر من سلطان النظام النازى الجديد لابد آتية ، وأن العاملين من أجل الحرية فى جميع البلدان المغلوبة على أمرها سوف يظفرون بالخلاص قريباً إذا هم ساهموا من جانبهم بنصيب فى إلحاق الهزيمة الماحقة بالنازيين وبأذنابهم من الكويسلنجيين والمتعاونين معهم فى أوربا النازية

والواقع أن انحياز الديموقراطية الأمريكية إلى المبادىء التى ناضل البريطانيون وحلفاؤهم من أجل تعزيزها كان حدثا عظيما فى تاريخ هذه الحرب الضروس وحدها ، بل وفى تاريخ الحضارة والإنسانية كذلك — فمن المعروف أن النازيين ظلوا ينشرون دعاوتهم فى جميع أرجاء العالم المتمدين - ومنها الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، منذ اللحظة التى وصلوا فيها إلى مراكز الحكم فى ألمانيا (١٩٣٣) . وقصة الطابور الخامس ونشاط أعضاء هذا الطابور من الموضوعات التى صار لايجهلها إنسان منذ أن خلعت ألمانيا النازية القناع وامتشقت حسام الغزو والفتح فى وجه الديموقراطيات « المتداعية » ، ولم تتورع دولة الريخ الثالث لنشر دعاوتها عن استخدام سفاراتها وقنصلياتها فى الدول الأجنبية ، كخلايا ومراكز لجمع شتات رعاياها فيما وراء البحار ، وتنظيمهم فى شكل جماعات تأتمر بأمر (الفوهرر) وتذعن لمشيئة الزعيم ورغباته ، حتى تألفت من بين الألمان ، وأقارب الجرمان ، والذين ينحدرون من أصل ألمانى ولكنهم تجنسوا بجنسيات غير ألمانية ، جماعة ضخمة صارت بمثابة الاداة التى يعتمد عليها الريخ فى إضعاف الروح المعنوية لدى الشعوب غير الجرمانية ، وبذر بذور الانقسام بين الأهلين ، واستمالة الأنصار وهلم جرا . ثم ظهرت من بين أعضاء الطابور الخامس الكبير طائفة من المخربين والمدمرين الذين كانت مهمتهم إضعاف أداة الانتاج الاقتصادى وتعطيلها فى الدول التى شعر النازيون بالخوف من ضخامة مواردها . ولذلك حرصت الدعاية النازية كما حرص

وكلاء النازى فى الولايات المتحدة الأمريكية على أن يكثر إنشاء الخلايا النازية بحيث تكون شبكة عريضة تمتد فى أرجاء هذه الديموقراطية العظيمة . وكان الغرض من هذا التنظيم نشر الدعاوة القوية ضد دخول الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب الطاحنة بأى حال من الأحوال ، مستندين فيما يبثونه من آراء وينشرونه من كتابات ويروجونه من أقوال ، إلى رغبة سواد الشعب الأمريكى فى التمسك بخطة الحياد التقليدية وعدم الاشتباك فى حروب قد يخرج منها صفر اليدين إلى جانب ماتكلفه هذه الحرب عادة من ضحايا جسيمة فى الأموال والأرواح كما حدث فى الحرب العالمية الأولى . . : ، أو كما قال النازيون وصنائعهم !

ومع هذا فإن تمسك الولايات المتحدة بخطة الحياد حيال ذلك الصراع العالمى لم يكن كل مارغبه النازيون بل كان من أهدافهم القريبة تنظيم مقاومة فعالة تقف فى وجه كل محاولة ترمى بها الدولة إلى تجديد أسلحتها وزيادتها وتقوية استحكامات الدفاع بما يقتضيه هذا الدفاع من بناء السفن الحربية وتجهيز أدوات الحرب الحديثة وما إليها ؛ حتى اذا جد الجد وحدث مالم يكن فى الحسبان ، شعرت هذه الديموقراطية العظيمة بنقص استعدادها العسكرى ، وخشيت لذلك دخول الحرب . فإذا لم يمنعها هذا الخوف ، لحقت بها الهزيمة سريعا ، أو ظلت عاملا ثانويا لايقدم ولا يؤخر فى سير الحرب ولا يغير شيئا من نتائجها الحاسمة .

وقد أصاب النازيون بعض النجاح فيما أرادوا ، وتأخر بالفعل دخول الولايات المتحدة الحرب مدة ، وظلت الشعوب المقهورة تردد أثناء ذلك هذا السؤال : هل تخوض هذه الجمهورية العظيمة غمار الحرب إلى جانب (الديموقراطية) وتساهم فى تحرير الأمم وخلاصها ومتى تنحاز الولايات المتحدة إلى جانب البريطانيين وأحلافهم ؟ ولا شك فى أن انضمام هذه الجمهورية إلى جانب الأمم المتحدة كان غنما كبيرا يقدر أهل البلدان المغلوبة قيمته ، كما كان النازيون يدركون خطر الآثار المترتبة عليه . وقد شمرت الدعاية النازية عن ساعدها فى شهور الحرب الأولى حتى تمنع نزول هذه الكارثة ، . وكانت المهمة شاقة متعبة . لأنه لم يكن من واجبها تعزيز رغبة الحياد فى داخل الولايات المتحدة فحسب بل كان عليها أيضا أن تدخل الطمأنينة إلى قلوب الشعب الألمانى نفسه فى دولة الريخ الثالث . لأن الألمان كانوا مايزالون يذكرون ما أحدثه اشتباك الولايات المتحدة الأمريكية من رجحان كفة الحلفاء السابقين فى الحرب العالمية الأولى ثم هزيمة القيصرية وانتشار الفوضى والاضطراب فى البلاد سنوات عدة حتى وصل النازيون من جراء ذلك كله إلى الحكم والسلطان على أنقاض جمهورية ويمار البائسة . ولعبت الدعاية النازية فى هذه المسألة الشائكة دورا غريبا ، فبينما كان وكلاؤها وعمالها يبذلون كل جهد فى العالم الجديد لاستمالة الرأى العام الأمريكى إليهم وإلى قبول مبادئهم ، وكسب صداقة

الأمريكيين وعطفهم على «مطالبهم» ، والتمتع بثقتهم ، كانوا من ناحية أخرى فى داخل ألمانيا ذاتها يحطون من قدر الأمريكيين ، ويعتبرونهم من بين الأمم المنحلة التى يسيطر اليهود على شئونها وينفثون سمومهم القاتلة فى كيانها .

بيد أنه سرعان ما تبين أن الدعاية النازية فى الولايات المتحدة كانت فاشلة . فلم يكد يمضى عام واحد على بداية اعتداء النازيين على أوربا حتى أصدر رئيسها (فرانكلين ديلانو روزفلت) تصريح « الحريات الأربع » المشهور فى ٧ يوليه ١٩٤٠ الذى قال فيه : « نأمل أن يطلع علينا المستقبل الذى نعمل على إعداده فى الوقت الحاضر بمدنية تقوم دعائمها على حريات البشر الأساسية . وأولى هذه الحريات : حرية القول والرأى ، والثانية : الحرية التى تجعل فى استطاعة كل إنسان أن يعبد الله وفق معتقده ، والثالثة : الحرية التى يحصل عليها الإنسان بالتحرر من نير البؤس ، والرابعة : الحرية التى تنتج عن التحرر من الخوف . وليست هذه الحريات أحلاماً بعيدة المنال يتطلب تحقيقها أجيالا طويلة ، ولكنها مبادىء حقيقية ملموسة يجب على جيلنا الحاضر أن ينشرها فى العالم أجمع » . فدل هذا التصريح — « تصريح الحريات الأربع » — على أن الديموقراطية الأمريكية العظيمة لا يمكن بأى حال أن توافق على مبادىء النازيين وتعاليمهم أو تقبلها ، وأنها تسير فى الحقيقة بخطى حثيثة صوب الانضمام إلى جانب بريطانيا ومجموعة الأمم المتحدة ، وأن الفشل الذريع كان فى نهاية الأمر نصيب الدعاية النازية فى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى الواقع كان التناقض واضحا بين هذه « الحريات الأربع » التى أراد الرئيس الأمريكى ذيوعها حتى تصبح أساساً تقوم عليه حضارة البشر ، وبين المبادىء التى انطوى عليها ذلك النظام الجديد ، الذى كان يطبقه النازيون فى أوربا المحتلة تمهيداً لفرض السيطرة الجرمانية على أمم العالم قاطبة .

وفى الشهور التالية ترقبت الشعوب التى وقعت تحت نير النازيين بزوغ فجر ذلك اليوم الذى يصبح فيه وقوف الولايات المتحدة إلى جانب الأمم المتحدة حقيقة واقعة ، ولم يفد طغيان النازى على أيدى رجال الجستابو الملطخة بالدماء ، ولا قسوة سلطات الاحتلال الألمانى ولا الرقابة الصارمة ، شيئاً فى إخماد آمالهم أو عزلهم عن بقية العالم ومنع تسرب الأخبار إليهم . وظل الحال على ذلك ، حتى جاء اليوم الذى استطاع أن يجتمع فيه رئيس الحكومة الانجليزية (ونستون تشرشل) برئيس الجمهورية الأمريكية على ظهر سفينة حربية وسط المحيط الأطلنطى ، ووضع الزعيمان « وثيقة الأطلنطى » التاريخية فى يوم ١٤ أغسطس ١٩٤١ . فكانت هذه الوثيقة بمثابة العهد الأعظم الذى يتمسك به كل شعب يرغب فى الحياة الحرة الصادقة فى عالم يقوم على مبادىء إنسانية عالية تضمن له البقاء فى ظل سلام مستقر

لايهدده طمع الدول الكبيرة ولا يجد فيه النازيون ومن سلك مسلكهم طريقاً يمكنهم من تحقيق أغراضهم . وأى برهان أقوى على إيمان الديموقراطية الأمريكية بقدسية المبادىء الإنسانية النبيلة التى تناضل من أجلها بريطانيا والأمم المتحدة ، من قول الزعيمين فى المادة السادسة من هذه الوثيقة أنهما يأملان بعد سحق الاستبداد النازى أن تتوطد دعائم السلم الذى ينتج لجميع الأمم وسائل العيش بسلام فى دائرة حدودها ، ويمكن الناس فى جميع أنحاء المعمورة من العيش فى مأمن من الشقاء والخوف . وأى تنديد أشد من هذا التنديد بمبادىء النازية الغاشمة وتعاليمها والحقيقة أنه لم تكد تمضى فترة وجيزة على وضع هذا الميثاق التاريخى حتى اعتدى اليابانيون اعتداءهم الآثيم الغادر على (پيرل هاربور) فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وفى ١١ منه أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، فأعلنت أمريكا الحرب عليهما !

وجدد صدور وثيقة الأطلنطى نشاط أنصار المقاومة السلبية والإيجابية فى أوربا النازية ووجدت « الدعاوة المضادة » فى المبادىء التى تضمنتها هذه الوثيقة وسيلة لاحياء الأمل فى النفوس وزيادة الثقة فى النصر القريب . ولعل أظهر آثار هـــذه « الوثيقة » أن الشعوب المقهورة صارت تتخذها مثالا تنسج على منواله فى تحديد الأغراض والأهداف التى تسعى جماعات المقاومة لتحقيقها . فقد استرشد أنصار المقاومة السرية فى فرنسا بمبادىء هذا الميثاق فى وضع أسس الاتفاق الذى أرادوا أن يجمع بين جبهة المقاومة الداخلية فى فرنسا والفرنسيين الأحرار من أنصار (ديجول De Gaulle) فى العمل المشترك من أجل تحقيق البرنامج الذى يرتضونه لتنظيم الحياة الحرة المستقبلة فى فرنسا ذاتها وفى امبراطوريتها . وجرت هـذه المفاوضة تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من سيطرة الجستابو الرهيبة ، على أساس إزالة حكومة فيشى الآثمة ، وتمتع فرنسا « الموحدة » بمطلق السيادة فى داخل البلاد وفى الامبراطورية ، بعد استرداد هذه السيادة وهذه الوحدة . ومعنى ذلك أن يسترد الشعب الفرنسى جميع حرياته المفقودة ، بالقضاء على دكتاتورية النظام الوطنى الاشتراكى الذى أنشأه النازيون فى البلاد ، وبانزال العقوبة الشديدة بأولئك الذين تعاونوا مع أعداء الوطن وساعدوا على تحطيم حقوق الفرنسيين وألحقوا الأذى بمصالحهم ودنسوا شرفهم وباعطاء فرنسا جميع الضمانات الداخلية والخارجية ، التى تكفل الحرية والاحترام والأمن والطمأنينة لكل مواطن فى داخل البلاد ، وتمنع عدوها التاريخى من غزوها ، ثم تمكنها من رد عدوانه إذا حدثته النفس بالاعتداء عليها مرة ثانية ، وكذلك بالابقاء على فرنسا أمينة على تقاليدها الجمهورية والديموقراطية ، وإحياء مثلها العليا فى الحرية والإخاء والمساواة ! وقد سمى هـذا الاتفاق الذى عقد فى عام ١٩٤٢ بـ « الميثاق الأطلنطى الفرنسى » .

وفى الحق إن الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية قد بلغت أشدها فى عام ١٩٤٢ وصار من المتعذر على النازيين إخمادها مهما استخدموا من أساليب . بل إن حوادث المقاومة الإيجابية التى زادت زيادة كبيرة فى ذلك العام أيضاً ، كان من شأنها هى الأخرى تأييد الروح المعنوية لدى الشعوب المقهورة ، وتغذية الدعاوة المضادة بسلسلة لا تنقطع من الأخبار يجد الأهلون فى قراءتها شاحذاً لهممهم من جهة ومسرياً عن نفوسهم من جهة أخرى . وفضلا عن ذلك فقد لحقت بالنازيين فى ذلك العام أكبر هزيمة « حاسمة » فى ميدان من الميادين التى عقدوا على الانتصار فيها آمالا عريضة : وهو الميدان الأفريقى . ولم يكن هذا الميدان فى يوم من الأيام — كما أذاعت الدعاية النازية والمحورية ، بعد أن تذوق السادة النازيون طعم الهزيمة — من الميادين الثانوية ، لأن فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوربية ودعم أركان هذه السيطرة كان يقتضى نشر سلطان النازية أيضاً فى حوض البحر الأبيض . ومنذ بداية الحرب أدرك ثقاة الخبراء العسكريين ، وفى مقدمتهم (ماكس فرنر) Max Werner أن السيطرة على هذا البحر يقتضى دعمها الاستحواذ على الأراضى الواقعة فى حوضه والتى تحد هذا البحر من جنوبه ، أى الاستيلاء على أقطار البحر الأبيض الشرقى والقطر المصرى وأفريقية الشمالية والغربية . فكان يوماً عظيما ذلك اليوم الذى فوت فيه البريطانيون وأحلافهم على النازيين فرصة النصر فى معركة العلمين التاريخية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . ولذلك كله لم يكن غريباً أن تظل الشعوب المغلوبة فى أوربا النازية ، أشد الشعوب قلقاً وترقباً لنتائج هذه المعركة الفاصلة ولم يكن غريباً أن يكون البولنديون وهم من أشد أنصار المقاومة بنوعيها السلبى والإيجابى ، أول من عرف بخبر هذه الهزيمة !

فقد حدث فى الساعة العاشرة والربع من مساء ٤ نوفمبر ١٩٤٢ أن كان جماعة من الرجال والنساء البولنديين من أنصار الدعاوة المضادة مجتمعين فى أحد الأقبية حول جهاز للراديو ينصتون إلى الأخبار بسماعات وضعوها على آذانهم خوفاً من أن يتسرب صوت الاذاعة إلى الخارج ، فيكشف الجستابو مقرهم ويكون جزاؤهم الأعدام ، وإذا بصوت المذيع يتحدث إليهم بلغتهم البولندية من محطة لنـــدن (B.B.C.) وينقل إليهم خبر اندحار (روميل) فى معركة العلمين وهزيمته فى أفريقية الشمالية ! فكان لهذا الخبر وقع عظيم الأثر فى نفوسهم : كيف لا وقد أحرز الحلفاء بعد ثلاث سنوات نصراً حاسماً !

ولم يكن البولنديون وحدهم فى هذا المساء هم الذين أنصتوا إلى الاذاعة البريطانية . فقد سمع هـذا الخبر أيضاً البورتغاليون ، نقله إليهم الراديو بلغتهم البورتغالية . ولم يكن على البورتغاليين من حرج إذا استمعوا إلى إذاعة المحطة الانجليزية . ولذلك لم يكد يشرق

صباح اليوم التالى (٥ نوفمبر) حتى كان الخبر قد انتشر فى أرجاء أوربا النازية ، ولم يكن الراديو وحده صاحب الفضل فى ذيوع خبر الهزيمة المنكرة الفاصلة . بل خرجت على أهل البلاد المقهورة فى صباح اليوم نفسه « الصحف السرية » تحمل هذا النبأ العظيم إلى قرائها فى بولندة والنرويج وهولندة وبلجيكا وفرنسا وغيرها ، وكانت الصحف السرية من أعظم وسائل الدعاوة المضادة شأناً ومن أشدها خطراً على سلطان النازيين فى أوربا .

* * *

وهكذا بدا كأن إله الحرب قد أخذ ينصرف عن تأييد النازيين ، وبدأت من ثم تنزل الهزائم بقواتهم بعد ذلك فى كل ميدان تقريباً . ثم تفاقمت حوادث التخريب والتدمير فى قلب قلعة هتلر الأوربية . وقد مر بنا كيف أرغم النازيون على خوض غمار الحرب مع العصابات والجيوش اليوغوسلافية واليونانية وغيرها فى البلقان ، كأنما الحرب قد استؤنفت من جديد من أجل أن يفتح النازيون هذه البلدان مرة ثانية . وفى العام التالى (١٩٤٣) انهزم (روميل) نهائياً فى أفريقية الشمالية والغربيه ، واستسلم (فون باولوس) قائد الجيش السادس الألمانى مع هيئة أركان حربه أمام ستالينجراد . ثم غزا الحلفاء صقلية وإيطاليا وتوالت هزائم النازيين فى الروسيا . وكان من حوادث هذا العام أيضاً اجتماع أقطاب الديموقراطيات العظيمة فى سلسلة من المؤتمرات فى موسكو والقاهرة وطهران لتوحيد الجهد من أجل إحراز النصر النهائى فى الحرب ضد ألمانيا واليابان وإيطاليا ، وتخليص الإنسانية من شرور النازية المستطيرة ، ودعم الأسس التى ينبغى أن يقوم عليها عالم المستقبل على قواعد « الحريات الأربع » ومبادىء ميثاق الأطلنطى .

* * *

تلك إذن كانت العوامل التى أدت إلى ظهور الدعاوة المضادة فى أوربا النازية وسببت ذيوعها وانتشارها . وإنه يحق لنا الآن أن نتساءل عن أغراض هذه الدعاية الخفية ، ثم ننتقل من ذلك إلى بحث الوسائل التى استخدمتها فى دعاوتها ضد الطغيان النازى فى أوربا .

كان للدعاوة المضادة من أول الأمر غرض واحد ، هو المساهمة فى الجهد الذى تتطلبه زحزحة كابوس النازيين الجاثم على صدور أهل البلدان المقهورة ، ومن أول الأمر أيضا ، عرف الأهلون الذين حز فى نفوسهم ماشهدوه من وقوع أوطانهم فريسة فى أيدى الطغاة الباغين أنه كان من المستحيل عليهم أن يطردوا هؤلاء الغزاة الفاتحين من غير سلاح يشحذونه فى وجوههم ولم يكن هناك من سبيل إلى الحصول على الأسلحة أو إعداد الجيوش المنظمة فى عدد كبير من هذه البلدان المغلوبة على أمرها مادام النازيون أصحاب الحكم والسيطرة ، وما دام النصر

حليفهم ، وما دام سواد الشعب — فى المراحل الأولى من الحرب — ينظر اليهم كانصاف آلهة خلقوا من غير طينة البشر وقدت قلوبهم من الصخر لايلينون ولا يرحمون . بيد أنه من جهة أخرى ، لم يلبث أن تبدد الذهول الأول رويداً رويدا . وسرعان ما صار طبيعياً أن يتساءل القوم عن خير الطرق المؤدية إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة وتوجيه الرأى لتدبير المقاومة ضد السادة النازيين وإضعاف شوكتهم . ومن ثم ظهرت أغراض الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية منذ اللحظة الأولى ذات معالم معينة واضحة يمكن تلخيصها فى أن أصحابها صار دأبهم الآن إحياء الآمال فى صدور مواطنيهم وانتشالهم من الوهدة التى أرداهم فيها النصر الألمانى ، وإقناعهم بأن ساعة الخلاص لابد آتية إذا هم أيقنوا أنه يستحيل على الغزاة مهما أوتوا من قوة وسلطان ، أن يمحوا من عالم الوجود تقاليد الأمم وأمانيها وآمالها ، وأن صاحب الإيمان فى قدسية قضيته وعدالتها لابد منتصر فى النهاية . ثم كان من مقتضيات إحياء هذا الأمل فى النفوس أن يسترد الأهلون الثقة ، وأن تزول من أذهانهم الصورة التى رسمتها انتصارات النازيين الخاطفة ، وأن يقوى الشعور بأنه ليس من العسير قط هزيمة انصاف الآلهة هؤلاء .

ولذلك عنيت الدعاية الخفية عقب الإحتلال النازى فى أوربا بعدة أمور : أولها ، نشر الأخبار المحلية التى منعت الرقابة النازية نشرها . وأكثر هذه الأخبار متعلق بموقف كبار الشخصيات حيال سلطات الاحتلال الألمانى وعدم إذعان بعض هذه الشخصيات لأوامر النازيين الضارة بمصلحة الوطن . وكذلك حرصت الدعاوة المضادة على إذاعة أنباء المقاومة وحوادث التخريب والتدمير والمظاهرات فى أرجاء البلاد . والغرض من ذلك كله إقامة البرهان على أن عرق الحياة مازال ينبض فى جثمان الأمة ، وأن هناك من يرفض التسليم ، وأن من الخير ألا يقنع الأهلون بالعيش الذليل فى ظل الإحتلال الألمانى .

أما الأمر الثانى فهو أن الدعاية الخفية اتبعت أسلوب السخر بالسادة الألمان ، وكان ذلك من السهولة بمكان ، بسبب ما كانوا يبدلون من محاولات خادعة لكسب محبة الشعوب المقهورة وصداقتها ؛ الأمر الذى جعلهم يتغالون فى التودد إلى الأفراد وإظهار العطف على الأطفال وحديثى السن ، هذا فى وقت كانت أداة الحرب النازية تجد فى سلب محصولات البلاد وأموالها وثرواتها ، وتسخر الأهلين فى الإنتاج المرهق لمصلحة الريخ ، وتنقل النفائس التاريخية والتحف والكنوز ، وتحرم الأهلين من الأقوات ووقود الدفء . وتستولى على الماشية ، وتصدر الألبان ومنتجاتها إلى ألمانيا ، وتترك أطفال الأمم المقهورة جوعى لايجدون من الغذاء مايسد الرمق ويقيم الأود ، ثم لاتتهاون أخيراً فى القبض على المئات والألوف من الرجال والنساء

وإرسالهم إلى معسكرات الإعتقال ، ولا تحجم عن إعدام الرهائن زرافات ووحدانا . بعد أن ترغم هؤلاء التعساء على حفر قبورهم بأيديهم !

أما الأمر الثالث فهو أن الدعاوة كانت تعمد دائماً إلى نشر أخبار العمليات العسكرية التى يقوم بها البريطانيون وحلفاؤهم ؛ كما كانت تحرص على إذاعة أنباء الهزائم الألمانية بكل وسيلة ، ولو أن هذه الهزائم كانت قليلة ومتباعدة فى بداية تلك الحرب الطاحنة . وكان غرض الدعاية الخفية من ذلك إقامة الدليل على أن السادة النازيين لم يكسبوا المعركة الأخيرة بعد ، وأن أمما ما تزال تناضل من أجـــل الحرية ، وأن الألمان ما دام النضام قائما لا يستطيعون الإدعاء بأن فى قبضتهم تقرير مصير الشعوب نهائياً ؛ وأن الإيمان بالنصر الأخير والثقة الكاملة هما أداة الشعوب العزلاء ، وأن المستضعف وحده هو الذى يرضى بالعيش الذليل

لذلك لم تـكد تمضى مدة طويلة على استقرار الاحتلال الألمانى فى أوربا النازية ، وظهور جماعة الـكويسلنجيين الذين دبروا مع النـازيين منذ أمد طويل هزيمة أوطانهم ، ثم أقبلوا يؤيدون الحـكم الجديد ويتعاونون مع الطغاة ، حتى أضطلعت الدعاوة المضادة بمهمة أخطر شأنا من غيرها ؛ هى كشف القناع عن حقيقة ذلك النظام الجديد الذى فرضه السادة النازيون على أوربا فرضا ، وتحذير الأهلين مغبة التعاون مع الغزاة الفاتحين . لذلك نشطت الدعاية الخفية فى إظهار أكاذيب الألمـان وادعاءاتهم ، وعكفت على تفسير القواعد التى بنى عليها هؤلاء نظامهم الجديد بأمثلة مستمدة مما كان يفعله الألمانيون كل يوم فى البلدان المحتلة ؛ ولما كان الاستقرار ضرورياً لدعم أركان النظام الجـديد ، وكان من أهم عوامل هذا الاستقرار إقبال الأهلين على التعاون مع الفاتحين ، فقد أثارت الدعاية الخفية حربا شعواء ضد الـكويسلنجيين الذين أجرموا فى حق الوطن بتيسير السبل على الألمان حتى يقيموا نظامهم الجديد على انقاض الحريات القديمة والمثل العليا الانسانية التى كسبها البشر بعد نضال قرون عدة . ولذلك أذاعت الدعاية الخفية أسماء « المتعاونين » ، ووجهت لهم النصح تارة والوعيد تارة أخرى ، وحذرت الأهلين أن يثقوا بهم أو يركنوا اليهم أو ينسجوا على منوالهم . ومما يجدر ذكره أنه كثيراً ماحدث من جراء إذاعة شخصيـة بعض الـكويسلنجيين المتسترين — وكانوا أشد خطراً من بقية المتعاونين مع السادة الألمان ، لأنهم يعملون فى كثير من الأحايين كعيون لقوات الجستابو على مواطنيهم — أن كان نصيب هؤلاء الموت فى ظروف مريبة . وكانت الوفاة دائماً على أيدى الجستابو نفسه تخلصا منهم ، حتى لا يحملهم الشعور بالخزى والعار بعد افتضاح أمرهم على السعى للتـكفير عن خطاياهم بكشف الستار عن كويسلنجيين آخرين مايزال سواد الشعب يجهل وجودهم ، وحتى لا يبوحوا بشىء مما قد يعرفونه عن نظام الجستابو الخفى فى بلادهم .

وفى المدة الأخيرة ، وعلى الخصوص بعد ذيوع خبر « ميثاق الأطلنطى » الذى سبق الكلام عنه والحديث عن أثره فى أرجاء أوربا النازية ، صارت الدعاية الخفية تعنى بجمع كلمة الشعوب المقهورة على النظام الذى يصح لها اختياره من أجل العيش فى ظل حياة هادئة مستقرة عند زاول دولة الصليب المعقوف من القارة الأوربية . مثال ذلك مافعلته هذه الدعاية فى فرنسا ووضع مبادىء الميثاق الأطلنطى الفرنسى ، فى عام ١٩٤٢ ، وما نشر فى موسكو فى يناير ١٩٤٤ عن البرنامج الذى تحدثت عنه جريدة (وولنا بولسكا) ، وهى صحيفة إتحاد الوطنيين البولنديين ، إذ قالت أن البرنامج يتضمن عدة مسائل : منها مد حدود بولندة المحاربة غربا ، وتسوية جميع الخلافات القائمة بين بولندة والاتحاد السوفيتى ، وإنشاء نظام ديموقراطى برلمانى فى البلاد ، وإخراج جميع العناصر الرجعية من بولندة ، وتوزيع الأراضى على الفلاحين ، والتوحيد بين البولنديين من غير نظر إلى عقائدهم السياسية مع استثناء العناصر الرجعية فى الخارج . كما ذكرت أن مهمة البدء بتغيير مركز بولندة فى العالم ، وإدخال الغيبرات المنتظرة فى بولنـــدة نفسها يجب أن يكون من شأن البولنديين أنفسهم ، ولا بد للديموقراطيه البولندية من أن تبحث لها عن مخرج مما هى فيه وأن تجد هذا المخرج ؛ وينبغى لها أن تبعث الوحدة الوطنية وتثبت أركانها فى أثناء مناضلة المغير ومكافحته .

* * *

هذا ، وقد تنوعت وسائل هذه الدعاية وتعددت . ومع هذا فإنه لم يكن قط من السهل على أصحابها — وهم جميع الوطنيين فى كل أمة منهزمة ماعدا تلك الفئة القليلة التى قبلت التعاون مع الألمان — أن يوحدوا جهود دعاواتهم المضادة ، أو ينشئوا بعض الصلة بينهم جميعا حتى يعرف فريق منهم ما يفعله الفريق الآخر ، أو تبذل جماعة مساعدة قيمة قد تكون جماعة أخرى فى حاجة إليها ، إلى غير ذلك ؛ بل إن من أبرز مظاهر هذه الدعاية الخفية استقلال « خلاياها » فى العمل فكانت . كل منها منفصلة عن الأخرى ؛ وبلغ من إمعان أصحابها فى المحافظة على سرية هذا النشاط حداً جعل توزيع العمل ضروريا على الأفراد متفرقين حتى لا يعرف فرد ما يقوم به فرد آخر من نفس الجماعة الواحدة . وسبب ذلك ، الخوف الشديد من بطش سلطات الاحتلال الألمانية فى البلدان المقهورة ، والخوف من الوقوع فى مخالب رجال الجستابو المنتشرين فى كل بلد وقرية ، ثم الحذر من أن يقف أنصار النظام الجديد من الأهلين على حقيقة مايفعله أصحاب هذه الدعاية الخفية ، فيبلغون مايعرفون الى النازى ، ويكون نصيب الوطنيين التشريد فى معسكرات الاعتقال أو الإعدام ، أو الاقتصاص الصارم من ذويهم .

وفى الواقع كان الأفراد ، وحدهم فى أول الأمر هم الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعاوة

المضادة وترويجها ، ووجد الفرد ، فى اعتماده على نفسه فحسب فيما يريد فعله أو إذاعته وسيلة تخلصه من الوقوع فى قبضة الجستابو ؛ فظهر من ثم الى عالم الوجود فى أوربا المحتلة فريق من الافراد (أو الأشخاص) الذين ظل سرهم مكتوما الى يومنا هذا . وكان بعض هؤلاء أصحاب جرأة عظيمة ؛ إذ قاموا بعمليات التخريب والتدمير فى الحقول والمصانع ومحطات السكك الحديدية وأحواض السفن وما اليها . ثم ظهر الى جانبهم فريق من نوع آخر اكتفى أفراده بنقل الأنباء التى منعت الرقابة ذيوعها ونشرها بين مواطنيهم ، حتى اذا وجد الناقل أو المتحدث مستمعاً له ، جمعت بين الاثنين روابط الكراهية للحكم النازى . ثم لم يلبث أن ينضم اليهم ثالث ، ثم رابع ، وهكذا حتى تكبر جماعتهم ويتعاون جميعهم فى نقل الأخبار بعد أن يسلكوا كل الطرق فى سبيل الحصول عليها . ومن أهم تلك الطرق الاستماع الى الإذاعات الأجنبية « المحرمة » وعلى وجه الخصوص الإذاعة البريطانية المشهورة B.B.C. وهم فى الأقبية ووراء جدران البيوت المغلقة ، وكلهم عيون وآذان حتى لا تأخذهم الغفلة فيفتضح أمرهم ويكون نصيبهم الموت .

ومع أنه قد يسهل على المرء أن يعترف بأن الجماعة المخربة المدمرة كانت أكثر الجماعات جرأة وشجاعة ، فإن ناشرى الأخبار المسيئه الى سمعة النازيين ، ومروجى الدعاوة المضادة كانوا أيضاً أصحاب جرأة وشجاعة فما كان فى مقدورهم أن يفلتوا من أقسى العقوبات النازية اذا قدر لهم الوقوع فى قبضة سلطات الاحتلال الألمانية .

ولم يكتف هذا الفريق من أنصار الدعاية الخفية بأن يظل نشاطهم مقصورا على نقل الأحاديث أو الاستماع إلى الإذاعة المحرمة ، بل إنهم سرعان ماصاروا يجدون طرقا منوعة للهزء بالألمان والسخر بهم وإظهار أباطيلهم فى كل فرصة مناسبة . وكانت فرنسا فى طليعة الأمم التى أتقن أبناؤها هذا النوع من أساليب الدعاية الخفية . وعلى الخصوص فى شهور الاحتلال الأولى . فمن ذلك أنه كثيرا ما كان يحدث أن يجد الألمان فى باريس مكتوبا على إعلانات السيارات : « زوروا إيطاليا ! » أو « تطوعوا فى الجيش اليونانى ! » وكثيرا ماكانوا يعثرون فى مدن أخرى على عبارات مخطوطة على جدران المنازل وغيرها : « أيها اليونانيّون قفوا هنا . لأن هذه فرنسا ! » . وحدث عقب معركة بريطانيا أن قرأ الباريسيون ومعهم بطبيعة الحال رجال الجستابو وسلطات الاحتلال — عبارات بالطباشير على الجدران تنادى بحياة فرنسا وحياة انجلترة ، وحياة تشرشل والروسيا . كما وجد الألمان أن كثيرا من أعلام الصليب المعقوف قد أنزلت ، ورفعت بدلا منها أعلام الجمهورية الفرنسية . ولم يستطع الألمان مكافحة هذه « الحملة الطباشيرية » ؛ بل زاد أصحابها جرأة ، ثم صاروا يصوغون عبارات

جديدة مثل « يحيا ديجول ، ويسقط الالمـان ! » . ووجد أنصار الدعاية الخفية ميدانا واسعا لنشاطهم فى داخل المصانع المشتغلة لحساب النازيين فى فرنسا . فوزعت المنشورات العدة بين الصناع ، وعنيت هذه المنشورات على وجه الخصوص بإذاعة أنباء هزيمة الألمان فى معركة بريطانيا . وحدث ذات صباح أن قرأ الباريسيون بين مجموعة الإعلانات التى أجازها الالمان إعلانا طريفا فات ذكاء النازيين إدراك معنى ما به من عبارات التهكم اللاذع ، لانه كان يحمل عنوانا جذابا : « إنى أتهم انجلترة ! » أما بقية الاعلانات فكان كالآتى : « انى أتهم انجلترة لان انجلترة هى التى غزت فرنسا فى عام ١٩٤٠ ، ولان انجلترة هى التى أخرجت الى عالم الوجود فكرة المانيا العظمى أو الكبرى ؛ ولأن انجلترة هى التى ضمت اليها النمسا ، ولأن انجلترة هى التى اغتالت ما نجان ، وماچينو ، وبارتو ، والملك اسكندر الأول (ملك يوغسلافيا) ولأن انجلترة هى التى قامت بتسليح نفسها تسليحا خطيرا وعبأت جيشها كله ، بما فى ذلك الرقيق ، ولأن انجلترة هى التى غزت النمسا وتشيكوسلوفاكيا، وهولندة ، وبولندة وبلجيكا والنرويج ؛ ولأن انجلترة . . . أوه يا للعجب من هؤلاء الإنجليز ! ! » . ولم يفطن النازيون الى حقيقة ما يحمله هذا الإعلان من دعاوة مضادة الا بعد أن شاهدوا الباريسيين يستغرقون فى الضحك بعد قراءته ، فأزالوه بعد مضى أربع وعشرين ساعة .

وفى بقية أوربا النازية لم يقل أنصار هـــذا النوع من الدعاوة المضادة عن زملائهم فى فرنسا . فالحملة « الطباشيرية » كانت تجد ميدانا فسيحا فى كل بلد مقهور ومن الحكايات المشهورة الواقعية ما حدث فى بروكسل عاصمة بلجيكا . ذلك بأن الألمان علقوا ذات مرة فى شوارع هذه المدينة إعلانا يحمل رسم (ونستون تشرشل) واقفا يطل على أسرة من أم واولاد صغار أضناهم الجوع ولا يجدون على مائدتهم سوى صحاف فارغة ؛ ثم كتبوا تحت هذه الصورة : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوسا مرة ؟ » . وكان الغرض من لصق هـذا الاعلان إظهار أن بريطانيا وحدها هى المسئولة بسبب الحصار البحرى الذى ضربته على أوربا النازية ، عن انتشار المجاعة فى بلجيكا . ولكن حدث أن انتهز الأهالى فرصة الظلام الدامس فأجروا تغييراً فى الصورة ، حتى بدت رأس المستر تشرشل فى الصباح التالى ، وقد أعطيت « قصة » عجيبة كما نبت له شارب صغير . فظهر (أدولف هتلر) بدلا من المستر تشرشل يطل على هؤلاء الأطفال الجياع ، وانطبق عليه القول : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوساً مرة ! » .

ومن أمثلة هذه الدعاوة المضادة ، ما كان يحدث فى الدانمرك على نحو ما سبقت الإشارة إليه . فقد وجد أهلها أن خير وسيلة لبعث الثقة فى النفوس وإشعال جذوة الوطنية إحياء

الأناشيد والأغانى القومية الشعبية ، وخصوصا فى جوتلند الجنوبية (أو شلزويج) . حيث يعتز القوم هناك بهذه الأغانى القديمة ويجدون فى ترديدها عزاء وسلوى . ولذلك صار مئات منهم يجتمعون للإنشاد فى الهواء الطلق ، وذاع خبر هذه الأناشيد القومية فى أنحاء الدانمرك وسرت العدوى إلى كل مدينة وقرية ، وخرج الأهلون فى كل مكان لترديدها . وهكذا حدث فى سبتمبر من عام ١٩٤٠ أن قامت أكبر مظاهرة « غنائية » فى كوبنهاجن ، عندما اجتمع حوالى ١٥٠,٠٠٠ دانمركى فى ساحة (Faelled Park) للغناء ذات مساء ، وحدث مثل ذلك أيضاً فى بلدة Esbjerg حيث احتشد عشرون ألفاً من سكانها البالغين ٣٦ ألفاً للغرض نفسه وكذلك فى (هازل) Hasle . ووقع ذلك كله فى وقت واحد وفى يوم واحد ، حتى يعبر الدانمركيون عما يشعرون به نحو الوطن . وفى الواقع كان شهر سبتمبر من ذلك العام شهراً تاريخياً فى قصة الدانمرك الوطنية . إذ قرر الشباب فى أنحاء الدانمرك تأسيس جماعة « الشباب الدانمركى العامل » برئاسة (هال كوش) Hal Coch أحد الأساتذة المعروفين . ثم تأسست فى طول البلاد وعرضها «أندية تشرشل» تحت أنوف الجستابو وأنصارهم ، وغنى الدانمركيون النشيد القومى الانجليزى بعد أن وضعوا له معنى جديداً : « سوف يكسب تشرشل الحرب لا محالة ! » حتى سمى النازيون تلك الحماسة الدافقة « بالمرض الانجليزى ! »

وفى هذه الظروف لم يكن من العسير على أصحاب الدعاوة المضادة أن يروجوا مايشاءون من أقوال وأقاصيص من أجل إضعاف شوكة النازيين والسخر بهم . ومن النوادر التى انتشرت فى هذه البلاد أن أحد بائعى السمك اعتاد المناداة على سمكه فى أسواق كوبنهاجن : « سمك من الطراز الأول ، وسمين كالماريشال جورنج ! » فألقى القبض عليـــه وحبس مدة أسبوعين . ولـكن لم يكد يطلق سراحه حتى استأنف المناداة على بضاعته قائلا : « سمك من الطراز الأول : مازال سمينا كما كان منذ أسبوعين ! » . وكذلك ظل الدانمركيون زمنا يجدون فى موقف ملـكهم كريستيان مثالا يحتذى فى مقاومة الألمـان . وحرصت الدعاية الخفية على إذاعة واقعة من وقائع هذا الملك مع السادة الألمان . وهى أنه كان من عادة الملك كريستيان أن يخرج كل صباح على حصانه للتجول فى شوارع كوبنهاجن ، فحدث ذات مرة أن مر ببناء من الأبنية العامة ، فوجد الصليب المعقوف مرفوعاً على أعلى البناء ، فطلب اليه ضابطاً ألمانياً وأخبره بمخالفة هذا العمل لنصوص الاتفاق القائم وقتذاك بين الدانمرك وألمانيا ، فلما أجاب الضابط بأن العلم النازى قد رفع على هذا البناء بمقتضى أمر صادر من برلين ، أعلن كرستيان نيته على إرسال جندى دانمركى لانزال العلم النازى إذا ظل العلم مرفوعاً إلى وقت الظهر . وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين كان العلم مازال مرفوعا ، فظهر الملك وقال

إن أحد الجند الدنمركيين سوف ينتزع العلم من موضعه فى الساعة الثالثة عشرة تماما . فهدد الضابط باطلاق الرصاص على ذلك الجندى . فأجاب الملك : إذن يمكنك إطلاق الرصاص على ، لأنى أنا هذا الجندى ! » فاضطر الألمان إلى إنزال العلم بعد دقيقة واحدة .

وهكذا تنوعت الأمثلة وتعددت فى كل بلد من بلدان أوربا المحتلة . على أنه كان أيضا من أهم أساليب نشر الدعاية الخفية استخدام مايعرف باسم « الخطابات المسلسلة » وذلك أنه لما كان من المتعذر فى كثير من الأحايين الحديث علانية فى موضوع يهم الوطنيين تحت رقابة الجستابو وعيونهم ، فقد كان ناقل الخبر يعمد إلى كتابة ما يريد إذاعته فى رقعة صغيرة يضعها فى كفه ، حتى إذا صافح أحد الوطنيين ترك هذه الرقعة فى يد ذلك الوطنى الذى يعمد بدوره إلى نسخ عدة رقاع منها يوزعها على أصدقائه ومعارفه الذين يثق بهم ، فيقوم هؤلاء بتوزيعها على آخرين بعد أن ينسخوا منها أعداداً أخرى وهكذا . وتتضمن هذه الرقعة عادة ، خبر هزيمة لحقت بالنازيين ، أو ذكر حادث تخريب أو تدمير ، أو أمر تدبير مظاهرة كبيرة ، أو مجرد تحذير الجمهور من بعض حيل النازيين الجديدة لسلب أموال الأهلين أو مواشيهم أو أغذيتهم . وكثيراً ما كانت هذه الرقاع تنقل بعض الأقاصيص التى يقصد من إذاعتها الترويح عن النفس والزراية بالسادة النازيين والسخر بهم وتقوية الروح المعنوية وشد أزر المقاومة ضد سلطات الاحتلال الألمانى بجميع الطرق الممكنة ومن ذلك مايذكرونه فى النرويج حيث أراد النازيون فى بداية الاحتلال أن يجتذبوا النرويجيين بالتودد اليهم ، ووجدوا (فيدكون كويسلنج) وأنصاره مقبلين على التعاون معهم ، وكان من واجب أصحاب الدعاوة المضادة أن يبذلوا كل جهد حتى يعرف سواد الشعب أنه كان هناك أناس ما يزالون يشيدون بذكر الملك والوطن ويرفضون فى قرارة نفوسهم العيش الذليل فى ظل الاحتلال الألمانى ، هذا إلى ضرورة التمسك بأهداب الأمل والرجاء دائما . ومن الوقائع التى أذاعت أنباءها الدعاية الخفية ماحدث فى (أوسلو) إذ دخل أحد النازيين محلا تجاريا ، ثم رفع يده محييا بالتحية الهتلرية وسأل البائعة أن ترشده إلى مكان بيع ملابس الرجال . وكان هذا النازى ينتظر أن تجيبه الفتاة بالتحية النازية ولكنها أبت ذلك . فأجابته على الفور : « يحيا الملك! خلفك إلى الشمال » وفى أبريل ١٩٤١ حدث أن استفسر رجال الاحتلال الألمانى من أحد وكلاء الكنائس النرويجيين (تليفونيا) ، عن مكان فى كنيسته يتسع لايواء مائة جندى ألمانى . فأجاب الرجل : « بكل تأكيد ! فى استطاعتنا أن نجد مكانا يتسع لايوائهم فى فناء الكنيسة المخصص لدفن الموتى » .

غير أن الدعاية الخفية سرعان ماوجدت فى « الراديو » و « الصحف السرية » أكبر أدواتها الفعالة فى نشر دعاوتها ضد النازيين ونظامهم الجديد فى أوربا. ودل استخدام الراديو فى الحقيقة على مهارة كبيرة وجرأة عظيمة من جانب أنصار المقاومة فى أوربا النازية. والسبب فى هذا ، أنه كان من مقتضيات التنظيم الالمانى « الرقابة » الصارمة التى أنشأوها من أجل ترويج دعاوتهم للنظام الجديد من جانب ، ومن أجل اخماد أية دعاوة مضادة من جانب آخر ، أن يجرى النازيون تفتيشاً دقيقاً لمصادرة جميع أجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة خصوصا ، واصدار العقوبات القاسية على كل من يضبط متلبسا بجريمة الإستماع للإذاعات الحرة الأجنبية ، وفى مقدمة هذه ، الإذاعات المرسلة من محطة لندن المشهورة B.B.C. وزيادة على ذلك قام النازيون من جهة اخرى بتوزيع أجهزة للراديو ذات موجات معينة تمكن صاحبها من الإستماع للإذاعات النازية المحلية فحسب . هذا الى انهم دققوا على وجه الخصوص فى التنقيب عن كل أجهزة الإرسال فى حوزة الأفراد . وكان غرض النازيين من ذلك كله ألا يستمع الأهلون فى البلدان المقهورة الى انباء لا يريد النازيون ذيوعها بينهم ، وان يتعذر على الوطنيين الذين رفضوا التعاون معهم ، وكان مايزال لديهم بقية من أمل فى الخلاص من سلطانهم أن يقف بعضهم على حقيقة مايفعله البعض الآخر ويقوم به من ضروب المقاومة ويأتيه من حوادث التخريب والتدمير ، أو أن يستطيعوا انشاء صلة تؤدى الى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف فى وجه سلطات الإحتلال الألمانية .

ومع هذا فقد نجح كثيرون من أهل الشعوب المقهورة فى الإحتفاظ بأجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة ، واتخذوا التدابير لإخفاء هذه الأجهزه ، ورتبوا الاجتماعات (السرية) فى أوقات الأذاعة الأجنبية للاستماع الى مايقوله أنصار الحرية فى الأمم الديموقراطية . ثم عظم الإقبال على استخدام (الراديو) عندما صارت محطة الإذاعة البريطانية تنظم برامج باللغات الأجنبية وقد بلغ عدد اللغات التى كانت تذيع بها هذه المحطة سبعا وأربعين . وتحتل الإذاعة البريطانية مكانا ظاهرا فى تاريخ الدعاية الخفية والدعاوة المضادة بسبب ما كانت تنشره من أنباء وتعليقات على هذه الأنباء ، ولم يكن يقصد من اذاعتها أن تقف الشعوب المقهورة على حقيقة مايقع من حوادث وتطورات فى أرجاء العالم من أجل القضاء على الطغيان النازى فحسب بل كانت تبغى الى جانب ذلك احياء الأمل والرجاء فى صدور الأهلين وشد عزيمتهم بفضل ما تنشره من أخبار القوات المحاربة الحرة الى جانب جيوش البريطانيين والأمريكيين فى ميادين القتال المتعدده ثم بفضل ما كانت تنقله اليهم من أقوال الزعماء الأحرار الذين كانوا يتولون قيادة هذا النضال الى جانب أقطاب الديموقراطية المعروفين فى العالم وكانت تظهر لهم بين وقت وآخر طرفا من الأساليب

التى كان يتبعها النازيون لدعم أركان نظامهم الجديد فى أوربا وبسط سيطرتهم العالمية . وأخيرا صارت الإذاعة البريطانية إلى جانب ذلك كله تعنى أيضا بجمع كلمة الوطنيين الذين آلوا على أنفسهم مقاومة الاحتلال الألمانى فى بلادهم .

وقصة الإذاعة البريطانية - B.B.C - طريفة حقا . فمن المعروف أن النازيين منذ خلص لهم الحكم فى ألمانيا ؛ كانوا أول من استخدم الراديو فى الإذاعة السياسية لترويج مبادئهم قبل نشوب الحرب الماضية بعدة أعوام ، ثم اتقن زعيم الدعاوة والنشر فى ألمانيا الدكتور جوبلز تنظيم هـذه الأداة حتى أصبح الراديو من أدوات الحرب الفعالة . وكان يعتمد عليه النازيون فى تعبئة الرأى العام الألمانى فى بلادهم بما يذيعونه من أخبار وإدعاءات مضللة كاذبة وكذلك فى حرب الأعصاب المشهورة لاضعاف جبهة المقاومة والدفاع فى البلدان التى أرادوا اجتياحها . أما الاذاعة البريطانية فظلت فى سنوات السلم لا تعنى بالاذاعة الأجنبية . ثم استمر الحال على ذلك المنوال إلى أن وقعت الأزمة التشيكوسلوفاكية المعروفة فى سبتمبر ١٩٣٨ ، وعندئذ أدركت الحكومة الانجليزية خطر الموقف ، وأيقنت أنه من المتعذر عليها أن تنشر على الملأ آراءها ورأى رئيس حكومتها وقتذاك المستر نيفل تشمبرلين ، بين الشعوب الأوربية بصدد هذه المسألة الشائكة مادامت محطة الاذاعة البريطانية لاتعنى بتنظيم برامج أوربية تاركة للنازيين وحدهم ترويج آرائهم وادعاءاتهم فى أنحاء العالم وكانت تقوم بذلك (وزارة الدعاية) النازية باشراف الدكتور جوبلز وأعوانه . ولهذا تقرر فى ٢٧ سبتمبر من العام نفسه أن تنشر محطة الاذاعة البريطانية (B. B. C.) باللغـــات الفرنسية والايطالية والألمـانية جميـع الخطب التى يلقيها رئيس الوزارة الانجليزية ، ثم الأنباء الهـامة . واقتضى تنفيذ هذا القرار وقتذاك تنظيما واسعاً لاعداد المترجمين والمذيعين ، هـذا إلى جانب إجراء تغييرات فنية منوعة ، ثم لم تلبث هذه الصعوبات الفنية أن زادت عندما صارت (المحطة) ترتب برامج للإذاعة باللغتين الأسبانية والبورتغالية فى صيف العام التـالى (١٩٣٩) . كما صارت تذيع بلغات أخرى بلغت فى ذلك الحين سبعاً . ثم ازداد العبء الملقى على عاتق هذه الاذاعة الأجنبية عقب نشوب الحرب الماضية مباشرة ، وماتبع ذلك من نجاح الألمـان فى اجتياح عدة دول فى وقت قصـير ، وإنشاء الحكومات « الحرة » التى صارت تمثل مجموعة الأمم المتحدة فى لندن واتجاه الأنظار إلى بريطانيا كموئل للاجئين السياسيين والمضطهدين ، ومن إليهم ، بل وكمركز لتنظيم المقاومة الشديدة ضد الطغيان النازى ، ثم غدت بريطانيا قلعة الحرية التى شاء النازيون أن يفرضوا عليها العزلة فرضاً قبل غزوها هى الأخرى . وعلى ذلك نشطت الاذاعة البريطانية نشاطاً عظيما فى عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ وكان واجبها الأكبر

أن تسمع أوربا المقهورة صوت بريطانيا عالياً مرتفعاً وسط ضـــوضاء أسلحة الحرب الميكانيكية وإغارات الطائرات النازية ، وأن تسمع القلقين أو اليائسين دقات (ساعة بن) المشهورة وكان عصيباً ذلك اليوم من أيام ربيع عام ١٩٤١ عندما هدمت قذائف النازيين بناية محطة الاذاعة البريطانية . ومع هذافقد أعيد البناء على عجل وكانت الاذاعة النازية فى هذه الأيام الشديدة (من عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١) تكاد لاتلقى منازعا أومنافساً فى ميدان الدعاية الاوربية أو العالمية .

ولكن الحال سرعان ماتبدل بعد ذلك إذ تمكنت الاذاعة البريطانية من تنظيم برامج للإذاعة فى أنحاء الممتلكات المستقلة وفى بلدان الامبراطورية المختلفة ، وفى أغسطس وسبتمبر ١٩٤٠ كانت قد أحكمت الصلة بطريق الأثير ، بين لندن والولايات المتحدة الأمريكية . وقد مهد لذلك ولاشك ماقررته الولايات المتحدة ذاتها من ضرورة النزول إلى ميدان الصراع المستعر منذ أبريل فى العام السابق (١٩٣٩) فلم يكد يمضى أسبوع واحد على استيلاء (موسولينى) على مملكة البانيا ، حتى ألقى (روزفلت) خطابه المشهور على هيئة الاتحاد الأمريكى (Pan American Union) فى١٤ ابريل سنة ١٩٣٩ ، وقال أن المسألة باتت فى الواقع مسألة إختيار بين اقحام الحضارة الحالية فى النزاع والحروب التى يثيرها العسكريون ، وبين التمسك بمثل السلام العليا واحترام حقوق الفرد والحرص على المدنية التى ينبغى أن تظل جميع الشعوب متمتعة بها . ثم حدث بعد ذلك أن ذهبت أدراج الرياح جميع الجهود التى بذلها الرئيس الأمريكى من أجل تأمين سلامة الأمم ومنع نشوب الحرب ، حتى جاء فى آخر الأمر انهيار فرنسا فى يونيه ١٩٤٠ مؤذنا فى نظر الكثيرين من أهل الولايات المتحدة بقرب إنتهاء الحرب فى مصلحة ألمانيا ، وبأن مقاومة بريطانيا لاطائل تحتها وانه من المنتظر أن ترضى هذه الدولة بالتسليم عاجلا أو آجلا . وفى هذه الظروف ، كان من واجب بريطانيا أن تبذل كل جهد حتى يقف الشعب الأمريكى على مقدار المقاومة التى تبديها من أجل الدفاع عن سلامتها ، وإقامة البرهان على أن هـــذه الجزر العظيمة لايمكن أن ترضى بالتسليم للالمان حتى يفنى آخر رجل وأمرأة بها . ووقع على عاتق الإذاعة البريطانية (B. B. C) إبلاغ هذه الرسالة إلى العالم الجديد . وكان لصوت المستر (ونستون تشرشل) السحرى ، أبلغ الأثر فى نفوس الامريكيين . وزيادة على ذلك فقد ظهر فى تلك الآونة أن الرأى والشعور قد تحولا نهائيا إلى جانب الديموقراطية البريطانية فى النضال الدائر . لأن الامريكيين سرعان ماصاروا يطلبون فى خريف ١٩٤٠ معرفة الشيء الكثير عن جهود بريطانيا الحربية ويتساءلون لماذا تذيع لندن إلى الشعوب البريطانية فى كندا ونيوفوندلند ، والهند الغربية

بينما تترك الأمريكيين من غير الاذاعة لهم ؟ ثم كان لأهل هذه الديموقراطية العظيمة ما أرادوا فكتبت جريدة (نيويورك تيمس) فى ١٤ يولية ١٩٤٠ تثنى على جهود محطة الاذاعة البريطانية ، ثم قالت مامعناه إنه سرعان ماتبين من فحص بعض البرامج التى تذاع من هذه المحطة أن بريطانيا أصبحت الان لاتضيع وقت المستمعين سدى فى الاصغاء إلى روايات خيالية ! . ومن ذلك الحين أصبح الأثير الصلة الفعالة التى ربطت بين بريطانيا وأمريكا ، ونقل الأثير خبر ميثاق الاطلنطى بين روزفلت وتشرشل فى أغسطس ١٩٤١ ، وأسدت الإذاعة خدمات جليلة عقب حادث (بيرل هاربور) المشهور وذلك فى أثناء زيارة المستر تشرشل للولايات المتحدة وكندا . ومنذ صارت الولايات المتحدة ترسل جندها إلى الشرق الأوسط والهند ، نقلت محطة الاذاعة البريطانية إلى هؤلاء برامج مذاعة من المحطات الأمريكية .

بيد أنه إلى جانب هـــذا كله ، سرعان ما أتمت محطة الاذاعة تنظيم إذاعاتها الأجنبية لا لقوات الأمم المتحدة المحاربة فى الميادين فحسب ، بل ولأهل البلدان المقهورة فى أوروبا النازية ثم كان أظهر آثار هذا التنظيم ماحدث فى ربيع عام ١٩٤١ عند بدء الدعوة لحملة جيش النصر (V- Army) المشهورة . ومع أنه قد سبق الحديث عن هذا الجيش عند الكلام عن ضروب المقاومة الايجابية والسلبية فى أوروبا الهتلرية ، فان ثمت حقيقة واحدة لاينبغى أغفالها ، هى أن الفضل فى قيام هذه الحملة الواسعة يرجع فى الحقيقة إلى الشعوب الأوربية المقهورة نفسها أكثر من أى شىء آخر ، وتفسير ذلك أن أحد أعضاء الحكومة البلجيكية السابقين ، (المسيو فكتور ديلافيلي (Victor Delaveleye) ، وهو من أولئك الذين عاهدوا النفس على الحديث من لندن إلى البلجيكيين فى أرض الوطن ، أراد أن يتحقق من أن هناك من يستمع لأحاديثه من مواطنيه ، فاقترح عليهم ذات مرة أن يحملوا شارة معينة ترمز إليهم هى حرف (V) حرف النصر ، وأن يخطوا هذا الحرف بالطباشير على الجدران حتى يكون ذلك بمثابة علامة يعرف بها كل مستمع لاذاعته اللندنية غيره من المستمعين الآخرين ونال هذا الاقتراح قبولا لدى مذيع آخر . يدعى (جيرسن Geersens) . فطلب إلى مستمعيه من البلجيكيين فى إذاعته الفلمنكية أن يفعلوا هم أيضا مثل إخوانهم فاجاب أهل بلجيكا — من والون وفلمنك — هذه الرغبة ، ثم لم يلبث أن ذاع الخبر ، فتبع هؤلاء أهل البلدان الأخرى وهكذا لم يجىء شهر ابريل من عام ١٩٤١ ، حتى كان حرف النصر (V) منتشراً من أقصى القارة الأوربية إلى أقصاها من النرويج فى الشمال إلى البلقان فى الجنوب ، وقد تقدم كيف تسلم الكلونيل (بريتون Britton) إدارة هذه الحملة من لندن . وفى خريف العام نفسه أسدت هذه الحملة خدمة كبرى ، عندما انتشر فى أرجاء أوربا « رمز » جديد لنوع المقاومة الايجابية

الخطيرة — وهو رسم السلحفاة ، وكان هذا رمزا لحركة الابطاء المتعمد ! . وقد سبق ذكر مبلغ الأضرار التى لحقت بأداة الحرب الألمانية من جراء هذا النوع من المقاومة .

* * *

هذا هو الدور الخطير الذى لعبته محطة الاذاعة البريطانية (.B. B. C) فى إثارة المقاومة الفعالة فى وجه السادة النازيين فى أرجاء القارة . وواضح أن استخدام هذه الاذاعة كان من أمضى أسلحة الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية التى كانت ترمى إلى تقويض أركان النظام الجديدفى أوربا النازية . ولذلك ، وقع النازيون عقوبات صارمةعلى كل متهم بالاستماع إلى الاذاعة البريطانية خصوصاً . وتنوعت هـذه العقوبات ، من الحبس الانفرادى أوالارسال إلى معسكرات الاعتقال ، إلى السجن عدة سنوات أو الاعدام (وذلك على وجه الخصوص فى كل من بولندة والنرويج ، ثم فى ألمانيا ذاتها) ، إذا ثبت أن المستمع للاذاعة البريطانية يمتلك جهاز الراديو ، ويدعو اخوانه ومواطنيه إلى منزله أو أى مكان آخر للاستماع معه . إذ أن النازيين كانوا يعتبرونه فى هذه الحالة مروجاً لدعاوة العدو ضد سلطات الاحتلال . وقد عنيت حكومات الأمم المتحدة المحاربة (فى خارج أوربا النازية) بإعداد قوائم طويلة بأسماء سيء الحظ الذين ارتكبوا « جريمة » الاصغاء إلى محطات الاذاعة الأجنبية ، وخصوصاً محطة .B. B. C ؛ وصدرت ضدهم أحكام بالسجن أو الاعدام واشتملت هذه القوائم أيضاً على تواريخ صدور هذه الأحكام ذاتها بكل دقة . ولم يكن من العسير على الحكومات إعداد مثل هذه القوائم الكاملة . لأن الصحف النازية نفسها فى البلدان المحتلة درجت على نشر أخبار هذه الأحكام بين الأنباء المحلية ، على أمل أن يكون هذا النشر زاجراً للأهلين ، يمنعهم من الاستماع للإذاعات الأجنبية . بيد أن صرامة هذه الأحكام لم تفد شيئاً فى ردعهم ، لأن هؤلاء ما كانوا يجدون طريقا يعرفون به شيئا مما يحدث فى بلادهم أو يجرى فى أوربا النازية وفى العالم عموما غير الاستماع لأنباء محطات الاذاعة الحرة وعلى وجه الخصوص المحطة البريطانية . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يفلح الألمان فى اقناع سواد الشعوب المقهورة بالانصراف عن الإذاعة اللندنية ، زاد إقبال الأهلين على هذه الاذاعة وصاروا يحكمون الأساليب التى تمكنهم من مراوغة الجستابو والافلات من أيديهم .

وانتشرت فى أرجاء أوربا المحتلة أقاصيص عن وقائع كثيرة تبين فى الحقيقة مدى فشل سلطات الاحتلال الألمانى فى مقاومة الاذاعة البريطانية . من ذلك أن أحد الجنود الألمان سأل ذات يوم فى شارع من شوارع مدينة (بروكسل) رجلا من البلجيكيين عن الوقت فتجاهل الرجل معرفة الألمانية ، فسأل الجندى آخر ، ولكنه لم يظفر منه بطائل . وعندئذ

تقدمت إليه ابنة صغير وأظهرت دهشتها كيف لايعرف هذا الألمانى الوقت ، مع أن كل إنسان يعرف أن الساعة هى السابعة والربع مساء . فدهش الألمانى بدوره ، وسألها كيف استطاعت هى أن تحدد الوقت بهذه السهولة دون أن تنظر إلى ساعة ما ؟ . فقالت : « الأمر يسير هل ترى أحداً من الناس فى الشارع ؟ » فأجاب الألمانى بالنفى . فقالت : «حسناً كل الشوارع تكون مقفرة الآن ، لأن الناس يهرعون فى هذه اللحظة إلى بيوتهم حتى يستمعوا للإذاعة الحرة . وهذه موعدها كل مساء الساعة السابعة والربع تماما ! » .

وحدث أن كتب أحد المتحمسين من أنصار التعاون مع ألمانيا فى بلجيكا إلى جريدة (نوفو جورنال) البلجيكية ، يشكو من أنه سمع فى الترام حديثاً بين تلميذتين . قالت إحداهما فى أثنائه : « أن مدرس الانجليزية فى مدرستنا رجل عظيم حقا ! هل تدرين ماذا يفعل ؟ إنه يبدى كل يوم تعليقات منوعة على الأنباء المذاعة من انجلترة . إن النصر آت لا محالة ! » .

ومن الأقاصيص الطريفة ما حدث فى بروكسل أيضا عندما غادر رجل مسن أحدالمقاهى، فسأله رفاقه إلى أين ؟ فقال : إلى المنزل لأن هذا وقت الاستماع إلى الإذاعة البريطانية ! ثم ذهب الرجل إلى حال سبيله . ولكنه لم يكد يستقر به المقام فى بيته حتى سمع طارقا . ثم لم يلبث أن دهش عندما وجد الجستابو فى ردهة البيت يسألونه : « هل أنت الرجل الذى يستمع إلى الإذاعة البريطانية ؟ » فأجاب : « نعم وأفعل ذلك كل يوم ! » فسألوه : « وأين هذا الراديو ؟ » فأجاب : « ولكنى لا أملك جهازا للاستماع . وإنما جدران المنزل رقيقة لدرجة تمكننى من الاستماع لإذاعة جهاز الراديو الذى يملكه جارى . وحضرته ضابط ألمانى » .

الفصل الخامس

الصحف السرية

أما أخطر وسائل الدعاية الخفية وأشدها أثرا فكانت الصحف السرية التى انتشرت فى أرجاء أوربا النازية. وظهور هذه الصحف كان معناه فى الحقيقة وجود حركة مقاومة خفية واسعة يصعب على سلطات الاحتلال الألمانى ورجال الجستابو اخمادها على الرغم من أن النازيين كانوا أصحاب السطوة فى البلدان المفتوحة . ويعتبر ظهور هذه الصحف السرية ورواجها برهانا ساطعا على أن الهتلريين قد فشلوا تماما ، أولا فى كسب صداقة الشعوب المقهورة ، واستمالتهم إلى التعاون معهم فى ظل النظام الجديد من أجل دعم السيطرة الألمانية ؛ وثانيا على أنهم بالرغم من تنظيماتهم الواسعة ظلوا عاجزين عن كبح جماح الأهلين والقضاء على الروح المعنوية فى البلدان التى دانت لسلطانهم . وزيادة على ذلك فقد قامت الصحف السرية بدور خطير فى جمع وتوحيد الصفوف وشد أزر المقاومة ضد السادة الألمان ، وهذا بفضل ما كانت تنشره من أنباء وموضوعات متعلقة بنشاط الديموقراطيات العظيمة ونضالها المميت من أجل خلاص الحضارة من شرور النازيين وطغيانهم من جهة ، ثم بفضل ما كانت تقوم به من وسائل الدعاوة المضادة التى مر ذكرها . ويكفى برهانا على خطر المهمة التى ألقيت على عاتق هذه الصحف السرية ، أنها كانت تعتمد فى الأنباء التى تنشرها على اذاعات المحطة البريطانية (B.B.C.) ، ومعنى هذا أن الصحف السرية تروج الأنباء التى يفرض النازيون عقوبات صارمة بلغت حد الإعدام فى أحايين كثيرة على كل مستمع لهذه الإذاعة ، مما يدل أيضا على أن جميع الجهود التى بذلها النازيون لمقاومة هذه الإذاعة الحرة قد ذهبت سدى ومن غير طائل

هذا إلى أن نجاح الدعاوه المضادة فى استخدام الصحف السرية دل على أن أنصار الدعاية عديدون بل ومنتشرون فى أرجاء أوربا المحتلة ، لأن اصدار هذه الصحف السرية لم يكن بالأمر السهل الهين . فهناك قبل كل شىء مشكلة الحصول على الورق ، لأن سلطات الاحتلال الألمانى تهيمن على توزيعه ، فلا يستطيع انسان أو هيئة الحصول على الورق إلا إذا سمح الحاكم الألمانى ، وعرفت سلطات الاحتلال الوجوه التى يراد استخدامه فيها وهذا إلى أن الكميات التى تسمح بها السلطات محدودة وتكاد تكفى حاجة البلاد العادية . فكيف يحصل إذن أنصار الدعاوة المضادة على الورق الذى يلزم لصحفهم ؟ لا بد من وجود مؤيدين لهذه الدعاية الخفية

قبل كل شيء من بين الأهالين الذين استطاعوا التمتع بثقة الألمان لأن هؤلاء وحدهم هم الذين كانوا يحصلون على هذه الكميات المحدودة من الورق . وكانت هناك مجازفة أخرى إذ كيف يحمل مصدرو الصحف السرية كميات الورق التي يحصلون عليها تحت أنوف هيئات الشرطة والجستابو اليقظين ؟ وإذا استطاع أصحاب الصحف الافلات من ذلك كله ، فأين يجدون المطبعة التي تطبع صحيفتهم ؟ بيد أنه كما كان هؤلاء يجدون أفرادا وشركات وطنية تعطيهم حاجاتهم من الورق خفية ، فانهم كانوا كذلك يجدون أصحاب مطابع لا يضنون على أصحاب الصحف السرية بما يريدون من أدوات الطباعة كالحبر والحروف والآلات وغير ذلك . وكان مصدرو الصحف دائما يعمدون الى استخدام حروف الطباعة من (البنط) الذى لا تختص باستعماله شركة أو هيئة دون أخرى ، حتى يصعب على رجال الجستابو الوقوف على المصدر الذى أمد الصحف السرية بأدوات الطباعة . ورغبة فى أن يتعذر العثور على المكان الخفى الذى أقيمت فيه المطبعة السرية كثيرا ما كان أصحاب هذه الصحف يختارون مكانا منعزلا خوفا من أن يسمع القاطنون فى الأماكن المجاورة صوت الآلات ، ويعرف خبر وجود المطبعة . وقد حرص مصدرو الصحف السرية على ألا يعتمدوا على شركة واحدة لتموينهم بالورق أو مدهم بالآت الطباعة وأدواتها ، أو يظلوا فى مكان معين يطبعون فيه صحيفتهم مدة طويلة . والسبب فى ذلك الإمعان فى الحيطة حتى لا يتسرب شيء عن نشاطهم ، أو يتعرض معاونوهم فى هذا كله لإثارة سخط سلطات الاحتلال عليهم فيكون نصيبهم الموت أو التشريد لا محالة . فاذا ما تم طبع الصحيفة ، صادف أصحابها صعوبة التوزيع ، فكان عليهم أولا أن ينقلوا ما طبعوه من نسخ عدة قد يثير نقلها الريبة والشكوك ، وأن يجدوا موزعين ، يوصلون هذه النسخ إلى أيدى الأهلين فى كل مدينة وقرية .

ومع هذا ، وبالرغم مما كان ينتظر كل مشترك فى أية عملية من هذه العمليات جميعها من عقوبة قاسية ، الأمر الذى كان يعرفه الأهلون فى أوربا المحتلة حق المعرفة ــ وبالرغم مما كان ينزله النازيون بمصدرى هذه الصحف ومحرريها وموزعيها من عقاب صارم يبلغ حد الإعدام فى حالات كثيرة ، فان أصحاب الصحف السرية مضوا فى إنجاز أعمالهم وطبع صحفهم وتوزيعها . وكان من الطبيعى أن يتمكن النازيون بين حين وآخر من القبض على بعض الأفراد المسئولين عن إصدار هذه الصحف وإعدامهم . ومع هذا فإن ذلك لم يفد شيئاً فى منع صحف أخرى ، غير تلك التى مات أصحابها أو أرغموا على الفرار من قبضة الجستابو وترك أوطانهم ، من الظهور فى أماكن أخرى . وكثيرا ما كان يحدث أن تصدر الصحيفة نفسها التى ظنت سلطات الاحتلال الألمانى أنه قد قضى عليها ، محتفظة بنفس الشكل الذى اعتادت

الظهور به ، يتولى تحريرها آخرون لايقلون وطنيـة ورغبة فى مقاومة الطغيان النازى عن أسلافهم .

* * *

والوقوف على طرف من قصة هذه الصحف السرية وانتشارها يظهرنا على مبلغ نشاطها وأهمية الخدمة التى كانت تؤديها كأداة من أدوات الدعاية الخفية ذات الأثر الفعال فى مكافحة دعاة النظام الجديد فى أوربا النازية ولما كان عدد من أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد استطاع الفرار إلى انجلترة أو إلى غيرها من الدول الحرة المحاربة أو المحايدة ، وكانت أسرات الكثيرين منهم ما تزال تعيش فى البلدان المحتلة تحت رقابة الجستابو وفى خطر التعرض للموت أو التشريد والنفى إلى معسكرات الاعتقال ، أو قضاء بقية العمر فى غياهب السجون ، إذا عرف النازيون شيئا عن نشاط أعضاء الأسرة الهاربين ، فقد أصبح من المتعذر وقتذاك نشر أسمائهم أو تدوين قصة نشاطهم الخفى كاملة . ولذلك حرصت الحكومات الحرة المحاربة على أن تظل شخصيات هؤلاء الشجعان المغامرين بحياتهم مجهولة ، واكتفت بتمجيد ذكرى الأبطال الذى لم يستطيعوا الخلاص والنجاة وكشفت سلطان الاحتلال الألمانى أمرهم ، فلقوا حتفهم على أيدى الجستابو اللعينة أو قدموا للمحاكمة أمام المحاكم الألمانية العسكرية ، ونفذت فيهم أحكام الاعدام الرهيبة ؛ وأصبح من حق التاريخ وحده أن يرفع ذكرهم عاليا ، كمثال للتضحية الحرة النزيهة من أجل مصلحة الوطن ، وفى سبيل خلاصه من ربقة الاستعمار الأجنبى .

وفى فرنسا بدأ ظهور الصحف السرية من وقت مبكر ، عقب الاحتلال الألمانى مباشرة . فقد سبب انهيار فرنسا كوارث عظيمة . وكان (بول سيمون) من بين الذين فقدوا ثرواتهم وهو من الوطنيين الممتلئين حماسة وغيرة ؛ متوقد الذهن عظيم النشاط ، قرر منذ اللحظة الأولى أن يشن بمفرده حربا شعواء على السادة الألمان ، هذا إلى أنه وجد فى هذه الحرب المزمعة وسيلة للترويح عن نفسه إلى جانب إشباع رغبته فى الانتقام من غير الاصطدام بالنازيين المدججين بالسلاح والذين كان لايجرؤ وهو الأعزل على الاصطدام بهم . لذلك عمد (بول سيمون) فى أيام الاحتلال الأولى ، إلى العمل على تعكير صفو الألمان ، فصار لايدع فرصة تمر دون أن يلصق على نوافذ سيارات ضباطهم وكبار رجالهم قصاصات الورق المعد لتغطية ألواح الزجاج حتى لاتتحطم وتتناثر قطعها وقت الاغارات ، بعد أن يكتب عليها عبارات مثيرة . مثل : « من هو أجمل رجل آرى فى أوربا ؟ الدكتور جوبلز على وجه التأكيد ! » و « من هو أعظم البلوتاركيين فى أوربا ؟ — أى أعظم رجال الحكومة البلوتاركية أو التى

تتألف من الأغنياء — الماريشال جورنج دون شك ! » . هذا عدا عبارات أخرى تهتف بحياة ديجول ،أو كتابة شعار الجمهورية الفرنسية المعروف«الحرية والمساوة والاخاء !»

واعتمد (بول سيمون) من مبدأ الأمر على معاونة ثلاثة من الوطنيين . واستطاع مع زملائه العثور على حروف للطباعة صغيرة مصنوعة من الكاوتشوك — مما يلعب به الأطفال عادة — ، ثم اشترى الجماعة كل ما استطاعوا شراءه من ورق الزجاج المصمغ واستخدموا ذلك كله فى لصق عبارات مماثلة لتلك التى تقدم ذكرها ، من عبارات الدعاوة المضادة ، على جدران باريس . وذات مساء ، فكرت الجماعة فى إنشاء صحيفة سرية . وبعد مضى أربع وعشرين ساعة كان (بول سيمون) يبذل كل جهد لاقناع أحد أصحاب المخازن المعدة لبيع الورق وأدوات الكتابة حتى يبيعه مطبعة من الكاوتشوك ذات حروف أكبر حجما من الحروف التى كانوا يستخدمونها وتمكنهم من طبع أربعة سطور فى وقت واحد . وفى مكان سرى أمين ، وبعيد عن أعين رجال الجستابو ، وبعد عمل شاق مضن استمر شهرا بأكمله وكلف أحدهم فقد احدى عينيه من كثرة الاجهاد ، تمكنت الجماعة من إخراج أول أعداد هذه الصحيفة السرية وكان اسمها (ڤالمى) Valmy وهو اسم المعركة التى أحرزفيها الفرنسيون أول انتصاراتهم على البروسيين فى عام ١٧٩٢ فى أثناء حروب الثورة الفرنسية المعروفة . وأما الاسم الآخر فكان : «عدو واحد ، هو الغاصب ! Un seul ennemi-L'envahisseur » وكانت جملة ماطبع من هذا العدد الأول خمسين نسخة فحسب . ولكن سرعان ما أحدث ظهور هذه الصحيفة أثرا عظيما وضجة هائلة . والسبب فى ذلك أن ظهور (ڤالمى) كان تحديا صريحا لسلطات الاحتلال الألمانى ، وبرهانا ساطعاً على أنه ليس من العسير أن يجد الوطنيون سبيلا للافصاح عما يشعرون به نحو السادة الألمان من كراهية واستخفاف، هذا على الرغم من عيون الجستابو المنبثة فى كل مكان . وعلى الرغم من سيف العقوبة الصارمة المسلط على أعناق كل من تحدثه النفس بمقاومة النظام الجديد .

بيد أن (بول سيمون) لم يلبث أن واجه بضع عقبات ، أهمها ناشىء من عدم وجود ما يكفى من حبر الطباعة لإصدار العدد الثانى من صحيفته . ولما كان يعرف حق المعرفة أنه كلما قل عدد المشرفين على اصدار هذه الصحيفة ، كان ذلك أعون على كتمان سرها ؛ فضلا عن أنه لم يكن يريد أن يلحق بأصدقائه أى أذى بسبب ما قد يقدمونه لصحيفته من معاونة ، فقدقرر أن « يسرق » مايريد من حبر من مقر القيادة الألمانية العامة نفسه فى شارع ريڤولى . وكان من المتعذر على أى فرنسى الاقتراب من هذا المكان ، لأن الألمان منعوا سير الفرنسيين فى ميدان الكونكورد وفى الشارع الموصل إلى تمثال چان دارك . فكيف إذن يحقق (بول سيمون)

رغبته ؟ ان مافعله (پول سيمون) ذات مساء حتى يدخل إلى مقر القيادة الألمانية العامة ، ويأخذ مايشاء من كميات الحبر اللازمة لمطبعته ، مايزال من الأسرار . ولا شك فى أن هذا العمل كان يتطلب من (پول شيمون) شجاعة خارقة ! ومهما يكن من شيء فقد استطاع هذا الفرنسى أن يصدر العدد الثانى من صحيفته (ڤالمى) مطبوعا بمداد ألمانى !

واتبع (سيمون) نظاماً دقيقاً فى توزيع صحيفته . فقسم الموزعـون إلى جماعات تعمل منفصلة ، ولا تعرف إحداها شيئا مما تفعله الجماعة الأخرى ، زيادة فى الحيطة وحرصا على حياة المشرفين على اصدار الصحيفة وعلى حياة موزعيها أنفسهم . وتفنن هؤلاء فى ابتكار الطرق التى مكنتهم من توزيع الصحيفة فى أماكن لاتخطر على بال إنسان ، كما حدث فى مقر القيادة الألمانية العامة فى شارع ريڤولى ، (فى باريس) عندما عثر الجند الألمان وهم يلبسون خوذاتهم على نسخ مطوية بعناية من صحيفة (ڤالمى) على أن (پول سيمون) لم يلبث أن وجد فى الشابات الباريزيات موزعات من الطراز الأول ، يحملن نسخ صحيفته إلى كل مكان يذهبن اليه حتى صار الجند والضباط الألمان أنفسهم يجدون هذه الصحيفة « المكروهة » مخبأة فى جيوبهم . مما سبب لهم الحيرة والارتباك ، لأن الجستابو ما كان ليدعهم يذهبون بسلام إذا عرف أن (ڤالمى) قد وجدت طريقا إلى الاستقرار فى جيوبهم . وكان من بين هؤلاء الفتيات الجريئات عدد من اللواتى فقدن أزواجهن أو شهدن أخا يختفى وراء جدران مركز قيادة الجستابو العامة فى شارع فوش ، أو رأين السادة الألمان يسوقون الشبان لإرغامهم على العمل الإجبارى فى ألمانيا .

وسرعان ماذاعت شهرة (ڤالمى) فى أرجاء فرنسا ، وصارتوزيعها غير مقصورعلى باريس بل صارت توزع فى الأقاليم أيضا . وجد الجستابو من أجل ذلك كله فى البحث والتنقيب عن أصحابها ومحرريها وموزعيها عندما بلغ مايطبعه (پول سيمون) من جريدته حوالى العشرة آلاف نسخة فى كل شهر . بيـد أنه لم يكن من العسير على رجال الجستابو بما أوتوا من قوة وسلطان وبفضل مابذلوه من جهود ، أن يعثروا بعد مشقة عظيمة على المكان الذى تطبع فيه هذه الجريدة . وعندئذ تعرض أصحابها لخطر داهم ، ولكن شاء حسن الحظ أن يبلغهم الخبر فى الوقت المناسب ، فغادر (سيمون) ورفاقه الوكر قبيل هجوم الجستابو ورجع هؤلاء بخفى حنين . ثم عادت الصحيفة إلى الظهور كعادتها ، وبلغ عدد قرائها فى أكتوبر من عام ١٩٤١ المائة ألف .

ومما تجدر ملاحظته أن (ڤالمى) لم تحاول معالجة شتى الأمور التى تتناولها بالأسلوب الجدى الذى يتطلب من القارىء أعمال الفكر وكد الذهن ، كما أنها امتنعت عن إثارة الموضوعات

الجدلية التى قد تعطى للألمان فرصة الرد ومحاولة الاقناع . فقد فطن محرروها إلى أن أمضى سلاح يستخدمونه ضد السادة النازيين إنما هو سلاح التهكم والسخرية والنقد اللاذع الذى يذهب بهيبة سلطات الاحتلال الألمانية ، ويحطم ما يكون قد رسخ فى أذهان الباريسيين الذين أذهلهم انهيار بلادهم بهذه السرعة الخاطفة ، من أن النصر لايمكن أن يفلت من قبضة الآلهة النازيين ، وأن أحداً لن يجرؤ على نقدهم أو مقاومتهم . وفى الواقع ظلت (ڤالمى) تقض مضاجع الألمان مدة طويلة ، وصار لايهدأ لهم بال حتى يقبضوا على أصحابها وموزيعها ،ومن ثم أحكم رجال الجستابو رقابتهم ، وضاعفوا نشاطهم حتى استطاعوا فى نهاية الأمر أن يعثروا على مكانها الجديد ؛ ولكن صاحبها (پول سيمون) تمكن فى اللحظة الأخيرة من الافلات من قبضتهم ، ونجا بنفسه عبر الحدود ، قبل أن يطبق عليه الجستابو شبكتهم الحديدية ، ثم اتخذ مقره فى لندن يعمل مع جماعة الفرنسيين الأحرار فى انجلترة .

غير أن فرار (پول سيمون) لم يكن معناه نجاح النازيين فى إخماد حركة الصحف السرية فى فرنسا . ومع أن هؤلاء بدأوا يتشددون فى مراقبة جميع العناصر المعادية فى هذه البلاد منذ شهر ديسمبر ١٩٤١ ، فان الصحف السرية والمنشورات والرسائل الصغيرة وما اليها سرعان ما انتشرت انتشاراً كبيراً حتى بلغ عدد النشرات الاخبارية السرية فى تلك الآونة حوالى العشرين . ولم تكن (ڤالمى) الصحيفة الوحيدة التى صدرت منذ أيام الاحتلال الأولى . لأن صدورها ونجاة صاحبها سرعان ما أفضيا إلى ظهور صحيفتين أخريين : هما (پنتاجرول) Pantagruel — وهو اسم البطل الذى أوجده خيال (رابليه) أحد أعلام الأدب الفرنسى القدماء — ؛ و (ريزيستانس) Resistamce — أى المقـــاومة . وقد تبع ظهور هاتين الصحيفتين ، اصدار صحف سرية أخرى منهـا : (فرنسا الحرة) — La France Libre ، (صوت باريس) La Voix de Par is ؛ و (شعب فرنسا) Peuple de France ؛ و (النضال) Combat ، وغير ذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن الأطباء فى فرنسا (قبل عام ١٩٤٣) أصدروا صحيفة علمية طبية ، ظلت تعنى بجمع الحقائق التى تساعد على معرفة مبلغ الأثر السىء الذى أحدثه الاحتلال الألمانى وتطبيق النظام الجديد النازى فى صحة الأهلين . وقد وصلت هذه الصحيفة السرية إلى نتائج معينة فى هذا الموضوع : أهمها أن عـدة أمراض ناجمة عن سوء التغذية وقلتها مثل (الأنيميا وضعف الأعصاب وهكذا) صارت تفتك بالأهلين حتى بات متوسط الوزن الذى يفقده الشخص العادى ثلاثة كيلوجرامات فى الشهر الواحد .

ولم يكن الوطنيون وحدهم هم الذين أصدروا هذه الصحف السرية ، بل اشترك معهم فى

ذلك أيضا الشيوعيون . وكان لهؤلاء قبل الحرب الأخيرة صحيفـــة تدعى (الإنسانية) L'Humanité . أغلقها النازيون فى أيام الاحتلال الأولى ؛ ولكنه لم تمض فترة صغيرة حتى عادت الجريدة إلى الظهور وصارت فى عداد الصحف السرية ذات الخطر ، وتولى تحريرها واصدارها أحد الراديكاليين المعروفين فى باريس وهو (جبرائيل پرى) Gabriel Peri . وكان (پرى) هذا عند ما بدأ يصدر صحيفته السرية رجلا مريضا بالسل ، ولا يرجو شفاء من علته الصدرية . ولذلك انكب على عمله الجديد بكل همة مضحيا فى سبيل مقاومة الاحتلال الألمانى بكل ما يملك من مال وصحة . وظلت التبرعات تنهال على صحيفته من كل جانب ، لاسيما وأنها صارت لاتقنع فى عهدها الجديد بمجرد تأييد قضية الشيوعية ، بل أخذت على عاتقها الدفاع عن مصلحة الوطن قبل أى اعتبار آخر ، وهـذا بترويج الدعاوة المضادة ضد السادة النازيين والعمل على تقويض أركان النظام الجديد فى فرنسا . ولكن أيام (پرى) كانت معدودة . فقد قبض عليه الجستابو ، وأودع السجن مدة ساءت فى أثنائها صحته كثيرا ، وكاد المرض يفتك به لولا أن قرر الألمان إعدامه رميا بالرصاص . وقابل (پرى) الموت برباطة جأش وعدم مبالاة وأخذ يردد أغنية من الأغنيات المفضلة لديه ، وعبثا حاول جلادوه ارغامه على ابطال التغنى بها ، بل ارتفع صوته قليلا قبل اطلاق الرصاص عليه . وأثار عمل (پرى) هذا إعجابا لاحد له ، وعرفه الفرنسيون من ذلك الحين باسم « الرجل الذى مات وهو يغنى » وفى اليوم التالى زار ألوف من الباريسيين وغيرهم المكان الذى أعدم فيه ، والذى كان لا يزال ملطخا بدمائه ، ووضعوا عليه أكاليل الزهر .

بيد أن متاعب النازيين لم تنقض بوفاة (پرى) . فقد ظلت تحمل راية المقاومة فى فرنسا صحف جريئة . منها جريدة (التحرير أو الخلاص) Liberation ، وجريدة (پنتاجرول) Pantagruel أما جريدة (التحرير) السرية فقد عنيت بنشر أنباء محطة الإذاعة البريطانية (B. B.C.) وأسماء الذين أعدمهم الألمان ولقوا حتفهم على أيدى رجال الجستابو ؛ هذا إلى أنها صارت تعنى أيضاً بتحذير الأهلين حتى لا يقعوا فى فخاخ رجال الشرطة وشباكهم . وكانت تنشر كذلك أسماء الفرنسيين الذين قبلوا التعاون مع السادة النازيين فى بلادهم . وعظم ذيوع هذه الجريدة حتى صار الضباط الفرنسيون الأسرى فى المعتقلات الألمانية لايجدون صعوبة فى الحصول على أعداد منها . وكان من بين المشتركين فى تحريرها وإصدارها أحد أعضاء البرلمان السابقين عن مدينة ليون . وهو المسيو (أندريه فيليب) André Philip أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة ليون ، وقد عمل فى أثناء الحرب كضابط اتصال مع قوات الحملة الإنجليزية فى فرنسا ثم أعيد إلى عمله فى الجامعة بعد انهيار فرنسا ، ثم استطاع بعد ذلك الفرار إلى انجلترة .

وقبل أن يغادر (أندريه فيليب) فرنسا كانت جريدة (التحرير) توزع خمسين ألف نسخة .

وكان أهم ما عنيت به هذه الجريدة تنظيم المظاهرات ، وبث روح المقاومة السلبية فى ليون وفى بقية فرنسا لتعطيل سياسة النازيين الأولى والتى أرادوا بها كسب مودة الفرنسيين وصداقتهم فى المنطقة المحتلة . وزيادة على ذلك ، اضطلعت هذه الجريدة بمهمة توحيد صفوف الفرنسيين حتى لا تظل المقاومة مقصورة على طبقة العمال وحدها ، لأنه كان ينبغى أن ينضم أهل الطبقة المتوسطة أيضاً إلى صفوفها. وكان هؤلاء مايزالون يعقدون على الماريشال بيتان Pétain الآمال فى انقاذ فرنسا . فلما استقدم (بيتان) إلى (فيشى) Vichy المسيو بيير لافال Laval ، وأعاد استخدامه : انتهزت الجديدة هذه الفرصة لاثارة حملة شعواء ضد حكومة فيشى ونظامها ولم يكن ذلك فى الحقيقة أمراً عسيراً ، لأن انضمام (لافال) إلى (بيتان) لم يلبث أن نفر القلوب فى فرنسا المحتلة وقتذاك من الماريشال الطاعن فى السن ، وانفض من حوله الأنصار الذين عقدوا على زعامته الآمال العريضة ؛ واستطاعت جريدة (التحرير) أن تكتب عقب هذا الحادث مامعناه : « إن الاختلاف الحقيقى بين فرنسا المحتلة . وغير المحتلة ، هو أن ألمانيا فى فرنسا المحتلة هى العدو الأول ؛ (وفيشى) هى العدو الثانى . أما فى فرنسا غير المحتلة فان (فيشى) هى العدو الأول ، وألمانيا هى العدو الثانى ! » .

وتعتبر (بنتاجرول) Pantagruel من أقدم الصحف السرية فى فرنسا ، إن لم تكن أقدمها جميعا . وقبل أن يستطيع (بول سيمون) الفرار من باريس ، كان الألمان قد قبضوا على محرر (بنتاجرول) وأعدموه . وقد أسدت (بنتاجرول) خدمات جليلة فى الفترة التى قدرلها الظهور فى أثنائها . جاء فى عددها الأول ما معناه : « إن هذه الصحيفة مخصصة لنشر الأنباء ولا يمكن أن يذهب نضالها ضد سلطات الاحتلال سدى . وغرضها نشر الأخبار التى يذيعها الراديو الانجليزى ، حتى يقف عليها كل من يتعذر عليهم الإصغاء إلى نشرة الأخبار البريطانية والذين يتألمون بسبب عجزهم هذا . إننا نرجو رجاء حاراً أن يكون النصر من نصيب الانجليز . لأن هذا من شأنه أن يخلص فرنسا ويرد إليها عدداً من أقاليمها المفقودة ومستعمراتها ، ثم يحقق لها النجاة من العبودية الاقتصادية والتضخم النقدى . وما ينبغى أن ننسى أن انجلترة قد أعلنت عن أغراضها الحربية التى تتضمن إعادة كيان الأراضى الفرنسية برمتها سليمة . وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرغب فى انتصارها . ولو أن هذا لا يعنى بالضرورة إذلال الشعب الألمانى ... » . ولعل أهم ما يسترعى النظر فى هذه الجريدة أنها أخذت على عاتقها مقاومة الدعاية النازية عند اشتداد اغارات الطائرات البريطانية على الموانىء الفرنسية ، فكان مما قالته : « وإذا سلمنا بأن الانجليز إنما يحاربون من أجلنا كما يحاربون

من أجل مصلحتهم ، وهذا هو الوضع الصحيح وما يحدث فعلا ، فانه يجب علينا ألا نلومهم ، لأنهم إنما يفعلون ما يفعله جنودنا أنفسهم عندما ينسف هؤلاء الجسور أو يهدمون القلاع والحصون ... » ومع هذا فقد حرصت الجريدة على أن توضح لقارئيها أنها ليست بالصحيفة الانجلزية . بل على العكس من ذلك ، فانه من الواجب على كل قارىء أن يساعد على وصول هذه الصحيفة إلى المواطنين الأحرار فى بريطانيا العظمى ، إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . إذ ينبغى أن يعرف أصدقاؤنا وحلفاؤنا فى انجلترة ، أن الأذى الذى يحاول أعداؤنا أن يلحقوه بهم بطريق النشر والكتابة فى صحفهم لم يفد شيئا فى تحطيم عاطفة الصداقة التى تشعر بها نحوهم الجمهرة العظمى من الشعب الفرنسى . » وفى عدد من أعداد هذه الصحيفة ، جاء التعليق التالى : « ان هجوم الربيع (١٩٤١) الذى قام به هتلر ، أفضى الى ارسال الجيش الألمانى إلى بلغراد ولكن بلغراد هذه إنما هى عاصمة أوربية وليست بكل تأكيد عاصمة بريطانيا العظمى ! وهكذا يتعطل سير النظام الجديد مره أخرى . والواقع أنه من المستحسن كثيرا أن يذهب الألمان إلى أثينا وإلى بلغراد ، ولا ينزلون فى لندن ! » . وكان هذا تهكما واضحا .

والحقيقة أن (پنتاجرول) كغيرها من الصحف السرية كانت تعتمد على التهكم والسخر بالسادة النازيين فيما تكتب أكثر من اعتمادها على أى شىء آخر : الأمر الذى أثار سخط سلطات الاحتلال الألمانى ، وأوقد حفيظة النازيين ضد هذه الجريدة . وقبل إعدام صاحبها فى نوفمبر ١٩٤١ بلغ عدد النسخ التى توزعها (پنتاجرول) عشرة آلاف نسخة !

وإلى جانب هذه الصحف السرية كان يوزع أيضا أنصار الدعاوة المضادة عدداً من الكتب الصغيرة التى يسهل حملها فى الجيب أو فى حقيبة اليد الصغيرة . ومن أشهرها ، كتيب انتشر انتشاراً كبيراً فى فرنسا المحتلة عنوانه « نصائح للأهلين فى الأرض المحتلة » Conseils à L'Occupé . وهو كتيب يقع فى ست عشرة صفحة ، وبلغ عدد ما وزع منه نيفا وسبعة آلاف نسخة . وهو يتضمن إرشادات فيما ينبغى أن يفعله كل رجل وإمرأة فى المسلك الواجب إتباعه حيال الألمان فى بلادهم . وكلها إرشادات فى الحقيقة لا غنى عنها من أجل إحكام أساليب المقاومة السلبية : وأهمها الامتناع عن مخالطة الفاتحين ، والتظاهر بجهل لغتهم والامتناع عن ارتياد المقاهى التى يؤمونها ، ومقاطعة أصحاب المحلات العامة الذين يعلنون عن إمكان التخاطب بالألمانية فى محالهم ، وزيادة على ذلك فإن هذا الكتيب صار يحذر الأهلين من الانخداع بما تذيعه الدعاية النازية والاستماع لأكاذيب الدكتور جوبلز وأعوانه .

وفى يوليه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد الصحف السرية فى فرنسا الثلاثين ، هذا عدا المنشورات والكتب الصغيرة وما إليها ، فقد أربت على الستين . وفى تلك الآونة كانت جميع

الدلائل تدل على أن هذا العدد آخذ فى الزيادة المستمرة ! ولعل أبرز نتائج هذه الدعاية الخفية زوال الفروق السياسية التى لعبت فيما مضى دورا خطيراً فى تفكك فرنسا وانهيارها فصار الأهلون جميعا يربطهم الآن رباط واحد ، هو ضرورة مجابهة الخطر المحدق بهم من جراء وقوع الوطن تحت أقدام النازيين ، وواجب التطلع إلى مستقبل جديد يحفظ على فرنسا وحدتها ويعيد إليها امبراطوريتها ومجدها ، ويكتب لها الخلاص والتحرر من ربقة الاستعباد الألمانى لا فى هذا الجيل وحده ، بل وخلال الأجيال المقبلة كذلك

* * *

ولم تكن فرنسا وحدها موطن هذه الصحف السرية ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الألمانى وما تبعه من التضييق على حريات الشعوب وخنقها ، وإذلال الأهلين وسلب اقتصادهم القومى ثم تسخيرهم فى العمل لدعم أركان النظام النازى الجديد ، أن صار أهل البلدان المقهورة يجدون فى الصحف السرية وسيلة من الوسائل التى تمكنهم من الأفصاح عن شعورهم وإحياء الآمال فى صدور مواطنيهم ، وجمع الرأى والكلمة على ضرورة مقاومة الطغيان النازى . وكان البلجيكيون من بين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها والتى ظلت متشبثة بحقها فى حياة حرة طليقة .

وتبدأ قصة الصحف السرية فى بلجيكا بحادث جدد فى أذهان البلجيكيين ذكريات الصراع الدامى القديم عندما وطىء الغزاة الألمان أرض الوطن بأقدامهم فى عهد الاحتلال الأول فى أثناء الحرب العالمية الأولى بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٨ . هذا الحادث هو مفاجأة أهل بروكسل،فى يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٠ بظهور أول أعداد صحيفة (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique ولم يكن هذا العنوان جديدا . لأنه فى عام ١٩٤٠ كان لا يزال كثيرون من البلجيكيين يذكرون أنه فى يوم أول فبراير ١٩١٥ طلعت إلى عالم الوجود ، وتحت أنوف رجال الاحتلال القيصرى السابق ، جريدة المقاومة وقتذاك « بلجيكا الحرة » !

وكان ظهور هذه الصحيفة السرية (فى عام ١٩٤٠) نتيجة لأمر أصدره الألمان فى مايو من العام نفسه ، منعت بمقتضاه أية صحيفه بلجيكية من الظهور قبل أن ينال أصحابها تصريحا بذلك من سلطات الأحتلال الألمانى العسكرية ، وكذلك منع أى طابع من استخدام مطبعته فى أى غرض من الأغراض قبل أن ينال تصريحا بذلك من هذه السلطات ذاتها . وقد تبع هذا الأمر ، استقالة كثيرين من أصحاب الصحف ومحرريها ومراسليها . ولكن النازيين ما لبثوا أن تولوا بأنفسهم جلب المحررين والطابعين لإصدار الصحف اليومية الكبيرة وغيرها كعادتها وكأن شيئاً لم يحدث بل أن السلطات الألمانية لم تتورع عن صب جام غضبها على أصحاب

الصحف الذين رفضوا بأى حال من الأحوال ، أن يكونوا ضالعين معهم فيما أرادوه . مثال ذلك ما حـــدث لصاحب جريدة انتورب المشهورة Gazet von Antwerp ، ويدعى (دى هاسك) De Hasque إذ ألقى النازيون القبض عليه وأودعوه إحدى معسكرات الاعتقال ، حيث توفى بعد زمن قصير.ومثال آخر،ماحدث لمدير وكالة بلجا Belga Agancy المعروفة ويدعى (بطرس) Beetres . وفى عام ١٩٤٣ كان كثيرون من أصحاب الصحف البلجيكية ومحرريها ما يزالون فى غياهب السجون منهم (ديمارتو) Demarteau رئيس اتحاد الصحافة البلجيكية و (أوش) Ochs صاحب الرسوم الهزلية المشهورةفى جريدة (بوركواياه) Pourquoi Pas ، وغيرها وهذا عدا مئات الصحفيين الذين آثروا العيش فى فرنسا غيرالمحتلة فى تلك السنوات الأولى ، ثم فى غيرها من البلدان الحرة .

بيد أنه كان من الطبيعى وقد تخلى هؤلاء الصحفيون عن أعمالهم ، أن يتولى جماعة من الوطنيين الشجعان هذه المهمة مما أدى إلى ظهور صحيفة : (بلجيكا الحرة) . التى أعلنت أن عنوانها التلغرافى هو ، الحاكم الألمانى العام فى بروكسل،وأن ناشرها هو (بيتربان) Peter Pan — وهو تمثال أقيم فى ميدان بروكسل بعد الحرب العالمية الأولى — ، وأنه لما كانت جميع الأعمال معطلة من جراء الاحتلال الألمانى ، فإنه لا مسوغ بتاتا لنشر أية إعلانات فى هذه الجريدة ! . وفى يوليه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد ما يوزع منها أربعين ألفا . وفشلت جميع جهود الجستابو فى العثور على أصحابها ومحرريها .

وإلى جانب (بلجيكا الحرة) ظهرت ثلاثون صحيفة سرية أخرى توزع فى أرجاء بلجيكا . منها (الراية الحمراء) De Roode Vaaen ، و (القناص) De vrije Schuitter ،(ووطننا) Dus Vederland ، وكلها صحف فلمنكية ، هذا عن الصحف الوالونية (الفرنسية) مثل (تحت الحذاء) Sous La Botte ، (البربنسون) Barbançonne ، (النيران) Feux de Barrage وغيرها ، ثم الصحف الاشتراكية : (الأمل) L'Eespoir ، (العصر الحديث) Le Nouveau Temps و (الراية البيضاء) Le Drapeau Rouge ، (الوضوح) Clarté ، (الشباب الجديد) Le Jeunesse Nouvelle . وكذلك صار للنساء صحيفة سرية هى (صوت المرأة) La Voix des Femmes هذا عن صحف أخرى مثل(الفرقةالسوداء) La Legion Noire والصحف الهزلية مثل Le Coup de queue du Doudon Montois

وتدل المقالات التى كانت تنشرها هذه الصحف السرية على أن محرريها من نخبة القوم المثقفين وأفاضلهم وأن الغرض الذى كانت تتوخاه هذه الصحف هو كشف القناع عن أعمال السلب والنهب التى يرتكبها السادة الألمان تحت ستار دعم أركان النظام الجديد فى

أوربا كما كانت ترمى إلى دحض مفتريات الدعاية النازية ، ثم تعزيز روح المقاومة وحض الأهلين على مناصبة النازيين العداء بكل ما يملكون من قوة ، واظهار شخصيات الخونة والضالعين مع العدو والمتعاونين معه ، هذا إلى الإفاضة فى الثناء على رجال سلاح الطيران البريطانى ، ثم نقل الأخبار المذاعة من محطة لندن المعروفة ، وعلى وجه الخصوص أنباء العمليات العسكرية وأخبار القوات البلجيكية الحرة المحاربة إلى جانب البريطانيين وحلفائهم فى ميادين القتال. ومما يجدر ذكره أن جميع هذه الصحف كانت تؤيد تأييدا كاملا موقف الملك ليوبولد البلجيكى الذى كان يعتبر نفسه سجينا فى أيدى السلطات العسكرية الألمانية ويرفض الإذعان للنازيين أو أن تكون له صلة مباشرة بهم . وزيادة على ذلك برعت هذه الصحف البلجيكية السرية فى أسلوب التهكم اللاذع للنيل من هيبة الجندى الألمانى ، وهذا بفضل ما كانت تذيعه من أقاصيص ونوادر للسخر بهم . وإلى هذه الصحف يرجع الفضل أيضا فى تدبير حركات المقاومة لتعطيل أداة الحرب الألمانية . من ذلك أن الألمان الذين كان يزعجهم نقص كميات الورق الموجودة أرادوا أن يمتنع البلجيكيون عن إتلاف الورق القديم المهمل ، بدعوى أن صناعة الورق الجديد من هذه الكمية المهملة من شأنها أن تفضى إلى استخدام حوالى ٦٢ ألف بلجيكى ، فانبرت الصحف السرية عقب ذلك تطلب إلى الأهلين إتلاف الورق المهمل القديم ، لأن الألمان ، كما قالت الصحف ، إنما يحتاجون إلى هذا الورق لخدمة أغراض سيئة ليست فى مصلحة الوطنيين فى شىء . ، ثم حدث مثل هذا عندما شرع النازيون يجمعون النيكل ، فنصحت الصحف السرية الأهلين ، أن يخفوا قطع النقد المصنوعة من النيكل لديهم ، لأنها سوف تنفعهم ولا شك فى يوم عصيب ! ، فكانت النتيجة أن النازيين لم يستطيعوا سوى جمع ما يقرب من ٦ ٪ فقط من النيكل الموجود بالبلاد وكانت تقدر قيمته بنحو مليونين من الفرنكات . أضف إلى ذلك اتساع أعمال التخريب والتدمير فى بلجيكا بفضل تشجيع الصحف السرية ، مثل اشعال الحرائق فى المصانع وانتزاع قضبان السكك الحديدية وتعطيل محطات الإنارة وتوليد الكهرباء ، وانفجار القذائف دائما بين الألمان

ولذا أوقع النازيون عقوبات قاسية على كل من يضبط متلبسا بجريمة قراءة الصحف السرية أو توزيعها أو يشترك فى تحريرها أو إدارة أعمالها . وكانت هذه العقوبات تتراوح بين السجن بضعة شهور ، والسجن المؤبد ، والحبس الانفرادى ، والاعدام . مثال ذلك ما حدث فى (ليبج) Liège إذ أصدرت المحكمة العسكرية الألمانية فى شهر يوليه ١٩٤١ أحكاما صارمة على عدد من الناس اتهموا بالاشتراك فى إدارة وتحرير وتوزيع صحف غير مصرح بصدورها أو ما حدث فى فلندرا الشرقية إذ حكم على اثنين بالاعدام لأنهما كانا يوزعان بعض هذه

الصحف وبعض النشرات التى تضمنت أنباء مذاعة من لندن . كما سجن كثيرات من الفتيات المتهمات بجريمة توزيع صحف غير قانونية ! ومع هذا فإن الصحف السرية كانت منتشرة فى بلجيكا . وكان يصدر من (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique وحدها ثلاث طبعات إحداها فى بروكسل ، والثانية فى ليبج والثالثة فى انتورب .

* * *

وفى هولندة ظهرت الصحف السرية عقب الاحتلال الألمانى مباشرة . بيد أن الحظ لم يكن من نصيب الهولنديين من أنصار الدعاوة المضادة . إذ استطاع النازيون فى مبدأ الأمر أن يقفوا على حقيقة أمر الكثيرين ممن اشتركوا فى تحرير هذه الصحف أو توزيعها ، فألقوا القبض على عدد كبير من الرجال والنساء كان نصيب كثيرين منهم الإعدام أو الحياة البائسة فى معسكرات الاعتقال ، ومع ذلك فقد عجز الألمان عن إخماد هذه الدعاية الخفية . وفى طليعة الصحف السرية فى هولندة جريدة (القول الحق) Het Parool . وبلغ مقدار ما يوزع منها حوالى العشرين ألف نسخة يقرؤها مايقرب من المائة ألف قارىء . وكان شعار هذه الجريدة قول النشيد الوطنى الهولندى « سوف أبقى أميناً لوطنى حتى أموت ! » وكانت هذه الجريدة تقاوم النظام الجديد ، فتبين للأهلين ما ينطوى عليه تطبيق هذا النظام من أعمال السلب والنهب الاقتصادى . وتقف بالمرصاد لكل فرد من أعوان (مسيرت) Mussert كويسلنج هولنده المعروف ، تكشف عن أعمالهم ، وتحذر الأهلين من تصديق إدعاءاتهم وتزيح الستار عن كل خيانة جديدة يرتكبونها . وكان موزعو هذه الجريدة يتفننون فى ابتكار الطرق التى تضمن لجريدتهم الوصول إلى أيدى الأهلين فى كل مكان تقريباً . كما كان أصحابها ينتهزون الفرص دائماً لزيادة ما يوزع منها . وعند الاحتفال بعيد ميلاد الملكة ولهلمينا (فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٢) طبع أصحابها رسائل صغيرة ذات لون برتقالى ، ووزعوا منها آلاف النسخ فى أمستردام وحدها ، وكانت تحمل عبارة « أورنج — وهو اسم البيت المالك الهولندى — سوف ينتصر ! »

وهناك غير هذه الجريدة عدة صحف سرية أخرى ، منها « الأرض النرلندية الحرة » Vrij Nederland « وشحاذ والبحر ! » De Geuzen و« من الصحراء » Uit de Woestijn و « شعبنا » Ons Volk وغير ذلك . والسبب فى تعدد هذه الصحف السرية وتنوعها ، أن كل جماعة من الأهلين ، كالكاثوليك ، والعمال ، وهلم جرا كانت تمتلك صحيفتها الخاصة بها .

* * *

ومع أن لكسمبورج تبدو صغيرة فى مساحتها بالقياس إلى مجموعة الدول المحيطة بها والتى استولى النازيون عليها فى حربهم الخاطفة ، إلا أن أهلها لم يكونوا أقل حماسة فى مقاومة

الاحتلال الألمانى من غيرهم من الشعوب المقهورة . وكانت تعترض النازيين فى هـذا الأقليم الصغير صعوبات كبيرة جعلت من المتعذر عليهم أن يخمدوا صحافتها السرية . فقد استطاعت المقاومة الخفية فى هذه الدويلة الصغيرة إنشاء (إتحاد وطنى) غرضه الأول جمع كلمة الوطنيين ضد الاحتلال الألمـانى . وكان ينضم إلى هذا الاتحاد حوالى ٩٨٪ من أهل لـكسمبورج . ثم ساعد صغر مساحة الأقليم على إحكام الصلة بين أعضاء (الاتحاد) وتنظيم جهود أعضائه على نحو جعل منه فى نطاق الدولة القديمة دولة أخرى لها قوانينها وصحفها السرية الخاصة بها .

وكان عدد الصحف السرية التى يملكها هذا الاتحاد ثلاثة ، وأهمها صحيفة De Freie letzeburger جريدة المعارضة الوطنية وكانت تعلن عن أخبارها أنها مستقاة من لندن وموسكو ونيويورك ، التى تتصل بها جميعاً عن طريق الراديو . وقد حاول الألمان منع وصول الأخبار إليها بقطع التيار الـكهربائى فى أوقات الإذاعة البريطانية من لندن . ولـكن هذه المحاولة أخفقت لأن الجريدة سرعان ما أحضرت أجهزة للراديو من ذوات البطاريات ، كما أنه كان من الميسور على محرريهـا الانتقال إلى الأرض الفرنسية المجاورة والاستماع منها إلى الإذاعة الأجنبية . أما أقطاب هذا (الاتحاد الوطنى) فقد مات ثلاثة منهم ، أعدم الجستابو اثنين وانتحر الثالث بعد أن قتل برصاص مسدسه ثلاثة من الجستابو الذين هاجموه للقبض عليه ، ثم استطاع رابع هو (جون فرسل) John Vercel الفرار إلى لندن .

* * *

وفى (تشيكوسلوفاكيا) عرفت الصحف السرية ، قبل أن يجتاح الألمان هذه البلاد بشهرين على الأقل . أى منذ أن تلبد الأفق السياسى فى أوربا بالغيوم ، وقلق التشيك على مصير وطنهم ، فتألفت من بينهم الجمعيات الوطنية التى أزعجها مسلك الدكتاتوريين النازى والفاشى ، وصار أعضاؤها يفـكرون فى طرق الخلاص من الأخطار التى توقعوا إحداقها بهم ومن هؤلاء أنصار الديمقراطية الذين ظلت ثقتهم كاملة بزعيم هذه الدولة الحديثة ، الدكتور بنيش (Benés) وكان من بين هؤلاء الديمقراطيين رجل قدر له أن يلعب دوراً خطيراً فى تاريخ الدعاية الخفية فى تشيكوسلوفاكيا هو « يوسف سكالدا » Joseph Skalda . وكان وكان « سكالدا » من الوطنيين المتحمسين الذين جذبوا إليهم القلوب والتف حولهم الأنصار حر الرأى صادق العزيمة ، ظل فى أثناء الأزمة التشيكوسلوفاكية المعروفة (سبتمبر ١٩٣٨ — مارس ١٩٣٩) يتردد على المنتديات والمقاهى وكانت فى براج وفى أكثر بلدان البلقان بمثابة (الصالونات) القديمة التى كان يقصدها أصحاب الفـكر والرأى ، يتباحثون ويتناقشون فى شتى الموضوعات الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وحدث ذات مساء أن اجتمع بيوسف سكالدا . فى مقهى من هذه المقاهى ، رجل من الوطنيين ، لم تكن له به أية معرفة سابقة . ودار الحديث بينهما فى هذا الاجتماع بشأن إصدار صحيفة سرية . واختار الاثنان لهذه الجريدة الجديده اسم (V-Boj) ومعناها (هيا إلى السلاح!) . ومنذ وافق « سكالدا » على ذلك ، انكب على عمله الجديد بهمة لاتعرف الكلال حتى استطاع أن يخرج العدد الأول من صحيفته السرية قبل نشوب الحرب ، واحتلال الألمان البلاد لمدة شهرين . وكان هذا العدد يتألف من عشرين صفحة ، نشرت فيها البحوث التى تروج لآراء أصحابها الديموقراطية ، أكثر من عنايتها بنشر الأنباء ، ثم ذاعت ذيوعا كبيراً حتى صار لها وكلاء يتولون توزيعها فى كل مدينة وقرية تقريبا . ومع هذا لم تتعرض الحكومة القائمة الوطنية وقتذاك لهذه الجريدة بشىء ، وصار الناس يتداولونها علنا . ولذلك لم يكد الألمان يحتلون تشيكوسلوفاكيا ويضعون بوهيميا ومورافيا تحت حماية الريخ الثالث حتى نقلت (V-Boj) نشاطها من ميدان الحياة العامة إلى ميدان العمل فى طى الخفاء . وساعدت دقة تنظيمها السابق على بقائها واستمرار ذيوعها .

ومع أنه كان من المنتظر أن يفضى مجىء الألمان ، ورجال الجستابو ، إلى مقاومة الصحف السرية والعمل على اخمادها . فإن السادة الجدد لم يعنوا فى بادىء الأمر بمكافحة أصحابها ، وظل الحال على ذلك مدة سبعة شهور بتمامها بعد الغزو ، واستطاع « سكالدا » ورفاقه — وكان عددهم جميعا عشرة — أن يصدروا عدد (V-Boj) الأول فى عهد الاحتلال — أو الحماية الألمانية . وفى هذه المرة كان عدد صفحات الجريدة أربعة مزدانة برسوم الأسلحة الهوسية القديمة وصورة أسد بوهيميا الأبيض . وقد تضمن هذا العدد الأول مقالا افتتاحيا يحض التشيك على التمسك بأهداب الأمل والرجاء ، وعدم اليأس ، ورفض السيطرة الألمانية ، إذ أنه مهما أصدر النازيون من أوامر وتعليمات ، فإنهم لن يستطيعوا التحكم فى أفكار الناس ، هذا إلى أنه كانت توجد قوات نشيطة فى البلدان الأخرى ، وعلى وجه الخصوص فى بريطانيا من المنتظر أن تمكن هذه الأفكار من الظهور حرة طليقة .

ومع هذا ، فإنه لم يلبث أن حدث فى الشهر الحادى عشر ، مادل على أن السلطات الألمانية قد أخذت تهتم بأمر هذه الجريدة ، وشرع الجستابو يبحث عن أصحابها ومحرريها . وإزاء هذه اليقظة الجديدة اضطر (سكالدا) ورفاقه إلى تغيير مقرهم من وقت لآخر ، وتسلح كل فرد منهم للدفاع عن نفسه عند الحاجة . والواقع أن الخطر عليهم كان عظيما فى تلك الآونة ، لأن الجريدة كانت قد نمت نمواً كبيرا ، وزاد مقدار ما يوزع منها ، واشترك كثيرون فى توزيعها ومن شأن ذلك كله أن يسهل على الجستابو معرفة مقر الصحيفة أو العثور على أحد هؤلاء

الموزعين ، ثم إرغامه بعد تعذيبه على إفشاء سر الجماعة . على أنه بالرغم من هذه الأخطار ظلت (V-Boj) تظهر بانتظام فى الفترة التالية ، ثم صارت تنهال عليها البحوث والمقالات من كل جانب ، لا يرسلها محرروها بالبريد ، بل يرسلونها بطرق أخرى منوعة زيادة فى الحيطة والتكتم . وفى هذه المقالات والبحوث وجد(سكالدا) ومعاونوه مادة طيبة للنشر ، ولو أنهم حرصوا على نشر الأنباء المذاعة من محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C.) . هذا إلى أن الجريدة صارت تنشر بعض الصور الهزلية وعددا من الصور الشمسية ، حتى غدت V-Boj صحيفة بالمعنى الصحيح ، ولو أنها لم تصل إلى درجة الكمال والإتقان السابقة قبل العهد الألمانى .

وكان أول ما قامت به هذه الصحيفة من أعمال المقاومة السلبية أن حذرت الوطنيين الذين أرادوا فى يوم ٢٨ اكتوبر من عام ١٩٣٩ الاحتفال بذكرى اليوم الذى ظفرت فيه دولة تشيكوسلوفاكيا الحديثة باستقلالها منذ عشرين عاما ، من نوايا النازيين الذين قرروا إراقة دماء الوطنيين المحتفلين بهذا العيد . فنصحت الجريدة ، بدلا من إحياء هذه الذكرى فى مواكب ومظاهرات ، بأن يلزم التشيك منازلهم حتى يتركوا شوارع براج خالية يتجول فيها السادة الألمان وحدهم ثم اقترحت إلى جانب هذا ، أن يحتفل الوطنيون بعيدهم القومى ، بحمل شارة صغيرة ذات ثلاثة ألوان — شارة الدولة الحديثة : الأزرق والأبيض والأحمر — ونجحت دعوة V-Boj نجاحا عظيما . ولكن لسوء الحظ لم يلبث هذا النجاح أن كلف الوطنيين ثمناً غالياً . فقد حدث عند ما بزغت شمس يوم ٢٨ اكتوبر (١٩٣٩) ، وظهرت براج يخيم عليها السكون من كل جانب كأنه لم يسكنها قاطن أن قرر كارل هرمان فرانك وزير الحماية الألمانى أن يخرج مع أعوانه وفى عدد من قواته النازية ليتجول فى أنحاء المدينة عله يعثر ببعض عاثرى الحظ الذين اقتضت أعمالهم أن يغادروا منازلهم فى هذا اليوم المشئوم ، أو عله يستطيع أن يحمل الخراب والدمار إلى بيوت الأهلين المسالمين . ولذلك ركب(فرانك) مع جماعته السيارات ، وقصدوا جميعا إلى أحد الأحياء الأثرية القديمة فى براج(طريق الفلكيين) فخرج لاستقبالهم يهودى هرم ظن أنهم من السائحين الزائرين الذين يقصدون مشاهدة معالم هذا الحى الأثرى ، فكان نصيبه الموت . ثم قصد (فرانك) وأعوانه بعد ذلك أحد الميادين الكبيرة فى قلب المدينة ، وهناك عثروا ببعض المارة فألقوا عليهم القذائف اليدوية . وما أن سمع النازيون صوت هذه المفرقعات حتى تدفقوا من أماكنهم وثكناتهم ، وامتلأت بهم الشوارع ، واستطاعوا أن يخرجوا اليهود من بيوتهم أو من مخابئهم ، وقتلوا منهم سبعة عشر شخصاً ، ثم قاد الجستابو ٣٦ شخصا آخر أذاقوهم العذاب . وبذلك استطاع النازيون أن يسيلوا الدماء فى يوم تشيكوسلوفاكيا الوطنى ! وكان لهذه المأساة

آثار خطيرة . إذ أن الأهلين وقد ذاقوا الأمرين من عنت السلطات الألمانية ، وإصرارها على سفك دمائهم ، لم يلبثوا أن قرروا بدورهم اتباع أساليب المقاومة الإيجابية المعروفة . ومن ذلك الحين لم تذق (براج) طعم الهدوء يوما واحدا . وقضى من ثم على كل أمل فى إمكان التعاون بين التشيك وسلطات الحماية الألمانية .

بيد أن هذا لم يكن كل ما نجم من شرور . فقد أفضى إصرار الأهلين فى الأيام التالية على العمل باقتراح (V-Boj) وحمل الشارة التى تقدم ذكرها ، إلى إثارة سخط النازيين عليهم حتى إن هؤلاء كثيرا ما كانوا يوقفون حاملها فى الطريق ، من أجل أن ينتزعوا هذه الشارة عنوة . ولما أعيتهم الحيل ، صاروا ينهالون على أصحابها باللكم والضرب ، ثم لجأوا فى آخر الأمر إلى إطلاق الرصاص على كل شخص جرؤ على حمل هذه الشارة فى عروته !

ولما كانت جريدة (V-Boj) هى المسئولة عن ظهور هذا النوع من المقاومة السلبية ، فقد حنق الألمان عليها ، ونشط الجستابو نشاطاً عظيما للقبض على أصحابها ومحرريها وموزعيها، وعرضت السلطات مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عن أشخاصهم ، أو يدل على مكان طبع الصحيفة . وأسفرت جهود الجستابو الجديدة عن معرفة مكان مؤقت كان قد اختاره (سكالدا) ورفاقه لطبع صحيفتهم بعد حوادث ٢٨ أكتوبر المشئومة فى أحد فنادق براج الكبيرة . فاحاط الجستابو بهذا المكان ، ثم هاجموه . وباغتوا فيه رجلين . استطاع أحدهما أن يشعل النار فى عدد الجريدة الذى أعد للظهور ، وأطلق الجستابو عليه الرصاص من الخلف ، وقفز الثانى من النافذة فدق عنقه عند سقوطه ، وكان كل ما ظفر به الجستابو عبارة عن ٢٠ نسخة فحسب من آخر أعداد الجريدة !

ولم يعطل هذا الحادث نشاط (سكالدا) . بل إن الصحيفة لم تلبث أن أخرجت كتيباً جديدا بعد الحوادث الآنفة . تخاطفته الأيدى ، ولم يفطن الجستابو فى بادىء الأمر إلى حقيقة هذا الكتيب ، لأنه كان يشبه كتيبا من سلسلة معروفة كانت تصدر فى تشيكوسلوفاكيا فى تلك الآونة ، ولا تعالج الموضوعات السياسية . هذا إلى أن الذى يتصفح هذا الكتيب ما كان يجد سوى أحاديث عن الأدب ، حتى إذا بلغ الصفحة الرابعة ، عثر على أقوال معادية للسلطات الألمانية وصور هزلية من النوع الذى تجيده الدعاية الخفية . وإلى جانب ذلك بعض النصائح والإرشادات الضرورية لاحكام أساليب المقاومة السلبية .

وفى براج ، ظل (سكالدا) يصدر صحيفته السرية (V-Boj) بالرغم من الأخطار التى اكتنفته ، معتمدا هو وأعوانه على النساء بصفة خاصة فى توزيع الصحيفة ، حتى اضطر الجستابو إلى استخدام عدد من الألمانيات لمراقبة المحال العامة التى ترتادها السيدات بنوع

خاص . ومع هذا فقد أخفقت محاولات الجستابو . وفى هـذه الأثناء كانت (V-Boj) قد صارت صحيفة المقاومة السلبية الأولى ، وقد نشرت فى أحد أعدادها الأخيرة بعض النصائح لقارئها ، كقولها : « إذا قادك سوء الطالع إلى الوقوع فى أيديهم — أى الألمان — فلا تنس دائما هذه العبارة : لا أعرف ! لا أذكر ! ، وإذا ضربوك وعذبوك فاطلب من الله أن يمنحك القوة والجلد ، ثم تذكر مرة أخرى : لا أعرف ! لا أذكر ، وإذا جاءوك بأحد رفاقك المتعاونين معك ، أو أحد أصدقائك ومعارفك ، ممن يقولون أمامهم دون تردد ، أنه من العبث نكران أى شيء ، ثم يطلب إليك أن تعترف ، فتذكر العبارة نفسها : لا أعرف لا أذكر ، لأن ما تفوه به عدا ما تقدم يحمل بين أطوائه الضرر والسوء . كن شجاعا وفخوراً وجلدا صبوراً . كن صاحب مكر ودهاء . ثم تعلم كيف تقدر العواقب وتزن الأمور . وفكر طويلا قبل أن تنضم إلى صفوفنا وتعمل معنا ، ولا تكن عجولا .. »

وزاد غيظ الجستابو وحنقهم ، عندما ظهرت صحيفة جديدة فى هذه الآونة تسمى التعاون Collaboration ، وكانت فى مظهرها ، وما اشتملت عليه من عبارات عند بدء القول فى بحث أو موضوع ، ثم عند اختتام هذا البحث أو الموضوع ، مايدل على أنها كانت تدعو حقيقة إلى التعاون مع الألمان : حتى إذا أتم القارىء فى وسط المقال وفى نهاية الصفحة وجد عبارات من نار تدعو الوطنيين إلى مقاومة الطغيان النازى ، وتنشر فى الواقع (الانجيل الوطنية) الذى حرصت (V-Boj) نفسها على إذاعته . وكانت هذه الصحيفة تتألف من ثمان صفحات ، وتشبه كتب الجيب فى حجمها ، وبلغ ما صدر منها ثلاثة أعداد فحسب ، قبل أن يجد الجستابو وراء أصحابها ، وقنع هؤلاء بأن يلزموا السكون مؤقتا حتى تهدأ العاصفة

بيد أن ذيوع V-Boj من جهة ، وظهور (التعاون) وهى الجريدة التى روجت تعاليم ومبادىء الصحيفة الأولى من جهة أخرى ، سرعان ما جعل الجستابو يضاعف جهده حتى يقبض على مصدرى V-Boj ومحرريها ثم شاء الحظ أن يخدمهم فى هذه المرة ، ووقع (يوسف سكالدا) فى قبضتهم أخيراً ، فألقوا به فى غياهب السجون مدة طويلة ، وبعد مضى ثمانية عشر شهرا ، صدر بيان جاء فيه : « إن محكمة الشعب فى برلين قد أصدرت حكمها بإعدام يوسف سكالدا ، وهو كاتب تشيكى ، ثم حكمت بالسجن مددا طويلة على خمسة عشر تشيكيا آخرين لأنهم ساهموا فى اصدار ونشر صحيفتين من الصحف التشيكية الحرة ! »

وبهذا أسدل الستار على نشاط (يوسف سكالدا) ، ولو أن هذا كان لا يعنى أن الجستابو قد قضى على جريدة V-Boj نهائياً .

ولا تتم قصة الصحف السرية فى تشيكوسلوفاكيا من غير الإشارة الى كتيب لنى إقبالا

عظيما فى تلك البلاد ، هو كتاب « الجندى الطيب شفايك فى عهد الاحتلال » . وشفايك (Schweik) هذا من الشخصيات المحبوبة فى الأدب التشيكوسلوفاكى الحديث ، أخرجها إلى عالم الوجود (ياروسلاف هازيك) Jaroslav Hasek (١٨٨٤ — ١٩٢٣) . وتقع حوادث القصة الأصلية ونوادر (شفايك) فى عهد الامبراطورية النمساوية القديمة وفى أثناء الحرب العالمية الأولى . أما فى كتاب الدعاوة المضادة الجديد ، فتقع حوادث هذا البطل (شفايك) فى عهد الحماية الألمانية فى بوهيميا ومورافيا . والكتاب مملوء بالنوادر والقصص التى يقصد بها تشجيع المقاومة ضد الحماية الألمانية .

وكذلك كان من الكتب الصغيرة التى صادفت نجاحاً كبيراً ، كتيب لايحمل عنوانا ، لم يلبث أن عرفه الوطنيون باسم كتاب « أقاصيص الصيد » . ثم هناك عدة صحف سرية كانت توزع فى تشيكوسلوفاكيا المحتلة : منها : (تحرير الوطن) Narodni Osvobozeni و (الصدق) Pravad ، (جمهورية تشيكوسلوفاكيا Cesko sloveuskia Republike

* * *

وفى بولندة حيث أخفق النازيون تماما فى استمالة الأهلين إلى التعاون معهم ، وصاروا لذلك لايتورعون عن ارتكاب أية جريمة من أجل إبادة البولنديين وإفنائهم ، كانت تنتشر الصحف السرية انتشاراً عظيما . ولم يقل عدد ماظهر منها منذ بداية الاحتلال الألمانى عن ١٥٠ صحيفة . وأكثر هذه الصحف كانت تتألف من أربع صفحات مخصصة لاذاعة الأنباء هذا عدا صحف شهرية كانت تعنى بنشر البحوث العلمية والفنية ، وتكتب فى شئون الاقتصاد والزراعة والتربية . ولكنها لم تلبث أن تنوعت وتعددت ، حتى شملت مقالاتها وبحوثها جميع نواحى الحياة البولندية . وفى سبتمبر ١٩٤٣ كان عدد الصحف السرية التى تظهر بانتظام لايقل عن ٧٢ صحيفة ، وكثير من هذه الصحف لم ينقطع ظهوره منذ بداية الاحتلال الألمانى . فإذا أدركنا مقدار الصعوبة التى كان يصادفها أصحابها ومحرروها فى العثور على الورق — كان صدور مثل هذا العدد الكبير من الصحف السرية عملا يدعو إلى الاعجاب .

ومن أشهر هذه الصحف : صوت بولندة ، Glos Ploski ، الرقيب Warto ، الثورة Insurekja ، نضال العمال Robotnik in Walce ، الشعلة Pochodina ، الشباب Mlodziez بولنده الحرة Wolna Polska ، القضية Sprawa ، وغيرها . واتخذت أكثرية هذه الصحف شعاراً لها بعض العبارات الوطنية ، كقولها : « إن النصر هو عدم التسليم بعد الهزيمة ! » ، أو « أن الهزيمة تكون دائما بمثابة الدرس اللازم لإحراز النصر فى النهاية ! » ، أو « أن الفرد الذى يرفض التضحية بنفسه من أجل الخلاص ، لايكون أهلا للتمتع بمزايا الحرية ! » ، هذا

عدا بعض الارشادات ، كأن يعطى القارىء العدد الذى بيده إلى قارىء بولندى آخر يثق به . ثم كثيرا ما كانت هذه الصحف تنشر قوائم بأسماء المتبرعين الذين يجودون بالمال وغيره حتى يمكنوها من الظهور . ومما يسترعى النظر أن بعض هؤلاء الوطنيين كانوا يتبرعون بالأغذية كالزبد والبيض والسجاير لمحررى الصحف السرية ومصدريها والسبب فى هذا أنه كان من المتعذر على أصحاب هذه الصحف الذين يطاردهم الجستابو ويرغمون على الانتقال كثيرا من مكان إلى آخر ، أن يجدوا كفايتهم من الأغذية لا سيما وأنهم ما كانوا يستطيعون استخدام بطاقات التموين .

ولعل أهم ما كانت تقوم به هذه الصحف ، هو حديثها عن الطرق والأساليب التى يتبعها النازيون فى تطبيق النظام الجديد فى بولندة ، ووصف الآثار التى أحدثها هذا النظام الجديد فى حياة البلاد كأغلاق المصانع وتعطل ألوف العمال البولنديين ، وصعوبات النقل المتزايدة بالسكك الحديدية ، وعجز السلطات الألمانية عن تغيير القضبان الحديدية القديمة البالية والفوضى المنتشرة فى مصالح النقل عموما ، ومايتبع ذلك ، كتعذر نقل الحيوانات والمواشى التى ظفر بها الألمان فى (الأوكرين) فقد كانوا يبغون إرسالها إلى ألمانيا أو إلى ميادين القتال لغذاء الجنود ، غير أن عدداً كبيرا من هذه المواشى كان ينفق فى أفنية المحطات وعلى قارعة الطريق . وغنى عن البيان أن مرجع هذا الخلل وهذه الفوضى ، إقدام البولنديين على أعمال المقاومة الإيجابية العنيفة .

وكذلك كانت الصحف السرية تشجع الوطنيين على إتقان أساليب المقاومة السلبية كالإمتناع عن إعطاء (الفرو) الذى طلبه الألمان حتى يتدثر به جنودهم فى الميادين الروسية ، أو تسليم أحذية الانزلاق على الجليد التى طلبوها أيضا لاستخدامها فى الروسيا وفى النرويج . أضف إلى ذلك أن الصحف السرية صارت تعنى بنشر الموضوعات التى تبحث فى آمال البلاد وأمانيها والأغراض التى تعتزم تحقيقها فى المستقبل ! من ذلك ما نشرته جريدة(بولندةالحرة) فى عدد ٢٨ يناير ١٩٤٢ حيث قالت : « إننا نناضل من أجل دولة بولندية يكون هدفها الأعلى خدمة جميع مواطنيها على السواء ، وهذه الدولة سوف يجرى تنظيمها وفق إرادة العدد الأكبر من أهلها ، ولفائدة كل فرد من أفرادها ، ولذلك ينبغى أن تزول جميع الفروق الاجتماعية غير العادلة . » والحقيقة أنه على الرغم من وجود عدة أحزاب سياسية فقد اتفقت كلمتها جميعا على ضرورة توزيع الثروة على أثر انتهاء الحرب توزيعاً عادلا والعمل على تحقيق مبدأ تكافىء الفرص لأبناء الدولة الجديدة .

أما السادة الألمان فقد كافحوا هذه الصحف السرية بكل قسوة وبطش وليس أدل على

ذلك مما حدث فى وارسو فى أغسطس ١٩٤٠ عندما قبض الجستابو على فتاتين تبلغان من العمر ١٤,١٦ سنة ، وعثر معهما على عدد من الصحف السرية ، فأعدم الألمان الفتاتين ثم سلموا الجثتين لأسرتيهما حتى لا يتحمل الألمان نفقات الدفن ! ، أو ما حدث فى ٤ يوليه ١٩٤١ عندما فاجأ الجستابو منزلا صغيرا فى (تزرنياكوف) Czerniakov . كان يقيم به جماعة من المسئولين عن إصدار جريدة (صوت بولندة) Glos Polski . فلم يكتف الجستابو بإطلاق المدافع السريعة على تعساء الحظ فى هذا المنزل ، بل قبضوا على الأهلين فى المنازل المجاورة . وأعدموا الجميع بالرصاص . وبلغ عدد ضحايا هذه المجزرة ٨٣ قتيلا من الأناث والذكران واشتدت حملة الجستابو على محررى وموزعى الصحف السرية فى عام ١٩٤١ حتى بلغ متوسط الذين اعدموا (بالجيلوتين) فى مدينة (بوزنان) Ponzàn ٢٥ شخصا فى الأسبوع الواحد . وفى الواقع نصب النازيون (الجيلوتين) فى كل مدينة وكل قرية تقريبا . وفى (سيليزيا) صاروا يرغمون أطفال المدارس على حضور عمليات الاعدام فى كل مرة . وفى ٨ يونيه ١٩٤٢ شنق الألمان علنا فى المدينة نفسها خمسة عشر شخصا اتهموهم بتوزيع الصحف السرية . وظلت جثث المتوفين معلقة مدة ثمان وأربعين ساعة . وكان من بين هؤلاء ثلاث عشرة امرأة ؛ هذا عدا عقوبات الاعدام والسجن لمدد طويلة ، كان يوقعها النازيون على كل متهم بالاستماع إلى محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C) أو ترويج الأنبـــاء المذاعة من لندن .

* * *

وفى يوغوسلافيا انبرت صحيفتها السرية المشهورة (الحرية أو الموت !) Svoboda Ali Smart تنشر قصة معركة يوغوسلافيا الثانية ، هذا بعد أن أعلن الألمان أن البلاد قد دانت بأسرها وأن الحرب قد وضعت أوزارها فى يوغوسلافيا فوقع على عاتق هذه الصحيفة السرية إذن — وكانت تصدر فى (لوبليانا) Llubljana — أن تفضح كذب ادعاءات الألمان وتعلن إلى الملأ تأليف جيش يوغوسلافيا الوطنى الذى ظل يرفع راية الجهاد تحت قيادة الجنرال ميخائيلوفتش . فقد استطاع الصربيون والكرواتيون والسلوفينيون أن يدفنوا خلافاتهم القديمة ، حتى يؤلفوا من بينهم جيشا كبيرا يتولى الدفاع عن أرض الوطن ، ووقع اختيارهم على الجنرال ميخائيلوفتش للقيادة العامة ، لأنه كان يتمتع بتاريخ حافل ، إذ اشترك قبل ذلك فى الحرب ضد الأتراك فى عام ١٩١٢ ، وضد البلغار فى عام ١٩١٣ ، وضد الألمان والنمساويين فى عام ١٩١٤ ، ثم كان فى استطاعته عندما اجتاح الألمان بلاده فى الحرب الماضية أن يفر بسلام إلى القطر المصرى على متن إحدى الطائرات ولكنه رفض وآثر

المكث بين مواطنيه ، واتخذ مقره فى الجبال الوعرة وهناك انضم إليه ألوف الرجال والنساء لإعداد جيش يوغوسلافيا الوطنى . ولعل أهم مميزات ميخائيلوفتش أنه كان أعظم الرجال خبرة بحرب العصابات فى القارة بأسرها . وقد استطاع بعد صعوبات جمة أن يجمع جيشا بلغ عدده فى يونيه ١٩٤١ مائة ألف جندى

وفى ذات يوم من أيام هذا الشهر نفسه ، فوجىء الجند الألمان وكذلك الكروات الذين عملوا معهم ، بهجوم ميخائيلوفتش ورجاله عليهم . وكان هجوما عنيفا ، اكتسح أمامه كل شىء ، فاحتل رجاله مدينة بعد أخرى ، وقرية بعد قرية . وكان (التشتنيك) عصب هذا الجيش الجديد . ولقى المحاربون فى كل مكان حلوا فيـــه ترحيبا عظيما . وهكذا استطاع ميخائيلوفتش بعد وقت قصير أن يسيطر على مساحة بلغت عشرين ألف ميل مربع (حوالى خمسى يوغوسلافيا) طهرت جميعها من الايطاليين والألمان . ثم أنشأ هذا القائد حكومة جديدة هى حكومة (سربيا غير المحتلة) ، وانكب بعد ذلك على اصدار الصحف ، ومنها صحيفة (الحرية أو الموت) ، وبلغ عدد صفحاتها أربعا ، ثم صار لا يقتصر توزيعها على الأرض التى دخلت فى حوزة (التشتنيك) بل انتشرت فى الأراضى التى احتلها الألمان والايطاليون أنفسهم .

بيد أن جريدة (الحرية أو الموت) لم تكن وحدها الصحيفة التى صارت توزع فى الأراضى المحتلة ، فقد نجم عن عمل الألمان على اخماد جميع الصحف اليوغوسلافية اليومية العادية ، أن ظهر عدد من الصحف السرية المنوعة . فاصدر السربيون والكراوتيون والسلوفينيون جرائدهم الخاصة بهم ، وكان للأخيرين على وجه الخصوص عدة صحف ، منها : عدا (الحرية أو الموت) ، (سلوفينيا الحرة) Svobodna Slovenijia ، (سلوفينيا وأوربا) Slovenijia in Europa ، (فجر الحرية) Zarja Svobode ، (الرابطة السلوفينية) Slovenska Zarvey وغيرها وكان للشيوعيين (البارتيزان) بعض الصحف ، كما كانت هناك صحيفة هزلية تسمى (طابور خامس) Teti Kolunnista .

وقد تحدثت صحيفة (الرابطة السلوفينية) عن الإهـداف التى كان يعمل السلوفينيون الوطنيون على تحقيقها فقالت أنه من الضرورى أن يطرد جميع الجنود الأجانب الذين يحتلون البلاد وأن تنشأ دولة سلوفينية موحدة فى نطاق دولة يوغوسلافية متحدة كبيرة ، على أن تجمع بين الاتحاد اليوغوسلافى المنتظر والبلدان الديموقراطيـــة فى العالم أواصر المحالفة المتينة .

أما جميع هذه الصحف السرية ، فقد عنيت بنشر أخبار الانتصارات التى أحرزها جيش الجنرال(ميخائيلو ڤتش) ، كما صارت تتحدث عن ضرورة تنظيم أعمال المقاومة الإيجابية فى نطاق واسع ، وتنشر أخبار النسف والتدمير التى كان يقوم بها الوطنيون من حين إلى آخر ، مثل تدمير الجسور ، وانتزاع قضبان السكك الحديدية ، وقطع أسلاك التليفون ، وتعطيل الطرق وهكذا ، حتى حلت الفوضى من كل مكان ، وتعطل نقل المسافرين والبضائع ، وأهم من هذا كله عتاد الحرب الألمانى . وجيش العدو . فقد نشرت جريدة (سلوڤينيا الحرة) بعض تفصيلات التخريب الذى لحق بالسكك الحديدية فى يناير ١٩٤٢ : من ذلك أنه لما كان الألمان يسيطرون على وادى موراڤا (Morava) الذى تجرى به سكة حديد (نيش) Nish التى يستخدمونها فى نقل الإمدادات الكبيرة ، فقد خرب (التشتنيك) هذه السكة ، ثم استطاعوا بعد ذلك أن ينشروا الفوضى فى نظام النقل بين(نيش) و (أوريسا) عن طريق (صوفيا) . وكان من أخطر ما فعلوه نسف ثلاثة جسور كبيرة بين (زايتشار) Zajetchar و(نيش)وانتقم الألمان بأن أخذوا ثلاثين ألفاً من الأهلين كرهائن ! ولم تلبث السلطات الألمانية ذاتها أن اعترفت بخطر هذا التدمير عندما نشرت إحدى صحفهم فى هذه البلاد (Donau Zeitung) تحذيراً للأهلين جاء فيه ما معناه : « لقد وقعت حوادث تخريب واغتيال، كما أشعلت عمداً حرائق كبيرة ، ولكنه إذا ظلت الحرائق تشتعل فى حقول القمح ، فان السربيين وحدهم هم الذين سوف يحرمون الخبز، وإذا خربت الطرق والمواصلات والتليفونات ، وسائر وسائل الخدمة العامة ، فان الضرر البليغ سوف يلحق بالاقتصاد السربى وحده » !

وزيادة على ذلك استطاع جيش (ميخائيلوڤتش) أن يحكم الصلة بينه وبين الحكومة اليوغوسلافية الملكية فى لندن ، فذكرت جريدة (سلوڤينا وأوربا) ، أن ميخائيلوڤتش تمكن من إرسال الدكتور (سكوليتش) Sekulitch إلى لندن حتى يشرح ما كان يفعله الجيش الوطنى فى يوغوسلافيا ويبين مبلغ ما يحتاجه هذا الجيش من السلاح والذخيرة والعتاد الحربى عموما ثم لم يلبث المحاربون الوطنيون أن أوجدوا نظاماً للمخابرات المستمرة مع الحكومة اليوغوسلافية فى لندن ، ثم ظهرت آثار هذا التدبير المحكم عند ما نشرت جريدة (سلوفينيا الحرة) مقالا جاء فيه : « لقد كشف الألمان فى الأسبوع الماضى — وياهول ما كشفوا ! — أن ميخائيلوڤتش يملك دبابات بين عتاده الحربى ، كما يملك أيضا مدافع مضادة للدبابات وعدداً عظيما من المدفعية ... وعند ما هاجمنا الألمان فى أول الأمر كانت هناك عدة مطارات سرية ما تزال فى دور التكوين والنمو ، أما الآن فان الجنرال ميخائيلوفتش يستخدم بعض هذه المطارات ، هذا إلى جانب ما يوجد لديه من غواصات تجد فى العمل ، كما يعرف الإيطاليون

ذلك حق المعرفة بسبب ما يعانونه منها ! » والحقيقة أن الألمان سرعان ما وجدوا أنفسهم مرغمين على خوض غمار حروب شديدة ، استخدموا فى معاركها الطائرات المنقضة والدبابات والمدفعية الثقيلة ، كما صاروا يحشدون القوات الكبيرة ومن بينها رجال المظلات الهابطة ، وذلك كله حتى يستعيدوا بلاداً أعلنت القيادة العليا الألمانية منذ مدة أنها قد دخلت فى حوزة الغزاة الفاتحين نهائياً .

ومن بين هذه المعارك الدموية الكبيرة ، كانت معركة (شاباتز) Chabatz وهو اسم المدينة التى حاصرها التشتينك من كل جانب بعد أن أبادوا حاميتها الألمانية وكان من آثار هذه المعركة اشتداد حركة المقاومة الإيجابية ضد الألمان والطليان فى كل مكان تقريباً ، حتى صار هؤلاء لا يشعرون بأمن ولا طمأنينة فى (بلغراد) ذاتها . وحدث فى بلغراد ما كان يسوغ عدم الاطمئنان قط . فقددمرت بها محطة توليد الكهرباء ذات مساء كما مات الجنرال (شرودر) Schroeder فجأة وفى ظروف مريبة ، ولحق به كثيرون أيضاً من الحراس الألمان بالمدينة . ولم يكن من المتوقع أن تخف وطأة هذه المقاومة الشديدة ما دامت الصحف السرية تنشر أخبارها وتشجع أبطالها على المضى فى مكافحة الغزاة الفاتحين بجد وهمة .

وسرعان ما جاء دليل حاسم على فشل الألمان فى قمع الوطنيين من جهة ، وعلى انتصار جيش يوغوسلافيا الوطنى من جهة أخرى عندمانشرت جريدة (الحرية أوالموت) ذات يوم خبرا مفاده أن الألمان يريدون المفاوضة مع الجنرال ميخائيلوفتش والاتفاق معه على الشروط التى يرتضيها . وبالفعل حدث فى الأيام التالية أن توسط فى هذه المفاوضة (كويسلنج) صربيا الجنرال (نيدتش) Neditch ، وعقد الفريقان هدنة وقتية ، لم يطرأ فى خلالها أى تحسن فى حالة بلغراد المحاصرة . ثم لم تلبث أن أخفقت مفاوضات الصلح ، وعرض الألمان عقب ذلك مكافأة ٢٠٠,٠٠٠ دينار ثمناً لرأس الجنرال (ميخائيلوفتش) .

وفى عام ١٩٤٣ ، كانت صحف يوغوسلافيا السرية فى نمو مطرد ، حتى بلغ عدد قراء الصحف السرية وحدها حوالى المائة ألف ، وهذا بينما كانت الصحف الكرواتية السرية تقوم بنشر الدعاية الخفية أو الدعاوة المضادة ضد دولتى المحور .

* * *

وفى (النرويج) التى أخضعها النازيون لسلطانهم (ابريل — يونيه ١٩٤٠) ، كان سواد النرويجيين — على الرغم من انتصارات الألمان الخاطفة ، وظهور (كويسلنج) وأنصاره ممن قبلوا التعاون مع الغزاة الفاتحين — لايزالون كبيرى الثقة بانتصار بريطانيا وهزيمة ألمانيا فى النهاية . ولذلك فإن الصحف النرويجية التى رفضت الانحياز إلى الكويسلنجيين ، سرعان

ماصارت تحاول مراوغه (الرقيب) الألمانى ، وتتحين الفرص حتى تنشر على جمهور قرائها التعليمات السرية التى أصدرها الألمان حتى يمنعوا هذه الصحف من إظهار أى عطف نحو قضية انجلترة أو قضية الديمقراطية عموما ، ومن تقديم النقد اللاذع إلى حكومة (كويسلنج) وأعوانه ، ومن الإشادة بذكر (هاكون) ملك البلاد ، ومن إذاعة القصص أو النوادر التى تقلل منهيبة السادة النازيين وتجعلهم موضع زراية أهل النرويج وسخريتهم . وكانت الرقابة التى فرضها النازيون على الصحف شديدة فى العاصمة (أوسلو) على وجه الخصوص، وكذلك فى (برجن) ، وانتشر الجستابو فى كل مكان لمراقبة أصحاب الصحف ومحرريها . أما فى سائر المدن الداخلية فقد تعذر على الألمان أن يوجدوا رقابة صارمة . وكان من أعمال هذه الرقابة اختيار الأنباء التى أجازت سلطات الاحتلال الألمانية إذاعتها ، وكذلك بعض المقالات الافتتاحية التى أرغمت الصحف ارغاماً على نشرها ، وكانت تتضمن تعليقات تنطوى على المبالغة فى جسامة الأضرار الناجمة عن إغارات الطائرات البريطانية على الموانى والمدن النرويجية الساحلية ، ثم محاولة إقناع الشعب النرويجى بأنه ماكان ينبغى أن تحل به هذه الكوارث ، لو أن الملك (هاكون) قبل البقاء فى مملكته ولم يتخذ مقر حكومته فى لندن . ويتحالف مع البريطانيين الذين يغيرون على بلاده بطائراتهم وتفتك قذائفهم بأبناء وطنه .

ولما كان سواد الشعب فى شهور الاحتلال الأولى يجهل أن أصحاب الصحف الوطنية (النرويجية) ومحرريها إنما يرغمون على كتابة هذه المقالات ، ومسدسات الجستابو مسلطة على رؤوسهم ، كما كانوا يجهلون المحاولات التى تبذلها الصحف حتى تتخلص من (الرقابة) الصارمة ، فقد ظن هؤلاء أن هذه الصحف إنما تنشر الدعاوة للنازيين ، وتكيل السباب للبيت المالك مختارة ، ولذلك تدفقت رسائل القراء من كل جانب ، يلغى أصحابها اشتراكاتهم ، ويقطعون صلتهم بالصحف التى اعتادوا أن يقرأوها منذ مده طويلة .

وفى يونيه ١٩٤٠ أصدر النازيون عدة تعليمات حتموا على الصحف اتباعها ، فيما ينبغى نشره ، من ذلك أن البلاغات الحربية الصادرة من البلدان المحاربة ضد ألمانيا لايجوز نشرها إلا إذا أجازت ذلك وكالة الأنباء النرويجية ، الخاضعة لرقابة النازيين ولاينبغى أن تنشر الصحف أية أنباء مذاعة بالراديو من البلدان التى فى حالة حرب مع ألمانيا . وكذلك لايجوز أن تنشر الصحف شيئاً من الخطابات التى يلقيها أعضاء البيت المالك ، أو الحكومة أو القيادة العامة ، كما لاينبغى نشر صور أحد من جميع هؤلاء . وعند الحديث فى شئون السياسة الخارجية ، ينبغى دائما أن تحترم الصحف وجهة النظر الألمانية ، ولاينبغى مهاجمة

دولة من الدول التى عقدت اتفاقات أو معاهدات مع الريخ الثالث. وكذلك فإنه عندالكلام عن الحالة المالية فى البلاد ، يجب أن تمتنع الصحف عن نشر كل ماقد يؤدى إلى إثاره الخواطر ، بل عليها بدلا من ذلك أن تعرض الموضوعات التى من هذا القبيل بشكل يضمن ادخال الطمأنينة إلى نفوس القارئين . وزيادة على ذلك ، فإن من واجب الصحف أن تمتنع امتناعا تاما عن الخوض فى كل ماقد يغير النفوس بين النرويجين والألمان . أما إذا رفض محررو الصحف اتباع هذه التعليمات ، فإنهم يصبحون معرضين لتوقيع العقوبات الشديدة عليهم عدا غلق صحفهم .

ولم يكن من المنتظر أن تذعن الصحف النرويجية لهذه الأوامر والتعليمات ، بل حاول المحررون على الرغم من صرامة الرقابة النازية ، أن يتحينوا الفرص حتى يتحرروا من أغلال هذه القيود الشديدة ، ونجحت فى أحايين كثيرة هذه المحاولات ، وساعد على ذلك أن الرقباء الألمان كانوا قليلى الدراية بأساليب الكتابة النرويجية وبحقيقة الأدب النرويجى . ولكن الكويسلنجيين سرعان ما صاروا يوضحون لسادتهم النازيين ما استغلق عليهم فهمه . فأغلقت صحف كثيرة ، وقبض النازيون على عدد كبير من المحررين ؛ وفى بعض الحالات استبدل النازيون (بقلم التحرير) جماعة من الموالين لهم الذين وثقوا بهم ، كما فعلوا فى صحيفة (أوسلو) الراديكالية المعروفة (داجبلادت) Dagbladet وفى غيرها .

بيد أنه كان من نتائج هذه الرقابة الصارمة ، ظهور الصحف السرية فى بلاد النرويج . وفى خلال شهور الاحتلال التسعة الأولى اعتمد الأهلون فى معرفة أنباء العالم الصحيحة على الإذاعات الخارجية . ولم تفد مصادرة الألمان لأجهزة الراديو شيئاً فى منع الأهلين من الاستماع إلى إذاعة المحطة البريطانية .B.B.C . إذ سرعان ما استخدم النرويجيون أجهزة جديدة ، وفى أول الأمر تناقل الأهلون أخبار هذه الإذاعات شفاها ، واستمر الحال على ذلك حتى قرر أحد الوطنيين ويدعى (أولاف) Olav إنشاء صحيفة سرية ، سماها « نريد وطننا ! » Vi Vil Oss et land . ثم استطاع (أولاف) أن يجد من بين الصحافيين الوطنيين خمسة قبلوا العمل معه ، وانطلقوا جميعاً يعدون العدة لاصدار جريدتهم الجديدة .

غير أنه كانت هناك صعوبات عدة فى بادىء الأمر كادت تقضى على هذا المشروع بالفشل أهمها : صعوبة الحصول على الورق ، وحروف الطباعة والمطبعة . فبذل الرفاق كل جهد حتى استطاعوا الحصول على كميات مناسبة من الورق وعلى الآلات اللازمة ، ثم على مكان يطبعون فيه جريدتهم ، وانضم إليهم رجلان آخران فصاروا سبعة ، وتمكنوا من إصدار صحيفتهم . وأحدث ظهور عددها الأول أثراً عميقاً فى النرويج ، كما أزعج الألمانيين إزعاجا

شديداً . لأن هؤلاء كانوا قد ظنوا النرويجيين بعد مضى هذه الفترة الطويلة عقب الاحتلال ، قد بدأوا يقنعون بالعيش فى ظل النظام الجديد ، وتوقع النازيون لذلك أن يكثر مؤيدو هذا النظام يوما بعد يوم . وعلى هذا ، كان صدور « نريد وطننا ! » قاضيا على أحلامهم وأمانيهم . فجرد الألمان قوة الجستابو الخطيرة لمعرفة محرريها والقبض عليهم ، ولكن هذه المحاولات الأولى باءت بالفشل ، وعظم حنق الألمان ، كما زادت حيرتهم .

ومما أوقد حفيظة الألمان ، أن هذه الجريدة السرية ، أخذت على عاتقها بيان أضاليل السادة النازيين وفضح أكاذيبهم ، وأكاذيب الدعاية النازية ، وزيادة على ذلك اتقنت الجريدة أساليب السخر بمروجى الدعاوة من أجل جذب القلوب نحو السادة الألمان ، وحث الأهلين على التعاون معهم ، كما أنها صارت تحذر النرويجيين من الانخداع بطرائق النازيين الذين حرصوا فى هذه الآونة على استمالة أهل البلاد وكسب صداقتهم . أضف إلى هذا أنها أخذت تكشف عن حقيقة الاتفاقات التى عقدها الكويسلنجيون مع الضباط الألمان من أجل ترويج الثقافة الألمانية فى البلاد فى نظير الحصول على أجر مالى كبير ، أو الاستفادة من هذا التعاون مع الغزاة الفاتحين فى نواح أخرى . ثم لم تقتصر الجريدة على توجيه النقد اللاذع لسلطات الإحتلال عموماً ، بل صار (أولاف) على وجه الخصوص ينشر الدعوة فى صحيفته السرية إلى مستقبل زاهر عند هزيمة الألمان المحتومة ، على أساس إرجاع الملك هاكون إلى عرش بلاده ثم تأليف كتلة اتحادية كبيرة تضم النرويج إلى مجموعة الدول الديموقراطية فى العالم ، على أن تتخلى كل دولة من أعضاء هذا الاتحاد عن بعض حقوق السيادة ، بحيث لا يترتب على ذلك أن يفقد عضو الاتحاد المزمع تأليفه ذلك الطابع الشخصى الذى يحفظ للدولة كيانها القومى فى النهاية .

ولكن الدعوة إلى إنشاء مجموعة اتحادية من الدول ، كانت رأيا جريئا ومنذ نشر (أولاف) هذا الرأى ، قرر الألمان أنه قد بات من الضرورى القضاء على هذه الجريدة ، والقبض على (أولاف) وإسكات صوته . فجدد من ثم النازيون محاولاتهم ، وشمر الجستابو عن ساعد الجد ولما كان توزيع الجريدة قد زاد زيادة عظيمة ، فقد أصبح من الميسور نوعاً ما على الجستابو أن يقفوا على هوية الأشخاص المشتركين فى تحرير الجريدة وطبعها وتوزيعها . وذات يوم هاجم الجستابو المكان الخفى الذى اتخذه (أولاف) وجماعته مقراً لجريدتهم . ولكن هؤلاء كانوا قد عرفوا نية الجستابو فاستطاعوا الفرار قبل الهجوم عليهم بيومين اثنين ! وفى الأيام التالية إزداد الخطر على (أولاف) حتى اضطر إلى ترك عمله وتدبير الهرب من النرويج وبعد محاولات متعددة والتعرض لمخاطر كثيرة ، استطاع الفرار إلى انجلترة .

ومع هذا فان جريدة (نريد وطننا !) لم تكن الجريدة السرية الوحيدة فى النرويج بل

سرعان ماظهرت صحف أخرى ، على غرار صحيفة (أولاف) . فكانت هناك صحيفة (Eidsvold) وهذه زينت صفحتها الأولى برسم المكان الذى صدر فيه دستور النرويج القديم فى عام ١٨١٤ ، ثم كانت هناك صحيفة (البريد الملكى) KongsPosten ، (علامة الزمان) Tideus Tegn ، (حركة اتحاد العمال الحر) Fri Fagbevegelae وأخيراً صحيفة(الراديو) Radioavisin ، وهذه كانت مخصصة لنشر أنباء الإذاعات البريطانية والأجنبية .

* * *

هذه قصة الصحف السرية فى أوربا المحتلة ، التى كانت من أكبر دعامات الدعاية الخفية فى القلعة الهتلرية . وهى إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن الأهلين فى البلدان المقهورة ، وقد تذوقوا طعم الأساليب النازية عند تطبيق النظام الجديد ، وشهدوا عن كثب ضخامة الأكاذيب التى روجتها الدعاية النازية ، وهالهم إذلال أوطانهم تحت نعال الفاتحين الطغاة ، صار لا يهدأ لهم بال حتى يروا أوطانهم محررة من نير النازيين وسلطانهم . وقد يظن إنسان أن الشعوب المحتلة وحدها هى التى كانت تئن من حكم هتلر وطغمته ، وأنها وحدها هى التى لجأت إلى أساليب المقاومة لمحاربة الطغيان النازى ، وأن النظام الجديد قد أخفق فى أوربا المحتلة فحسب وأن ألمانيا قلعة هتلر ، كانت موطدة الدعائم متينة الأساس . ولكن الواقع كان على خلاف ذلك . وكما فشل هتلر ونظامه الجديد فى أوربا المحتلة ، فقد فشل كذلك فى داخل ألمانيا ذاتها ، ولم يكن ثمة مناص من أن تتصدع أركان القلعة الهتلرية المتداعية قصر الزمن أو طال .

الفصل السادس

حكومة هتلر

تقدم القول عند بحث رغبة النازيين فى بسط سيطرتهم العالمية ، بأنه كان من الضرورى لتحقيق هذه السيطرة العالمية ، أن يجعلوا من ألمانيا ذاتها كتلة متماسكة ، يستحيل أن يتطرق الضعف إليها ؛ حتى يتخذها النازيون مركزاً « للدوائر » التى يطمعون فى « چرمنتها » فى القارة الأوربية . ومعنى هذا أن يجمع الحزب النازى فى داخل ألمانيا كل أسباب السلطة ، ويتغلغل أعضاء الحزب فى نواحى الحياة الألمانية جميعها، حتى يتمكنوا من إرغام الدولة على الاندماج فى الحزب فى النهاية ؛ فيصبح الحزب هو الدولة . ولم يكن غريبا أن يطمع النازيون فى ذلك لأنه من عادة الدول التى يقبض على زمام الأمور فيها حزب واحد . وهى الدول التى تسيطر عليها الدكتاتورية سيطرة تامة ، أن يجد هذا الحزب فى القضاء على جميع التقاليد والنظم القديمة ويعمل فى الوقت ذاته على إنشاء أنظمة جديدة ، قد يحدث إنشاؤها عقب ثورة جامحة تكتسح معالم الحياة القديمة اكتساحا ، على غرار ماحدث فى الروسيا ؛ أو تظهر إلى عالم الوجود شيئا فشيئا دون التجاء إلى الثورة كما فعل النازيون فى ألمانيا ، فان هؤلاء وهم الذين اشتدت حملتهم على الشيوعيين منذ قيام حركتهم ، ما كانوا يريدون أن يعرف عنهم سواد الشعب أنهم من أنصار الانقلاب والثورة . ولذلك اتبعوا فى مبدأ الأمر أساليب مغايرة لأساليب جيرانهم الشرقيين ، وبدؤا يقوضون أركان المقاومة فى داخل الريخ بالتغلب على الأحزاب المنافسة لهم ،

وكان من عوامل نجاح النازيين أنهم استغلوا الفوضى التى تغلغلت فى جميع نواحى الحياة الألمانية عقب هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى ، وتذمر طبقات الشعب المختلفة من هذه الفوضى ، فطفقوا يبذلون كل جهد حتى يستميلوا إليهم هؤلاء المتذمرين الراغبين فى إزالة الآثار التى اعتقدوا أنها من نتائج هزيمة الدولة القيصرية . ولذلك كان أول ماعنى بها (حزب العمال الألمان الوطنى الاشتراكى) وضع برنامج شامل صدر فى ميونخ فى ٢٤ فبراير ١٩٢٠ وكان يتألف من خمسة وعشرين مادة ، وأهم مايلاحظ عليه ، أنه كان كما جاء فى مقدمته برنامجا أملته ظروف الحال (zeitprogramm) وقد يعنى هذا الوصف إنه كان برنامجا مؤقتاً ، أو نهائياً ، والغرض من اختيار هذا الوصف بالذات عدم التقيد فى الحقيقة بمحتويات البرنامج

تقيداً حرفياً إذا أثبتت الظروف فى المستقبل أن من المصلحة عدم التمسك بحرفيته . ومع أن النازيين فى الاجتماع الكبير الذى عقده أعضاء الحزب فى ٢٢ مايو ١٩٢٦ ، اتخذوا بعد بحث وتمحيص ، قراراً بأن هذا البرنامج لا يمكن تغييره بأى حال من الأحوال ، فقد درجوا على تفسير مواده وفق رغباتهم ، ثم سلكوا فى تطبيق هذه المواد من الوجهة العملية ، المسلك الذى أملته عليهم مصالحهم ، أى ما يمكنهم من القبض على أزمة السلطة فى ألمانيا بأسرها ، وإزالة جميع العناصر المعارضة لهم . وزيادة على هذا ، تضمن البرنامج مجموعة من الآراء والمبادىء المتضاربة ، التى نجمت فى الواقع عن السخط المنتشر بين جميع الطبقات المختلفة من جراء ماخلفته الحرب العالمية الأولى من آثار سيئة ، وبسبب ماحدث من مشكلات إقتصادية واجتماعية خطيرة ، فى الفترة التى تلت إنتهاء الحرب مباشرة . أضف إلى ذلك أن البرنامج كان يتضمن مبادىء اقتصادية حرص النازيون عند اثباتها على أن تكون من النوع الذى يقيضى تحقيقه كفايات غير تلك التى يتمتع بها أعضاء الحزب — من زعماء وموظفين — ممن يشرفون على تطبيق هذه المبادىء من أجل تحويل ألمانيا إلى دولة وطنية اشتراكية خالصة ثم عمل النازيون على أن يشتمل برنامجهم على مطالب اقتصادية تجلب رضاء أصحاب رؤوس الأموال ، مثل كبار الصناع والمنتجين وكبار الزراع ومن إليهم كما تجلب رضاء الطبقة العمالية وقد ترتب على المحاولة التى قام بها النازيون للتوفيق بين هذه المصالح المتعارضة ، وخصوصا عندما هيمنوا على شئون الدولة وطفقوا ينفذون برنامجهم الاقتصادى ، أن صار يختلف الناس فى تفسير الوطنية الاشتراكية ، فهناك من وصفها بأنها من ضروب الاحتيال المالى لمساعدة الزعماء النازيين على جمع الثروة الطائلة وهناك من وصفها بأنها بلشفية صحيحة وان اتخذت لها لونا مغايرا للون البلشفيه الأحمر ، أو أنها من النظم التى وضعت خصيصا لحماية الرأسمالية ، وهكذا . ولو أن التفسير الحقيقى للوطنية الاشتراكية ، على ضوء ما أسفر عنه تطبيق مبادئها فى السنوات التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية وفى السنوات القليلة التالية ، هو أنها الخطة والنظام الذى يؤدى إلى تحقيق أطماع جماعة من الناس يسيطرون فعلا على مصير ألمانيا ، أما هذه الأطماع ذاتها فانها تلخص فى رغبة النازيين فى الاستئثار بكل سيطرة سياسية مطلقة فحسب .

على أن برنامج النازيين (فى عام ١٩٢٠) كان يتضمن فكرة إفناء الفرد فى الدولة ، على غرار ما يحدث فى كل نظام اشتراكى ، ولذلك فإنه لما كانت الدولة ذات شخصية يجب أن تتلاشى بسببها ومن أجل دعم كيانها حرية الفرد وجميع حقوقه ، فقد أصبح من حق الدولة وحدها الهيمنة على حياة الفرد وتدبير شئونه على النحو الذى تراه مؤيداً لمصلحتها العليا وحدها

وترتب على إفناء الفرد فى الدولة أن صارت هذه تجمع فى خصائصها ومميزاتها السيطرة على شئون التربية والتعليم والصحة العامة والجيش والصحافة ، وتقرير مصير مواطنيها ، وهكذا . ولذلك فإنه لم يغب عن النازيين النص على هذه الحقوق جميعها فى برنامج حزبهم . وكان من المنتظر ، بوصف أنهم الأداة التى تتولى عن الدولة إدارة هـذه الشئون عند استلام أزمة الحكم فى المانيا ، أن يجمع النازيون فى أيديهم السلطة المطلقة ، ثم كان من المنتظر أيضا ، بفضل ما نص عليه برنامج حزبهم ، من أن من شروط المواطن أن يكون آريا ، وأن يكون جرمانيا ينحدر من سلالة عاشت فى المانيا أو فى البلدان الجرمانية الصحيحة منذ أمد طويل ، أن تتعقب دولة الريخ الثالث غير الآريين كاليهود وغيرهم من اللاجئين من البلدان المجاورة والذين دخلوا المانيا ابتداء من ٢ أغسطس ١٩١٤ ، بالتشريد والإفناء فى غير رحمة أو شفقة .

ولما كان الحزب الوطنى الاشتراكى فى بدء تكوينه يريد كعادته جمع أصحاب المذاهب والمشارب المنوعة حوله ، فقد ذكر فى المادة الرابعة والعشرين من برنامجه ، أن الدولة مكلفة بالدفاع عن «المسيحية الواقعية» ، ولإدخالها الطمأنينة على النفوس ، جاء فى هذه المادة نفسها ما معناه أن الحزب يطلب التسامح مع الآراء الحديثة المختلفة فى الدولة ، ما دامت لا تعرض كيان الدولة للخطر ، وما دامت لا تتنافى مع عادات الجنس الجرمانى وتقاليده وقد استثنيت اليهودية من هذا التسامح . ومع هذا فان النص على ضرورة قيام الدولة بمهمة الدفاع عن «المسيحية الواقعية» كان معناه ، كما شهد الكاثوليك والبروتستنت على السواء بعد ذلك ، أن النازيين عند وصولهم إلى الحكم سوف يتدخلون فى شئون العبادة ، من أجل إخضاع الكنيسة لسيطرتهم ، وأن «المسيحية الواقعية» سوف تتخذ لذلك معنى غير المعنى الذى عرفه بها سواد الشعب فيما مضى . فقد ظن الأهلون أن انحياز الوطنيين الاشتراكيين إلى معاضدة المسيحية الواقعية ، يعنى أن الريخ الثالث سوف يضمن للدين المسيحى الحرية الكاملة وزيادة الانتشار هذا إلى جانب السهر على صيانتها والذود عنها ، ولم يشأ النازيون أن يزعزعوا هذا الاعتقاد فى بادىء الأمر . ولكنهم عند ما ثبتت أقدامهم فى الريخ الجديد طفقوا يفسرون «المسيحية الواقعية» بما يتفق مع أهوائهم ويتمشى مع مصلحتهم ، ويلخص هذا التفسير فى أن المسيحية الواقعية تعنى مجرد «الفعال الإنسانية» .

* * *

وإنه لمن الحقائق المعروفة أن النازيين ما استطاعوا الوصول إلى الحكم إلا بفضل الانقسامات الكثيرة فى الطبقات الرأسمالية والعمالية ، فقد وجد من بين الرأسماليين عدد من زعماء الصناعة المحافظين الذين كانت بغيتهم حل المشكلة الاقتصادية فى المانيا دون الالتجاء

إلى مغامرات أجنبية ؛ وكان هناك فريق آخر من زعماء الصناعة الذين يئسوا من إمكان اجتياز أزمة الاقتصاد الألمانى بالطرق والأساليب العادية ، فصاروا يدعون إلى الحرب كعلاج حاسم لهذه الأزمة المستحكمة . ومما يذكر أن الفريقين سرعان ما صارا يجدان فى دعاوى الوطنيين الاشتراكيين ووعود زعمائهم ، وعلى الخصوص الهر هتلر نفسه ، ما حملهما على تأييد النازية وهى ما تزال فى دور النشوء ، ومدها بالأموال اللازمة لتنظيم الحزب ، وخوض غمار الانتخابات . وكذلك وجد من بين كبار أصحاب الأرض والملاك ، فريق أعتقد أن الوطنية الاشتراكية عنوان الفوضى الاقتصادية ومن المنتظر أن يؤدى انتصارها إلى الخراب والدمار ، وفريق آخر يخشى البلشفية شأنه فى ذلك شأن الطبقات الرأسمالية الأخرى ، والطبقات المتوسطة (أو البرجوازى) — وقد أقبل هذا الفريق على الهر هتلر يؤازره على أمل أن يصون نجاحه مصالح كبار الزراع وأصحاب الأراضى . لأن النازيين كانوا فى نظرهم ممن لا يجسرون على القيام بتجارب جريئة ، بل يتصفون قبل كل شىء بالولاء الكامل للطبقة التى ينتمون اليها ، وهى الطبقة المتوسطة التى تستمد قوتها من الأرض ، وتدين لها بوجودها وقد اقتضى هذا التفكير أن يطمئن كبار الرأسماليين المحافظين من جهة ، ثم أصحاب الأراضى الواسعة من جهة أخرى ، إلى أن مصلحة النازيين ألا يدفعوا بالأمة الألمانية إلى حروب جديدة . ومع هذا ، فان هذه الطبقة المتوسطة نفسها ، وهى الطبقة التى يستمد منها النازيون أنصارهم ومؤيديهم ، كانت أيضاً الطبقة التى ينتمى اليها المحاربون القدماء فى المانيا ، وأصحاب الخوذ الفولاذية ، برئاسة (سلدت) Seldte، وهم من العسكريين الرجعيين ، وكانوا تحت زعامة (ألفرد هوجنبرج) Hugenberg وكان من كبار أصحاب رؤوس الأموال ويملك نحو الأربعين صحيفة وعددا من الشركات منها شركة (أوفا)UFA السينمائية ذات الشهرة الذائعة . وهؤلاء جميعا كانوا يريدون الحرب حتى يثأروا لألمانيا وهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى .

أما الطبقة العمالية ، فكانت لا تقل فى انقسامها عن الرأسمالية . فهناك أحزاب الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين ، والأحرار ، ومن الغريب أن بعض أحزاب اليسار ، كالاشتراكيين الديموقراطيين ظلوا فترة يعتقدون أن ظفر الحزب النازى لايكون الا على حساب العناصر الرجعية ، الرأسمالية ، وأن هذا الظفر غالى الثمن لابد أن يفضى الى تفكك طبقة الناخبين وضعفها ، أى الطبقة المتوسطة وجماعة الرأسماليين ، وأن العماليين هم الذين يفيدون من انحلال هذه الجماعة فى النهاية ، ولذلك لم يحجموا عن مؤازرة النازيين ، وكانوا بموقفهم هذا من العوامل التى يسرت على هؤلاء الظفر بالسلطة المطلقة فى ألمانيا .

وفضلا عن ذلك فإن الشيوعيين فى ألمانيا ، كبقية زملائهم فى أرجاء العالم فى ذلك الحين ،

كانوا يتلقون أوامرهم من مركز الشيوعية الدولية فى موسكو ، ولذلك ظلوا « مستقلين » فى نشاطهم عن سائر أحزاب اليسار . وكان الشيوعيون والاشتراكيون الديمقراطيون يجمعون حولهم وفيما بينهم اثنى عشر مليونا من الأصوات للشيوعيين وحدهم منها خمسة ملايين . وفى عهد جمهورية (ويمار) كان زعيم الاشتراكيين الديموقراطيين رجلا من العمال ، هو (إرنست ثلمان) Thälmann صار فيما بعد من مؤسسى الحزب الاشتراكى المستقل ، ثم اشترك بعد هذا فى تأسيس الحزب الشيوعى . ومنذ عام ١٩٢٤ ظل يمثل الشيوعيين فى الريخستاج حتى مجىء هتلر وفى عام ١٩٣٢ رشح (ثلمان) نفسه فى انتخابات رئاسة الجمهورية فنال من الأصوات خمسة ملايين . ومع هذا فإنه لم يكن متمتعا بالصفات التى تيسر له جمع كلمة الإشتراكيين الصميمين فكانت النتيجة أن صار الشيوعيون أنفسهم يعتبرون وجود الاشتراكية الديموقراطية من الموانع التى تحول دون انتشار الروح الاشتراكية الخالصة بين الطبقات العمالية ، ولذلك أصبحوا يخشون من الاشتراكيين الديموقراطيين ، أكثر مما يخافون النازية .

☆ ☆ ☆

وإلى جانب هذا الانقسام الواضح فى الطبقات الرأسمالية والعمالية على حد سواء ، ساعد سوء الحالة الاقتصادية فى ألمانيا ، على وصول النازيين إلى الحكم . فمن الظواهر التى لا يمكن نكرانها أن إخفاق الوطنية الاشتراكية أو نجاحها بعد الحرب العالمية الأولى كان يرتبط ارتباطا وثيقا بالحالة الاقتصادية فى ألمانيا فى عهد جمهورية (ويمار) التى أنشئت على أنقاض القيصرية ، فإنه حتى آخر عام ١٩٢٤ كان (حزب العمال الألمان الوطنى الاشتراكى) محروما من الاجتماع أو النشاط قانونا ، ولو أن هذا لم يكن معناه أن الحزب قد اختفى من الوجود ، لأن (لودندورف) لم يلبث أن بسط عليه جناحه ، فصار يعرف باسم « حزب الحرية الشعبى » واستطاع أن ينال فى انتخابات مايو ١٩٢٤ — أى فى وقت الفوضى الاقتصادية — حوالى ١,٩٢٠,٠٠٠ صوتا ، وأرسل إلى الريخستاج اثنين وثلاثين نائبا . ومع هذا فإنه عقب البدء فى تنفيذ (مشروع داوز) Dawes لتنظيم مسألة دفع التعويضات الألمانية ، وانتعاش حال ألمانيا المعنوية والاقتصادية نوعا ما ، فقدت جماعة هتلر حوالى عشرين مقعداً . ثم حدث عند وفاة (فردريك إيبرت) .Ebert رئيس جمهورية ويمار الأول (١٩٢٥) وإجراء انتخابات الرياسة ، أن انهزم (لودندورف) مرشح الوطنيين الاشتراكيين أو الهتلريين ، فلم ينل سوى ٢١٠,٩٦٨ صوتا . ولما لم تكن هذه الانتخابات حاسمة ، أعيد الانتخاب مرة ثانية . ولكن هتلر فى هذه المرة فضل إعطاء أصوات حزبه إلى الماريشال الكهل (فون هندنبرج) ، ففاز بمنصب رياسة الجمهورية . أما الحزب النازى

فقد تدهور شأنه كثيراً عقب ذلك ؛ وفى مايو ١٩٢٨ أسفرت الانتخابات العامة لمجلس الريخستاج عن إرسال اثنى عشر نائبا نازيا ليس غير . وقد أدرك أدولف هتلر خطر الأزمة التى هددت باجتياح حزبه ، ولذلك طفق يستميل اليه الوطنيين والرأسماليين وكبار زعماء الصناعة ، ومن اليهم . وكان التناقض البين فى برنامج الحزب — على نحو ماتقدم ذكره — من أقوى العوامل التى ساعدت الزعيم النازى على استمالتهم . ومع هذا فان السنوات المنقضية بين عامى ١٩٢٥ ١٩٢٩ — وهى الفترة التى استطاعت ألمانيا فى أثنائها أن تفيد من التسويات التى وضعت لمسألة التعويضات ، ومنها مشروع يونج (Young) الذى وضع فى عام ١٩٢٩ وقبلته ألمانيا فى العام التالى — كانت فترة التنظيم الاقتصادى الذى أوجد حالة من الرخاء ، ولو أنه كان رخاء زائفا ، فقلت البطالة ، ونقص عدد المتعطلين حتى صار لايزيد على المليونين إلا قليلا ، وشرع الريخ يشيد المصانع ويستقدم اليها الآلات والأدوات الجديدة ، ويبنى الكتدرائيات الفخمة ، والمبانى الصحية لسكنى العمال ، والمتنزهات ، ودور السينما والمسارح وهكذا ، ووسط هذا الانتعاش ، كان من المتعذر على الهر هتلر وحزبه النازى إدراك أى نجاح ، على الرغم من الأموال التى أخذت تتدفق على حزبه من أصحاب رؤوس الأموال وزعماء الصناعة أمثال (فريتز ثيسن) Fritz Thyssen وغيره .

بيد أن النجاح كان من نصيب النازيين فى النهاية لعدة أسباب ، منها عدا ماتقدم ، أن الأزمة الاقتصادية الكبرى كانت على وشك اجتياح العالم . ويحدد عام ١٩٢٩ بداية هذه الأزمة الدولية ، وكان من أخطر أسبابها ، التوسع فى الإنتاج الصناعى . وفى ألمانيا ذاتها حدث هذا التوسع بسرعة عظيمة ، وبدرجة تكفى لسد مطالب جزء كبير من أسواق العالم قاطبة . ولكنه كما قال أحد زعماء الصناعة الألمان (كروب ڤون بوهلن) Krupp von Bohlen « إن الصناعة شىء ، والقدرة على بيع المصنوعات شىء آخر ! » . ولم تستطع السوق الألمانية الداخلية بطبيعة الحال استهلاك كل هذه المنتجات ، وكان من الضرورى إيجاد أسواق خارجية ولكنه ، كما قال (كروب) أيضا « كانت أسواق العالم مغلقة دوننا ، مع حاجتنا إلى هذه الأسواق . فقد أقامت بريطانيا العظمى حواجز جمركية ، كما كانت تعترض التجارة الألمانية فى فرنسا وإيطاليا والسويد والبلقان ، وفى كل مكان عراقيل من المنتظر أن يصبح التغلب عليها متعذراً من جراء ازدياد هذه العراقيل زيادة مطردة » ولذلك فلم يكد يحل عام ١٩٣٠ ، حتى كان العمال الألمان يواجهون أزمة شديدة ، فقد تعطل منهم فى الأسبوعين الأولين من شهر يناير حوالى الأربعمائة ألف عامل ، وهذا بينما زاد عدد المتعطلين فى منتصف العام نفسه من حوالى المليونين إلى ستة ملايين . أما الصادرات الألمانية التى بلغت فى عام ١٩٢٩ حوالى

الثلاثة عشر ألف مليون ريشمارك ، فقد نقصت فى عام ١٩٣٣ إلى خمسة آلاف مليون ريشمارك فحسب . وإلى جانب هذا الجيش الجرار من المتعطلين ، وجد عدد عظيم من الرجال والنساء الذين نقصت أوقات عملهم فى اليوم إلى ساعات محدودة ، وبالتالى نقصت قيمة الأجور التى يقبضونها ، ويعيشون عليها . وهكذا أضحت ألمانيا فى عام ١٩٣٠ « بلد الشحاذين ! » ، أى أنها رجعت إلى الحال التى كانت عليها فى سنوات التضخم النقدى عقب الهدنة التى عقدت فى نهاية الحرب العالمية الأولى . فاذا قدرنا أن كل رجل متعطل يعول فى المتوسط أسرة مؤلفة من شخصين اثنين فحسب على أقل تقدير ، لوجدنا أن عدد من صاروا يعيشون فى بؤس وتعاسة ويعتمدون فى قوتهم اليومى على إعانات الدولة وحسنات المتصدقين قد بلغ ثمانية عشر مليونا ، هذا عدا حوالى عشرين مليونا آخرين يعيشون على أجورهم المخفضة .

وكان من نتائج سوء الحالة الاقتصادية ، أن طرد الاشتراكيون الديموقراطيون من الحكم ، وألف الوزارة رجال (الوسط) وعلى رأسهم (هنريك برونتج) Brüning وأما النتيجة الهامة فكانت القضاء على أى أمل فى بعث الطبقة المتوسطة الألمانية من جديد ، وهى دائما عماد الجمهورية الديموقراطية أو الملكية البرلمانية . فقد قضى التضخم النقدى على هذه الطبقة ، ثم لم يمكن إحياؤها فى فترة الرخاء الصناعى المفتعل بين عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ . وكان الاشتراكيون الديموقراطيون وحدهم الذين أفادوا من هذا الرخاء ، وعندما وقعت الأزمة كان (هرمان مولر) Müller الوزير الاشتراكى على رأس الحكومة (منذ يوليه ١٩٢٨) فلم تلبث أن سقطت حكومته بسبب الأزمة فى مارس ١٩٣٠ ، وبسقوط هذه الحكومة اختفى كل أمل فى إمكان إحياء الجمهورية الألمانية .

وأعطى هذا الاضطراب الاقتصادى والسياسى الفرص للوطنيين الاشتراكيين ، حتى يعودوا إلى مسرح السياسة بعد أن ظلوا محتجبين طوال السنوات الأربع الماضية . وهكذا فاز النازيون فى انتخابات ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ بعدد من المقاعد فى مجلس الريخستاج بلغ ١٠٧ (بعد أن كان لهم ١٢ مقعداً ليس غير) . وكان لهذا الانتصار مغزى كبير ، فإن النازيين عندما بلغ عدد المتعطلين حوالى المليون ، كان كل ما أحرزوه من أصوات يقل عن المليون ، حتى إذا ارتفع عدد المتعطلين إلى ستة ملايين ، ظفروا بستة ملايين صوت . ثم استغل النازيون هـذا الانتصار إلى درجة بعيدة ، فنشطت دعاوتهم تستميل إليهم الأنصار والمؤيدين ، وتخفف الأسى عن المتعطلين المنكوبين ، ذلك بأنها صارت تلصق مسئولية النكبات الاقتصادية التى حلت بالشعب الألمانى ، بالساسة الذين وضعوا شروط الصلح فى فرساى ، وفرضوا على ألمانيا التعويضات ، وهذا كله ، كما أدعوا ، بتحريض من فرنسا عدو الألمان

التاريخى ، وهكذا ظفر النازيون بأصوات الناخبين الذين انصرفوا أيضا عن تأييد الشيوعيين لخوفهم من أن يدفع هؤلاء بالأمة إلى خوض غمار حرب جديدة . فلم ينل الشيوعيون فى هذه الانتخابات سوى ٧٧ مقعداً . وفى الريخستاج ، منذ أن خرج الاشتراكيون الديموقراطيون وأنصارهم ، أصبح الحكم البرلمانى مستحيلا بسبب العداء المستحكم بين الوطنيين الاشتراكيين ، وبين الشيوعيين الذين سيطروا فيما بينهم على الحياة السياسية . وكان هذا النضال مؤذناً بنهاية جمهورية ويمار ، وممهداً فى الحقيقة لاستئثار النازيين بالسلطان الكامل فى الدولة .

وفى الشهور التالية ازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً ، وأفاد النازيون من ذلك كل فائدة . لأن الأهلين الذين تذوقوا طعم الفاقة ، وأحسوا بالضنك ومرارة العيش ، سرعان ما صاروا يتوقون إلى حدوث تغيير أو تبديل جوهرى من شأنه إفساح المجال لجماعة جدد من السياسيين الذين قد يستطيعون انتشالهم من وهدة البؤس والعوز . ولما كانوا قليلى الثقة بالشيوعيين ، فقد عقدوا آمالهم على الوطنيين الاشتراكيين ، واستطاع الهر هتلر بفضل مؤازرتهم أن ينال فى الانتخابات التى أجريت لرياسة الجمهورية فى التصويت الأول (فى مارس ١٩٣٢) ١١,٣٤٤,١١٩ صوتاً أو ما يزيد على ٣٠٪ ، ونال فى التصويت الثانى (فى ١٠ ابريل ١٩٣٢) ١٣,٤١٧,٤٦٠ صوتاً أو حوالى ٣٧٪ ، بينما فاز (هندنبرج) بنحو سبعة عشر مليونا ونصف من الأصوات . وفى الانتخابات التالية لمجلس الريخستاج فى (٣١ يوليه ١٩٣٢) أحرز النازيون ١٣,٧٣٣,٠٠٠ صوتا أو مايزيد على حوالى ٣٧٪ وظفروا بمائتين وثلاثين مقعداً .

* * *

ومع هذا ، فإنه من الحقائق المعروفة أن الهر هتلر ما كان يستطيع الوصول إلى منصب المستشارية ، أى رئاسة الحكومة فى الريخ الألمانى ، لو أن (البطانة) المقربة من رئيس الجمهورية (هندنبرج) ظلت متحدة ، ولم يعمد بعض أعضائها إلى المناورات السياسية للتخلص من منافسيهم ، والاستئثار بالسيطرة على رجل تقدمت به السن كثيراً ، حتى يخلص لهم الحكم فى ألمانيا . فمن الثابت أن هندنبرج عقب انتخابات ٣١ يوليه ١٩٣٢ رفض أن يولى الهر هتلر منصب المستشارية عندما زين فرانز فون بابن Franz Von Papen أحد أفراد البطانة لهتلر ، أن يطلب إلى الماريشال الكهل إعطاءه مركزاً مشابهاً للمركز الذى ظفر به موسولينى عقب زحفه المشهور على رومة ، فغضب هندنبرج وقال كلمته المأثورة : « أيتوقع مثل هذا الرجل أن يصبح مستشاراً لدولة الريخ ! إن كل ما يستطيع أن يظفر به هو منصب ساعى

بريد ! » . ومن الثابت كذلك أن النازيين فى انتخابات ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، لم يلبثوا أن فقدوا عدداً كبيراً من الأصوات ، فلم يزد ما أحرزوه على ١١,٧٠٠,٠٠٠ صوتاً تقريباً . ولكن المناورات السياسية وحدها هى التى مهدت الطريق لوصول الهر هتلر إلى منصب المستشارية فى النهاية .

فقد التفت حول الماريشال الكهل — (كان يناهز الخامسة والثمانين) ، بطانة ، كان من أهم أعضائها ابنه (أوسكار) Oskar ، وهو ضابط عامل فى الجيش ، و (أوتوميسنر) Otto Messiner مستشار الرئيس وأحدوزراء الحكومة ، وفرانز ڤون پاپن ، أحدمستشارى الريخ فى هذا العهد ، والجنرال (كيرت ڤون شليخر) Kurt von Schleicher من وزراء الحربية ومن زملاء هندنبرج القدماء ، وصاحب أكبر نفوذ فى ألمانيا الجمهورية . وغير هؤلاء . وكان غرض هذه (البطانة) الأساسى بعد أن تبينوا خطر المركز الذى صار يتمتع به النازيون وعلى رأسهم الهر هتلر ، أن ينفض ملايين الناخبين الذين أعطوا أصواتهم للنازيين من حول الهر هتلر ، وأن ينصرف إهتمامهم إلى تحقيق أغراض أخرى ، كما أنهم صاروا يعنون بضرورة تأييد الرأسماليين وتعزيز مراكزهم حيال أية محاولة اشتراكية ضدهم فى المستقبل ، كما أرادوا أن يعيدوا تشييد صرح الدولة الألمانية على أساس المسيحية القديم ، وهو الأساس الذى كان قد أخذ يتداعى منذ مدة طويلة حتى أشرف على الانهيار . وكانوا يرغبون كذلك فى إعادة البحث فى الدستور الألمانى ، وتنظيم كيان الدولة على نحو يضمن استمرار الحكم فى أيدى أحزاب (الوطنيين) من أصحاب الارادة القوية والفكر الناضج . وكانوا يعنون أنفسهم بهذا الوصف ، لأنهم اعتقدوا أن خلاص ألمانيا — كما أرادوها — لا يمكن أن يحدث إلا إذا حرم الأهلون كافة الحقوق عدا حق واحد يخول لهم انتخاب دكتاتور يهيمن على شئون البلاد ، وهو حق لا يستطيع الناخبون ممارسته إلا فى فترات متقطعة .

وكان موقف هذه (البطانة) من الوطنية الاشتراكية موقفا غريبا حقا . فلم يكن يضيرهم وجود النازيين لأنهم كانوا يدخلون الرعب إلى قلوب الاشتراكيين ، ولكنهم كانوا بوصفهم من قواد الجيش يكرهون الفوضى والأحزاب السياسية قاطبة ، وبوصفهم من أصحاب الأراضى الزراعية الواسعة يسوءهم رؤية ضياعهم العظيمة ، (المفلسة) غنيمة يقتسمها الفلاحون فيما بينهم ، كما أنهم كانوا لا يرضون كرجال أعمال عن (الأوتاركية) أو (الاكتفاء الذاتى) . وما كانوا يوافقون قط على أن تمتد يد الاشتراكية إلى ممتلكاتهم وثرواتهم ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يكرهون الهر هتلر على اعتبار أنه من قادة الجماهير ، وقد ظل مغمورا حتى أتاحت له الظروف الطارئة أن يظهر على مسرح السياسة . ولذلك وجدوا أن خير وسيلة لتحقيق

اغراضهم أن يحصروا حركة الطبقة المتوسطة التى يتزعمها هتلر — وهى حركة ثورية — ، وأن يحدوا من انتشارها ، حتى يستطيع الرأسماليون استئناف أعمالهم .

وغنى عن البيان أن (بطانة) بلغت آراء أعضائها ازاء الوطنية الاشتراكية من التضارب هذا المبلغ ، واعتمدت فى وجودها على صداقة رئيس الجمهورية لها وعطفه عليها ، ما كان فى استطاعتها أن تحقق أغراضها إلا بالالتجاء إلى المناورات السياسيــة واستصدار المراسيم والقرارات الحكومية ، وتعطيل مواد الدستور ، حتى يتسنى لها الفوز بالحكم دون إشراك مجلس الريخستاج ، « أو الأمة » وبخاصة عندما ظفر الوطنيون الاشتراكيون (النازيون) بمقاعد كثيرة فى هذا المجلس . وهذا ماحدث فعلا . فقد ظل مستشار الريخ فى تلك الآونة الدكتور برونتج يحكم بمقتضى قرارات استثنائية ، وحاول كبح جماح هتلر وأنصاره بتنفيذ مطالب حزبهم المعتدلة . ولكنه ما كاد يشرع فى تجزئة (الجفالك) الواسعة فى بروسيا الشرقية إلى ملكيات صغيرة حتى ثار عليه أصحاب هذه الأراضى المعروفين باسم (يونكر) Junkers ، واتخذ منافسوه من بين رجال (البطانة) من هذه المحاولة ذريعة لايغار صدر الماريشال هندنبرج عليه ، فطرد (برونتج) من المستشارية فى مايو ١٩٣٢ . أما هؤلاء المنافسون فكانوا (هو جنبرج) ، زعيم الوطنيين وأصحاب الخوذ الفولاذية ، وڤون پاپن ، والدكتور شاخت Schacht (وكان محافظا لبنك الريخ بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٢٩ ، ثم غادر صفوف الديمقراطيين وانحاز إلى اليمين ، ثم اتصل بالنازيين منذ عام ١٩٣١) كما انضم إلى هؤلاء المتآمرين فى بطانة الرئيس ، الوطنيون الاشتراكيون ، وكانوا جميعا قد استطاعوا منذ مدة أن يؤلفوا من بينهم جبهة قوية عرفت باسم « محالفة هارتزبرج » ، وكان من أول أعمال هذا التحالف تأييد ترشيح أدولف هتلر لرياسة الجمهورية ضد الماريشال هندنبرج نفسه فى انتخابات ١٠ ابريل ١٩٣٢ . ولم يكفل النجاح للماريشال وقتذاك سوى انحياز الاشتراكيين الديموقراطيين إلى جانبه .

أما هندنبرج ، فأنه لم يلبث أن عهد بالمستشارية بعد طرد (برونتج) إلى (ڤون پاپن) على الرغم من أن پاپن ماكان يستطيع الحصول على عدد من الأصوات فى داخل مجلس الريخستاج يزيد على أصوات حزب (هوجنبرج) ولذلك صار يعتمد الاعتماد كله على صداقة رئيس الجمهورية فحسب . ولما كان غرض (فون پاپن) اقصاء الأشتراكين الديموقراطيين عن حكومة بروسيا اقصاء تاما فقد قرر الاستناد إلى تأييد الجيش الألمانى النظامى الذى تألف بعد الحرب العالمية الأولى وهو (الريشڤهر) Reichswehr وعلى ذلك عين رئيس هذا الجيش الجنرال (كيرت فون شليخر) وزيرا للحربية ، واستطاع فون پاپن تنفيذ مآربه .

ومنذ انشئت جمهرية ويمار الاتحادية ، واتسعت اختصاصات حكومة بروسيا حتى شملت ماتزيد مساحته على ثلاثة أرباع دولة الريخ ، كان الاشتراكيون الديموقراطيون والكاثوليك والديموقراطيون هم الذين يؤلفون الأكثرية المطلقة فى المجلس البروسيانى (لاندتاج Landtag : كما كانت الحكومة البروسيانية للسبب نفسه تتألف من ممثلى هذه الأحزاب الثلاثة ، وكان يرأسها رجل من الحزب الاشتراكى الديموقراطى هو(أتوبرون Otto Braun وقد ازدادت صعوبات (أوتو برون) عندما أسفرت انتخابات هذا الدياط البروسيانى فى ٢٤ ابريل ١٩٣٢ عن عدم فوز حزب من هذه الأحزاب الثلاثه فوزا يمكن أحدها من تأليف الوزارة أو بجعل من الميسور إنشاء حكومة ائتلافية قوية فظل (أوتو برون) والاشتراكيون فى الحكم « مؤقتا » ، ونجم عن ذلك تعذر التعاون بين هذه الحكومة البروسيانية التى تغلب عليها الصبغة (الماركسية) أو الاشتراكية وحكومة الريخ المركزية التى يرأسها (فون پاپن) ، والتى أطلق عليها اسم (حكومة البارونات) . فأصدر (پاپن) بموافقة هندنبرج مرسوما فى ٢٠ يولية ١٩٣٢ يقضى بتعيينه أى (فون پاپن) قوميسيراً للريخ فى بروسيا ، وعين نائب له وكان هذا المرسوم يقضى إلى جانب هذا ، بمنع حكومة بروسيا من مباشرة أعمالها . وبهذا حقق (فون پاپن) غرضه الأول وكان هذا العمل تحديا للاشتراكية التى اعتبرت بروسيا حصنها المنيع منذ مدة طويلة ، وكاد طرد الاشتراكيين يفضى إلى ملاحم عنيفة ، ولكن (شليخر) أسرع فى اظهار استعداده الكامل لمؤازرة (فون پاپن) ، بينما تفرقت كلمة الاشتراكيين الديموقراطيين والشيوعيين ، مما أدى إلى تضعضع الطبقة العمالية . لذلك لم يلبث سواد الشعب فى الانتخابات التالية لمجلس الريخستاج (٣١ يولية ١٩٣٢) أن أظهر سخطه على هذا الانقسام ، فكان النصر فى تلك الانتخابات حليف النازيين والشيوعيين ، ففاز النازيون بما يزيد على ٣٧ ٪ من عدد الأصوات ، وظفروا بمائتين وثلاثين مقعدا ، بينما نال الشيوعيون ٨٩ مقعدا ، واختفت أحزاب الطبقة المتوسطة تماما ، ورجع الاشتراكيون الديموقراطيون إلى حالهم السابقة القديمة فى عام ١٩٢٤ .

وثمل جنود الهجوم النازى بخمر الظفر ، فاجتاحت الريخ موجة من الارهاب النازى عنيفة ، وطفق النازيون من ذلك الحين ينتقمون من معارضيهم وأعدائهم السياسيين انتقاما بلغ الغاية فى قسوته ووحشيته حتى اضطر (فون پاپن) إلى اعلان الأحكام العرفية ، كما هدد (شليخر) باستخدام الجيش النظامى ضد (جنود الهجوم) النازيين ، وأصدر (فون پاپن) تصريحا أنحى فيه باللائمة على هتلر ، وأعلن استعداده لتأييد حكم القانون والقضاء على الفوضى التى أثارها النازيون بمسلكهم . وإزاء هذا التهديد لجأ هتلر إلى المفاوضة ، مهدداً تارة ومسترضياً تارة

أخرى فجمع جند الهجوم بالقرب من برلين . ووعد بتأييد وزارة فون پاپن إذا وافقت أخيرا على اطلاق يد هؤلاء مدة ثلاثة أيام فحسب ولكن پاپن رفض هذا العرض بطبيعة الحال ، وزاد حنق هندنبرج عند ما طلب هتلر منصب المستشارية لنفسه . فابقى الرئيس فون پاپن فى الحكم ، وانقلب هتلر وأعوانه منذ ذلك الحين يدبرون المكايد ضد هندنبرج ووزيره ، وعمت الفوضى من جراء ذلك كله مجلس الريخستاج حتى اضطر (فون پاپن) إلى إلى حله ، ثم أجريت انتخابات جديدة فى ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، نال فيها هتلر ١١٫٧٠٥٫٦٢٥ صوتا ، هذا بينما زاد عدد أنصار الشيوعيين وأنصار (هوجنبرج) ، وكان من الواضح أن الشيوعيين هم الذين أفادوا من هذه المناورات السياسية .

ولما كان الخوف من نجاح الشيوعيين ما يزال من العوامل الحاسمة فى جمع كلمة أحزاب اليمين عامة ، فقد أدى هذا الخوف إلى عودة الائتلاف بين أنصار (پاپن) و (هوجنبرج) و (شاخت) والهر هتلر ، فتعززت من ثم جبهة هارتزبرج السابقة . وفى ٢ ديسمبر من العام نفسه أخرج (فون پاپن) من مستشارية الريخ ، وعهد هندنبرج بهذا المنصب إلى رئيس (الريشفهر) الجنرال (فون شليخر) . وكان من الواضح أن سبب سقوط (پاپن) هو أنه صار من المتعذرعليه أن يظل فى الحكم بعد أن أثار الأمة بأجمعها ضده . واقنعت (البطانة) القديمة الماريشال هندنبرج بضرورة إعطاء منصب المستشارية الى رجل قوى . ولما كان (شليخر) فى هذه الآونة زعيم الجيش ، فقد اعتبر أقوى رجل فى المانيا ، وساعده على تحقيق مطامعه أنه كان من أصدقاء (أوسكار فون هندنبرج) والمقربين إليه ، كما أنه كان صديقا لأفراد (البطانة) التى كانت تتمتع بنفوذ كبير لدى الماريشال .

ومنذ أن وصل (شليخر) إلى الحكم طفق يعمل للقضاء على هتلر وجماعته . ولما كان يعد برنامجا شاملا للأصلاح وكان يميل فى إصلاحه الاجتماعى إلى ادخال تغييرات جريئةمن أجل (خلاص المانيا) على حد قوله فقد أصبح من السهل عليه لتنفيذ هذه الاصلاحات من جهة ، ولاضعاف هتلر من جهة أخرى أن يوطد الصلة بينه وبين جناح اليسار من حزب هتلر نفسه ، وهو الجناح الذى كان يتزعمه (جريجور ستراسر) Strasser ، فعرض عليه منصب نائب المستشارية كما أنه دعا زعيم (اتحادات التجارة الحرة) ويدعى (ثيودور ليپارت Leipart للاشتراك معه فى تاليف الحكومة التى أراد أن تقوم على أساس اشتراكى واسع ولكن هذه الميول الاشتراكية لم تلبث أن أثارت عليه حفيظة أصحاب الأراضى الواسعة ، Junkers كما أغضبت رجال (البطانة) وشرعوا يدبرون المكائد لاسقاطه واستطاع (فون پاپن) فى هذه الظروف أن يجذب الهر هتلر إلى معاونتهم عندما وعد بأن

يسدد ديون الحزب النازى التى بلغت فى هذه الآونة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ريشمارك تقريبا وحدث فى بداية شهر يناير من العام التالى (١٩٣٣) أن عقد اجتماع فى (كولون) فى بيت (شرودر) Schroeder أحد رجال المال المعروفين ، وفى هذا الاجتماع تقابل هتلر مع فون پاپن ومع (شرودر) بفضل وساطة أحد الوكلاء التجاريين وهو (فون ريبنتروب Ribbentrop وسويت مالية الحزب النازى وأسفرت هذه التسوية عن اتفاق كل من هتلر ، وشاخب وپاپن ، وهوجنبرج ورجال بطانة الرئيس هندبرج على ضرورة عزل (شليخر) من منصب المستشارية : ولما عجز (شليخر) عن المقاومة ، فكر جديا فى تأليف حكومة تستند إلى مؤازرة (الاتحادات) Unions ، وفاوض بالفعل فى ذلك كلا من (جزيجور ستراسر) و (تيودور لبيارت) . ثم فاوض زعيم الاشتراكيين الديموقراطيين فى الريخستاج فيما إذا كان رجال حزبه على استعداد لتأييده ، ولكنه أخفق فى محاولته ، وازداد موقفه حرجا عندما اقترب موعد افتتاح الريخستاج (فى ٣١ يناير ١٩٣٣ ، وكان من رأيه حل هذا المجلس قبل اجتماعه ، ولكن كان لابد من حصوله على موافقة هندنبرج ولكنه لم يوفق واستأنف شليخر المفاوضة من جديد ، وعلى غير طائل ومن جانب آخر دخل الزعماء المعارضون فى مفاوضات مع هتلر ولكن هتلر أصر على أن تكون المستشارية فى هذه المرة من نصيبه ،وظل الحال على كذلك ، حتى استطاع (فون باپن) فى إحدى مناوراته السياسية البارعة ، أن يجمع كلمة المعارضين على ضرورة إعطاء منصب المستشارية للهر هتلر .

وكان مما اعتمد عليه (پاپن) فى حبك خيوط المؤامرة ، الإشاعات التى انطلقت فى ذلك الحين تروج خبراً مفاده أن شليخر صار يعد العدة لإحداث (انقلاب) بمؤازرة (الريشفهر) وبفضل هذا الخوف المصطنع أمكن التأثير فى هندنبرج حتى قبل أخيراً أن يعهد بمنصب المستشارية إلى الهر هتلر . فاصبح هتلر مستشار الريخ الجديد . وفى مساء ٣٠ يناير ١٩٣٣ دبر الهتلريون مظاهرة عظيمه اشترك فيها خمسة عشر ألفا من النازيين حملوا المشاعل فى حضرة ادولف هتلر ، وكان إلى جانبه الماريشال هندنبرج ، فقضت المظاهرة على « آمال » المعارضة ، حتى أنها لم تجد مناصاً عقب ذلك ، من التسليم بدون إبداء اية مقاومة وعلى إثر تعيين ادولف هتلر مستشارا للريخ الألمانى ، طفق يتخذ التدابير لمنع (بطانة) الرئيس من تمثيل الدور الذى افضى إلى إقصاء كل من برونتج ، وپاپن ، وشليخر من الحكم ، فعين (هرمان جورنج) وزيرا للريخ ، وقوميسيرا للطيران ، ووزيرا للداخلية فى حكومة بروسيا وقد خطب (جورنج) رجال الشرطة ، فقال . « إن الشرطة لم توجد من أجل العناية بامر ثمانين أو مائة ألف مجرم فى السجون ، فجدير بنا أن نضع حدا لهذه الانسانية المزيفة ، لأن

من واجب الشرطة أن تقوم بأعمال قد تبدو قاسية للغاية ، ولكنها فى الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة » . وأما هـذه الأعمال التى يشير إليها فهى القضاء على أعداء النازيين ومعارضيهم . ولما كان رجال الشرطة النظاميون مائة ألف ، وهو عدد لا يكفى لتحقيق هذه الأغراض ؛ فقد شكل (جورنج) قوة إضافية من النازيين تبلغ ثمانين ألفاً . وبذلك بدأ عهد الإرهاب النازى فى ألمانيا ، وسرعان ما تبين لمدبرى المكائد السابقين من (بطانة) الرئيس أن هتلر والنازيين إنما يريدون أن يقبضوا على أزمة الحكم بيد من حديد ، وأن من العبث أن يتوقعوا الاستمتاع بالمزايا التى ألفوها فى العهود الماضية . ثم عظمت مخاوفهم عندما وجدوا المستشار النازى مصمما على إجراء انتخابات جديدة حتى يفوز بأغلبية مطلقة تمكنه من إنشاء حكومة مؤيدة له ، واستطاع بالفعل أن ينال من هندنبرج أمراً بحل الريخستاج وإجراء هذه الانتخابات الجديدة فى يوم ٥ مارس ١٩٣٣ .

على أن موقف النازيين فى أول الأمر لم يزعج كلا من پاپن وهوجنبرج وأوسكار ڤون هندنبرج إلى حد كبير ، ولم يقض مضاجعهم تهديد هتلر وأنصاره بأنهم مصممون على البقاء فى الحكم مهما كانت نتيجة الانتخابات المقبلة ، ذلك بأن النازيين كانوا قد اتفقوا معهم وقت المفاوضات التى سبقت تعيين هتلر فى منصب المستشارية ، على أن يظل الائتلاف قائماً لمدة أربعة أعوام على الأقل ، ولو اقتضى الأمر مخالفة رغبات الأمة ، ولكنهم أدركوا فى النهاية أن النازيين سوف يتحينون الفرص لطردهم من الحكومة ، وانعدمت من ثم ثقتهم فى الهر هتلر ، وطفقوا يدبرون المكائد ضده ، وانضم إليهم (شليخر) فى ذلك . بيد أن هذه المكائد لم تكن خافية على الهر هتلر . والواقع أن الهتلريين أنفسهم لم يكونوا يتوقعون إحراز نصر حاسم فى الانتخابات المقبلة . ولذلك شرعوا من جانبهم يدبرون (إنقلاباً سياسياً) يضمن لهم الغلبة والفوز فى يوم ٥ مارس . ومن هـذه الجهود الخفية جميعها ، نشأت جميع الحوادث التى كفلت الفوز للنازيين فى النهاية .

* * *

فقد حدث فى الأسبوع الثانى من شهر فبراير عام ١٩٣٣ ، أن راجت إشاعة فحواها أن النازيين يريدون إخراج أعضاء (الائتلاف) المتعاونين معهم من الحكومة يوم الانتخابات نفسه ، ويطلبون إجراء (استفتاء عام) من أجل انتخاب الهر هتلر لمنصب رئاسة الدولة . ووجد (پاپن) فى هذه الإشاعة مسوغا لحبك خيوط مؤامراته من أجل الخلاص من هتلر ؛ وقابل فى ذلك (هوجنبرج) وحضر المقابلة أيضاً زعماء (أصحاب الخوذات الفولاذية) ، ثم تباحث (پاپن) مع الجنرال (شليخر) ومع الرئيس هندنبرج ومع ابنه (أوسكار) .

وأسفرت هذه المؤامرة عن وضع خطة نالت موافقة الجميع ، وترمى هذه الخطة إلى حشد جند (الخوذات الفولاذية) فى برلين فى يوم الانتخابات نفسه ، على أن يحتلوا قلب المدينة ويسهروا على حراسة (الوهلمستراس) ، بينما تحتشد عدة فرق من الجيش النظامى (الريشفهر) فى (دوبريتز) Döberitz التى تبعد نحو العشرين ميلا عن برلين ؛ على أن يغادر هندنبرج العاصمة فى هذا اليوم إلى (دوبريتز) بحجة الإشراف على استعراض يقوم به جيش(الريشفهر) هناك . حتى إذا وقعت فى يوم ٥ مارس أية محاولة من جانب الهتلريين لإحداث (انقلاب سياسى) استطاع عشرة آلاف جندى من أصحاب الخوذات الفولاذية مقاومة جنود الهجوم النازيين (S.A.) والدفاع عن قلب المدينة حتى تأتى إليهم نجدة (الريشفهر) من (دوبريتز) .

بيد أن هتلر لم يلبث أن عرف أمر هذا التدبير ، فأرسل بدوره (هرمان جورنج) يحمل تهديدا إلى (سلدت) Seldte زعيم جند أصحاب الخوذات الفولاذية ، بأنه إذا أبدى هؤلاء أى حراك ، فان هتلر لن يرى مندوحة عن تعبئة قوات جند الهجوم النازيين تعبئة كاملة وقد أحدث هذا التهديد أثره فى نفوس المتآمرين الذين أزعجهم انكشاف أمرهم ، وصاروا يخشون عواقب حدوث الاصطدام بين قوات الحكومة ، فنكصوا على أعقابهم ، وفشلت مؤامرتهم ، واستطاع النازيون أن يتفرغوا لمكافحة أعدائهم الآخرين ، وهم الجمهوريون والشيوعيون ، فأشرف (هرمان جورنج) نفسه على تعقبهم . وفى إحدى الهجمات الفجائية التى قام بها الشرطة على مراكزهم الرئيسية ، استطاع جورنج أن يعثر فى مقر الحزب الشيوعى (بيت كارل ليبكنخت) Liëbknecht على خطط مفصلة قال جورنج إن الشيوعيين وضعوها لتنظيم إشعال الثورة فى المانيا وأخفوها فى أقبية سرية عتيقة . وكان هذا الكشف انتصاراً عظيما للنازيين الذين صمموا على استغلال هذا الحادث بشكل يقضى على أعدائهم الشيوعيين قضاء مبرما فى الانتخابات المقبلة ، ويدخل الذعر والرعب فى نفوس الأهلين ؛ وكان أخشى مايخشاه سواد الشعب فى تلك الآونة أن يشعل المتطرفون من أحزاب اليسار نار الثورة فى المانيا ؛ هذا إلى أنه يقضى على كل أمل لدى (بطانة) الرئيس فى إمكان الفوز على الهر هتلر وأعوانه بتدبير أية مؤامرة جديدة .

وعقب ذلك حدث فى مساء ٢٧ فبراير ١٩٣٣ فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين أن شهد أهل برلين فجأة ألسنة النيران تصل إلى عنان السماء . واللهب يضىء المدينة ، ثم تطاير الخبر بسرعة البرق ، بأن الريخستاج يحترق ! وكان حريق الريخستاج من العوامل الحاسمة التى ساعدت النازيين على أن يقبضوا بأيد من حديد على أزمة الحكم فى ألمانيا ، ويفرضوا

على دولة الريخ تلك السيطرة التامة التى طمعوا فيها منذ مدة طويلة ، حتى يبسطوا سيطرتهم على القارة الأوربية ، ثم على العالم أجمع فى النهاية .

والواقع أن الزعماء النازيين كانوا فى تلك الليلة أول من خف إلى مكان الحريق . ونقل الناس عن الهرهتلر قوله فى وصف هذا الحادث، « أنه نعمة من السماء » Ein Zeichen-vom Himmel . وأعلت الحكومة فى التو والساعة أن الحريق من صنع الشيوعيين وحدهم وفى الليلة نفسها صادر النازيون الصحف الشيوعية وجميع منشورات الشيوعيين وإعلاناتهم الانتخابية ، ومنعوا الاجتماعات السياسية سواء أكانت فى الهواء الطلق أم فى منازل أفراد الحزب . وفى اليوم التالى وقع هندنبرج قرارا ألغى الدستور بمقتضاه ، وفى أول مارس صدر قرار آخر يفرض « الرقابة » على البريد والتليفون والبرق فى أنحاء الريخ ، فتحقق بكل هذا ظفر النازيين واطمأنوا إلى الدخول فى « المعركة » الانتخابية من غير منافس ! والحقيقة أن هذه التدابير الصارمة لم تقض على الشيوعيين وحدهم ، بل إنها أوجدت الارتباك والفوضى فى صفوف الأحزاب الأخرى ، ثم رفعت فى ساعات معدودة مستشار الريخ إلى مركز الديكتاتور المطلق . ولم تكن التدابير التى اتخذها النازيون من أجل محاربة أعدائهم ومنافسيهم بنت ساعتها ، بل دل صدورها وتنفيذها بالسرعة المتقدمة على أنها كانت معدة منذ مدة سابقة ، وما يزال التاريخ يلصق تهمة إشعال النار فى مبنى الريخستاج بالنازيين وحدهم إذ أنه حتى الآن ما يزال من المستحيل على أى إنسان أن يقف على كنه العلاقه التى ربطت بين النازيين وڤان دير لوپ هذا الشخص الأبله الذى ثبتت إدانته وحده ثم أعدم . ومن المحتمل أن تظل حقيقة هذه العلاقة مجهولة إلى الأبد

والمعروف أن (مارينوس فان ديرلوب) Marinus Van Der Lubbe وهو من الرعايا الهولنديين ، لم يكن فى يوم من الأيام منتميا إلى الحزب الشيوعى ، بل كان هذا الرجل متعطلا ، لامأوى له ومن المخبولين المنغمسين فى حمأة الرذيلة ومن ذوى الشذوذ الجنسى . وقد قبض عليه رجال الشرطة فى ليل الحادث عند أحد أبواب الريخستاج ، وليس عليه من الملابس غير سراويله ، لأنه كما يظهر كان قد استخدم قميصه وبقية ملابسه المهلهلة فى إشعال الحريق . ومع أن (جورنج) ادعى فى ذلك الحين أن (لوب) كان يحمل بطاقة الحزب الشيوعى هذا إلى جانب بضعة أوراق أخرى تلصق التهمة بالشيوعيين والاشتراكيين الدموقراطيين . فإن هذا الادعاء كان كاذبا ، كما أن (فان دير لوب) من ناحية أخرى لم يكن من الوكلاء النازيين أصلا .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن (فان ديرلوب) ما كان يستطيع وحده وبمفرده إشعال

الحريق الذى التهم جزءاً كبيراً من مبنى الريخستاج فى تلك الليلة . فقد أثبت البحث أن مقداراً كبيراً من المواد القابلة للاشتعال ، ومنها البترول ، قد استخدم فعلا فى الحرائق التى نشبت فى عدة أماكن مختلفة من هذا المبنى وفى وقت واحد . ولم يكن لدى (لوب) من الملابس ما يكفى لإشعال حريق عظيم يلتهم بهو الريخستاج الكبير بأجمعه قبل وصول رجال المطافىء ، وزيادة على ذلك فقد أثبت التحقيق أن وسط هـذا المبنى كان شعلة من النيران عقب دخول (ڤان ديرلوب) إليه بدقيقتين وخمس ثوان فحسب ؛ ولذلك فلابد من أن يكون هناك غيره اشتركوا معه ، وعلى غير علم منه على ما يبدو ، فى إشعال هذا الحريق الكبير . ولكن أحداً لم يقف على أثر لهؤلاء المساهمين . إذ استطاعوا الخروج من المبنى دون أن يراهم أحد . ولما كان هناك قبو سفلى يوضع به جهاز التدفئة ، ويمتد منه ممر يربط بين أقبية الريخستاج . والمبنى الذى يقيم به رئيسه ، فإن القرائن تدل على أن محدثى الحريق إستخدموا هذا الممر الخفى أولا فى نقل المواد الملتهبة — والبترول — إلى الريخستاج ، ثم استخدموه فى الفرار والنجاة بأنفسهم بعد إشعال الحريق ، وكان رئيس الريخستاج الهر هرمان جورنج !

ومع هذا فقد اعتقل النازيون ثلاثة من زعماء الشيوعيين — البلغاريين كانوا يعيشون فى برلين فى تلك الآونة ، وهم (ديمتروف) Dimitroff و (تانيف) Taneff و (بوبوف) Popoff بتهمة إشعال الحريق ؛ كما ألقوا القبض على النائب الشيوعى الألمانى (تورجلر) Torgler . ثم قدموا الجميع إلى المحاكمة أمام المحكمة العليا الألمانية فى ليبزج . وفى هـذه المحاكمة اعترف (ڤان ديرلوب) بجرمه ثم أعدم . وأما (ديمتروف) فقد دافع دفاعاً مجيداً وحمل حملة شعواء على الهر جورنج نفسه وعلى النظام النازى بأجمعه ، وانتهى الأمر بالحكم ببراءته وبراءة زملائه الآخرين . وقد سافر (ديمتروف) إلى موسكو ، أما (تورجلر) الألمانى فقد أرسل إلى أحد معسكرات الاعتقال النازية .

ولكن تبرئة الشيوعيين جاءت متأخرة . إذ أن النازيين كانوا قد حققوا أغراضهم، فنشروا الارهاب والرعب فى أنحاء البلاد وقام الشرطة بتلك الأعمال التى قال عنها جورنج « أنها قد تبدو قاسية للغاية ولكنها فى الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة » . وعبثا حاول أعضاء الحكومة — من « بطانة » الرئيس هندنبرج — الاحتجاج على هذه الحملة الارهابية ، فقد أجاب جورنج على ذلك بقوله : « إنه يشعر بقوة مركزه إلى حد يسوغ له الاضطلاع بكل مسئولية ! » وعمل النازيون على قمع كل معارضة ، دون أن يترددوا فى ارتكاب أية جريمة حتى صار الأهلون يعثرون فى القنوات ومجارى المياه على جثث أفراد عديدين من « العمال » الذين عرفوا بقوة المراس والشكيمة وشدة معارضتهم للحزب النازى . وفى يوم الانتخاب قام

بالمحافظة على النظام ثمانون ألفا من أصحاب القمصان السمر النازيين !

ولكن على الرغم من هذا الارهاب العظيم ، لم يظفر النازيون فى يوم ٥ مارس ١٩٣٣ بالأغلبية المطلقة ، فحصلوا على ٤٣,٩ ٪ من الأصوات فحسب ، فاذا كانت هذه هى النتيجة التى بلغها النازيون وهم فى أوج سطوتهم ، ولا أثر للمعارضة أو المنافسة يعكر عليهم صفوهم ، فماذا كان يحدث لو أن الريخستاج لم يحرق ؟ ، ولو أن الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديموقراطية على وجه الخصوص ظلت حرة طليقة ، تمارس حقوقها الانتخابية فى أمان إلى جانب النازيين والضالعين معهم من أحزاب الوطنيين ؟ . لاشك فى أن انتخابات ٥ مارس ١٩٣٣ كانت هزيمة للنازيين لاتقل عن هزيمتهم القديمة فى انتخابات ٦ نوفمبر من العام السابق

ومع هذا ، فقد جد النازيون حتى يوطدوا أقدامهم بكل وسيلة . فاعلن أدولف هتلر فى خطاب ألقاه فى مبنى (تمپلهوف) فى أول ابريل ، أن الثورة الوطنية قد بدأت ، وفى اليوم نفسه نظمت مقاطعة اليهود ، وفى ٢ مايو وبناء على أوامر الحكومة صادر جنود هتلر جميع ممتلكات الأحزاب والمؤسسات العمالية فى أنحاء الريخ ، ولم يقاومهم أحد . وقبض النازيون على زعماء الاتحادات التجارية الحرة أمثال (ليبارت) Leipart و (جراسمان) Grassman وغيرهما من صغار الزعماء وألقوا بهم فى غياهب السجون ، وفى ١٨ مايو صادر الهتلريون جميع مبانى وأملاك الجمعيات التعاونية ، فخر الاشتراكية الألمانية كما صادروا جميع مبانى الاشتراكيين الديموقراطيين وممتلكاتهم وأموالهم ومطابعهم ; وهكذا قضى الهرهتلر على كل منافسيه وأعدائه وهم (الشيوعيون ، النقابات العمالية ، الاشتراكيون الديموقراطيون) . وبلغ الارهاب النازى ذروته ، إذ كان عدد الذين أرسلوا إلى السجون أو معسكرات الاعتقال نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ ألمانيا ، وانفسح المجال أمام (جند الهجوم) الهتلرى ووقع تحت رحمتهم اليهود والاشتراكيون الديموقراطيون والأحرار ، ولم ينج من أيديهم الشيخ الكبير أو الصبى الصغير فى غير تمييز بين الذكر والأنثى .

ولم يكد ينتهى أمر أحزاب اليسار حتى وجه الهرهتلر عنايته للقضاء على أحزاب اليمين وكان من السهل عليه بلوغ مقاصده . لأن طرد النواب الشيوعيين من الريخستاج أكسب الوطنية الاشتراكيه — أو النازية — والبرلمان قوة كبيرة ، وبفضل هذه القوة الجديدة ، استطاع الهرهتلر أن يقنع حزب الوسط الكاثوليكى فى لريخستاج بأن من مصلحة هذا الحزب ومن مصلحة الكنيسة أيضاً أن يظفر الهتلريون بالأغلبية المطلقة فى الريخستاج ، وأن حزب الوسط الكاثوليكى والكنيسة سوف يكون من نصيبهما حتما الانتعاش والنجاح فى دولة الريخ الثالث ، فقبل الحزب الانحياز إلى النازيين عند التصويت من أجل الموافقة على القانون الذى

أعطى الهرهتلر سلطات واسعة استثنائية تمكنه من إصلاح (الدستور) ومن التشريع عن طريق إصدار المراسيم فى مدة الأعوام الأربعة التالية ، وعندئذ لم يتردد الهرهتلر لحظة واحدة فى تطهير الحكومة من (بطانة) الرئيس هندنبرج ، والذين تألفت من بينهم وبفضل مساعيهم (جبهة هارتزبرج) القديمة ، فطرد فى ٢٧ يونية ١٩٣٣ الفريد هوجنبرج من الحكومة ، وولى مكانه رجلا من جماعة الرأسماليين والصناعيين الذين كانوا يريدون الحرب ويجدون فيها علاجا حاسماً لأزمة البلاد الاقتصادية المستحكمة وهو (الدكتور شميدت) Schmidt. ثم عظم تهديد الهتلريين لأحزاب المحافظين من الكاثوليك والألمان الوطنيين ، وحل الاضطهاد بزعمائهم ، وقادتهم ، كما لو كانوا من الاشتراكيين الديموقراطيين سواء بسواء . وفى آخر الأمر اضطر المحافظون إلى « تصفية » أحزابهم وجماعاتهم وفى ١٤ يولية ١٩٣٣ أعلن الهرهتلر أن الوطنية الاشتراكية هى الحزب القانونى الوحيد فى ألمانيا بأسرها . وبهذا تكون قد بدأت حياة الريخ الثالث الجديدة . . . ويكون قد تمهد الطريق لخوض غمار الحرب العالمية الثانية !

* * *

تلك كانت الظروف التى لابست وصول الهتلريين إلى الحكم فى ألمانيا . وجمعت أسباب السلطة المطلقة فى أيديهم ، ومع هذا فانه ماكان من المستطاع أن يصل النازيون إلى ماوصلوا إليه ، وأن يتمكنوا من بسط سلطانهم بشكل يقضى على كل معارضة ، لو أنهم لم يعنوا من بادىء الأمر بتنظيم حزبهم وتنسيق جهودهم فى نظام من شأنه أن ينشر خلايا الحزب ومؤسساته وهيئاته فى كل ركن من أركان الدولة ويفرض الطاعة العمياء على كل عضو من أعضاء الحزب لزعيمه (الفوهرر) أدولف هتلر . ولذلك فان تنظيم الحزب النازى نفسه كان من أهم العوامل التى كفلت للهتلريين الفوز ، ووضعت مصير البلاد فى أيديهم .

فقد جعلت دقة تنظيم الحزب الوطنى الاشتراكى من الممكن أن تتغلغل أنظمة الوطنية الاشتراكية فى كيان ألمانيا الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، حتى هيمن النازيون فى النهاية على حياة الأهلين هيمنة تامة تحت ستار إنشاء (الدولة الجديدة ذات الخدمة الموحدة) ومعنى هذا أن ينظم نشاط أفراد الدولة فى فروع المصالح — أو الخدمات — المختلفة فى نطاق واحد تحت إشراف الدولة وبتوجيه منها . ولحمة هذا النظام وسداه الطاعة العمياء لزعيم الدولة . ويشبه الحزب الوطنى الاشتراكى فى نظامه (نظام المجموعة الشمسية) ، بمعنى أن الفوهرر أو الزعيم وهو أدولف هتلر يتوسط مجموعة الزعماء الآخرين الذين يشرفون على كل فرع من فروع الحزب وهى كثيرة . ولما كان غرض النازيين إحراز السيطرة السياسية وإحكام الرقابة

الدقيقة على حياة الأفراد الذين تتألف منهم دولة الريخ ، نظمت إدارة الحزب على نحو يضمن هذه السيطرة وتلك الرقابة ، ولذلك صارت هناك تنظيمات أقليمية ووظائفية واستشارية ، استطاع النازيون بفضلها جميعا منذ عام ١٩٣٢ أن يتوغلوا فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصاديه، ويتدخلوا فى معيشة كل فرد من أفراد المجتمع الألمانى

وينقسم تنظيم الحزب الوطنى الاشتراكى قسمين رئيسيين : يعرف أولهما باسم « هيئات الخدمة » (Dienstordnungen) — ومن هذه الهيئات نظام الشبيبة الهتلرية ، وخدمة العمل والخدمة العسكرية ، والخدمة المدنية ، والمهن الحرة ، أو وظائف الأعمال الكبرى .وبفضل الالتحاق باحدى هذه الهيئات يتسنى إعداد الفرد وتهيئته لأن يشغل إحدى الوظائف أو يمارس عملا من الأعمال من أجل خدمة الدولة ، على شريطة أن يحدث هذا الإعداد تحت إشراف النازيين ووفق أساليبهم ، حتى إذا كملت « تربيته » صار انتخابه كمواطن صالح لخدمة الريخ من بين أعضاء هذه الهيئات المختلفة التى يتكون من مجموعها فى الحقيقة هيكل الدولة الاقتصادى والاجتماعى فى ألمانيا النازية .

أما القسم الثانى ، فيتألف من اندماج هذه الهيئات نظريا وعمليا فيما يعرف باسم المصالح أو الدوائر (Staende) . ومن مجموعها يتألف مايعرف عادة بالنظام الوطنى الاقتصادى . ومن هذه المصالح أو الدوائر مصلحة أو دائرة الزراعة . ودائرة الصناعة والتجارة ، ودائرة الحرف (والمهن اليدوية) ، وجبهة العمل ، ودائرة الثقافة . وهذه الدائرة الأخيرة تخرج فى الحقيقة عن محيط الحياة الاقتصادية . وقد أنشئت جميع هذه الدوائر بمقتضى قرارات ومراسيم صدرت فى عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ثم أتيحت لها الفرصة حتى تثبت أركانها فى خلال الأعوام السابقة على إعلان الحرب العالمية الثانية ، وهكذا عندما نشبت الحرب ورغب النازيون فى تعبئة مرافق الدولة فى خدمة الحرب ، أصبح من السهل عليهم أن يدمجوا هذه الدوائر جميعها فى (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذى أنشأوه فى يناير ١٩٤٠ ووضعوه تحت رئاسة (جورنج) .

ولهذا القسم الثانى فى التنظيم النازى أهمية كبيرة لأن (الدوائر) Staende كما أعلن النازيون أنفسهم إنما تمثل الكيفية التى تجرى بها إدارة المصالح المختلفة فى الاقتصاد القومى على أساس المبادىء والتعاليم النازية الرئيسية الصحيحة . ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية تعتبر أن (المجتمع الانتاجى) إنما يقوم على دعامات ثلاث أولاها : (العمل) ، وللعمل قيمة اجتماعية عظمى فى هذا النظام الوطنى الاشتراكى ، وتهيمن (جبهة العمل) على كل مايتصل به من شئون وثانيتها (الأرض) أو التربة التى ينشأ عليها الزراع ، وترتبط بها حياتهم ومصالحهم ،

وتشرف (دائرة الزراعة) على هذا كله ، وثالثها (الانتاج) أى إنتاج السلع التى لابد من استخدام رؤوس الأموال فى صنعها ، وتشرف عليه (دائرة الصناعة والتجارة) . والواقع أن الروابط التى تربط بين هذه الدعامات الثلاث ، وما ينجم عن تأثير كل منها فى الأخرى ، تحت إشراف الدولة ، هو مايطلق عليه النازيون إسم (الاشتراكية الوطنية) ، على شريطة أن يتحرر (رأس المال) من خاصية العمل دائماً على الزيادة والنمو بطريق الربح والامتلاك والاستئثار

وقد أفاد النازيون من هذا التنظيم الحزبى الدقيق إذ أنه جعل فى مقدورهم ، بعد أن دانت لهم السلطة ، أن ينظموا الاقتصاد القومى فى ألمانيا على نحو حقق مآربهم من السيطرة التى ظفروا بها ، فاجتاز الاقتصاد النازى فى نموه ثلاث مراحل : الأولى مرحلة الكفاح ضد التعطل من العمل ، وقد عرف الهر هتلر نفسه هذه المرحلة إذ قال فى ٣ فبراير ١٩٣٣ مامعناه « سوف تقوم الحكومة الوطنية بوضع حل المشكلة الكبرى ، مشكلة إعادة تنظيم الاقتصاد الشعبى وفق برنامجين يستغرق العمل بكل منهما أربعة أعوام ، هما تحرير الفلاح الألمانى حتى يتمكن من الاحتفاظ بالأسس التى تكفل إمدادنا بمورد لا ينقطع من الطعام والأغذية ، تلك الأسس التى تستند إليها حياتنا ، وتحرير العامل الألمانى بأعداد هجوم عظيم واسع النطاق على مسألة التعطل من العمل . ولذلك فانه فى خلال الأعوام الأربعة المقبلة ينبغى أن يتحقق انتزاع الفلاح الألمانى من حيرته وكربه ، كما ينبغى فى بحر هذه المدة نفسها أن يتم القضاء على التعطل عن العمل قضاء مبرما »

أما المرحلة الثانية فقد خصصت للعودة إلى التسلح من جديد ، وتحقيق مبدأ (الاكتفاء الذاتى) فى الريخ الألمانى . وقد أعلن الهر هتلر أيضا عن بدء هذه المرحلة حين قال فى ٩ سبتمبر ١٩٣٦ مامعناه : « واليوم أعلن البرنامج الجديد للسنوات الأربع وهو على الوجه التالى : ينبغى فى خلال أربعة أعوام من تاريخ هذا اليوم أن تصبح ألمانيا مستقلة عن الأجانب فى كل مايلزمها من مواد لابد أن تمد بها العبقرية الجرمانية صناعتنا الكيمائية والصناعة المخصصة لانتاج الآلات وكذلك صناعة التعدين . وسوف يكون من شأن إقامة هذه الصناعات الجرمانية العظيمة ، استخدام سواد الشعب بعد أن يتم تسلحه من جديد ، بطرائق تكفل خدمة الاقتصاد القومى على خير وجه » .

أما آخر المراحل فكانت تعبئة الاقتصاد القومى من أجل المضى فى الحرب وكسبها . وقد بدأ تحول الاقتصاد النازى إلى اقتصاد حربى قبل نشوب الحرب بمدة ، عندما قسم النازيون البلاد إلى ثمان عشرة منطقة دفاعية (Wehr kreise) بدعوى ضرورة الإشراف على جميع الشئون الاقتصادية ، والتأكد من أن القرارات التى تتخذ فى هذه الشئون موحدة لا تضارب

بينها ، وقد تبع هذا التقسيم تعطيل أداة الحكم الذاتى فى جميع هذه المناطق . ومن الممكن القول بأن (الاقتصاد الحربى) ظهر إلى الوجود فى شكله النهائى فى يناير ١٩٤٠ عندما أنشىء (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذى مر ذكره .

* * *

ومما يدل على دقة التنظيم الحزبى ، تلك الشـدة التى اصطنعها الهتلريون فى القضاء على العناصر التى بدأت تظهر شـيئا من المخالفة أو المعارضة فى داخل الصفوف النازية ذاتها ، إذ كان ظهور الاختلاف فى الرأى والانقسام بين النازيين عقب استتباب الأمر لهم فى الحكومة أمراً لا مندوحة عنه لا سيما وأن أدولف هتلر الذى دعا إلى الثورة وبذل الوعود السخية من أجل إرضاء الشعب الألمانى ، لم ينفذ شيئا مما دعا اليه ووعد به خلال الشهور التى تلت بلوغه منصب المستشارية ، الأمر الذى أثار التذمر ضده وضد حكومته فى طول البلاد وعرضها . فالطبقة العمالية كانت ماتزال ترزح تحت ضغط شديد ، ثم صارت فى العهد الجديد ، فى حاله أشبه بحال الرقيق ، يعيش أفرادها فى ظل إرهاب دائم ولا يستطيعون التفكير فى أية مقاومة . ومثل الطبقة العمالية فى ذلك سواد الشعب الألمانى . ولـكن عنصرا له خطره كان يهدد بأضعاف الحركة النازية لو ترك وشأنه وسمح له بالنمو حتى يستفحل أمره ، هذا العنصر هو جماعة الراديكاليين النازيين الذين لم يستطيعوا الموافقة على سياسة الهر هتلر الرجعية . وكانوا يعدون الزعيم بمثابة الأداة التى يحركها (كروپ) وأمثاله من كبار رجال الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال المؤيدين للنازية ، كما يحركها الجيش النظامى (الريشفهر) وكانوا يعتقدون أن من حقهم أن يستمع الزعيم لآرائهم لا لآراء القواد الرجعيين ، كما ركز فى أذهانهم ، بعد التمعن فى معنى المبادىء التى تضمنها البرنامج النازى القديم (١٩٢٠) ، أن شيئا من هذه المبادىء لم يتحقق ، وأن الوطنية الاشتراكية لم يكن نصيبها سوى الغدر والخيانة ! وكان من بين الوطنيين الاشتراكيين الذين اتجهوا صوب الاشتراكية الصحيحة ، محبذين التعاون مع الاشتراكيين الخلص رجال مثل (ليبارت) وصحبه كما كان من بينهم (جريجورستراسر) Gregor Strasser وكان هذا الـكيماوى البافارى ممن قام على أكتافهم جمع شتات الحزب النـازى وتنظيمه عقب حركة الانقلاب المشهورة التى فشلت والتى حوكم بسببها الهر هتلر وأودع فى قلعة (لندسبرج) أى فى الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ ، عام ١٩٢٦ . وقد طلب اليه الراديكاليون النـازيون أن يتزعم حركتهم . وكان الزعماء النازيون أنفسهم فى تلك الآونة فى نضال مستمر فيما بينهم من أجل الحصول على السلطة فى داخل الحزب والدولة ، (فجورنج) ينازع (هيملر) السيطرة على قوة الجستابو و (جوبلز) يخشى (جورنج) ، و (هيملر) لا يثق بالـكابتن (روم)

صاحب السمعة السيئة . و(روم) نفسه يساوره الشك من ناحية (جورنج) ، و(جورنج) يحتقر (جوبلز) وهكذا . ولعل أخطر مشاكل تلك الآونة أن الجيش النظامى (الريشڤهر) كان لايرضى عن وجود (جند الهجوم) النازيين Sturm Abteilung (S. A) ، وقد اتخذت تشكيلاتهم صبغة رسمية منذ أصبح الفوهرر مستشار الريخ الألمانى ، هذا بينما كان جنود الهجوم أنفسهم لايثقون (بجند الحرس) Schutz Staffel (SS) الذين اختارهم الهر هتلر خصيصا من طبقات أرقى حتى يكونوا حرسا له (منذ ١٩٢٨) .

أما أدولف هتلر ، فقد أزعجته هذه الفوضى المنتشرة فى صفوف حزبه ومؤيديه ، وزادت حيرته عندما تدفقت عليه الآراء والنصائح من كل جانب فيما ينبغى عليه فعله حتى يقضى على الانقسام الداخلى . وكان (الريشڤهر) فى مقدمة المطالبين بضرورة القضاء على هذه الفوضى وفى ١٧ يونيه ١٩٣٤ خطب (ڤون پاپن) فى (ماربورج) متحدثا باسم كبار الصناع والرأسماليين وأصحاب الأراضى الواسعة (اليونكر) لحمل بشدة على أولئك النظريين المتعصبين الذين أحدثوا الفوضى وأرادوا أن تبقى المانيا مترديه فى أحضان الاضطراب والثورة ، وحدث قبل ذلك بيومين . فى ١٤ ، ١٥ يونية أن نصح السنيور موسولينى الهرهتلر عند اجتماعهما فى البندقية ، بأن يقبض على أزمة الأمور بيد من حديد ، ويسلك فى سياسته الداخلية والحزبية طريقاً لا يعرف الهوادة أو الشفقة . لذلك لم يأت يوم ٢٠ يونية سنة ١٩٣٤ حتى كان اليونكر ، وكبار الصناع والممولين ، والريشڤهر ، والنازيون الرجعيون قد انتهوا فيما بينهم من تأليف جبهة متحدة على استعداد تام ومهاجمة العناصر المعارضة فى داخل الحزب النازى نفسه وما هى إلا عشرة أيام حتى قامت حركة التطهير الأولى بين النازيين فى حادث(حمام الدم) المشهور فى ٣٠ يونية ١٩٣٤ .

* * *

ذلك بأن النازيين كانوا معتمدين فى دعم سلطانهم فى العام الأول من حكمهم على جند الهجوم .S.A أصحاب الأردية السمراء ، وكان عددهم يبلغ المليونين أو الثلاثة ملايين . وقد قام جنود الهجوم بما كلفوا به على خيروجه حتى غصت السجون ومعسكرات الاعتقال بأعداء النازيين والمشتبه فى ولائهم ومن إليهم واستمر هذا الارهاب عاما كاملا . ولكن سرعان ماتبين بعد هذا النجاح أنه لم يصبح لدى جنود الهجوم واجبات معينة يكلفون بأدائها هذا إلى أن الهرهتلر كان يجد قوة كبيرة أخرى يستند إليها فى جماعة جند الحرس (S S) وفى قوة الجستابو ذات الخطر كما أصبح فى استطاعة (الفوهرر) أن يعتمد الاعتماد كله على تأييد (الريشڤهر) بنوع خاص لأن وزير الحربية الجنرال ڤون بلومبرج Blomberg كان

من كبار المعجبين به . فانتفى لذلك كل سبب يدعو إلى بقاء جنود الهجوم وأصبح من الضرورى تسريح هذه القوة ، ولكن هذا لم يرق فى عين رئيس جنود الهجوم ، الكابتن (إرنست روم) Roehm لذلك تقدم إلى مجلس الوزراء باقتراح يقضى بادماج جنود الهجوم فى الجيش النظامى (الريشفهر) لتأليف جيش وطنى ألمانى كبير برئاسته ، فعارض هذا الرأى كل من (ڤون بلومبرج) وزير الحربية ، (ڤون فريتش) Fritsch القائد العام ، بدعوى أن هذا الادماج من شأنه القضاء قضاء مبرما على الجيش النظامى . فاتخذ (روم) من هذه الدعوى وسيلة لمهاجمة القواد الذين أيدهم جميع الوزراء الرجعيين أمثال جورنج وهيملر (رئيس جند الحرس S.S.) وكبار الصناع والممولين واليونكر ثم طلب هؤلاء جميعا إلى هتلر أن يسرح جند الهجوم .

ولما كان النظام النازى بعد أن مضى عليه عام بطوله لم يفلح فى تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية ، بل كان من نتائج السياسة التى انتهجها الريخ فى هذا العهد إقامة الحواجز الجمركية والتقليل من استيراد المواد الغذائية بكل وسيلة حتى يتسنى للدولة جلب المواد الضرورية لصنع الأسلحة وما إليها ، فقد ساء عيش الشعب الألمانى ، كما حدث لأول مرة منذ سنوات عدة عجز فى ميزان ألمانيا التجارى ، وتوترت من جراء ذلك كله الأعصاب . وكثر التذمر والاحتجاج فى كل مناسبة ومن كل جانب ، وساء هتلر أن يشهد فى الوقت نفسه انقساما فى صفوف حزبه وكانت ريح هذا الانقسام تهب من ناحيتين ناحية (روم) وأنصاره من جند الهجوم وكانوا فى الحقيقة شراذم مجندة من عامة الشعب والسوقة ، وعنصر اضطراب وفوضى ، لايعرفون قانونا ، ولايردعهم رداع ، وناحية الراديكاليين من أنصار (جريجور ستراسر) وقد سبق الحديث عنهم . إزاء ذلك قرر (الفوهرر) أن يطهر الحزب من كل هؤلاء بضربة قاصمة مروعة تنشر الذعر والهلع فى قلوب النازيين جميعا ، وتجعلهم يتذوقون طعم الارهاب الذى طالما أذاقوه غيرهم .

لذلك أجاب هتلر طلب (الريشفهر) ، ووقع اختياره على اليوم الأول من شهر يوليه تاريخا للبدء فى فض تشكيلات جند الهجوم — فى مدى شهرين فحسب ! على ألا يصرح لهؤلاء الجند فى أثناء هذه المدة بارتداء قمصانهم السمراء . وقد أثار هذا القرار موجة من الاستياء عظيمة فى صفوف هذه القوة التى كانت تعتبر (الفوهرر) مدينا لها بكل نجاح أحرزه منذ بدىء فى تكوين الحزب . ومع هذا فلم يكن هناك مايدل على أن (روم) نفسه أوغيره من قواد الهجوم الآخرين يعتزمون معارضة هذا القرار أو مقاومة الهرهتلر . ولكن موجة التذمر كانت من الشدة بحيث أقضت مضاجع زعماء (الريشفهر) فشرع الجيش النظامى يستعد

لمواجهة نضال مرير توقع حدوثه قريبا مع جنود الهجوم . ويبدو أنه كان لابد من حدوث انقسام داخلى كبير أو حرب أهلية مروعة تفضى إلى تدهور الحزب النازى وفنائه فى النهاية إذا ترك (جنود الهجوم) وشأنهم . لذلك رأى هتلر أن الساعة قد أزفت للقيام بعمل حاسم.

عندئذ أصدر الفوهرر أوامره المشددة إلى كل من جورنج وهيملر ، بشأن مايجب عليهما القيام به فى برلين ، وفى مساء ٢٩ يونيه استقل طيارة مع (جوبلز) إلى ألمانيا الجنوبية ، فبلغ ميونخ فى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى (٣٠ يونيه) . وكان هتلر فى المساء السابق قد طلب إلى (واجنر) Wagner حاكم ميونخ تليفونياً أن تتخذ التدابير الكفيلة بالقضاء على زعماء جند الهجوم ، وصدع الحاكم بأمره ، ولقى كثيرون من هؤلاء حتفهم . واستطاع هتلر عقب وصوله إلى ميونخ أن يقف من (واجنر) على نتيجة هذا التطهير الأول . ثم استقل سيارة مع فريق من حرسه الخاص إلى ضاحية (ڤايسى) Weissee على مسافة عشرين ميلا من ميونخ ، حيث كان يقيم (إرنست روم) وغيره من زعماء (الهجوم) يقضون عطلتهم ويستعدون فى الوقت ذاته لحضور اجتماع كان من المزمع عقده فى اليوم التالى بحضور (الفوهرر) نفسه . وفى الساعة السادسة صباحا بلغ هتلر وجماعته المكان الذى كان فيه (روم) فأيقظوه من نومه وقبضوا عليه بحضور هتلر ، ثم اقتحموا فى جناح آخر غرفة أخرى كان يقيم بها (أدموند هاينس) Heines مع رفيق له ، هو سائق سيارته ، وقد وجدا معاً فى فراش واحد ، فأطلق المقتحمون عليهما الرصاص . وفى ميونخ نفسها استولى (ردولف هيس) Hess على « البيت الأسمر » مقر النازيين فى هذه المدينة ، ووضع به حراساً من جند الحرس S.S. ، كما ألقى القبض فى ذلك اليوم على عدد آخر من زعماء جند الهجوم فى ميونخ وفى (ڤايسى) . أما (روم) فقد ألقى فى السجن وأعطى مسدسا ينتحر به ، ولكنه رفض مصمما على أن يكون موته على يد هتلر نفسه ، وعندئذ أطلق عليه جند الحرس الرصاص وقتلوه فى عصر اليوم التالى (أول يوليه ١٩٣٤) .

وأما بقية فصول هذه المأساة ، فقد تولى كل من جورنج وهيملر تمثيلها فى برلين العاصمة . إذ انتهز الرجلان هذه الفرصة لاغتيال أعدائهما القدماء وكل من رغبا فى التخلص منه لسبب شخصى ، وعلى هذا قتل جند الحرس عدداً كبيراً من زعماء الكاثوليك والقواد والوزراء السابقين ورجال الأكليروس وغيرهم . كما قبض الجستابو فى يوم ٣٠ يونيه على (كارل إرنست) من زعماء جند الهجوم ومن أقرب المقربين إلى (روم) ، وكان (كارل إرنست) فى بريمن فى طريقه إلى (الآزورا) لتمضية شهر العسل مع عروسه ، فحملوه بالطائرة إلى برلين وأعدموه رميا بالرصاص . ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء جميعا لقوا حتفهم وهم

ينادون « يحيا هتلر ! » مما يدل على أنهم ما كانوا قط يتوقعون الغدر من جانبه ومما يدحض مفتريات الفوهرر حين ادعى فيما بعد أن جميع هؤلاء كانوا يدبرون ثورة داخلية حددوا لاشعالها اليوم نفسه الذى أوقع فيه الفوهرر هذه المجزره الدموية بهم . وكان من بين ضحايا هذا التطهير الدموى ، رئيس حكومة بڤاريا القديم (جوستاف فون كار) Kahr الذى كان من بين المتسببين فى إخفاق « حركة الانقلاب » التى قام بها الهتلريون فى ميونخ فى ٩ نوفمبر ١٩٢٣ . فرغم سنه المتقدمة (٦٣ عاما) أرسله النازيون إلى معسكر الاعتقال فى (داشو) Dachau حيث لقى حتفه بعد تعذيب أليم ، وكذلك لقى (جريجور ستراسر) مصرعه فى منزله . كما قتل الأب ستامپفل Stampfle وهو القسيس الذى ساعد الهر هتلر فى تدوين كتابه (كفاحى) ، والجنرال فون شليخر ، قتله الجستابو الذين هاجموه فى منزله كما قتلوا زوجه التى أرادت حمايته . وكان عدد الذين أعدموا فى (حمام الدم) المشئوم يزيد على الألف وهكذا قضى الهر هتلر على جنود الهجوم وحل تنظيماتهم .

* * *

وكان من عوامل نجاح الهر هتلر فى التغلب على جنود الهجوم ونشر الرعب والإرهاب فى ألمانيا وبخاصة فى أثناء أزمة حمام الدم السابقة أنه استطاع منذ وصوله إلى منصب المستشارية إعداد « بوليس الدولة السرى الألمانى » المعروف باسم الجستابو Gestapo — مختصر Geheime Staatspolizei — على أن تكون مهمته القضاء على جميع المعارضين لشخص الفوهرر والنظام الديكتاتورية النازية .

وكان تأسيس الجستابو على يد هرمان جورنج فى ابريل ١٩٣٣ ، على أن يكون نشاط رجاله مقصورا على بروسيا وحدها ، وكان جورنج فى ذلك الحين يتولى رئاسة الوزارة بها إلى جانب وظائفه الأخرى المتنوعة ، هذا بينما كلفت قوات البوليس السياسى فى « ولايات » الاتحاد الألمانى الأخرى بتأدية أعمال وواجبات البوليس الوطنى الاشتراكى السرى . بيد أن المدة التى ظل الجستابو فى أثنائها مخصصا للعمل فى بروسيا كانت قصيرة . وقد أصدر النازيون عدة قوانين لتنظيم شئون التوظف فى الاتحاد الألمانى أقصى بمقتضاها غير الآريين والمعروفون بعدائهم أو معارضتهم للنازية وجميع المشتبه فى أمرهم من الوظائف التى يشغلونها ، كما أوجدت هذه القوانين نوعا من التنسيق الدقيق بين المؤسسات العامة والخاصة مطابقاً لما تدعو إليه تعاليم الوطنية الاشتراكية والفلسفة النازية . ثم عين بمقتضى أحد هذه القوانين ويسمى قانون الوصاية Statthaltergesetz حكام أو (أوصياء) Reichsstatt halter يتراوح عددهم بين اثنى عشر وأربعة عشر حاكما مسئولين أمام الزعيم أدولف هتلر نفسه ،

وقد ضمن وجودهم فى الحكومات الاقليمية ، أى حكومات ولايات الاتحاد ،استخدام الشرطة لمصلحة النازيين . ومما ينبغى ذكره أن هؤلاء الحكام ، أو الأوصياء ، كانوا غير القادة أو الزعماء الذين كان الحزب النازى نفسه يختارهم للإشراف على نشاط الحزب وإدارته فى (المناطق الحزبية) التى أوجدها الهتلريون فى ألمانيا ويسمى هؤلاء « بزعماء الأقاليم » (Gauleiter)

ومع وجود هذه التنظيمات أدرك النازيون أهمية تعزيز السلطة المركزية الداخلية، فانتهزوا فرصة مرور عام على وصول أدولف هتلر إلى منصب المستشارية وأنشأوا نظاما جديدا فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ ، وضع (البوليس) بمقتضاه تحت إشراف الريخ، وجعل الاشراف على إدارته من نصيب ولايات الاتحاد الألمانى ، وهى التى أصبحت منذ صدور (قانون الوصاية) السابق عبارة عن مقاطعات إدارية ليس غير . ثم ظل (بوليس) الريخ الألمانى الجديد مفتقراً إلى زعيم يستقل بالهيمنة على شئونه ، غير وزير الريخ للشئون الداخلية الذى يعد بحكم منصبه مسئولا عن هذه القوة ، حتى عين (هنريك هيملر) فى أبريل ١٩٣٤ رئيساً لأهم فروع هذا « البوليس » وهو الجستابو . وكان هيملر ممن اشتركوا فى تنظيم (جنود الحرس) S.S. ، ثم عين زعيما لهم فى عام ١٩٢٩ ، كما أنه كان من كبار النازيين الذين قاموا بتنظيم المخابرات السرية فى داخل ألمانيا وفى البلدان الأجنبية ، ثم لم يلبث أن عهد إليه بسبب هذه الخبرة الواسعة برئاسة البوليس السياسى فى نوفمبر ١٩٣٣ أولا فى همبرج ثم فى مكلنبرج ولوبك ، وثورينجيا ، وهيس ، وبادن ، وسكسونيا ؛ ثم عينه (جورنج) رئيسا للبوليس السرى فى حكومة بروسيا ، وهكذا بعد مضى أقل من ثلاثة شهور على وضع « البوليس » تحت إشراف الريخ ، عين هنريك هيملر رئيساً « للبوليس السرى » فى دولة الريخ قاطبة . وفى أثناء حوادث (حمام الدم) المعروفة ، كان هيملر رئيس قوة الجستابو الرهيبة .

وظل الجستابو يعمل دون أن يحدد القانون وظائف رجاله ؛ بل كان كل ماحدث فى هذه الناحية ، أن صدرت قرارات أو مراسيم بالموافقة على إجراءات ما يعرف باسم (الحبس الوقائى) فى ٢٨ فبراير ١٩٣٣ و ٨ مارس ١٩٣٤ ، كما قررت محكمة الادارة البروسيانية فى ٢ مايو ١٩٣٥ أن « البوليس السرى » لا يخضع للرقابة القضائية ، ثم لم يلبث أن تأيد هذا الحكم بصدور قانون بروسيانى جديد فى ١٠ فبراير ١٩٣٦ ، جاء فيه « أن أوامر وأعمال البوليس السرى لا تدخل تحت إشراف المحاكم الادارية ، أو فى دائرة بحثها » . وهكذا ظلت جميع الشئون المتعلقة بنشاط الجستابو لا يوضح معالمها أو يبين حدودها قانون فى دولة الريخ الثالث . بل إن كل ما صدر فى هذا الموضوع كان لا يخرج عن تحديد مركز هيملر إزاء

وزير داخلية الريخ من حيث مسئولية رئيس الجستابو أمامه ، وتعيينه نائباً له فى حالة غياب الوزير . وزيادة على ذلك ، أعطى هيملر مقعداً فى مجلس الوزارة كلما اجتمع الوزراء لبحث المسائل المتعلقة بأعمال « البوليس » .

ولعل أهم مايلاحظ فى ذلك كله ، أن الجستابو كان مستقلا كل الاستقلال عن الرقابة القضائية . وقد تقدم كيف قضت المحكمة الإدارية البروسيانية فى ٢ مايو ١٩٣٥ بعدم خضوع البوليس السرى لهذه الرقابة . وجاء فى هذا الحكم أيضا أن أى أمر يصدره الجستابو بسجن الأفراد فى (الحبس الوقائى) لايمكن بأى حال من الأحوال أن يكون موضع معارضة فى المحاكم القانونية . ثم تأيد هذا الحكم فى الفترة التالية ، عندما صدرت أحكام أخرى بهذا المعنى أيضاً فى عام ١٩٣٦ . وفى نفس العام صدر قانون مشهور وضح أعمال الجستابو ومدى نشاطه ، فجاء فى هذا القانون ما معناه : « أن من واجب بوليس الدولة السرى أن يكشف أمر جميع القوى المتضامنة التى يعتبر وجودها خطراً على الدولة وأن يقاومها . ومن واجبه كذلك أن يجمع ويقدر النتائج التى يسفر عنها هذا البحث ، على أن يخبر الحكومة بهذه النتائج ، وأن يضع تحت تصرفها كل ما يجمعه من أدلة وبراهين . ثم يفصل رئيس بوليس الدولة السرى بالاتفاق مع وزير الداخلية فى المسائل التى ينبغى أن تكون العناية بها من نصيب بوليس الدولة السرى ، وعلى أن يجرى الفصل فى كل مسألة على حدة » .

ووسائل الجستابو فى أعماله ثلاث : الإنذار أو التحذير ، والحبس الوقائى ، والإرسال إلى معسكرات الاعتقال . وقد جرت العادة عند الرغبة فى التحذير ، أن يستدعى الشخص المراد انذاره إلى أقرب مركز للبوليس السرى ، ويتلو الجستابو عليه بعض الحقائق المتعلقة بحياته الخاصة ، وما يكون قد تفوه به من أقوال لا يرضى الجستابو عنها ، ثم يحذره من العودة إلى ذلك وإلا أرسل إلى معسكر للاعتقال . أما مسألة (الحبس الوقائى) — فهى بحاجة إلى شىء من البيان والتفسير . والأصل فى الحبس الوقائى أنه كان مخصصاً لوقاية الأفراد الذين لم يرتكبوا جرماً معيناً ، وإنما توصلوا بسبب مسلكهم إلى إثارة كراهية الجماهير ضدهم إلى حد يخشى معه أن يلحق بهم مكروه على أيدى الجماهير لو أنهم تركوا وشأنهم ، فلا يجد الشرطة مناصاً فى هذه الحالة من حجزهم فى مركز «البوليس» لوقايتهم من سخط الجماهير عليهم . غير أنه عندما وصل الوطنيون الاشتراكيون إلى الحكم قبض رجال الشرطة على عدد عظيم من الأفراد وأودعوهم الحبس الوقائى من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، ومن غير أن تتحقق الشروط المتقدمة فى أحوال المقبوض عليهم . وعلى هذا خرج الحبس الوقائى عن كونه إجراء تقتضيه حماية الأفراد من بطش الجماهير ، إلى

إجراء صار الغرض منه مجرد « حماية » الدولة من نشاط أفراد اعتبرهم النازيون أعداء لهم.
أما معسكرات الاعتقال فكانت أشد الوسائل خطراً . وكثيراً ما لجأ إليها الجستابو للقضاء على أعداء النظام النازى فى ألمانيا . ومع أنه كان من المتعذر وقتئذ معرفة عدد هذه المعسكرات بالدقة ، فقد اكتسبت بعضها شهرة سيئة كبيرة حتى أصبحت أماكنها معروفة . ومن بينها معسكر الاعتقال فى (أرانيئبرج) Oranienburg ثم فى (بوشنفلد) Buchenweld و (داشو) Dachau و (ساشسنهاوسن) Sachsenhausen وغيرها . وكان من بين هذه المعسكرات ما هو مخصص لاعتقال النساء .

ومع أن نظام الجستابو كان من الأسرار التى حرص النازيون على عدم إفشائها بحيث لم يكن يعرف دخائله سوى عدد قليل من كبار الزعماء النازيين أنفسهم ، فقد استطاع أنصار المقاومة الخفية فى أوربا النازية الوقوف على حقيقة هذا النظام الذى كان من نتائجه انتشار وكلاء الجستابو للتجسس على حياة الأفراد الخاصة والعامة فى كل ركن وزاوية .

وكانت قوة الجستابو موزعة على دوائر (Kreise) ثلاث : الدائرة الأولى Kreis I كان مقرها شارع البرنس إلبرت فى برلين ، وكانت فروعها منتشرة فى أرجاء ألمانيا ، وهى الهيئة التنفيذية لقوة البوليس السرى المخصصة للتجسس على الشئون الداخلية ، وكان رجالها ينبثون فى كل قرية ، ويشرفون على أعمال البوليس العادى — أى رجال الأمن المحلى . كما كان من اختصاص هذه الدائرة الهيمنة على معسكرات الاعتقال .

أما الدائرة الثانية Kreis II فكان مقرها فى ميدان اسكندر ، وكانت تختص بالاشراف على أعمال ونشاط الدائرة الأولى ، وتتولى « مراقبة » البريد والتليفون والبرق وينتشر رجالها على حدود الريخ ، وفى مكاتب السياحة والسفر ، وفى المطارات المدنية ، والفنادق الكبيرة . وزيادة على ذلك كانت هذه الدائرة تتولى الإشراف على جميع الوكلاء وأعضاء الهيئات النازية فى الخارج ، كما تقوم بتوجيه نشاطهم ، فكان يذهب فى كل ثلاثة شهور مفتشون يمثلون هذه الدائرة لزيارة المراكز الفرعية الموزعة فى أنحاء العالم ، وكان (الجستابو الأجنبى) منفصلا كل الانفصال عن البعوث والهيئات الدبلوماسية العادية . ولو أن كل سفارة أو مفوضية أو قنصلية فى البلدان الأجنبية لم تكن تخلو من وجود رجل من الجستابو يعمل ضمن موظفيها .

وفى الدائرة الثالثة Kreis III كانت تتركز سلطة الاشراف التام على نشاط الجستابو فى الدائرتين السابقتين ، وكانت هذه السلطة فى أيدى جماعة من ذوى الشخصيات المجهولة . ومن المعتقد أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم من مكتب هنريك هيملر نفسه ، وهو مقر جنود الحرس .S.S المخصصين لحراسة مستشار الريخ — ورئيس الدولة — بعد أن توفى هندنبرج فى ٢

أغسطس ١٩٣٤ — وكانت مهمة أعضاء الدائرة الثالثة إلى جانب الإشراف على أعمال الدائرتين الأولى والثانية ملاحظة سلوك موظفى الحكومة قاطبة بما فى ذلك المبعوثين السياسيين والعسكريين فى الخارج ، ومراقبة نشاط الهيئات الدبلوماسية والقنصلية فى البلدان الأجنبية .

وإلى جانب هذه الدوائر ، كانت هناك دائرة رابعة Kreis IV تعمل على توجيه نشاط وكلاء الطابور الخامس فى أنحاء العالم ، على أن تتعاون فى ذلك مع قسم الجاسوسية العسكرية برآسة الكولونيل نيكولاى (Nicolai) وكان من ذوى السمعة السيئة .

الفصل السابع

ألمانيا النازية

سيطر النازيون بفضل تنظيماتهم الحزبية على الحياة الألمانية سيطرة كاملة ، وكان غرضهم من هذه السيطرة أن يؤلفوا من الريخ تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التى اعتبروا وجودها ضروريا من أجل إحراز السيطرة على القارة الأوربية ثم على بقية العالم فى النهاية ولا ريب فى أن النازيين نجحوا فى فرض سلطانهم على ألمانيا . ولو أنه من المشكوك فيه — أنهم نجحوا فى تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التى كانوا يحلمون بها . وقد أفضى العمل على فرض سلطانهم على الريخ إلى التدخل فى حياة الأفراد ، رجاء أن يتمكنوا من توجيه الحياة العامة فى ألمانيا حتى تسير فى طريق واحد وعلى أسلوب واحد ثم يقضون فى أثناء ذلك على كل معارضة أو تذمر ويسعون لخلق الفرد الألمانى الذى يبغون خلقة من جديد وفق الطراز النازى الصميم ، أى الفرد الذى لا يستطيع أن يتذوق طعم السعادة الحقيقية الخالصة إلا بالاندماج أو الفناء فى شخص الدولة التى يهيمن الزعيم على شئونها ومصيرها .

ولما كان إحكام هذه السيطرة الداخلية من أول الأسس التى أراد النازيون أن يشيدوا عليها صرح السلطة فى داخل ألمانيا وخارجها ، فقد وضعوا نصب أعينهم منذ أن خلص الحكم لهم التدخل فى حياة الفرد والأسرة . ومر هذا التدخل فى مراحل معينة ، فنشط النازيون فى أول الأمر يبغون فرض رقابتهم الدقيقة على حياة أعضاء الحزب النازى الخاصة حتى ينشئوا أعضاء الحزب تنشئة نازية خالصة صحيحة ، ويقصوا من صفوف الحزب كل المشتبه فى ولائهم لتعاليم النازية ولشخص الزعيم لذلك لم يكد النازيون يطمئنون إلى خلوص الحزب من كل شائبه حتى طفقوا يتدخلون فى حياة بقية المواطنين ومنذ بداية شهر مايو عام ١٩٣٦ اتسعت سلطة الزعماء السياسيين حتى شملت كل مواطنى دولة الريخ . وكانت فترة هذه المرحلة طويلة — وهى مرحلة بدأت فى الحقيقة منذ وصول النازيين إلى الحكم فى عام ١٩٣٣ ، وامتدت إلى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ . وفى أثنائها بذل النازيون كل جهودهم حتى يعمموا المبادىء والتعاليم النازية ويطبقونها فى مناحى الحياة جميعها من خاصة وعامة ، ثم صاروا يعملون على تنظيم المجتمع الألمانى وفق « توجيه موحد » ، كان الغرض المقصود منه أن يصبح الريخ الثالث مستعداً لخوض غمار الحرب فى النهاية من أجل بسط السيطرة الجرمانية على أوربا ثم على العالم أجمع .

بيد أن اشتعال الحرب لم يلبث أن أفضى إلى زيادة توغل النازيين وتدخلهم فى حياة الأفراد الخاصة ، حتى يشتد إحكام « التوجيه الموحد » ويقوى الانتاج الحربى إلى الدرجة المطلوبة من جهة ، وحتى يمتنع على الأهلين أى سبيل للتذمر أو المعارضة الداخلية من جهة أخرى ، ولذلك فقد ساءت حياة الفرد العادى فى أثناء هذه المرحلة إلى حد كبير وسرعان ما اشتد طغيان النازيين ، وبخاصة منذ بدأت حربهم مع الروسيا (فى يونيه ١٩٤١) ، حتى تحطمت حياة الفرد الخاصة تحطيما ، وعبأت الدولة الكهول والنساء فى خدمة الحرب وتذوق الألمان طعم الهزيمة فى الميادين الروسية ، ثم أصابهم الدمار فى بلادهم عندما أخذت أسراب الطائرات البريطانية والأمريكية تلقى على مدنهم الصناعية الكبيرة أطنان القذائف المحرقة والمدمرة دون رفق أو شفقة . وفى هذا الدور الأخير كان قد بلغ السيل الزبى وعجز الأفراد عن أن يحتملوا أكثر مما أرغموا على تحمله من تضحية بالغة طوال السنين الماضية ، واضطر النازيون اضطراراً إزاء ذلك كله إلى الاعتراف بوجود ما أطلقوا عليه هم أنفسهم اسم « الجبهة الداخلية » أى الجبهة التى كان عمادها سواد الشعب الألمانى المتذمر من ثقل التضحيات التى تحملها على غير طائل .

ومنشأ سيطرة النازيين على حياة الأفراد الخاصة والعامة فى ألمانيا أن زعماءهم وقادتهم كانوا يعتبرون أن من واجبهم الإشراف على نشاط الأفراد وتوجيه هذا النشاط الوجهة التى يريدونها ، لأن الأفراد إذا تركوا وشأنهم كانوا فى نظرهم كالأطفال الذين لا يعرفون غير اللهو والعبث ، ولا يمكن أن يقدروا ما فيه مصلحتهم أو يصرفوا نشاطهم فى وجوه غير التى تطلبها أو ترتضيها الدولة ، هذا بينما كان إفناء الفرد فى الدولة من المبادىء الأساسية فى نظام الوطنية الاشتراكية وقد قال الدكتور (لى) Ley زعيم جبهة العمل ، ما معناه . « إن الأفراد الذين يتألف منهم كل شعب أطفال ، ولذلك ينبغى أن يعاملوا كما يعامل الأطفال سواء بسواء » إلى أن قال . « وعلى السياسى أن يشرف بنفسه على كل شىء » وقد استطاع النازيون أن يستأثروا بهذا الأشراف والتوجيه كل الاستئثار ؛ فاعترف الدكتور (لى) . « بأنهم — أى أتباع هتلر — قد أوجدوا زعامة تعهدوها حتى أضحى من الممكن أن تقوم هذه الزعامة بفحص حالة كل مواطن مهما صغر شأنه ، وإرشاده إلى الطريق الذى ينبغى عليه أن يسلكه فى حياته وفق أسباب معقولة » ولم يكن (لى) مغاليا فيما ذهب إليه أو اعترف به . لأن هذا الفحص وذلك الأرشاد ، أو بالأحرى إرغام المواطن على أن يسلك مسلكا معينا فى حياته الخاصة والعامة ، هو ما كان يقوم به النازيون بالفعل فى دولتهم الوطنية الاشتراكية ويسوغ (لى) نفسه هذه السيطرة المرهقة بقوله ، واصفا الثورة النازية بأنها . « ثورة شاملة وينبغى

أن تكون شاملة ، ولايمكن أن تجيز استثناء ولو رغب أصحابها ومنشؤوها فى ذلك » ولذلك لم يكن هناك مكان لما يصح أن يوصف بالفرد العادى فى ألمانيا الوطنية الاشتراكية . بل إن الفرد فى دولة أدولف هتلر ، ما كان فى وسعه أن يستمتع بحياته الخاصة إلاوقت النوم فحسب إذ « مضى العهد الذى يمكن أن يقال فيه أن هناك شئونا خاصة فى ألمانيا » .

وهذه المبادىء هى التى طبقها النازيون فى دولتهم بكل دقة . ولم يلجأ النازيون إلى المواربة لإخفاء ما كانوا يريدون ؛ بل أعلن الدكتور (لى) تأييداً لإشراف الدولة — أى الحزب النازى نفسه — على حياة الأفراد : « أن من الواجب على كل فرد أن ينضم إلى صفوفنا ويسير معنا ، ومن واجبه أن يقبل العمل بالروح المتغلبة علينا ورضى به ، وإلا تعذر عليه تماما أن يجد هواء يستنشقه . لأننا سوف نحرمه أية فرصة تمكنه من كسب عيشه ، بل ندعه يموت ويفنى . وإذا قال قائل أنه يريد أن يترك وشأنه ليعيش فى سلام أجنباه بالنفى دائما . وقلنا له كلاياصديق، فانى لن أفكر فى فعل شىء من هذا مطلقا » . والواقع أن الدكتور (لى) كان يعنى ما يقول ؛ إذ من المعروف أنه كان لديه حوالى المليون من الرجال المنتشرين فى كل نواحى البلاد مهمتهم الأولى الحرص على تطبيق ما قاله زعيم جبهة العمل فى الريخ الثالث .

ولما كانت هذه مبادىء النازية وتعاليمها ، ولم يكن مسموحا للأفراد أن يتخلفوا فى الطريق حتى يحيوا الحياة التى يريدونها ، عنى النازيون من مبدأ الأمر بضرورة القضاء على كل معارضة من شأنها عرقلة سير هذا النظام الوطنى الاشتراكى ، وضربوا بيد من حديد على كل مخالفة داخلية منذ خلص لهم الحكم فى ألمانيا . فقد تساءل وزير دعاوتهم المعروف الهر جوبلز فى خطاب ألقاه فى نوفمبر ١٩٣٤ : « عن أولئك الذين ينقدون النظام القائم » . فقال « هل هم من أعضاء الحزب النازى ؟ كلا ! هل هم إذن بقية الشعب الألمانى ؟ إذا كان الأمر كذلك فخليق بهم أن يعدوا أنفسهم سعداء لأنهم لايزالون على قيد الحياة ! الواقع أنه من المتعذر كل التعذر أن يطمع إنسان يعيش بفضل ما نظهره من رحمة عليه ، فى أن نسمح له بتوجيه النقد إلينا » . ورغبة فى أن يقضى النازيون على كل أثر للمعارضة أو التذمر اعتبرت (محكمة الريخ العليا) أى نقد يوجه للنظام القائم من الأمور التى تدخل تحت طائلة القانون ، وتقتضى عند الإدانة توقيع العقوبة الصارمة ، سواء أكان هذا النقد أو التجريح أو التعريض فى دائرة الأسرة وبين جدران البيت بين الزوج وزوجه أو الوالد وولده ، أم كان علانية فى محل عام . بل إن هذه المحكمة العليا لم تلبث أن ذهبت فى سبتمبر ١٩٣٧ إلى أنه من واجب الأفراد أن يتحللوا من أية يمين أقسموها على كتمان حديث دار سراً وتناول المتحدث فى أثنائه النظام القائم أو نشاط المهيمنين على شئون الشعب بالنقد أو التجريح : كما ذهبت إلى أنه من حقها

توقيع العقوبة فى الحالات التى يثبت فيها أن المتحدث لم يكن يريد التشهير بالنظام القائم أو بأشخاص المسئولين عن هذا النظام أو بأعمالهم ونشاطهم . ومن الطريف أن المحكمة العليا قضت بعدم إنزال العقوبة بالأشخاص الذين يثبت أنهم كانوا يتحدثون إلى أنفسهم ولا يقصدون إذاعة شىء مما يقولون ، ولا يرومون أن يسمع أحد ما يتحدثون به إلى أنفسهم ، وكذلك أولئك الذين يدونون انتقاداتهم فى مذكرات أو يوميات خاصة ، ولا يحتفظون بها من أجل نشرها ؛ ثم وقعت هذه المذكرات أو اليوميات بطريق المصادفة أو الإهمال فى أيدى غيرهم .. ومع هذا كان (الجستابو) يأخذ برأى مخالف لما ذهبت إليه المحاكم فى هذه الشئون وما يماثلها . وقد تقدم كيف سيطر الجستابو سيطرة تامة على الحياة فى ألمانيا حتى صار لا يمكن أن يفلت من قبضته إنسان .

وكان من أثر ذلك أنه لم يعد فى ألمانيا وجود لحياة خاصة ، فى البيت أو الأسرة ، كما انعدمت الحياة الحرة الطليقة التى تكفل حرية الرأى والفكر والعمل . ومن أقوال بعض الذين درسوا هذا الموضوع فى ألمانيا النازية قبل الحرب « أن تدخل النازيين فى حياة الفرد إنما يبدأ فى الحقيقة قبل أن يولد ويخرج إلى عالم الوجود ، ثم يظل هذا التدخل باقياً حتى بعد وفاة الفرد وانتقاله إلى العالم الآخر ؛ لأن النازيين هم الذين يقررون هل ينبغى لك أن تولد أو لا تولد ، فهم الذين يقررون أى الأشخاص يصح له أن يتزوج أو لا يتزوج ؛ وهم الذين يشترطون على من يرغب فى الزواج ، ويصرح له بذلك ، أن يختار الزوج التى يرون أنها تصلح له ؛ وهم الذين يقررون إذا كان ينبغى للمتزوج أن يكون له نسل أو لا يكون ؛ كما أنهم يقررون مصير من يرونهم غير صالحين للزواج ، فيقتلونهم أو يخصونهم أو يعقمونهم » . وليس أدل على مبلغ صحة هذا القول من النظر فى حياة أسرة عادية فى ألمانيا النازية .

* * *

وفى التنظيم النازى تحتل الأسرة مكانا ممتازا ، لا لأن النازيين يعنون بدعم أركانها على اعتبار أنها الأساس الذى يقوم عليه بنيان المجتمع ، وإنما يعنى النازيون بأمر الأسرة من وجهة نظر محدودة ، إذ يعتبرونها مجرد « أداة » تمكنهم إذا أحكموا الإشراف عليها ، وسيطروا على حياة أعضائها ، من بنيان النظام الوطنى الاشتراكى الذى ينشدونه ، وهو نظام كما تقدم القول ، يرمى إلى إفناء الأسرة فى شخص الدولة ، وإفناء الفرد فى شخص الزعيم تحقيقا فى نهاية الأمر لمبدأ الزعامة المسئولة . ومن هذه الناحية وحدها نشأ اهتمام النازيين بأمر الأسرة . فاذا عرف أن من برنامج النازيين لتحقيق سيطرتهم الأوربية والعالمية ، أنه ينبغى من مبدأ الأمر تأليف كتلة صلبة متماسكة فى قلب الريخ الألمانى ، أصبح من الميسور إدراك

ما للأسرة من أهمية فى نظامهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . إذ كيف يتسنى لهم إنشاء ذلك المجتمع النازى المتماسك فى قلب ألمانيا إذا ظل أعضاء كل أسرة أحراراً طليقين ، يعيشون ويفكرون ، ويعملون كما يشاءون ؟ لذلك لم يكد يتسلم النازيون أزمة الحكم فى ألمانيا حتى شرعوا ينظمون حياة الأسرة تنظيما دقيقا ، ارتبط منذ البداية بالخطط والقواعد التى وضعوها لدعم النظام الجديد ، الذى أكثروا من الدعاوة له عندما أحرزوا انتصاراتهم الخاطفة فى القارة الأوربية ، بينا لم يكن هذا النظام جديدا فى الحقيقة ، بل عرفه الأهلون أنفسهم وتذوقوا طعمه فى ألمانيا ذاتها ، قبل أن يطبقه النازيون فى بقية أرجاء أوربا المفتوحة بزمن طويل .

وكان معنى الاشراف على تنظيم حياة الأسرة ، تدخل الدولة — أو بالأحرى الحزب النازى نفسه — فى شئون الزواج ، وتربية الأطفال والناشئة ، والصحة العامة ، كما اقتضى هذا التدخل بحث مركز المرأة ، وتحديد العلاقة بين المرأة والرجل ، وتنظيم حياة الأسرة من الناحية الاقتصادية أيضا لتعيين مقدار حاجاتها من مأكل وملبس ومأوى وما إلى ذلك من مطالب .

على أن هذا التنظيم لم يكن سهلا هينا ، لأنه كان يرتبط فى الحقيقة بجميع المسائل والمعضلات الاجتماعية الاقتصادية التى واجهت النازيين من أول الأمر : وأهمها مسائل الآرية واليهودية ، وتحديد النسل أو الإكثار منه ، واحتقار المرأة أو الإعلاء من شأنها ، واجازة العلاقات الجنسية الشاذة أو تشجيع الزواج ، إلى غير ذلك .

ولعل أدق المشكلات التى كانت تواجه الفرد الألمانى العادى فى دولة النازيين ، هى مشكلة زواجه ولما كان من المتعذر الافاضة فى بحث فكرة الزواج ومنشئها البيولوجى أو الاجتماعى ، وتطورها فى مختلف العصور ، فقد يكفى أن يذكر القارىء أن الزواج فى المجتمع الألمانى ، قبل وصول النازيين إلى الحكم ، كان يتم بناء على الرغبة المتبادلة بين الرجل والمرأة على أساس اتفاق الميول أو العاطفة أو المصلحة . ولكنه لما كان الزواج هو الأساس الذى يمهد لقيام الأسرة والرباط الوثيق الذى يحفظها ، لم يرض النازيون بأن يظل الزواج من المسائل الشخصية المتروكة لتدبير الراغبين فيه ، بل جعلوا للزواج مقاييس جديدة ، جنسية ، واجتماعية وعقلية ، وجثمانية وخلقية ، بدعوى أن ملاحظة هذه المقاييس من الأمور التى تعنى الدولة ذاتها قبل أن تعنى الأفراد ، لأن مهمة الدولة فى النظام النازى الجديد ، إنما هى السهر على اعداد مجتمع وطنى اشتراكى صميم ؛ وينبغى لذلك أن تتوافر فى الأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع صفات جثمانية وجنسية وعقلية وخلقية خاصة . لذلك سرعان ما أصدر النازيون فى هذا الشأن قانونا أسموه « قانون المحافظة على صحة الشعب الألمانى الوراثية » . واشتهر هذا القانون باسم « قانون الصحة والزواج » .

وبمقتضى هذا القانون أنشئت رقابة صارمة على الزواج ؛ فمنع من الاستمتاع به كل مصاب بعاهة جثمانية أو عقلية أو انحلال خلق ؛ ثم تحتم فى الوقت نفسه على كل راغب فى الزواج أن يحصل مقدما على « شهادة صلاحية للزواج ». وهذه الشهادات كانت تصدرها السلطات المسئولة عن الصحة العامة — أو مكاتب الصحة العمومية — ولم تكن تعطى لمن يطلبها إلا إذا فحص فحصا دقيقا وأجاب على عدة أسئلة تتعلق بحالته الشخصية ، وبحال أسرته . ومن المسائل التى كان يفحصها « الممتحنون » وينبغى تدوينها فى « شهادة صلاحية الزواج » — أو رخصة الزواج مقدار نحو الشخص الجثمانى ، وتوزيع الدهن فى جسمه ، ونمو عضلاته ، ثم حياته الجنسية وحال أعضائه التناسلية وعدد مرات إخفاقه فى أثناء دراسته ونواحى نموه العقلى وسن الطفولة التى أمكنه فيها أن يتكلم وأن يمشى وكذلك أمراض الطفولة ، ومقدار انكبابه على الكحول والتدخين ومدى قدرته على الانسال ، إلى غير ذلك من الأمور . وكانت جميع هذه التفاصيل تدون على أحد وجهى الرخصة المعطاة ؛ بينما يلصق على الوجه الآخر صورة شمسية نصفية لصاحب الرخصة .

أما الأشخاص الذين كانوا يحرمون بتاتا من الزواج — رجالا كانوا أم نساء — فهم الذين كانوا يدخلون بمقتضى قانون الصحة والزواج ، فى زمرة جماعة من الجماعات الأربع الآتية . — (أولا) الأشخاص المصابون بأمراض معدية ؛ ويخشى أن يفضى زواجهم إلى نقل هذه الأمراض إلى زوجاتهم — أو أزواجهم — أو إلى أطفالهم ؛ (ثانيا) كل الموضوعين تحت الوصاية أو ما يماثلها ؛ (ثالثا) الأشخاص الذين — على الرغم من عدم وجودهم تحت نوع من أنواع الوصاية — يثبت أنهم مصابون باختلال أو ارتباك عقلى ، ويبدو من وجهة نظر المجتمع عموما فى هذه الحالة ، أنه من غير المرغوب فيه زواجهم ، (رابعاً) الأشخاص المصابون بأمراض وراثية . وزيادة على ذلك فان المحاكم النازية عند تفسير هذا القانون ما لبثت أن أضافت جماعة خامسة حرم عليها الزواج ، ووصف أفرادها بأنهم من الذين يعتبر زواجهم مخالفا لروح القانون وأهدافه . مثال ذلك الرجل الذى صار عقيما . فانه لا ينبغى له أن يتزوج من امرأة متمتعة بصحة طيبة وبقدرة كاملة على الانسال ، لأن الزواج فى هذه الحالة لا يؤدى الغرض منه ، وهو إنتاج الأطفال الذين تحتاجهم الدولة .

وأما الأمراض المعدية فهى الزهرى والحمى الصفراء والدفتريا والتيفوس ، والبرص والجدرى ، والطاعون ، والسل . وأما الموضوعون تحت الوصاية فهم أولئك الذين تقرر المحاكم عدم قدرتهم على إدارة شئونهم لاصابتهم بالخبل أو إمعانهم فى السكر ، أو اسرافهم فى الاقتراض والاستدانة ، وأما أفراد الجماعة الثالثة فهم المتهمون باللواط ، والاختلاط الجنسى

الشاذ مع النساء ، وهؤلاء يجب عليهم أن ينتظروا حتى يكتب لهم الشفاء التام من هذه الأدواء وكذلك الميالون إلى الإجرام أو الذين صدرت ضدهم أحكام بسبب القتل أو السرقة أو خطف الأطفال والأفراد .

ولعل أقسى مافى هذا القانون حرمان الطائفة الثانية من الزواج ، إذ كيف يتسنى تحديد مدى الاختلال أو الارتباك العقلى الذى يمنع صاحبه من الزواج اطلاقا ، أضف إلى هذا أنه حتى فى الحالات الأخرى ، ماتزال مسألة انتقال الأمراض أو العاهات بالوراثة من المعضلات التى يعالجها العلم ولم يصل فيها إلى رأى حاسم ، كما أنه لم يقم دليل قاطع على أن جميع الموضوعين تحت الوصاية أو مايماثلها لايصلحون للزواج . ومع هذا فقد تشدد النازيون فى تنفيذ هذا القانون إلى حد أنهم صاروا يعتبرون كل زواج وقع مخالفا لمقتضيات (قانون الصحة والزواج) كأنه لم يكن . وكل شخص يقدم على مخالفة هذا القانون يعاقب بالسجن مدة لاتقل عن ثلاثة شهور .

ولم يقنع الزعماء النازيون باصدار هذا القانون ، كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوا المحاكم تجرى تطبيقه حسبما يبدو لها ، فطفقوا من ناحية أخرى يقسمون النساء الألمانيات الصالحات للزواج مجموعات حسب صلاحيتهن البيولوجية ، فقال (ولتر داريه) **Walther Darré** وزير الزراعة فى دولة الريخ ، وزعيم المزارعين أو الفلاحين ، مامعناه . « إن الألمانيات ينقسمن من هذه الناحية أربعة أقسام : فهناك نساء الدرجة الأولى ويسمح لهن بالزواج من الأشخاص الذين وصفهم (داريه) بأنهم يؤلفون طبقة الإشراف (النازية) الجديدة — وأما نساء الدرجة الثانية ، فهن اللواتى يسمح لهن بالزواج من هؤلاء الاشراف أو النبلاء ، إذا نجحن فى خدمة المجتمع فى فترة يوضعن فى أثنائها تحت الاختبار — ولو أنه لم يبين نوع هذه الخدمة . وأما نساء الدرجة الثالثة ، فهن اللواتى يستطعن الزواج من رجال الفئة السفلى ، على أن تقوم الدولة فى هذه الحالة بعقم هؤلاء الرجال حتى لاينسلوا أطفالا مشابهين لهم من الفئة السفلى . — وأما نساء الدرجة الرابعة ، فهن اللواتى لايسمح لهن بالزواج أو الانسال إطلاقا .

وكأن جميع هذه القيود والاشتراطات لم تكن كافية ، فتحدثت إحدى المجلات النازية عن مقياس جديد للزواج ، هو مقدار ميل الفرد لغشيان المسارح والاهتمام أو الشغف بالألعاب الرياضية . هذا إلى جانب مقدار خلوص جنسه من الشوائب ، فقالت . « من الواجب على كل رجل آرى أن يتزوج من امرأة آرية شقراء ، ذات عينين واسعتين زرقاوين ووجه طويل بيضى الشكل ، جلدها أبيض مشرب بالحمرة ، لها أنف دقيق ، وفم صغير ،

كما يجب أن تكون هذه المرأة عذراء مهما كانت الظروف أى أن الرجل الأشقر صاحب العينين الزرقاوين لاينبغى أن يتزوج من امرأة سمراء أو من امرأة من نوع نساء البحر الأبيض ذات سيقان قصيرة وشعر أسود وأنف معوج وشفاه غليظة وفم واسع ، تميل إلى البدانة . وكذلك فان البطل الآرى الأشقر من واجبه ألايتزوج من امرأة شبه زنجية ذات الرأس المعروف والجسم النحيف الهزيل ، وزيادة على هذا ، « فان البطل الآرى من واجبه أن يتزوج من امرأة آرية مساوية له ، على أن تكون هذه المرأة من غير المشغوفات بالذهاب إلى المسارح أو الحفلات أو المولعات بالألعاب الرياضية ، او من اللواتى يملن إلى تمضية الوقت خارج بيوتهن » .

وظاهر من جميع ماتقدم ان الغرض من هذه القيود الثقيلة هو أن يظل الجنس الألمانى خالصا من كل شائبة فلايتزوج الآرى إلا من آرية وبالعكس ، ثم إنشاء مجتمع نازى سليم العقل والجسم معا ، ولتحقيق هذا الغرض قسم النازيون أفراد المجتمع الألمانى طبقات ثلاث أولاها طبقة ، النبلاء ، الجدد النازيين ، وهم أعضاء الحزب ، أو الأفراد الذين ينبغى ان يقوم على اكتافهم تشييد الدولة الوطنية الاشتراكية الجديدة مثل جنود الحرس (S.S) . وهؤلاء كانوا — كما سنرى — مقيدين إلى جانب ماتقدم فى اختيار زوجاتهم بقيود صارمة أما الثانية فطبقة العامة من الآريين ، بقية أفراد الدولة الذين يجب ان يخضعوا لمقتضيات قانون الصحة والزواج وما يتصل به من تفسيرات قاسية ، أما الثالثة فطبقة الآريين — التى لايصلح أفرادها أصلا للزواج ، او التى ينبغى ان يمنع اعضاؤها من ان ينسلوا إطلاقا إذا أبيح لهم أن يتزوجوا ، وهم يؤلفون الطبقة السفلى . ومما ينبغى ذكره ان النظام النازى الجديد لايشرع لغير الآريين كالزنوج أو اليهود على وجه الخصوص فى داخل المانيا ذاتها لأنه لايعترف بأنهم بشر لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات التى لبقية أفراد المجتمع الألمانى ، ولذلك عنى النازيون منذ البداية بمسائل ثلاث هى مسألة نقاء الجنس من الشوائب ، ويتصل بذلك اضطهاد اليهود والعمل على ابادتهم بشتى الوسائل ومسألة الصلاحية الجثمانية والعقلية ، ويؤدى بحثها إلى ذكر الوسائل التى كان يتبعها النازيون من أجل اقصاء غير الصالحين من أعضاء المجتمع الألمانى ، وأخيرا مسألة دعم طبقة النبلاء النازيين الجديدة .

ولما كان الغرض الذى كان يرمى النازيون إلى تحقيقه من هذا كله ، إيجاد الكتلة الصلدة المتماسكة فى داخل الريخ ، تلك الكتلة التى لم يكن عن وجودها غنى فى نظرهم لبسط سيطرتهم العالمية فى النهاية ، فقد تفرع عن هذه المسائل الثلاث ، واتصل بها فى الوقت نفسه اتصالا وثيقا ، مسألتان أخريان ، هما ضرورة تحديد مركز المرأة فى المجتمع النازى وضرورة

الاكثار فى النسل بشتى الوسائل حتى تجد الدولة الوطنية الاشتراكية ، قوة بشرية ، تستطيع بعد تنشئتها التنشئة النازية الصحيحة ، أن تستخدمها كأداة فعالة فى بسط سلطانها على القارة الأوروبية وعلى بقية العالم فى النهاية .

* * *

وكان من رأى مفكرى النازيين « أن نوع الجنس الذى ينتمى إليه الإنسان يؤثر فى أعمق نزواته النفسية مهما كانت هــذه النزوات لاشعورية ، كما أن من شأن هذا الأثر أن يتغلغل إلى أدق أجزاء المخ . وعلى ذلك يطبع الجنس خصائص الأنسان النفسية أو الروحية بطابع معين لايمحى أثره كما يترك طابعه أيضا على مظهرالإنسان الخارجى ، فالجنس هو الذى يعين نوع الأفكار والإدراكات العقلية التى تكون من نصيب الإنسان ؛ وهو أيضا يعين مدى قوته ومدى غرائزه وميوله ، ويقرر نوع خلقه وطبيعة نفسه » .

وعلى هذه النظرية بنى النازيون أكثر مافى برنامجهم من قواعد ومطالب ، وعلى ضوئها ساروا فى تطبيق مبدأ أختيار الصالحين للزواج وللانسال فى دولة الريخ الثالث . وقد قال فيلسوفهم (الفرد روزنبرج) أنه شديد الاعتقاد بأن الأجناس المختلفة شديدة التباين من حيث أثرها فى تكوين الخلق ، ورسم السلوك ؛ كما أن هذا الأثر لا مندوحة عن ظهوره فى نوع الموسيقى والرقص . إذ أن من المسلم به أن نوعا معينا من الموسيقى أو الرقص لايمكن نقله من شعب اختص به إلى شعب من جنس آخر وكذلك الحال فى أمر اللغة . . . وقد أقتفى أثر (روزنبرج) فى هذا أيضا عالم آخر ، هو الدكتور (جرد شهاك Gerd Cehak) فأعلن أن لكل جنس طريقته الخاصة فى الكلام من حيث الاسراع أو الابطاء فى إخراج اللفظ ، ثم فى السير وفى الحركة ومن رأيه أن الجنس النوردى هو أبطأ الأجناس قاطبة فى ذلك . وقد ترتب على الأخذ بنظرية التأثير الجنسى هذه القول بان كل جنس من الأجناس المعروفة يميل إلى تفضيل ألوان معينة ، أى أن لكل جنس مزاجه اللونى الخاص فيميل النورديون كما يؤكد (الدكتور هانس جونثر Hans F.R Guenther) إلى اللونين الأزرق والأخضر الخفيف أو الباهت ، بينما يفضل الجنس المعروف باسم (Westic) اللونين الأحمر والأصفر ، والجنس الدينارى الأخضر الغامق والأرجوانى والأوستيكى(Ostic) البنى والبنفسجى . وكذلك تختلف مقاييس الجمال باختلاف الأجناس ، فيذكر (روزنبرج)أن النورديين يميلون إلى طويل القامة النحيف ذى العينين الزرقاوين ، ومن رأيه أن الشعوب التى يفضل رجالها السمراوات ، قد بدأ ينتشر بينها اختلاط الأجناس ، كما أنها فى الحقيقة قد شرعت تسير بخطى حثيثة نحو الانحلال والفناء ، لأن السمراوات لايمكن أن

يكن نورديات بل هن سلالة جنس آخر . وهكذا حتى بلغ « الهذيان الجنسى » درجة بعيدة فاستطاع (جونثر) وأمثاله أن يميزوا بين المرأة النوردية وغيرها — على حد قولهم — من جلستها ، فإذا ضمت السيدة ساقيها وقت جلوسها كانت نوردية ، أما إذا فعلت عكس ذلك كانت (أوستيكية) ومن رأيهم أن الرجل الذى يفضل إرخاء لحيته كثيفة تملأ وجهه فهو نوردى . ويمتاز الآرى على غيره بفتوته الجثمانية . وتفوقه على غيره بسبب ذلك فى ميادين الرياضة ، وقد عظم اعتقاد النازيين بهذا النوع من التفوق إلى حد أن الهر هتلر رفض مصافحة الأبطال الرياضيين من غير الآريين — الذين تفوقوا فى الألعاب الأولمبية التى جرت فى ألمانيا فى عام ١٩٣٦ ، وكذلك فإن الأقبال على النظافة من أهم صفات الأريين ، ولذلك يؤكد الدكتور (جونثر) أن الصابون وفرشاة الشعر اختراعان نورديان

ولكن متى وأين نشأ هذا الجنس الآرى المبجل المفضل ؟

يقول العلماء النازيون أن الجنس الآرى أو النوردى وجد منذ أقدم الأزمنة فى اقليم يبدأ من (لوبك) ويمتد صوب الشمال إلى (استكهولم) ثم صوب الجنوب إلى (برنزويك) ويتألف هذا الجنس من رجال أفذاذ أصحاب قامات فرعاء وسيقان طويلة ، نحاف الأجسام ، عريضى الكتفين ، ضيق الحوضين ، شعرهم أشقر ، ولون بشرتهم أبيض ، وعيونهم زرقاء أو زرقاء رمادية فى العادة وهو أفضل الأجناس قاطبة ، وحامل لواء المدنية والحضارة فى العالم ولهذا السبب نفسه ينبغى أن يبذل النازيون كل جهد من أجل أن يظل مخلدا باقيا وفى كتاب (كفاحى) شهد الهر هتلر بفضل الآرى على العالم فكتب ما معناه : « أن ماتراه حولنا اليوم من ثقافة إنسانية وبروز فى الفن والعلم والصناعة ، يكاد يكون برمته من نتاج الآرى وحده . وإن هذه الحقيقة ذاتها هى التى تفسر قولنا بأن الآرى وحده ، كان على وجه التأكيد موجد الحياة الإنسانية العليا . ولذلك فإن مانسميه الإنسان — أو المخلوق البشرى — إنما هو فى الحقيقة هذا الآرى ليس غير وعلى هذا فإذا قدر للآرى الزوال من الوجود ، فإن الظلام الحالك سرعان مايطبق على الأرض ، ومن المحتمل لذلك أن تختفى الحضارة الأنسانية فى غضون ألوف قليلة من السنوات ، ويعود العالم إلى حالته الصحراوية السابقة » . ثم لم يشأ الهر هتلر أن يقصر مسئولية الأريين على نشر الحضارة فى أوربا وأمريكا ، بل شاء خياله أن يجعل من الأريين والأوربين والأمريكين رسل الحضارة والمدنية فى القارة الأسيوية أيضا ذلك بأنه عزا إليهم الفضل فى إدخال المدنية إلى اليابان . وكان من رأيه أن الأريين هم الذين أوجدوا الثقافة اليابانية ، وأنه إذا قدر للآريين الانسحاب من اليابان ثم قطع صلتهم بها ، فإن اليابان لاتلبث أن تغط فى نومها القديم الذى أيقظها الآريون منه .

وأمام هذا التمجيد العظيم للآرية وللآريين ، يحق للقارىء أن يتساءل ، وماذا يا ترى تكون نسبة الآريين الخلص فى المجتمع الألمانى ؟

لقد أجاب على هذا السؤال الدكتور جونثر فقال أن نسبتهم تتراوح بين ٦ ٪ و ٨ ٪ من مجموع الشعب الجرمانى ؛ وأنه من المحتمل أن تكون هذه فى الواقع أعلى نسبة موجودة بين أى شعب على ظهر الأرض ، أضف إلى ذلك أن هذه النسبة تشمل جميع النورديين الموجودين فى العالم . وظاهر أنها نسبة ضئيلة . ولذلك فقد أصبح من واجب النازيين أن يفكروا فى أنجع الوسائل التى تحفظ هذا الجنس الرفيع الشأن من الانقراض لاسيما وقد اعتقد النازيون أنفسهم أن عدة مصائب قد نزلت بهذا الجنس النوردى منذ أزمنة قديمة لدرجة تهدد بحدوث أسوأ النتائج للشعب الجرمانى ، بل وللحضارة قاطبة إذا ظل الأمر غير متدارك بصورة فعالة . وكان النازيون يعزون أسباب هذه الشرور التى أفنت هذا المقدار العظيم من الجنس النوردى إلى الحروب التى خاض غمارها النورديون الشجعان على مر العصور فأفنت الأعداد العظيمة منهم . هذا إلى أن الريخ الألمانى كثيراً ما كان يخسر أبناءه النورديين الذين آثروا لظروف متنوعة الخروج من أرض الوطن والهجرة إلى جهات أخرى ؛ كما أن النورديين الذين ظلوا فى الريخ كانوا معرضين للوفاة فى سن باكرة بنسبة تفوق كثيراً نسبة الوفيات التى تحدث فى هذه السن بين بقية الأهلين من الأجناس الأخرى ؛ على أن النورديين كانوا دائماً أقل قدرة على التناسل من غيرهم . بيد أن أشد الأخطار التى يتعرض لها الآريون ، منشؤها فى زعم النازيين ، مايحدث من اختلاط النورديين بغيرهم من الأجناس الوضيعة .

ولذلك فانه بينما ينحدر حوالى ٦ ٪ أو ٨ ٪ من الجرمانيين من الجنس الآرى أو النوردى الصميم ، فان نصف الشعب الجرمانى بأجمعه ما يزال يجرى فى عروقه الدم النوردى ممزوجا بدم الأجناس الأخرى . ولما كان من فضائل المرأة النوردية الاحتشام الشديد ، وكان اكتمال الأنوثة أو الرجولة بين أفراد الشعب النوردى يتأخر وكان الرجل النوردى لايتزوج من المرأة النوردية إلا فى سن متقدمة نسبيا ، ولا ينسل المتزوجون سوى القليل من الأطفال ، فقد خشى علماء النازيين أمثال الدكتور جونثر من احتمال اختفاء الجنس النوردى الخالص فى نهاية الأمر . أضف إلى هذا خطر زواج النورديين من النساء السمراوات المتمتعات بالصفات الجنسية المغرية الشائعة بين نساء الأجناس الأخرى غير النوردية . وكذلك فان من العوامل المساعدة على اختفاء الجنس النوردى ما هو مشاهد فى أفراد هذا الجنس من الميل إلى الانتحار .

وفى كتاب (كفاحى) لخص الهرهتلر النتائج التى تحدث من اختلاط الأجناس المختلفة

فى قوله إن ذلك يؤدى (أولا) إلى هبوط مستوى الجنس الأعلى مكانة و (ثانيا) إلى انحطاط جثمانى وروحى يفضى ولا شك إلى انتشار الضعف والمرض ، ولو أن هذا يحدث بطيئا فى بداية الأمر . ولذلك رأى الهر هتلر من الضرورى أن يسود قانون أعلى ومقدس ينبغى بمقتضاه أن يحرص كل إنسان على أن يظل « الدم » نقيا خالصا . ويسوغ الهر هتلر وجود هذا القانون وواجب العمل به بزعمه أن امتزاج الدم وهبوط المستوى الجنسى تبعا لذلك قد أفضيا وحدهما إلى فناء الثقافات القديمة ، كما حدث للثقافة الآرية على وجه الخصوص ، فقد ظل الفاتحون ساة القوم ، وخالقى أو مبتكرى ألوان الثقافات المتنوعة ما داموا متمسكين بمراكزهم كحكام ، وما داموا محتفظين بنقاوة الدم الذى يجرى فى عروقهم . غير أنه فى كل مرة امتزج دم الآرى بغيره من دم الأجناس الوضيعة ، أظهر التاريخ أن النتيجة الحتمية لهذا الامتزاج كانت اختفاء حامل لواء الحضارة ، أى الرجل الآرى وحده

وأما الذين أفادوا من هذا الامتزاج فكانوا دائما شعوب الأجناس الوضيعة ، لأن الدم الآرى من شأنه أن يحفظ لهم بقاءهم إذ بغيره يسيرون إلى الفناء بخطوات سريعة والشر فى ذلك كله أن هذه الشعوب الوضيعة إنما تستمد القوة والحيوية من طريق تدنيس الآريين وإحالتهم إلى شعب « لقيط » أى إلى شعب غير نقى الدم .

ثم يمضى الهر هتلر فيقول إن هذا الفساد كان قد بدأ يحطم ميزات الجنس النوردى فى ألمانيا قبل وصول النازيين إلى الحكم إلى حد هدد بجعل القاطنين بالمدن الألمانية الكبيرة خصوصا يشبهون من حيث مستواهم الجنسى الشعوب القاطنة بأرض إيطاليا الجنوبية . ومع هذا فان خطر انحطاط الجنس النوردى لم يكن فى رأيه مقصورا على الجرمانيين وحدهم ، بل إنه كان يهدد العالم أجمع بعواقب وخيمة ، لأن إهمال الألمان فى صون نقاء الدم الذى يجرى فى عروقهم جعلهم يخفقون فى إحراز السيطرة العالمية إذ « إن السموم التى أثرت فى شعبنا (من جراء امتزاج الدم الآرى بدم شعوب الأجناس الأخرى) وخصوصا من أيام حرب الثلاثين سنة المعروفة ، لم تسبب انحلال دمائنا فحسب بل وأرواحنا أيضا ، حتى نجم عن ذلك أن أصيب الشعب الجرمانى بالانحلال فى كل ظرف عصيب قابله ، إذ ينقص الشعب الألمانى وجود غريزة الجماعة القوية التى أساسها وحدة الدم وتجانسه ، والتى من شأنها على وجه الخصوص فى اللحظات التى يجىء فيها الخطر مهدداً أن تصون الأمة وتحفظها من الدمار . . . فلو أن الشعب الألمانى كان يتمتع بهذه الوحدة المستمدة من وجود غريزة الجماعة القوية فى أثناء نموه التاريخى وهى الوحدة التى انتفعت بها شعوب أخرى — لأصبح الريخ الألمانى سيد الكرة الأرضية بأجمعها . . . » .

* * *

وقد زعم الهتلريون ان أفضل الطرق الحاسمة لضمان نقاء الدم الآرى ، فى دولة الريخ الثالث ، فناء اليهود أو طردهم من ألمانيا . ولذلك ارتبطت (هيستريا الدم) عند النازيين (بهيستريا) أخرى كانت وماتزال فى الحقيقة أشد خطرا على البشرية من دعاوى الجنس الخالص ، والدم النقى ، هى (هيستريا اليهودية) ، وكما أن (هيستريا الدم) لاتستند إلى أى أساس علمى صحيح كما أثبت علماء الأجناس ، فان (هيستريا اليهودية) فى ألمانيا تستند إلى طائفة من المعلومات المشوهة والحقائق المزيفة التى حرص النازيون منذ طمعوا فى فرض سلطانهم على المانيا ، على أن يغذوا بها الجماهير المتقلبة فى أحضان الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أعقبت انهيار دولة الريخ القيصرية بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى .

فقد قدر النازيون أنفسهم ، قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، ان عدد سكان المانيا — عدا النمسا — الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى بنسبة ٢٥ ٪ أو أكثر يتراوح بين ٨٠٠٫٠٠٠ ، ومليون ، من بينهم ٥٠٠٫٠٠٠ إلى ٦٢٥٫٠٠٠ يهودى و ٢٠٠٫٠٠٠ إلى ٢٥٠٫٠٠٠ أنصاف يهود ، و ١٠٠ إلى ١٢٥٫٠٠٠ أرباع يهود ، وعلى هذا اعترف النازيون أنفسهم بأن اليهود الخلص كانوا لايجاوزون $\frac{٧}{١٠}$ أو $\frac{٩}{١٠}$ من ١ ٪ من عدد سكان ألمانيا ، بينما يبلغ أنصاف اليهود $\frac{٢}{١٠}$ أو $\frac{٣}{١٠}$ من ١ ٪ ، أما أرباع اليهود فيؤلفون جزءا صغيرا يزيد قليلا على $\frac{١}{١٠}$ من ١ ٪ وزيادة على هذا فمن الثابت أن عدد اليهود فى المانيا كان آخذا فى النقصان بدرجة ملموسة قبل حدوث الثورة النازية ذاتها ، فقد دلت الاحصائيات على أن نسبة المواليد (بما فى ذلك اليهود) فى عام ١٨٨٠ بلغت ٤١٫٠٥ فى الألف . من ذلك ٣٢٫٢٦ فى الألف بين اليهود الألمان . ولكن هذه النسبة انخفضت فى عام ١٩١٠ إلى ٣٣٫٠٥ فى الألف ، من ذلك ١٦٫٥٥ فى الألف بين اليهود . وفى الفترة بين عامى ١٩١١ ، ١٩٢٥ بلغت زيادة الوفيات على المواليد بين اليهود البروسيانيين ٣٧٫٠٩٣ ومن المحتمل أن هذه النسبة كانت محفوظة أيضا فى بقية أنحاء الريخ . وعلى هذا فانه استنادا إلى ما كان يذيعه النازيون أنفسهم ، يتضح أن عدد اليهود فى ألمانيا كان قليلا جدا . بل وآخذا فى النقصان المستمر حتى قبل أن يصل النازيون إلى الحكم .

ومع ذلك ، زعم النازيون أن اليهود هم أخطر أعداء المانيا ، ومن حق القارىء أن يسأل كيف تصبح أقلية تافهة لاتزيد على ١ ٪ أو ١٫٤ ٪ مصدر الخطر الكبير على أغلبية عظيمة تبلغ ٩٨ ٪ ، ولكن من العبث أن ينتظر انسان جوابا من النازيين على هذا السؤال فاذا فعلوا كانت أجابتهم تشتمل على الدعاوى الآتية : (أولا) ان اليهود إذا لم يكبح جماحهم

ظلوا مستأثرين بالمراكز الهامة فى البلاد وصار لهم نفوذ كبير لا يتناسب قط مع عددهم الضئيل (ثانيا) أن اليهود جنس جم النشاط يتمتع بحيوية عظيمة حتى ان الفرد الواحد منهم لترجح كفته ٩٩ ألمانيا من غير اليهود ، (ثالثا) مما يزيد هذا الأمر خطرا أن الضرر الذى يهدد الريخ ليس مصدره اليهود فى داخل ألمانيا نفسها ، بل مصدره الحقيقى كل أولئك اليهود المنتشرين فى أرجاء العالم والذين يتآمرون ضد دولة الريخ الثالث .

ولذلك بدأ اضطهاد اليهود فى ألمانيا منذ بدأت الحركة الوطنية الاشتراكية فى عام ١٩٢٠ ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية عند نشأتها كانت تتألف من الزراعيين برئاسة الكونت إرنست تزو ريفنتلو Ernst zu Reventlow ، ومن الحزب الألمانى الاشتراكى برئاسة كونز Kunze ، ثم من الشراذم التى التفت حول لودندورف وهتلر وحاولت الثورة فى عام ١٩٢٣ وقد جعل كل هؤلاء اضطهاد اليهود وإقصاءهم عن ألمانيا أو أفناءهم من الأهداف التى تمسكوا بضرورة تحقيقها واشتملت عليها برامجهم . وإلى لودندورف يرجع الفضل فى كشف تلك المحالفة ذات الخطر التى أدعى أن اليهود قد أوثقوا عراها مع جماعة الجزويت الدوليين والبنائين الاحرار ، من أجل القضاء على الدولة الوطنية وتقويض أركانها وكان مما ساعد (لودندورف) على الوصول إلى هذا الكشف تلك الأقصوصة الزائفة التى روجها أعداء اليهودية فى العالم عندما نشروا فى ألمانيا عام ١٩١٩ وثيقة عرفت باسم « بروتوكولات عقـــلاء أو حكماء صهيون » The Protocols of the Elders of Zion ، قالوا عنها إنها عبارة عن صورة طبق الأصل من تفاصيل ما جاء فى المؤتمر الصهيونى المنعقد فى مدينة (بال) من أعمال سويسرة فى عام ١٨٩٧ ، وتتحدث هذه الوثيقة عن مؤامرة يهودية واسعة النطاق الغرض منها فرض سيطرة اليهود على العالم أجمع بيد أن كبار المسئولين من اليهود سرعان ما أجمعوا على إنكار هذه الوثيقة وأعلنوا زيفها ، ثم استطاعت جريدة (التيمس) فى عام ١٩٢١ بعد بحث مستقل وفحص دقيق اثبات تزويرها . فقد أظهرت هذه الجريدة أن أحد أفراد البوليس السرى القيصرى الروسى القديم — أو الأوخرانا Okhrana كما كانت تدعى هذه القوة — هو الذى وضع هذه البروتوكولات ، حتى يوجد مسوغا للحكومة القيصرية يمكنها من المضى فى اضطهاد اليهود فى الروسيا . وزيادة على ذلك فان هذا الموظف الروسى لم يبتكر هذه « البروتوكولات » ابتكارا بل كان كل ما فعله أنه استمد وصف الاجتماع الموهوم وما حدث فيه من رسالة صغيرة وضعها أحد المتهكمين الفرنسيين الديموقراطيين فى عام ١٨٦٥ فى عهد الامبراطور نابليون الثالث ، يصف فيها اجتماعاً عقد فى (جهنم) كان الغرض منه ، على نحو ما تخيله هذا الفرنسى التفكير فى الوسائل التى تمكن الأمبراطور نابليون الثالث من توسيع فتوحه حتى تشمل العالم

اجمع . وأما مقال (التيمس) فقد نشرته الصحف فى البلدان الأخرى ، ومنها ألمانيا .

ومع هذا ، وعلى الرغم من ظهور زيف هذه البروتوكولات ، وإقامة البرهان على أنها كانت مزورة ، فقد ظل النازيون يمعنون فى إدعاءاتهم واستطاع الهر هتلر أن يذكر فى كتابه (كفاحى) » ومع أن جريدة فرنكفورت Frankfurter Zeitung تعلن إلى العالم بذلة وخضوع أن « بروتوكولات حكماء أو عقلاء صهيون » زائفة مزورة . فان هذا الأنكار فى حد ذاته ما هو فى الحقيقة إلا برهان ساطع على أن هذه البروتوكولات حقيقية وغير مزورة » وقد استطاع الهر هتلر أن يصل إلى نتائج لها خطرها فى هذا الموضوع منها أن اليهودية الدولية تبغى الاستئثار بالشئون المالية فى العالم والسيطرة عليها ، وتريد أن تتخذ من الروسيا قاعدة تعمل منها لأجل تقويض أركان الدول الوطنية .ثم تسعى لجعل فلسطين مقرا لجميع المؤامرات التى تحاك خيوطها لتحريك الشعوب للثورة ضد الحكومات الوطنية فى العالم . على أنه لما كان اليهودى — كما يقول الهر هتلر — عاجزاً عن ممارسة شئون الحكم وإخضاع الجنس الأبيض لسلطانه المباشر ، ولما كان يعترف فى قرارة نفسه بهذا العجز ، فقد أخذ يعمل على تلويث الجنس الأبيض حتى يسهل عليه إخضاع هذه الشعوب ، ولذلك، فان الشاب اليهودى ذا الشعر الأسود يكمن ساعات طويلة يشع فى وجهه حبور شيطانى ، مترقبا الفرصة التى تمكنه من السطو على عرض فتاة غريرة تعوزها الخبرة وتنقصها القدرة على المقاومة ودفع الإغراء بل إن هذه الرغبة فى تلويث البيض هى التى جعلت اليهود يحضرون الجنود السود إلى أقليم الراين بموافقة فرنسا التى تعتبر بلا جدال أكبر أعدائنا ، والتى يؤدى ذلك الاختلاط المتزايد بين شعبها وبين الزنوج إلى خطر يهدد فى المستقبل الجنس الأبيض فى أوربا ، وقد خلص الهر هتلر من ذلك كله إلى نتيجة واحدة ، هى ضرورة القضاء على اليهود قضاء مبرما . وفى ذلك يقول . « واعتقد إنى إنما أعمل اليوم بما يتفق تمام الاتفاق مع أغراض الخالق العظيم. فانى عند مهاجمتى اليهود إنما أخوض فى الحقيقة نضالا من أجل إتمام عمل الأله نفسه»

وإذا كان هذا رأى الزعامة المسؤلة ، فإن من السهل إدراك مدى تلك الدعاوة التى روج لها النازيون فى داخل ألمانيا وخارجها من أجل اضطهاد اليهود وإفنائهم فقد نسج صغار الزعماء والكتاب النازيين على منوال زعيمهم الكبير ، إذ جاء فى نداء وطنى اشتراكى أعيد طبعه وتوزيعه مراراً ، مامعناه « ان اليهودى هو السبب فى أننا نرسف فى أغلال الرق والعبودية وهو الذى أفاد من ذلك كل الفائدة ، فقد حطم جنسنا ولوث أخلاقنا ، وتسبب فى نضوب معين حياتنا ، وهدم قوتنا، وقال (ريفنتلو) Reventlow « إن اليهودى هو الدود الذى ينخر فى هيكل الانسان فعلينا أن نهلكه ! » وقال غير هؤلاء ، ان من مقتضيات طقوس اليهود

الدينية قتل المسيحيين واستباحة دمائهم ، كما أنهم يأخذون الربا الفاحش لأسباب دينية ، ويزيلون بكارة الشابات المسيحيات عامدين ويعملون على إفساد السلطات الألمانية بما يقدمون من رشوة وغير ذلك ، ويشربون دماء سواهم من الأجناس .

وإلى جانب هذه الدعاية ، أصدرت دولة الريخ الثالث طائفة من القوانين الصارمة لإقصاء اليهود عن الوظائف الحكومية والخدمة العامة . ولم يكن إصدار هذه القوانين أمراً غريبا أو غير متوقع الحدوث . فان إقصاء اليهود عن الوظائف وإخراجهم من المانيا كان فى الحقيقة من أهم الوعود التى تضمنها البرنامج الذى أذاعه النازيون على الأهلين ، ولم يعارضه هؤلاء فقد وعد (جريجور ستراسر Gregor Strasser) فى آخر أكتوبر ١٩٣١ ، أى قبل انفصاله عن النازيين وخروجه عليهم — بأن يقضى النازيون على اليهودية فى ألمانيا قضاء مبرما . كما وعد أحد النواب النازيين (فى مجلس الديات البروسى) فى ٢ يونيه ١٩٣٢ « بأنه عقب أن يفرغ النازيون من تنظيف البيت — أى ترتيب شئونهم الداخلية — تصبح مسألة طرد اليهود فى المانيا فى بساطتها وسهولتها كلعبة الأطفال » . وفى هذا الوقت أيضا ، أفضى (هرمان جورنج) بحديث الى جريدة إيطالية جاء فيه « بينما ينال اليهود الذين ألحقوا الأذى بألمانيا جزاءهم العادل على ما فعلوا ، فإن جميع اليهود الذين دخلوا المانيا بعد شهر أغسطس من عام ١٩١٤ سوف يطردون من البلاد ، وسوف يطرد كذلك بقية اليهود دون نظر الى منشئهم ، من جميع الوظائف المسئولة فى الصحافة والمسرح والسينما والمدارس والجامعات وعلى الجملة من كل عمل أو وظيفة قد يستطيع شاغلها استخدام نفوذه لإضعاف الأمة وإفسادها ومكافحة الروح الوطنية والقومية ونشر الميول والآراء الدولية ، فى غير مصلحة الشعب الألمانى » .

والواقع أنه بعد أن آلت السلطة فى المانيا للنازيين شرعوا ينفذون وعودهم السابقة دون إبطاء ففى أول ابريل ١٩٣٣ ، أى بعد أقل من شهر واحد من وصول الهر هتلر إلى منصب المستشارية ، وفى اليوم نفسه الذى أعلن فيه (الفوهرر) بداية الثورة الوطنية الاشتراكية فى الخطاب الذى ألقاه فى مبنى (تمبلهوف) ، حدث أن نظمت مقاطعة اليهود ، وبدأ اضطهادهم . حتى أصبح يوما تاريخيا لايمكن أن ينساه اليهود قاطبة . وفى ٧ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون يقضى بطرد غير الآريين من الخدمة العامة ، أو إقالتهم من وظائفهم إذا استحقوا معاشاً . وجاء فى تفسير (غير الآريين) أن المقصودين بذلك هم جميع الأفراد الذين يثبت أن أحد آبائهم أو جدودهم من اليهود أو سبق لهم اعتناق اليهودية ، على أن يستثنى من ذلك جميع الذين شغلوا وظائف حكومية مدنية قبل أول أغسطس ١٩١٤ . ومن قاتلوا فى الحرب العظمى الماضية دفاعا عن المانيا أو فى جانب إحدى حليفاتها ، وكذلك الذين فقدوا آباءهم

أو أبناءهم فى أثناء الحرب ؛ وأما الخدمة العامة التى ذكرها هذا القانون وتشمل جميع وظائف الحكومة الفدرائية ، أو المحلية ، والنقابات ، والشركات . والهيئات المختلفة عدا الدينية منها ، والقضاء والمحاماة والتعليم فى الجامعات وغيرها ، عدا المدارس اليهودية التى يدرس بها يهود فقط ، وجنود الخدمة الوطنية (أو الميلشيا) عدا الضباط والجنود العاملين ، ثم أصحاب الوظائف الشرفية ، وقد صدر قانون فى ١٨ مايو ١٩٢٣ يمنع غير الآريين من شغل الوظائف (الشرفية) وخصوصا ما كان متعلقا منها بوظائف التأمين الإجتماعى وإسداء المعونة والنجدة لضحايا الحرب . وفى ٧ ابريل ١٩٣٣ صدر قانون خول السلطات القضائية طرد غير الآريين من مهنة المحاماة ، وفى ٢٥ ابريل ١٩٣٣ صدر قانون « لمنع ازدحام المدارس الثانوية والعليا » من شأنه منع غير الآريين بطريق غير مباشرة ، من الالتحاق فى المستقبل بعمل من الأعمال التى تقتضى مزاولتها ثقافة عالية ، وفى ٣٠ يونيه ١٩٣٣ صدر قانون آخر يمنع غير الآريين من شغل الوظائف المدنية ، ويقضى بطرد أى موظف متزوج بامرأة غير آرية أو يتزوج فى المستقبل بغير آرية . وفى ١٣ يوليه ١٩٣٣ تقرر إخراج جميع مديرى السينما والمخرجين والمؤلفين ومهندسى التصوير ومن اليهم من الخدمة إذا تعذر عليهم اثبات آريتهم .

وفى عام ١٩٣٥ صدر « قانون وقرار الجنسية وتعيين صفة المواطن » وقد جاء فى هذا القانون ما معناه « أن المواطن فى دولة الريخ هو الذى يجرى فى عروقه الدم الجرمانى أو الدم القريب منه ، والذى يبين بفضل مسلكه أنه يرغب فى خدمة الشعب الألمانى ودولة الريخ بأمانة ، ويكون صالحا لهذه الخدمة ولما كان الريخستاج يعتقد تمام الاعتقاد بأن نقاء الجنس الجرمانى ضرورة لا غنى عنها لبقاء الأمة الألمانية ، ولما كان يحدوه العزم الذى لا يمكن أن يتزعزع للمحافظة على كيانها إلى الأبد ، لذلك قرر الريخستاج بالإجماع قبول (قانون نورمبرج لصون الجنس والشرف الجرمانى) الصادر فى سبتمبر ١٩٣٥ . وعلى ذلك يمتنع الزواج بين اليهود والرعايا الذين هم من دم جرمانى أو من الدم القريب منه . وكل زواج يعقد بالرغم من وجود هذا القانون يكون لاغيا حتى لو كان هذا الزواج معقوداً فى الخارج كمحاولة لتجنب آثار هـــذا القانون .... ولا ينبغى أن يستخدم اليهود فى بيوتهم رعايا الريخ الذين هم من دم جرمانى أو من دم قريب منه والذين تقل أعمارهم عن خمسة وأربعين عاما . ويمنع اليهود من أن ينشروا علم الريخ أو العلم الوطنى أو يظهروا الأعلام القومية . والذين لهم حق التصويت فى المسائل السياسية ، وشغل الوظائف العامة هم مواطنو الريخ المتمتعون بكامل حقوقهم السياسية .... ولا يمكن أن يكون اليهودى مواطنا فى دولة الريخ ، وليس له حق التصويت ولا الحق فى أن يشغل إحدى الوظائف العامة .... » .

وقد أطلق على جميع القوانين والقرارات والأوامر التى أصدرتها السلطات النازية ضد اليهود اسم (قوانين نورمبرج) . وفى الفترة التالية ، وعلى الخصوص عند اشتداد الحملة الإرهابية على اليهود ، أعادت الصحف نشر بعض هذه القوانين ، كما نشرت ملخصا شاملا لأهم محتوياتها ، ومن ذلك يتبين أن (قوانين نورمبرج) كانت تقضى : (أولا) بطرد جميع الموظفين غير الآريين من الخدمة العامة ، ويدخل فى ذلك الموظفون العاديون واخوانهم من المستخدمين فى البلديات ، والمدرسون ، وأساتذة الجامعات ، والقضاة ، والمدعون العموميون ، وكذلك صدر قانون بمنع المحامين غير الآريين من مزاولة مهنتهم . وكانت تقضى : (ثانيا) بحرمان الأطباء غير الآريين ثم أطباء الأسنان والجراحين من مزاولة عملهم . وفى قانون جديد حرم غير الآريين من التوظف فى المستقبل ، كما أن (جبهة العمل) وهى التى حلت محل النقابات العمالية واتحادات أصحاب العمل ، طبقت هى الأخرى هذه القوانين كما كانت تقضى : (ثالثا) بحرمان اليهود من التعليم فى المدارس والجامعات و (رابعا) بحرمان غير الآريين — اليهود — من العمل فى صناعة الأفلام و (خامسا) بعدم السماح لليهود بالانضمام إلى جماعات الوقاية ضد الغارات الجوية و (سادسا) بمنع أى شخص لايستطيع اثبات انحداره أو انحدار زوجه من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية ، من وراثة الأرض التى يزرعها و (سابعا) بتحريم العمل فى الصحافة على غير الآريين ، إلا إذا كانت الصحف التى يعملون بها يهودية صميمة و (ثامنا) بمنع جميع أعضاء الحزب النازى من الاختلاط أو الاتصال باليهود ؛ وهذا بناء على قرار أصدره (ردولف هس) نائب هتلر فى ذلك الحين و (تاسعا) بقيام وزارة المعارف النازية بنشر قائمة من الكتب التى فرضت استخدامها فى المدارس ، وذلك حتى تعرف الناشئة المسألة اليهودية على حقيقتها ؛ ومن هذه الكتب « بروتوكولات حكماء صهيون » المزورة و (عاشرا) بإصدار قرار من وزير الداخلية يسمح للآريين فقط بدخول امتحانات كلية الطب ؛ كما أصدر الوزير قرارا ثابتا بعدم إعطاء الصيادلة غير الآريين الترخيص اللازم لمزاولة أعمالهم و (أحد عشر) بإصدار قرار يمنع كل من لايستطيع إثبات انحداره وانحدار زوجه من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية من الاشتغال فى أعمال الطبع والنشر .

هذه خلاصة (قوانين نورمبرج) ؛ وقد تطرف النازيون فى تطبيق تلك القوانين فأصدر الحكام ورؤساء البلديات فى المدن المختلفة طائفة من القرارات والأوامر والتعليمات ضد اليهود ، وكل ما هو يهودى ، لدرجة كانت تدعو إلى السخرية فى بعض الأحايين . من ذلك ، الأمر الذى أصدره رئيس بلدة (كوينجسدورف) Koeingsdorf فى بافاريا فى أول اكتوبر

١٩٣٥ ، خاصا بالأبقار والماشية المشتراة بطريق مباشر أو غير مباشر من اليهود ، فنص هذا الأمر على ضرورة عزل هذه الأبقار والماشية حتى لا تعيش فى صعيد واحد مع الثيران التى يملكها غير اليهود ؛ وزيادة على ذلك نص الأمر على أن الأبقار والماشية التى ثبت أنها كانت تعيش فى مكان واحد مع أبقار وماشية يملكها يهودى ، ينبغى وضعها تحت المراقبة لمدة عام بأكمله . وفى أثناء هذه المدة يتحتم عزلها أيضا عن الثيران التى يملكها آريون .

* * *

وفى مثل هذه الظروف ، كان من الطبيعى أن تنتشر فى ألمانيا موجة من الاضطهاد العنيف ضد اليهود ، واتخذ هذا الاضطهاد أشكالا متنوعة على أيدى المتعصبين ، وزعانف القوم وأراذلهم ، فأخذوا يدنسون مقابر اليهود ومعابدهم ، حتى بلغ عدد الحوادث التى من هذا القبيل إلى صيف عام ١٩٣٢ مائة وتسعة (١٠٩) ؛ وأعلن المتعصبون ومن إليهم عزمهم على إحراق معابد اليهود وبيعهم فى القريب العاجل . هذا ، إلى الضرر الجسيم الذى ألحق بحوانيت اليهود ومخازنهم التجارية . ومن الحوادث المشهورة ما فعله متطرفو النازيين فى عيد فصح اليهود عام ١٩٣٢ . فقد هاجموا فى هذا اليوم فى (كورفرتندام) أحد شوارع برلين كل شخص اشتبهوا فى أنه ينحدر من جنس سامى . وكان المغيرون وهم حوالى العشرين من الشبان صغار السن الذين لا خبرة لهم فى مسائل الجنس . واستطاعت هيئة يهودية بعد ذلك أن تنشر قائمة طويلة بحوادث الاعتداء المتكرر على أشخاص اليهود المنفردين . وزيادة على ذلك فقد وجد الصبيان والفتيات الصغيرات تسلية كبيرة فى تلطيخ بيوت اليهود وحوانيتهم بالأقذار ورسم الصليب المعقوف — رمز النازية — فى كل مكان . ولم يقتصر الأمر على إهانة كبار السن وإيذائهم ، بل إن الأطفال اليهود فى المدارس لم يسلموا من الاعتداء عليهم ، ومن أن يؤذيهم زملاؤهم المسيحيون . وفى كثير من المدن الصغيرة أرغم التجار اليهود إرغاما على ترك متاجرهم ومحالهم ومغادرة القرية أو المدينة التى عاش فيها أجدادهم منذ أجيال طويلة وذلك لشدة الاضطهاد وإحكام المقاطعة . وفى جامعة برلين ، قرر الطلبة النازيون طرد جميع اليهود . ومع أنه كان من المنتظر أن يجد اليهودى فى المحاكم والقضاء وسيلة للوقاية أو الحماية من اعتداء المعتدين ، فإن هذه المحاكم لم تجد سببا يسوغ توقيعها العقوبة على ملحق الأذى باليهود ، لأنها كما قررت كانت لا ترى أن استخدام كلمة يهودى فى معرض التحقير من شأنه إثارة غضب أحد . وكذلك فان هذه المحاكم لم تجد مسوغا لتوقيع عقوبة قاسية على كثيرين ممن اشتركوا فى حوادث تدنيس مقابر اليهود وبيعهم . وإزاء هذا كله ، لم يجد عدد من اليهود فى صيف ١٩٣٢ مناصا من الكتابة إلى مستشار دولة الريخ ، يسألونه عما إذا كانت الحكومة

لاتجد ضرورة لإعطاء المواطنين اليهود الحماية التى من حقهم كمواطنين أن ينتظروها من حكومتهم .

بيد أنه كان فى الحقيقة من المتعذر إعطاء اليهود أى ضمان أو وعد بالحماية ضد الاعتداءات المتكررة عليهم ، إذ كان زعماء الدولة النازية أنفسهم فى طليعة منظمى حركة المقاطعة والاضطهاد وكانوا لا ينفكون يثيرون الخواطر ضد اليهود فى كل آن ولحظة منذ ظهرت الوطنية الاشتراكية بشكلها المتطرف الرهيب إلى عالم الوجود . فهناك كتاب (كفاحى) مشحون بالمفتريات الكثيرة على اليهود ، ولا يقل عنه فى ذلك كتاب (الفرد روزنبرج) عن « أسطورة القرن العشرين » . ومن المعروف أن هذين الكتابين من الكتب التى فرض النازيون قراءتها على الشبيبة الجديدة . وهناك خطابات الهر هتلر نفسه ، وهو الذى قال منذ عام ١٩٢٢ أن اليهود قد أظهروا نبوغا حقيقيا فى معرفة كيف يفيدون من ظروف السياسة المتقلبة ، حتى صار لهم أنصار ضمن أحزاب اليمين وأحزاب اليسار يعملون جميعا من أجل نشر الفساد فى الدولة بشتى الطرق المرذولة . وهناك كتابات كبار النازيين الآخرين أمثال الأستاذ هرمان جوش Hermann Gauch ، والدكتور كريك Krieck ، و (والتر داريه) Walther Darré ، و(والتر شارر) Walter Scharrer وغيرهم . وكلها ملأى بالمطاعن على اليهودية واليهود .

ولما كان من المتعذر سرد جميع حوادث اضطهاد اليهود فى ألمانيا منذ برز الحزب النازى إلى عالم الوجود ووصل رئيسه إلى مستشارية الريخ ، إلى وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية ، فانه يكفى أن نسجل الآن حوادث موجات الاضطهاد التى اجتاحت اليهود فى كل من ألمانيا والنمسا فى شهرى اكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ ، لا لتبيان ما وصل اليه الطغيان النازى من شدة مريرة فحسب بل ولأن هـذه الاضطهادات المروعة سرعان ما أوجدت مشكلة اللاجئين . تلك المشكلة التى ذهب عدد غفير من اليهود ضحية لهـا من أوربا عموما وفى أوربا الوسطى على وجه الخصوص .

فبعد أن سقطت النمسا فى قبضة ألمانيا فى مارس ١٩٣٨ أعلن (هرمان جورنج) فى ڤينا الحرب على اليهود بقوله : « إننا لا نحب اليهود ، وهم لايحبوننا ؟ ولذلك فسوف ندخل عليهم السرور بإرغامهم على مغادرة البلاد ! » . وكان هذا الإعلان بمثابة إنذار لبدء موجة الاضطهاد العظيمة التى سرعان ما أثارت الرعب والفزع فى ڤينا فى أبريل من العام نفسه ، إذ سلط النازيون سيف الإرهاب على أعناق اليهود فى هذه المدينة التاريخية القديمة ، وكان عدد اليهود بها لا يزيد على ١٧٠,٠٠٠ ، وضاقت السبل فى وجه الكثيرين منهم حتى بلغ متوسط من فضلوا الانتحار منهم فى كل يوم من أيام هذا الشهر مائة وثلاثين ، وظلت موجة الانتحار

على شدتها بين اليهود فى الشهور التالية ، حتى بلغ عدد المنتحرين فى يوم من أيام شهر يوليه عام ١٩٣٨ ثمانمائة (٨٠٠) ؛ بل لقد قدر عدد المنتحرين عموما فى خلال الشهور الأربعة الأولى من الاحتلال الألمانى بنحو سبعة آلاف يهودى . أما الذين لم يلجأوا إلى الانتحار كوسيلة مواتية تخلصهم مما هم فيه من كرب وبلاء ، فقد استطاع النازيون أن يبتكروا طرقا منوعة لإفنائهم وإبادتهم ، من ذلك تلك الحادثة المشهورة التى رواها (لويس جولدنج) Louis Golding فى كتابه عن « المشكلة اليهودية » فى عام ١٩٣٨ ، وقد رواها غيره كذلك . وهى تتلخص فى أن واحدا وخمسين شخصا وضعوا على ظهر سفينة فى نهر الدانوب بالقرب من الحدود التشيكوسلوفاكية دون أن يقدم إليهم طعام أو نقود . . . وقد استطاع التشيك أن ينقذوهم ؛ وهيأوا لهم مأوى مؤقتا وأمدوهم بالطعام . ولكنهم ما كانوا يجرؤون على الترحيب بهم واستضافتهم مدة طويلة أو على الدوام . ولذلك عملوا على ترحيلهم إلى هنغاريا . فأعادتهم إلى النمسا . (ليلاقوا العذاب ثانية !) . وقد حدث مثل ذلك أيضا لجماعة أخرى ، أخرجتهم النمسا من ديارهم ووضعتهم على ظهر سفينة ظلت تسير بهم فى نهر الدانوب عدة أسابيع على غير هدى حتى وقفت خارج إحدى الموانىء النهرية الهنغارية ! . . وانتهى الأمر بالسماح لهؤلاء المنكوبين بالدخول إلى فلسطين . وكان هؤلاء القلائل ولا شك من المحظوظين ، لأن ألوفا من إخوانهم لم يظفروا بهذه النعمة العظيمة .

أما فى ألمانيا ، فقد بدأت موجة الاضطهاد الكبرى فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ أيضا ، وذلك عندما قرر النازيون طرد اليهود نهائيا خارج حدود دولتهم . فكان مما حدث نتيجة لهذا القرار أن شرع النازيون يقبضون على اليهود المنحدرين من أصل بولندى المنتشرين فى أنحاء الريخ الثالث ، وكان أكثرهم لا يزال بملابس النوم الخفيفة عند القبض عليهم وأرغموهم على عبور الحدود البولندية الألمانية ، سيرا على الأقدام ، ومن ورائهم الجنود النازيون بمدافعهم الرشاشة . وقد بلغ عدد هؤلاء المنكوبين ١٥,٠٠٠ من بينهم ألفان من الأطفال وفى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٣٨ كان عدد الذين تركوا وشأنهم من غير مأوى أو ملبس أو مأكل ، يضربون فى الأرض الفضاء الواقعة بين حدود ألمانيا وبولندة عند بلدة زبونستزين Zbonszyn نحو سبعة آلاف نسمة .

وقد نشرت جريدة (نيوز كرونيكل) الانجليزية فى عددها الصادر فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٨ قصة هؤلاء التعساء كما رواها واحد منهم فقالت : « فى الساعة الخامسة من صبيحة يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، أوقظنا من نومنا وألقى القبض علينا . . . ولما كانت السجون تعج بمن فيها من اليهود البولنديين فقد أرغمنا مع مئات غيرنا على الوقوف والانتظار

فى ساحة السجن ينهمر علينا المطرمدرارا . وفى هذا المكان خاطبنا أحد زعماء جنود الحرس (S.S) وأخبرنا بأنه قد تقرر طردنا وإخراجنا من البلاد ، وبأنه سوف يجرى ترحيلنا من المانيا فى الساعة السابعة مساء . ولم يسمح لنا بالعودة إلى بيوتنا . وعلى هذا أرغمنا على مغادرة ألمانيا بما كان على أجسامنا من ملابس ليس غـــير أما بقيه ملابسنا وكذلك أثاث بيوتنا ، وأموالنا ، فقد اضطررنا إلى تركها جميعا فى المانيا ، وصادرها رجال الجستابو . ثم نقلنا بعد ذلك الى عربات السكة الحديدية المخصصة لنقل البهائم ، وتذوقنا فى هذه الرحلة صنوفا من العذاب وتحملنا آلام الوقوف والجوع والبرد . ثم قطعنا المسافه بين الحدود الألمانيه عند (نيوبوشن) Neu Beuchen والحدود البولندية سيرا على الأقدام ، وهى مسافه تبلغ عشرة كيلو مترات . وكان لجنود النازيون عندما غادرنا القطار قبل هذا السير المضنى ، يدفعوننا ويسوقوننا أمامهم كالأنعام ، وينهالون علينا بالضرب المبرح ، ويحيطون بنا من اليمين واليسار حاملين بنادقهم ذات الحراب ، وفى الخلف ، مصوبين مدافعهم الرشاشة نحونا وفى نهاية الأمر وصلنا الى الحدود البولندية ونحن فى حالة إعياء شديد ، حتى سقط على الأرض الشيوخ من الرجال ، والعجائز من النساء ، وغيرهن من برح بهن التعب وكذلك الأطفال ، وكان جميع هؤلاء يتركون من غير إسعاف أو مساعدة . ولكن الحراس البولنديين لم يسمحوا لنا بالمضى فى سبيلنا واجتياز حدود بلادهم وأرغم هذا الحشد وكنا ثمانية آلاف ، من همبورج ، وبرلين وكولون ، وإيسن ، على المكث فى غابة هناك . وفى أثناء ذلك كله ما كان يعنى بأمرنا إنسان ، فأخذ منا الجوع كل مأخذ ، وعضنا البرد القارس بأنيابه ، وسقط منا كثيرون ضحية للجوع والبرد وظللنا على هذه الحال حتى استطعنا أن نجد مكانا فى قرية على الحدود مكثنا بها ثمانية أيام يحرسنا الجنود البولنديون .... وكانت إقامتنا خلال هذه المدة فى حظائر الخيول ، وفى اثنين من هذه الحظائر التى ما كانت احداهما تتسع لأكثر من مائة حصان ، اضطر حوالى الثمانية الآف شخص إلى الاقامة . ينامون على القش ويهلكهم البرد وأخيرا شكلت لجنة لمساعدتنا وتزويدنا بالطعام . فكنا نتناول وجبتين احداهما فى الصباح والأخرى فى المساء ولم يكن ما نأكله فى كل وجبة يزيد على كسرة صغيرة من الخبز وقليل من الحساء . وهى كمية لم تكن تسد الرمق مما أدى إلى انتشار المرض وكان المرضى يعزلون فى خيام وينامون على القش . وكان عدد هذه الخيام سبعة ، ويجرى العمل لبناء عشر غيرها بسبب ازدحامها وليس هناك أى مستشفى . ويزداد عدد المرضى الذين يشكون من الآم المعدة بسبب رداءة الطعام وقلة التغذية أما الذين أصيبوا بحمى التيفود فقد بلغوا المائة . والماء الموجود فى معسكرنا لا يصلح للشرب لأنه ملوث . ومع هذا يدفع اليأس الجميع إلى الشرب منه إذ لا يوجد سواه ! »

هذه القصة كتبت بعد مضى أسبوع واحد على وجود هؤلاء المنكوبين فى المنطقة الحرام الواقعة بين الحدود البولندية والألمانية . وقد اضطر حوالى خمسة الآف من هؤلاء التعساء إلى البقاء فى (زبونسترين) Zbonszyn أكثر من شهرين . يتلقون مساعدة الهيئات اليهودية البولندية التى جمعت التبرعات لإعانتهم ونجدتهم فى جميع أنحاء العالم .

* * *

أما السبب الذى دعا إلى بقاء هؤلاء المنكوبين وأمثالهم من غير مأوى أوملبس أومأكل فى المناطق الحرام الواقعة بين حدود دولة الريخ وحدود الدول المجاورة ، فهو أن هؤلاء « اللاجئين » اليهود كانوا فى الحقيقة لا يحملون « جوازات » أو أية أوراق رسمية من حكومة الريخ الثالث تدل على جنسياتهم . ذلك بأن النازيين رفضوا بتاتا إعطاء هؤلاء اليهود المطرودين المنبوذين أية جوازات أو أوراق رسمية ، كما فعلوا مع خصومهم السياسيين الآخرين الذين اضطروا الى الفرار من الطغيان النازى ، أو أرغمهم النازيون أنفسهم على مغادرة البلاد الأمر الذى أوجد ما صار يعرف باسم « مشكلة اللاجئين » .

وذلك أنه كان من المتعذر على الحكومات ، تبعا لأحكام القانون ، أن تقبل فى بلادها الاشخاص الذين ليس لديهم جوازات تثبت جنسياتهم (فعرفوا لذلك باسم الأشخاص الذين لا دولة أو لا وطن لهم) وكذلك الأشخاص الذين ليس لديهم تأشيرات من قنصليات الدول التى يبغون اجتياز حدودها أو الاقامة بأرضها .

وقد أوضح أحد الثقاة طرفا من أسباب مشكلة « اللاجئين » هذه ، بقوله « أن لعب كرة التنس الذى يتقاذف أفرادا من البشر قد أصبح أمراً مألوفا معروفا فى أوربا الوسطى منذ وضعت الحرب العظمى الماضية أوزارها بيد أن عدد ضحايا هذه اللعبة فى الماضى كان قليلا كما أن هؤلاء الضحايا كانوا فى الحقيقة من الأفراد الذين أمسوا لا دولة لهم إذ فقدوا جنسياتهم من جراء التغيير الذى طرأ على الخريطة السياسية بعد انحلال امبراطورية الهابسبرج القديمة أما الآن فقد صار تقاذف أفراد البشر من المسليات الجديدة التى أوجدها إمعان المانيا فى طرد اليهود وغير الآريين والخصوم السياسيين دون رحمة أو شفقة . وصار حراس الحدود فى كل دولة إذا ما أرخى الليل سدوله يتنافسون فى الخلاص من أكبر عدد ممكن من هؤلاء (اللاجئين) الموجودين فى المناطق الحرام المتاخمة لحدود بلادهم ، وذلك بأرغامهم على اجتياز الحدود والدخول إلى أرض الدول المجاورة بطريقة لايقرها عرف أو قانون وبذلك يساعد رجال الشرطة فى كل دولة مثل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال على خرق قوانين الدولة الأخرى بل أنهم ليدفعونهم الى ذلك دفعا فكان جند الحرس (S.S) ورجال الجستابو ينقلون

كل مساء حوالى الأربعين لاجئا من النمسا الألمانية إلى القرى الواقعة على حدود مورافيا ، ثم يأمرونهم بعد إعطائهم بعض نقود تشيكية بالعدو السريع عبر الحدود . فيتلقاهم من الجانب الآخر الحراس التشيك ويرغمونهم على عبور الحدود مرة ثانية إلى بلادهم والعودة من حيث أتوا . أما الذين يستطيعون الإفلات من قبضة هؤلاء الحراس ، فكانوا يعيشون عيش المجرمين فى المدن التى يلجأون إليها . لأنهم ما كانوا يجرؤون على قيد أسمائهم فى سجلات « البوليس » أو كسب قوتهم . بل كانوا فى خوف دائم من أن يكشف أمرهم ويرغموا فى النهاية على الخضوع لهذه التجربة القاسية مرة أخرى . وكان من أثر هذا الرعب الذين فيه يصبحون وفيه يمسون أن صاروا فريسة سهلة فى أيدى أصحاب المحال التى ينزلون بها أو أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم ، فيظل هؤلاء يهددونهم بفضح أمرهم « للبوليس » حتى يسخروهم فى أعمالهم بأجور زهيدة لا يجد اللاجئون مناصا من قبولها خشية أن يؤدى إفشاء سرهم إلى أن تطبق عليهم القوانين التى وضعتها حكومات هذه البلاد ضد الأجانب .

« وقد حدث مثل ذلك أيضا عند الحدود السويسرية ؛ بل إن حوادث اللاجئين عند هذه الحدود مالبثت أن زادت زيادة كبيرة إذ أن سويسرة أجازت مؤقتا دخول اللاجئين إلى بلادها بيد أن السلطات الحكومية فى (برن) مالبثت هى الأخرى أن غيرت من موقفها آزاءهم ، فصارت ترفض كما فعلت حكومة (براج) — التشيكوسلوفاكية — قبول اللاجئين إليها . وهكذا أخذ جنودها ورجال الشرطة فيها ومن إليهم يبدون نشاطا عظيما فى حراسة معابر الجبال وشواطىء بحيرة (كونستانس) حتى أوصد هذا الباب فى وجوه اللاجئين وزادت تبعا لذلك شقاوتهم وتعاستهم . »

تلك كانت (هيستريا اليهودية) فى ألمانيا النازية . وظاهر أن هذه الهيستريا بلغت ذروتها فى كل من ألمانيا وكذلك النمسا (بعد احتلالها) فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ . وفى الواقع إن هذه الموجة القاسية كانت تقترن بحملة واسعة ضد اليهود فى ألمانيا ، فطفقت الصحف النازية تذكر الأهلين من جديد بقوانين نورمبرج ، ونشرت (Schwarze Korps) فى عددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٣٨ — وهى صحيفة الجستابو والحرس الهتلرى المختار — (S.S) ، طائفة من القوانين والقرارات التى يقصد بها حرمان اليهود من كسب العيش فى ألمانيا ، ثم قالت : « سوف يستنفد اليهود مالديهم من رؤوس أموال ، ويغدون فى عداد المجرمين ، وعند بلوغ هذه المرحلة ، فسوف نواجه ضرورة ملحة شديدة ، هى ضرورة إبادة عالم اليهود الإجرامى بالوسائل نفسها التى نتبعها مع المجرمين ، أى بالسيف والنار . وأما النتيجة المنتظرة فهى نهاية اليهودية وتحطيمها تحطيما لاقيامة لها من بعده » .

ولما كانت (هستريا اليهودية) جزءاً متمما (لهستريا الجنس) ولا يمكن أن تنفصل عنها ، فقد صار من الضرورى إظهار مدى ما بلغته هذه الهيستريا الأخيرة فى مسألة صون الجنس الآرى وتهيئته للسيطرة العالمية المنتظرة لا من جهة ضمان نقاء الدم الآرى وعدم تلوثه بدم الأجناس الأخرى غير الآرية مثل اليهود ، وإنما من جهة لا تقل فى نظر النازيين خطرا عن سابقتها وهى ضرورة تأسيس المجتمع النازى من أفراد أشداء صحيحى الأجسام ، سليمى العقول ، يصلحون بفضل نقاء دمهم ، وصحة أبدانهم وسلامة عقولهم (؟) للاستئثار بالحكم والسلطان لا فى المانيا وحدها بل وفى العالم أجمع .

* * *

لم يتورع النازيون عن ارتكاب أشنع الجرائم للتخلص من جميع الأفراد الذين قضوا بعدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء فى المجتمع النازى الذى ينبغى أن يتألف فى نظرهم من الأفذاذ والاسياد فحسب . ولجأوا فى تحقيق أغراضهم إلى وسائل ثلاث : هى القتل ، والخصى والتعقيم . إذ أنه لم يكن هناك مناص من اختيار الصالحين بدنيا وعقليا وخلقيا حتى ينسلوا أطفالا صالحين من تلك النواحى ، تقوم على أكتافهم عندما يشبون عن الطوق صرح الدولة الوطنية الاشتراكية الصميمة .

وقد دلت الإحصائيات على أن عدد المصابين بعلل جثمانية وعقلية وبأمراض تمنعهم من النضال فى الحياة من أجل كسب العيش يبلغ المليونين . من هذا العدد الضخم ، كان دافعو الضرائب فى دولة الريخ يعولون ١,١٥١,٠٠٠ : وقدرما كانوا يتكلفونه بمبلغ ١,١٥١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك سنويا . وقدر عدد المصابين منهم بأمراض عقلية بنحو ٨٨٠,٠٠٠ أى ٧٦ ٪ من مجموعهم . ويبلغ ما كان ينفقه عليهم دافعو الضرائب سنويا ٦٣١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك أو ٥٤ ٪ من العبء المالى كله . وقد استدل النازيون من ذلك على أن بقاء هذه الحال على ما هى عليه لا بد مفض إلى تدهور المجتمع فى النهاية . ولذلك استقر رأيهم على أن من واجب الدولة العمل على التخلص من هؤلاء المرضى غير الصالحين دون إبطاء .

ومع أن النازيين لم يعترفوا صراحة بأنهم يلجأون إلى القتل حتى يتخلصوا ممن يرون أنهم غير صالحين للعيش فى المجتمع الألمانى ، فقد أضحى هذا الأمر من الحقائق المعروفة ؛ ودل البحث على أن عدد القتلى من هؤلاء المنكوبين بلغ فى عامى ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ مائة ألف شخص اختارهم الزعماء والإخصائيون النازيون ، وتولى رجال الجستابو عملية الإجهاز عليهم من غير استشارة أسراتهم فى ذلك ، فلم يعرف أهلوهم من أمرهم شيئا بل كان يصلهم نبأ وفاة مرضاهم

فجأة على غير انتظار . وقد تقدم كيف أن (جرافينيك) ، (هارتيم) و (پيرنا) كانت مراكز هذه المجازر البشرية .

وفى أول يناير ١٩٣٤ صدر قانون يقضى بأن يخصى غير الصالحين . ثم نفذ (مكتب سياسة الجنس أو العنصرية) هذا القانون ، فبلغ عدد من تم خصيهم فى عامى ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ٩٩٦ شخصا : وقدر (المكتب) المذكور عدد الذين أخصوا عموما منذ صدور هذا القانون إلى قيام الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ أى بما يزيد على ٣٠٠ شخص فى كل سنة .

وبعد خمسة شهور من وصول الهر هتلر إلى الحكم ، صدر قانون استطاع النازيون بفضله أن يعقموا (٣٧٥,٠٠٠) شخصا تقريبا فى ست سنوات ، أى إلى عام ١٩٣٩ . وأما هذا القانون . ويطلق عليه اسم « قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل » فقد نص على ضرورة إجراء جراحة لكل فرد مصاب بمرض وراثى . حتى يصبح عاجزا عن أن يكون له أطفال ، على شريطة أن يثبت بطريق الخبرة والتجارب العلمية الطبية أنه من المحتمل جدا أن يرث الأطفال الذين يولدون لهذا الشخص قدرا كبيرا من النقص الجثمانى والعقلى » . وبلغت هذه الأمراض الوراثية تسعة . منها ضعف العقل ، والصرع ، والصمم والعمى الوراثيان ، والعاهات الجثمانية والجنون والإدمان على المسكرات وغيرها . وكان هذا القانون يطبق على الألمان وعلى الأجانب سواء بسواء ، فلم يستطع الأخيرون الإفلات من جراحة العقم إلا إذا غادروا الريخ . وأما الألمانيون المصابون بأحد هذه الأمراض ، وكانت سنهم تزيد على عشر سنوات فكانت تجرى لهم هذه الجراحة ، ولم يستثن من ذلك سوى الأشخاص الذين لم تكن لديهم قدرة على التناسل بسبب شيخوختهم أو لأسباب أخرى ، وكذلك الأشخاص الذين كان يخشى على حياتهم من إجراء هذه الجراحة لهم ؛ هذا فضلا عن الأشخاص الموضوعين تحت الرقابة التامة فى إحدى المؤسسات أو المصحات التى توافق عليها الدولة . أو الذين كانوا يفضلون بمحض اختيارهم دخول إحدى هذه المؤسسات حتى لا تعقمهم الدولة .

وقد أجاز النازيون التعقيم بصفة اختيارية ما دامت الجراحة لا تعرض حياة الراغبين فى إجرائها للخطر ، وفى غير الظروف التى يثبت فيها أن الأفراد الذين يرغبون فيها ، غير مصابين بعاهات أو أمراض يخشى انتقالها بالوراثة إلى ذراريهم . والسبب فى هذا القيد أن القانون النازى كان يعتبر الإكثار من النسل واجبا تفرضه الدولة على المواطنين الأصحاء ، أصحاب العقول والأجسام السليمة ، كما كان يعتبر منع المرضى والمصابين بالعلل الوراثية من أن يتناسلوا من أهم وأقدس واجبات الدولة .

ولا شك فى أن (قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل) كان من أخطر القوانين التى سنها النازيون وأقساها . فمن الناحية العلمية ، لم يقطع علماء البيولوجيا برأى فى أنواع الأمراض التى يمكن انتقالها بالوراثة ؛ كما أنه من المتعذر تقدير مدى ضعف التفكير وإعمال الروية لدى أى إنسان ، أو إقامة الدليل على أن رجلا من الرجال ضعيف العقل قاصر الذهن ، قليل الإدراك . وكل هذه من الحالات التى كان النازيون يطلبون أن يعقم من أجلها أصحابها ولم يجد واضعو هذا القانون وسيلة للتمييز بين ذوى العقول السليمة وذوى العقول المضطربة سوى الإلتجاء إلى ما يسمونه (اختبارات الذكاء) . وهى عبارة عن مجموعة من الأسئلة كانت تضعها الحكومة النازية وتطلب إلى الأفراد الذين تريد فحصهم الإجابة عليها ؛ فإذا استطاعوا ذلك كانوا من أصحاب العقول الراجحة السليمة ؛ أما إذا عجزوا ، كان التعقيم الإجبارى من نصيبهم . غير أنه كان يحدث فى حالات عدة أن (المرضى) كانوا يستطيعون الحصول على الإجابات المطلوبة فى نظير رشوة يدفعونها عن طيب خاطر فى سبيل التحرر من قسوة هذا القانون . ولما وجد النازيون أن كثيرين من خصومهم الذين أرادوا حرمانهم القدرة على التناسل نكاية بهم قد استطاعوا الإفلات من (اختبارات الذكاء) ابتكروا « مقاييس » أخرى تمكنهم من تنفيذ مآربهم . فقال الهر هتلر إنه يكفى لإثبات حالات ضعف العقل وقصور الذهن أن يوسم الفرد بالتفكير السطحى أو بعدم القدرة على تقليب وجوه الرأى فى أمر من الأمور ، أو بالانحلال الخلقى ، وهكذا عقم النازيون أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص بسبب « ضعف عقولهم » ، كما أدعوا . كما سيطروا بفضل هذا القانون وبفضل التفسيرات والاختبارات التى أعدوها على حياة ثمانين مليونا من الأنفس فى دولة الريخ الثالث .

ولم يقنع النازيون بإجراء عمليات التعقيم والخصى للأشخاص الذين ينطبق عليهم القانون بل اتخذوا من وجود هذا القانون ذريعة لإلقاء الرعب والفزع فى قلوب أولئك المواطنين الذين اعتبرهم السادة النازيون أعداء للنظام القائم . فكان التعقيم والخصى إلى جانب القتل والعزل فى مصحات الاعتقال من وسائل بسط نفوذهم وسلطانهم على ألمانيا .

ومع هذا كان النازيون يبررون ما يفعلون بأنهم إنما يريدون أن ينشئوا مجتمعا من السادة الصالحين لممارسة شئون الحكم فى العالم . فهم من أجل إنشاء هذه الطبقة (النبيلة) لايترددون فى اتباع كل ما يرونه ضروريا للمحافظة على نقاء الدم وخلوص الجنس الآرى من الشوائب . وللتأكد من أن الصالحين جثمانيا وعقليا وخلقيا هم وحدهم أصحاب الحق فى

أن يتناسلوا . وكان ذلك أهم ما دعا النازيين إلى إصدار ماسبق الحديث عنه من القوانين المتعلقة بالزواج .

ومما يدل على أن النازيين كانوا يريدون من سن هذه القوانين الصارمة أن يوجدوا مجتمعا من الرجال الأفذاذ المتعصبين للمبادىء النازية ولتعاليم الزعيم ، والذين لا يعرفون غير الدولة الوطنية الأشتراكية الصميمة وطنا لا يحجمون عن أن يفتدوه بالمهج والأرواح ، أن الزعماء النازيين حرصوا دائما على أن يختاروا جماعة الحرس المختارة (S.S) الذين اصطفاهم الهر هتلر وانتقى منهم حراسه الخصوصيين الذين يسهرون على حياته من بين الذين نشأوا نشأة نازية صحيحة وثبت نقاء جنسهم الآرى وصلاحيتهم العقلية والخلقيـــة حسب مقاييس الحزب ، ولزيادة التأكد من أن طبقة النبلاء الجديدة من جنود الحرس ، سوف تظل دائما بمنأى عن أن يلوثها بطريق المصادفة أو الخطأ امتزاج دم الأجناس الأخرى بدم أعضائها الآرى النقى ، أو انتقال أحد الأمراض المعدية إلى أفرادها وذرياتهم ، لم يقنع النازيون بالقوانين القائمة المعمول بها فى هذا الشأن ، بل أصدروا أوامر وتعليمات خاصة طلبوا إلى جنود الحرس (S.S) الخضوع لها والعمل بهـا ، فاصدر (هنريك هيملر) فى آخر ديسمبر ١٩٣١ أمرا جاء فيه : (أولا) رجل الحرس (S.S) يجرى اختياره بدقة من بين الألمان الذين ينحدرون من أصل آرى صحيـح ، (ثانيا) وعملا بمـا تتطلبه أغراض الوطنيـة الاشـتراكية ، وبناء على ماهو معروف من أن مستقبل الشعب الألمانى (الجرمانى) يتوقف على بقاء الدم الذى يجرى فى عروق هـذا الشعب نقيا ، تقرر أن تعد تصريحات خاصة لزواج جنـد الحرس ابتداء من أول ينـاير ١٩٣٢ ، (ثالثا) الغرض من هذا إنشاء أسرات جرمانيـة محترمة من الجنس الآرى ، وبقاء هذه الأسرات ، (رابعا) تعطى أو تمنع تصريحات الزواج هـذه بناء على اعتبارات متعلقة بنقاء الجنس وسلامة الصحة الموروثة لحسب (خامسا) كل فرد من أفراد الحرس (S.S) يريد الزاج عليه أن يحصل على ترخيص من زعيم هذه الجماعة هنريك هيملر ، (سادسا) جميع من يتزوجون على الرغم من رفض الترخيص لهم بذلك يطردون من جنود الحرس . وفى المواد (السابعة والثامنة والتاسعة) طلب هيملر من الراغبين فى الزواج أن يقدموا جميع الوثائق التى تثبت خلوص آريتهم وآرية الزوجات اللواتى يقع عليهن اختيارهم حتى تستطيع الهيئة المكلفة بفحص هذه المسألة أن تهيء «شجرة الأسرة» كاملة لفرق الحرس وأن تحتفظ بها ضمن أوراقها ووثائقها . وفى المادة العاشرة والأخيرة ، اختتم هيملر هذا الأمر بقوله : « إن جنود الحرس (S.S) يعرفون دون ريب أننا خطونا بفضل صدور هذا الأمر خطوة لها أهميتها . وكل سخرية أو تحقير أو سوء فهم لا يؤثر فينا ، فإنما المستقبل لنا وحدنا ».

ولما كان جنود الحرس من الذين سبق لهم اجتياز اختبارات الحزب النازى المنوعة قبل انضمامهم إلى هذه الجماعة المصطفاة ، فان جميع المتاعب الناشئة عن تطبيق هذا الأمر كانت فى الحقيقة من نصيب المرأة التى تحدثها النفس بالزواج من أحد هؤلاء النبلاء الجدد ، فكان عليها قبل كل شيء أن تكتب الى عدد من الأبروشيات حتى تستخرج من سجلاتها شهادات الميلاد ووثائق الزواج الخاصة بأجدادها إلى الجد الثالث على الأقل ولم يكن استخراج هذه الشهادات والوثائق من الأمور السهلة الهينة ، بل كان يتطلب جهدا عظيما من السيدة إذ كثيراً ما كانت تضطر الى السفر والانتقال من مكان إلى آخر باحثة منقبة ، تقابل طائفة من الموظفين وتتحدث الى رجال الدين المكلفين بحفظ هذه « السجلات » « الثمينة » فى الأبروشيات المختلفة ومن يدرى لعلها لا تظفر بعد هذا الجهد المضنى بطائل ، لضياع هذه الشهادات والوثائق القديمة نتيجة أهمال المكلفين بحفظها فى بعض الأحيان ، وبعد وصول النازيين إلى الحكم وصدور قوانين الزواج الصارمة ، تعددت حوادث السطو على الأبروشيات لسرقة سجلات المواليد والوفيات وعقود الزواج ، رغبة فى (تزوير) شهادات ووثائق يمكن بيعها فى (السوق السوداء) التى أوجدتها قوانين الزواج النازية لمن يبغون إثبات أن الدم الآرى النقى يجرى فى عروقهم وعروق أجدادهم من أزمنة قديمة ، حتى تتاح لهم فرصة الزواج أو الالتحاق بإحدى الوظائف الحكومية الهامة أو الإنخراط فى سلك الحزب النازى العتيد ، أو الانضمام إلى طوائف الحرس الأسود (S.S) والتمتع بالمزايا التى أضحت من نصيب هؤلاء « النبلاء » الجدد فى ألمانيا النازية .

فاذا استطاعت السيدة بعد هذه المتاعب الأولى الحصول على الشهادات والوثائق التى تريدها من الأبروشيات المختلفة ، وقبلت السلطات النازية هذه الأوراق وقطعت بأنها صحيحة ، وجب عليها بعد ذلك أن تعرض نفسها لفحص طبى دقيق تقوم به وزارة الصحة حتى تحصل على « شهادة الصحة » التى لا غنى عنها بتاتا من أجل إجازة الزواج والموافقة عليه . وقد يظن القارىء أن هذا الفحص طبى بالمعنى المعروف ، ولكن الذى يحدث خلاف ذلك . إذ يكفى أن تقتنع السلطات النازية بأن السيدة من مؤيدات « الزعيم » والنظام القائم ، فتعطيها الشهادة الطبية المطلوبة مادامت ذات شعر أشقر ، وجمجمة طويلة وعينين زرقاوين ولها غير ذلك من الخصائص الجثمانية التى تميز فى نظر النازيين الجنس الآرى من الأجناس الأخرى . ومما ينبغى ذكره أن هذا الفحص الطبى قد أغفل إغفالا تاما فى أثناء الحرب . فصار طالبو الزواج يحصلون على الشهادات الصحية بعد فحص سجلات الصحة العمومية . بينما يعفى الجنود وغيرهم ممن يؤدون خدمات وطنية مماثلة لما يؤديه الجنود من الفحص الطبى إعفاء تاما .

فإذا استطاعت السيدة إرضاء السلطات النازية والحصول على « شجرة الأسرة » المطلوبة

أو « جواز الآرية » . ثم على الشهادة الصحية . أمكنها أن تقدم طلبا للدولة حتى تحصل على « قرض الزواج » ذلك بأن الدولة النازية أخذت على عاتقها منذ دانت السلطة للهتلريين فى دولة الريخ الثالث . إعطاء الزوجين معا قرضا يصل أحيانا إلى الألف من الريخماركات أو الخمسين جنيها انجليزيا . وعند بدء العمل بهذا النظام منذ أول يونيه ١٩٣٣ كثر الإقبال على الزواج حتى اعتبر النازيون هذا التنظيم نجاحا عظيما لهم . وعلى هذا لم يكن الغرض الأول من (قروض الزواج) سوى معالجة أزمة البطالة المنتشرة فى تلك الآونة بطريق غير مباشر . إذ كان من شروط الحصول على (قروض الزواج) أن تكف السيدة المزمعة على الزواج عن مزاولة عمل من أعمال كسب العيش فى الدولة . فتفسح بخروجها من ميدان العمل مكانا لأحد الرجال العاطلين . أما ما أحدثه هذا التنظيم من آثار فيحسن إرجاء الكلام فيه حتى يبحث مركز المرأة فى ألمانيا في ظل النظام النازى الجديد .

فإذا استطاعت السيدة التسلح « بجواز الآرية » . و « الشهادة الصحية » ، و « وثيقة (قروض الزواج) . فإن عليها إذا أصرت بعد ذلك كله على الزواج من خطيبها جندى الحرس الأسود (S.S) أن تلتحق بمدرسة أعدت خصيصا « للعرائس » ، Bräuteschule ، وهى مدارس انتشرت فى ألمانيا وأرغم النازيون « العرائس » على الالتحاق بها حتى يتلقين التعليم الذى كان يعده النازيون ضروريا لكل امرأة تريد الزواج من أحد جنود الحرس والانضمام بفضل هذا الزواج إلى زمرة « النبلاء » ، الذين تتألف منهم أرقى الطبقات وأعلاها فى المجتمع النازى .

* * *

ولكن لماذا كان على المرأة وحدها أن تتحمل كل هذه المتاعب ؟ بعض السبب فى هذا أن جنود الحرس الأسود (S.S) رجال سبق اختيارهم واطمأن الزعماء إلى أنهم يتمتعون بجميع ميزات « البطل الآرى » . ولكن السبب الأكبر هو طبيعة المركز الذى كانت تحتله المرأة فى المجتمع النازى الجديد . ويوضح نظره النازيين إلى المرأة ومقدار مايحملونه لها من احترام أو تحقير ، أقوال زعمائهم وكتابهم ، وكذلك تصرفاتهم وتشريعاتهم منذ وصولهم إلى الحكم . فقد حرص النازيون من مبدأ الأمر على إبراز حقيقة لها أهميتها : هى أن الدولة التى يعتزمون إنشاءها (دولة رجال) لا يمكن أن تجد المرأة فى وظائفها المدنية والسياسية مكانا تستطيع أن تعمل فيه إلى جانب الرجل ، أو أن تنافسه فى كسب العيش ؛ كما أنها محرومة الحرمان كله فى (دولة الرجل) هذه من أية حقوق سياسية ، وبخاصة حق التصويت فى الانتخابات .

لذلك كتب أحد النازيين عقب وصول حزبه إلى الحكم يقول : سوف تعيش المرأة الألمانية منذ الآن فى دولة يشيدها ويقودها الرجل ، أى فى دولة غير برلمانية ، دولة محافظة لن يكون للمرأة فيها خلال المدة الطويلة التالية أى نفوذ مباشر ، كما كان الحال فيما مضى . وفى كتاب (أسطورة القرن العشرين) ، كتب فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « لقد كان دائما من رأى أصحاب التفكير العميق أن الرجل متفوق على المرأة فى ميادين البحث العلمى والاختراع والكشف ، وفى جميع الأعمال التى تدعو إلى الابتكار ، أما المرأة فوظيفتها مقصورة على صون الدم وتخليد الجنس (أى التناسل) » . إلى أن قال : « وفى أوقات المحن العصيبة ، يظهر إلى عالم الوجود كل من الرجال المخنث والمرأة « المحررة » وكلاهما دليل الانحلال السياسى والثقافى . وعلى الرغم من جميع الحريات الممنوحة للمرأة ، فإن قول الفيلسوف اليونانى أرسطو لايزال صحيحا وهو : إن عجز المرأة هو الذى يجعل منها المرأة التى نعرفها ؟ » وعلى ذلك ، كان منح المرأة نفوذا دائما فى أعمال الدولة من علامات انحلال العصر التى لا يمكن أن يخطئها أحد . وآية ذلك — فى نظر روزنبرج — « هذا الهبوط الشنيع الذى نلحظه فى مستوى الثقافة الأمريكية نتيجة لتمتع المرأة بمركز له خطره فى المجتمع الأمريكى » . بل إن (روزنبرج) لا يتردد فى الاعتقاد بأنه لو كان أمر الدفاع وتصريف شئون السياسة متروكا بأيدى النساء ، لكان مصير أمريكا الضياع والفناء منذ مدة طويلة . وفى عام ١٩٣٤ تحدث الهر هتلر إلى (مؤتمر النساء) عند انعقاد الحزب النازى فقال : « لقد حرصنا نحن الوطنيين الاشتراكيين منذ عهد طويل على أن نمنع النساء من التدخل فى شئون الحياة السياسية التى لا تعنيهن إذ أن هذا التدخل عار وأى عار » .

ومع هذا ، فقد حرص النازيون على ألا يظهروا بمظهر المحقرين لشأن المرأة ؛ ومن الحقائق المعروفة أن النساء فى ألمانيا كن من أكبر المشجعين للحزب الوطنى الاشتراكى عند نشأته ، ومن أكبر المؤيدين للزعيم هتلر وأنصاره فى جميع الانتخابات التى أوصلته فى النهاية إلى منصب المستشارية ، اعترف الهر هتلر نفسه بهذه الحقيقة ، فقال إنه لايسعه سوى الاعتراف بما كان لجلد النساء وشدة احتمالهن للمصاعب ، وإخلاصهن للحركة النازية من أثر كبير فى نجاحها ؛ فلولا هذا الجلد وذياك الإخلاص من جانب المرأة الألمانية لما استطاع أن يقود الحزب إلى النصر فى النهاية . ولذلك لم يشأ الزعماء النازيون فى البداية إغضاب المرأة ، فشرع (الهر جوبلز) وزير دعايتهم يفسر أقوال (روزنبرج) وغيره ، بقوله إن إخراج المرأة من الحياة العامة ليس المقصود منه التخلص منها أو الاستغناء عن خدماتها ، وإنما إرجاعها إلى الحياة الأصيلة الشريفة حياة الأسرة والمنزل .

غير أن أقوال (جوبلز) وأمثاله ما كانت لتغير شيئاً من نصيب المرأة التى انحط مركزها فى المجتمع الهتلرى حتى صارت هدفاً لكل الاهانات التى شاء متطرفو النازيين أن يوجهوها اليها . وكانت السيدات « الآريات » التى نشأ بينهن وبين اليهود غير الآريين مودة وصداقة أكثر عرضة للتحقير والاهانة من غيرهن ، وتحملن عذاباً أليماً على أيدى الشبان الهتلريين فى كل ظرف ومناسبة . من ذلك ما حدث فى (نورمبرج) فى يوم من أيام شهر أغسطس عام ١٩٣٣ عندما قبض شاب من جند الهجوم (S.A) على فتاة آرية تبلغ التاسعة عشر ربيعاً كانت تسير فى صحبة شاب يهودى ، فانتزعها قسراً إلى مكان قريب حيث قص شعرها وحلق رأسها وعلق حول عنقها إعلاناً كتب عليه : « لقد أسلمت نفسى إلى رجل يهودى ! » ولم يكن هذا كل ماحدث للبائسة ، إذ اجتمع من حولها زعانف النازيين وأرغموها على السير فى الشوارع والتنقل من مقهى إلى آخر ، وفى كل من هذه المقاهى أرغموها على أن تقف فوق منصة عالية وانهالوا عليها بأفحش ألفاظ الشتم والسباب . أما الفتاة المسكينة فسرعان ما فقدت عقلها عقب هذا الحادث المؤلم ، وأودعت مستشفى الأمراض العقلية ولا يدرى أحد ماحدث لها بعد ذلك وإذا كان هذا نصيب المرأة الآرية ، فإن نصيب المرأة اليهودية على أيدى الهتلريين كان أشد وأنكى . فاليهوديات كن « المنبوذات » فى المجتمع النازى الجديد . ومن المعروف أن النازيين بعد سقوط النمسا أرغموا السيدات اليهوديات فى مدينة ڤينا على تنظيف (مراحيض) الرجال ونقل القاذورات بأيديهن !

وكذلك يتبين مبلغ امتهان المرأة من الأساليب التى كان يتبعها الهتلريون فى معاملة النساء عامة فى المجتمع الألمانى . فبينما كانوا يطلبون إلى زوجاتهم البقاء فى بيوتهن لإدارة شئون الأسرة ويحضونهن على عدم التزين واستخدام المساحيق وما اليها بحجة أن المرأة النوردية ليست فى حاجة إلى مثل هذه الوسائل المنافية للحشمة والتى تلجأ اليها غير الآريات والزنجيات ومن فى عدادهن لاصطياد الرجال واغرائهم ، كانوا من ناحية أخرى ، باعتبارهم أصحاب السيادة والنفوذ فى دولة الرجل الجديدة يسيرون مع غير زوجاتهم سيرة معوجة . فيقبلون على معاشرة الشقراوات الجميلات خارج نطاق الزوجية ، ويطلبون إلى خليلاتهم الاهتمام بكل مايزيدهن جمالاً ويكثرون من إهدائهن الورود والزهور . ويقرعون معهن كؤوس الشراب مترعة حتى قال أحد النقاد الاجتماعيين ما معناه : إن كل شىء فى ألمانيا لايمكن الحصول عليه بدون بطاقة التموين ، عدا الشقراوات ، والزهور والرياحين ، والشمبانيا ، ومعاطف الفرو الثمين والجنبرى ! »

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد ظهرت عوامل أخرى نشأ بعضها ولا شك من إمتهان المرأة وتحقيرها وتحريم الزينة عليها وإرغامها على الترهل والبدانة — لأن البدانة كما كان يزعم

النازيون من أنجع الوسائل لسرعة الحمل وولادة الأطفال الأصحاء — ونشأ بعضها الآخر من طبيعة تنظيم الحزب النازى نفسه ، وكذلك تنظيم الدولة التى شاء الزعماء أن تكون دولة من الرجال ، وللرجال وحدهم وقد نجم عن تضافر هذه العوامل انتشار مرض الاختلاط الجنسى الشاذ بين هؤلاء الرجال أنفسهم .

وهذا المرض الاجتماعى الوبيل ، يرجع فى الحقيقة إلى أصول تاريخيـة وثقافية قديمة ، يمكن إدراكها إذا عرف شىء عن تاريخ الأمة الألمانية خلال حرب التحرير من السيطرة النابليونية وكذلك عندما ظهرت رغبتها فى التحرر من سلطان الأمبراطورية النمساوية القديمة فى القرن التاسع عشر فقد لجأت فى سبيل تحقيق أغراضها ومآربها إلى تأليف الجمعيات السياسية من أبناء الجامعات الألمانية وغيرها أمثال (البورشنشافت) (Burschenschaft) وجماعات الطلبة (ستودنتنشافت) (Studentenschaft) ، وكذلك جماعات « شباب ألمانيا الحرة » (فرايدوتش يوجند) (Ereideutsche Jugend) . التى تألفت فى عام ١٩١٣ من الشبان الذين أرادوا الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على معركة (ليبزج) حيث انهزم نابليون بونابرت فى أكتوبر ١٨١٣ . وكانت كل من هذه الجماعات تقوم على أساس إفناء الفرد فى شخص الحزب أو الجمعية وإفناء الحزب أو الجمعية فى شخص الزعيم ، وكان يربط بين الأعضاء من ناحية وبينهم وبين الزعيم من ناحية أخرى رباط الدم على غرار ما كان يحدث بين القبائل والعشائر الجرمانية القديمة . كما أن مؤسسى هذه الجماعات اعتقدوا بضرورة عزل أعضائها الشبان — ومنعهم من مخالطة النساء ، بدعوى أن هذه المخالطة تصرف الأعضاء عن تكريس أنفسهم لخدمة القضية التى نصبوا أنفسهم لخدمتها . ولذلك أنشأوا لأعضاء هذه الجمعيات منتديات خاصة ، ورسموا لهم نوع الحياة التى يجب أن يعيشوها فى معسكراتهم ؛ وكان من السهل أن ينشأ مرض الاختلاط الجنسى الشاذ بين هذه الجماعات البعيدة عن النساء ، شأن كل جماعة تعيش فى عزلة جنسية .

وقد تقدم الكلام عن تأسيس الحزب النازى وشرح نظرية (الزعامة) المسؤولة وبيان ما كانت تتطلبه تلك الزعامة من ضرورة إفناء الفرد فى شخص الزعيم ؛ كما تقدم الكلام عن رغبة الزعماء النازيين فى أن يؤلفوا من شبان حزبهم طبقة جديدة من النبلاء فى ألمانيا ، فعزلوهم عن غيرهم ، كما قيدوا زواج أعضاء الحزب وجماعة الحرس الأسود على وجه الخصوص بتلك القيود الصارمة التى سبق ذكرها . ويتضح من هذا كله أن النازيين أنشأوا حزبهم على القواعد والمبادىء ذاتها التى عملت بها الأحزاب والجماعات القديمة ، مثل (البورشنشافت) وغيرها . وقد انتشرت العلاقات الجنسية الشاذة بين أعضاء الحزب النازى انتشارا مريعا من مبدأ الأمر

حتى صار زعماء الحزب لايجدون غضاضة فى أن يعرف الناس عنهم هذه الصفات المرذولة ، بل إنهم كانوا يفخرون بها ، وما يزال حادث (إرنست روم) وإخوانه من ضحايا « حمام الدم » المشهور فى ميونخ فى يونيه ١٩٣٤ ماثلا للاذهان .

وزيادة على ذلك ، فان هذه الرذيلة الجنسية الشاذة لم يكن لها سند تاريخى فحسب ، بل كانت ترجع كذلك إلى أصل ثقافى . فقد استطاع أحد كبار الكتاب والمؤرخين (أوتوزاريك) Oto Zarek أن ينشر فى عام ١٩٤٣ بحثا قيما عن تاريخ الثقافة الجرمانية من أدب وشعر وموسيقى وتصوير وفلسفة واجتماع وكان من النتائج التى انتهى إليها من جميع هذه البحوث ، أن (الروح) الجرمانية روح مزدوجة تحلق بالألمان فى سماء الإنسانية والمجد من ناحية ، وتهبط بهم إلى حضيض الحيوانية واستمراء البطش والقسوة من ناحية أخرى فى الوقت نفسه . وكان من بين ما تناوله هذا الكاتب المؤرخ مسألة وجود هذا المرض الجنسى الشاذ وانتشاره بين الجماعات والأحزاب الألمانية السياسية وغيرها من القديم ؛ وبين الحزب النازى نفسه . وقد أسفرت بحوثه فى هذا الموضوع عن نشر حقيقة ظلت الدعاية الألمانية على أيدى الهر جوبلز وأمثاله تحاول أن تطمس معالمها وهى أن الهر هتلر نفسه زعيم الحزب النازى ، وزعيم دولة الريخ الثالث ، كان من أشد الناس انغماسا فى هذه الرذيلة فقد ذكر (زاريك) فى كتابه (الثقافة الجرمانية) German Kultur صفحة ١٨٤ ما ترجمته :-

« كان (روم) الرجل الذى نجح نجاحا عظيما فى تنظيم خلايا الحزب النازى الجديد فجمع أعضاء الحزب من بين أفراد (حركة الشباب الألمانى) الذين كانوا أكثر قبولا من غيرهم للإنضمام إلى حزبه . وقد تبين أن ما قاله (بلوهر) Blüher ، قول صادق ، وهو أن الحركة النازية ما كان يمكن أن تنجح لو أن هتلر لم يضع نفسه على رأسها ، « فان كل شىء يتوقف على الشخصية » ، وهذا أمر مسلم به . ولكن شخصية هتلر لم تكن تتلاءم تماما مع ما كان يطلبه (بلوهر) ففيما بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٢٢ قبل حركة الانقلاب والثورة الفاشلة (Putsch) ، كان نشاط هتلر الجنسى الشاذ معروفا فى ميونخ . ثم سعى هتلر حتى يخفى أمر انغماسه فى هذه الرذيلة ، ويحيط هذا النشاط بسياج من الكتمان عندما أدرك أنه سوف يحتل مكانا ملحوظا فى أعين الجماهير . بل إن يقظته سرعان ما جعلته يحمل على هذه الرذيلة الشاذة فى خطبه العامة ، ولو أنه كان يعرف حق المعرفة أن أخص أتباعه المقربين إليه كانوا من المنغمسين فى حمأة هذه الرذيله .

وهتلر نفسه هو الذى جعل من (إرنست) صاحب الشهرة السيئة من هذه الناحية فى مجتمعات برلين ، رئيسا لجند الحرس الأسود (S.S) فى سيلزيا ، وقد ظل (إرنست) يحتل

هذا المكان الرفيع حتى قضى عليه فيمن قتلوا من زملاء (روم) فى حادث ميونخ . وهتلر نفسه هو الذى اختار (بالدور فون شيراش) Raldur von Schirach لزعامة شباب الريخ Reisch Jugend führer ، فلم تنقض فترة قصيرة حتى أطلق عليه أحد المتندرين فى برلين اسم (مفسد شباب الريخ) Reisch Jugen verführer (ومعنى verführer بالعربية المضلل أو الرجل الذى يحمل سواه على سلوك سبيل الغواية) . وهتلر نفسه هو الذى نصب الدكتور (فونك) Dr Funk وزيرا لمالية الريخ ، والدكتور فونك من الذين كانوا يترددون كل مساء على مواخير الاختلاط الجنسى الشاذ وهتلر نفسه هو الذى منح مركزا عاليا فى وزارة المالية لصديقه (ارنست والتر) (Walter) من محترفى الملاكمة ومدربه القديم فى السباحة .

ولكن أهم من ذلك تلك القصة التى يرويها ويؤكد صدقها أحد أقرباء وزير نازى مشهور ، وهى تلقى ضوءاً على حياة هتلر الشاذة . فقد اعترف هذا الشاهد بأن (بالدورفون شيراش) كان الشخص المكلف باختيار ضحايا الزعيم ، أما هؤلاء الضحايا فكانوا بعد افتراس الزعيم العظيم لهم وقسوته الشاذة معهم . يقتلون فى التو والساعة تخلصا منهم حتى لا يذيع شىء من أمر هذه المآسى . وعندئذ يرسل زعيم شباب الريخ خطاب تعزية لوالدى الضحية البائس يخبرهما فيه بأن فتاهما أصيب بحادث أودى بحياته فى أثناء خروجه فى رحلة للسير على الأقدام مع زملائه .

ويختتم (أوتو زاريك) هذا الحديث بقوله : « وإن هذه القصة لتتفق الاتفاق كله مع نظام التربية الألمانى ، وطقوس رباط الدم الأخوى الخفية ، وهى فى الحقيقة النتيجة المنطقية لعملية بدأت فى الواقع قبل تأسيس دولة الريخ الثالث على أيدى هتلر بحوالى المائة عام ! » .
ولعل أكبر دليل على انتشار هذه الرذيلة ما أذاعته جريدة الحرس الأسود (S.S) والبوليس الرسمية — المسماه Das Schwarzekorps — فى مارس ١٩٣٧ من أن عدد المصابين بهذا الداء الوبيل والملتحقين بمختلف الأندية المخصصة لإتيان هذه الفاحشة فى انحاء الريخ ، بلغوا المليونين عند وصول النازيين إلى الحكم . وهذا بطبيعة الحال عدا أولئك الذين كانوا لا ينتمون إلى هيئة من الهيئات التى أحصيت .

وفى استطاعة القارىء أن يتصور ما تكون عليه حال المرأة فى مجتمع تنتشر بين شبابه ورجاله وزعمائه رذيلة الاختلاط الجنسى الشاذ هذا الانتشار المروع !

على أن المصائب التى نزلت بالمرأة الألمانية لم يكن مصدرها جميعا انتشار هذا المرض فهناك ناحية ايجابية أيضا فى التنظيم والتشريع النازى سبب للمرأة الألمانية آلاما لا تحصى ،

وألحقت بها المذلة والمهانة . مثال ذلك ما فعله النازيون إذ حرموا النساء فى دولة الريخ الثالث مباشرة حقوقهن السياسية .

فمن الحقائق المعروفة أن عدد النائبات فى مجلس الريخستاج المنحل فى ٣١ يولية عام ١٩٣٢ كان يبلغ الثمانية والثلاثين أمرأة . نقص إلى خمس وثلاثين فى نوفمبر ثم إلى ثلاثين فى انتخابات مارس ١٩٣٣ ، ثم اختفى النساء من الريخستاج نهائيا منذ استأثر النازيون بالسلطان المطلق فى الدولة . وزيادة على ذلك فقد أصدرت الحكومة البروسيانية فى ٢٧ ابريل ١٩٣٤ أمرا يقضى بطرد جميع المتزوجات اللواتى تستطيع أسراتهن إعالتهن من الوظائف . وظلت الحكومة النازية تتذرع بشتى الوسائل لإنقاص عدد الموظفات إلى أقل عدد ممكن ، وطرد النازيون فيمن طردوا عددا كبيراً من المعلمات بمدارس البنات واستبدلوا بهن الرجال ، وبذلك نقص عدد المدرسات بمدارس البنات العالية فى عام ١٣٥ لى (٩و٩٤١) بعد أن كان قبل استلام النازيين لأزمة الحكم (١١و٣٧٠) . وفى السنة الدراسية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ بلغ عدد من يقومون بالتدريس فى المعاهد العالية (٥و٨٨٨) كان عدد النساء بينهم (٤٦) لم يعطين إلى جانب ذلك مناصب ثابتة أو مراكز مستقرة . ومع أن عدد المشتغلات بالاعمال الاجتماعية الصرفة ، ظل على ما هو عليه تقريبا مع ازدياد عدد الطبيبات فقد استأثر الرجال بالمراكز المسئولة ، وقد هدد الدكتور (جيرهارد واجنر) Gerhard Wagner وهو رئيس الأطباء النازيين فى ذلك الحين ، فى اجتماع عقد فى برلين فى ديسمبر ١٩٣٤ : « بانهم — أى النازيين — سوف يقضون على كل تربية عالية للنساء ! » إذ قيد النازيون تعليم المرأة العالى بقيود صارمة ، فاصدروا فى ٢٣ ابريل ١٩٣٣ قانونا قضى بانقاص عدد الطلبة فى الجامعات الألمانية إلى ١٢٠و٠٠٠ طالب ، على أن تبلغ نسبة عدد الطالبات ١٠٪ من هذا المجموع ، أى ١٢و٠٠٠ طالبة . فإذا عرف أن عدد الطالبات فى الجامعات الألمانية فى آخر سنة مدرسية سبقت وصول النازيين إلى الحكم ، بلغ (٢١و٨٢٩) أى ١٩و٢ ٪ من مجموع الملتحقين بالجامعات ، لتبين أن عدد الطالبات اللواتى أراد النازيون إخراجهن من الجامعات وحرمانهن الدراسة العالية لم يكن يقل عن (١٠و٠٠٠) فتاة . ومع أن السلطات النازية لم تلبث أن ألغت هذا القانون فى ٩ فبراير ١٩٣٥ ، فان الفتاة الألمانية الراغبة فى إتمام دراستها العالية كانت تجد مشقة عظيمة فى تحقيق هذه الرغبة .

ولكن إذا حرمت المرأة التعليم العالى ، والفرصة التى تمكنها من مزاولة المهنة التى يقع عليها اختيارها كالطب أو التدريس أو الخدمة الاجتماعية ، فماذا ياترى كان يريد النازيون أن يكون عملها ؟ لم يستطع النازيون الإدلاء برأى صريح حاسم فى هذه المسألة ، ولو أنهم قالوا أن الخدمة المنزلية ، هى ميدان المرأة الطبيعى الذى يتلاءم مع أنوثتها . إذ فى وسعها أن تعمل

كممرضة أو كمربية للأطفال أو مديرة منزل أو خادمة . وكان من رأيهم قبل اشتداد أزمة الأيدى العاملة خلال سنوات الحرب أن العمل فى المصانع أو المكاتب لايتلاءم مع أنوثة المرأة ، بل ينبغى أن يكون من نصيب الرجل وحده ؛ والظاهر أنهم كانوا يريدون تفريج أزمة البطالة التى واجهت النازيين فى بداية عهدهم . لذلك بذل النازيون جهداً عظيمة لإخراج النساء من ميدان العمل ولكنها كانت جهوداً فاشلة . إذ دلت الإحصائيات الحكومية على أن عدد النساء العاملات قد ارتفع من ٤,٢٧٢,٤٨٧ فى يناير ١٩٣٣ إلى ٥,٣٣٧,٥٧٣ فى عام ١٩٣٦ أى بزيادة (١,٠٦٥,٠٨٦) إمرأة . وسر هذا الفشل أن الرجل المتزوج ظل تحت الحكم النازى عاجزا عن زيادة كسبه بدرجة تمكنه من الانفاق على أسرته ؛ أضف إلى هذا أن النازيين لم يستطيعوا تحقيق الوعود التى أسرفوا فى بذلها للنساء الألمانيات عند بداية حكمهم : ومنها إعداد « البيوت » ذات الطراز الحديث التى ينبغى أن تكون من نصيب كل أسرة ألمانية فى دولة الريخ الجديدة ؛ فقد وجد النازيون أن تشييد هذه البيوت وتهيئتها للسكنى من الأمور المستعصية فى وقت كان الزعماء يوجهون فيه نشاط الأمة الألمانية نحو الاستعداد للحرب المنتظرة بل لقد كان هذا الاستعداد نفسه من الأسباب التى أدت إلى فشل النازيين فى اخراج المرأة من ميادين العمل المختلفة . فان الحكومة النازية سرعان ماجعلت نشاطها مقصورا على إنتاج عتاد الحرب ، حتى ظهرت الحاجة الملحة إلى الأيدى العاملة وإلى استخدام النساء فى نواحى الاقتصاد الأهلى المتعددة . بل إن النازيين سرعان ماعمدوا إلى إرغام عدد من النساء على ترك العمل فى الحوانيت والمكاتب وهو مايلائم أنوثتهن ، للعمل فى المصنع والحقل . وقد حدث هذا حتى قبل نشوب الحرب بمدة طويلة . ثم لم تلبث أن عظمت الحاجة إلى خدمات النساء فى مختلف الأعمال الإنتاجية بعد قيام الحرب وإخفاق النازيين فى جعلها حربا خاطفة ، تكفل لهم النصر السريع .

ذلك بأن الحرب أوجدت أمام النازيين مشاكل كثيرة ؛ كان بعضها متعلقا بضرورة استخدام جميع الوسائل التى من شأنها زيادة الإنتاج الحربى ، ومن أهم هذه الوسائل : الأيدى العاملة . وكان البعض الآخر متعلقا بضرورة الإكثار من عدد المقاتلين الذين يرسلون تباعا إلى ميادين القتال من جهة ، وإلى البلدان التى غزاها الألمان وخضعت لحكمهم من جهة أخرى . وقد أحدث وجود هذه المشكلات تغييرا ملحوظا فى مركز المرأة وفى الحيـــاة بصفة عامة فى داخل ألمانيا .

فأما عن الأثر الأول — فقد مر بنا كيف كان عدد النساء العاملات آخذا فى الزيادة بدرجة كبيرة ؛ مما يدل على أن النازيين قد أرغموا إرغاما بسبب ظروف الحرب والحاجة إلى

الأيدى العاملة على تغيير نظرهم إلى المرأة ، حتى صاروا يعترفون لها بالذكاء والقدرة على التفكير ، وإمكان الاعتماد عليها كأداة نافعة من أدوات الإنتاج الهامة ؛ فأجازوا لامرأة المزارع الذى أرسل إلى ميدان القتال ، أن تدير شؤون المزرعة ، ولزوجة صاحب الحانوت الذى سقط فى ساحة الوغى أن تدير عمله ؛ وهذا بطبيعة الحال إلى جانب عملها (الطبيعى) الذى يتلاءم مع أنوثتها فى البيت والمطبخ . كما أجاز النازيون استخدام الفتيات ضمن القوات المحاربة كعاملات للتليفون والتلغراف . وفى المصانع كذلك . بل إن « الدولة » فى هذه الظروف الجديدة ، صارت تحتم على النساء المتزوجات ، مهما بلغ عدد أطفالهن — أن يكرسن ساعات معينة من كل يوم ، بطريق « التطوع » ، للخدمة العامه كبائعات أو مشتغلات فى عمل من الأعمال التى كانت تشرف عليها مكاتب العمل الرسمية ، وهذا من غير نظر إلى ملاءمة هذه الأعمال أو عدم ملاءمتها لهن . (كما جاء فى إحدى صحف برلين الصـــادرة فى ١٨ أبريل ١٩٤٢ . (Berliner Borsenzeitung) وقدنشرت جريدة فرنكفورت (Fransk furter Zeitung) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ ، أنه ينبغى على النساء أن يزاولن بعض المهن التى يقوم بها الاسكافيون أو الكهربائيون ومن اليهم ؛ إلى جانب اشتغالهن بتمريض جرحى الحرب . إذ كان النازيون يطلبون إلى جميع النساء بين سن السادسة عشرة والستين التطوع فى خدمة الصليب الأحمر . ويتبين معنى «التطوع» فى هذه الخدمة «الانسانيه» مما نشرته جريدة (فولكشير بيوبختر) (volkischer Beobachter) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ تحت عنوان : « قلوب النساء فى الميدان » ، إذ قالت ما معناه أن حماسة النساء المتطوعات للتمريض من شأنها أن تقلل من الخطأ الذى يرتكبه غيرهن من النساء اللواتى يصلحن لهذا العمل ولكنهن يمتنعن عن التضحية بأوقات فراغهن فى هذه الخدمة ! غير أنه من المنتظر أن يدرك أمثال هؤلاء أهمية هذا العمل الآن ! » .

أما عن الأثر الثانى ، فقد بذل النازيون كل جهد حتى يقنعوا النساء بضرورة الاكثار من ولادة الأطفال بكل وسيلة ؛ إذ نظموا حملة واسعة لهذا الغرض ؛ وأطلقت الدعاية النازية العنان لنشاطها فى سبيل « معركة الأطفال » التى أرادوا إقناع الشعب الألمانى بأن كسبها لا يقل أهمية فى الحقيقة عن كسب معارك الحرب الحامية ضد أعداء دولة الريخ الكثيرين الذين يريدون القضاء على المانيا الكبرى وكانت تشرف على هذه الحملة (زعيمة النساء) فى الريخ ، السيدة (شولتزكلينك) Frau Scholtz-klinck ومن عباراتها المأثورة : « أعطونا أطفالا ومدافع ! » . وقد أدرك الزعماء النازيون أنه لا مفر لهم عن تغيير نظرتهم السابقة نحو المرأة حتى يتسنى نجاح هذه المعركة ؛ لذلك شرعوا يحثون المرأة النوزدية على ضرورة العناية

بمظهرها ، وانتقاء الأثواب الجميلة التى تناسبها . واستخدام المساحيق التى تلائم بشرتها كما صاروا يطلبون من الرجال الابتعاد عن الخشونة و « السلوك » العسكرى الجاف فى مجالس السيدات ؛ حتى أن زعيم الشباب (بلدورفون شيراش)وسمعته السيئة أشهر من أن يشار اليها لم يلبث أن أعلن فى يناير سنة ١٩٣٨ عن إعداد برنامج شامل الغرض منه تجميل الفتايات الألمانيات « سواء أرغبن فى ذلك أم رغبن عنه ! » — على حد قوله . ثم أنشأ (فون شيراش) جمعية للفتايات الألمانيات بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين أطلق عليها أسم جماعة « العمل والجمال ، والايمان » وجعل التحاق الفتيات بها إجباريا . ولم يعطل حملة « التجميل » الجديدة سوى نشوب الحرب .

ومع هذا فقد ظل النازيون يطلبون إلى الألمانيات أن يحرصن على جمال أجسامهن وأناقة مظهرهن على الرغم من الصعوبات التى أوجدتها ظروف الحرب

على أن « معركة الأطفال » هذه كان نجاحها يتطلب زيادة فى اقبال الشعب الألمانى المطردة على الزواج . ومن مبدأ الأمر عنى النازيون بمسألة الزواج لأهمية هذه المسألة من ناحية نقاء الجنس والدم ، وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية سبق الحديث عن طرف منها وعن قروض الزواج ، كوسيلة من وسائل التشجيع على الخروج من نطاق العزوبة رغبة فى الأكثار من النسل . وقد نفذ قانون قرض الزواج هـذا ابتداء من أول أغسطس ١٩٣٣ . وأفاد منه كثيرون ، حتى بلغ عدد القروض التى أعطتها الدولة « للمتزوجين » من بدء العمل به إلى أول مايو ١٩٣٩ (١,٢٠٠,٠٠٠) قرضا . كلفت الخزانة حوالى (٧٥٠,٠٠,٠٠٠) ريخمارك ؛ هذا عـدا جملة قروض أخرى أعطيت للغرض نفسه بمعدل ٢٥ ألفا فى الشهر الواحد . وتدل الاحصائيات الرسمية على أن نسبة الزواج ارتفعت بالفعل من ٧,٩ فى الألف فى عام ١٩٣٢ إلى ٩,٤ فى الألف فى عام ١٩٣٨ ؛ كما ارتفعت نسبة المواليد من ١٥,١ فى الألف فى عام ١٩٣٢ إلى ١٩,٧ فى الألف فى عام ١٩٣٨ . وبلغ عدد المواليد حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالى المليون طفل ولدوا لآباء استطاعوا الزواج بفضل القروض التى حصلوا عليها من الدولة .

وكذلك كان من وسائل تشجيع الاكثار من النسل أن الدولة أخذت على عاتقها إمداد أصحاب الأسرات الكبيرة بالإعانات حتى أن الرجل والد الأطفال الكثيرين صار يحصل على إعانات تزيد قيمتها على ما يمكن أن يحصل عليه بكسبه من عمله العادى . ولم تشترط الدولة لمنح هذه الإعانات أن يكون الأطفال من أسرة واحدة ، بل ان الأسرة التى تتبنى طفلا أو أكثر أو يكون أحد أطفالها من أب آخر وأم أخرى تستطيع أن تحصل كذلك على إعانة الدولة السخية مثلها فى ذلك مثل الأسرة العادية المؤلفة من أب وأم وأولادهما . وقد

بدأ النازيون يدفعون هذه الاعانات فى اكتوبر ١٩٣٥ ، فبلغ مادفعوه حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالى (٢٥٥,٠٠٠,٠٠٠) ريخمارك ، لأطفال بلغ عددهم حوالى (٣,٧٥٠,٠٠٠) اى بمعدل ٦٨ ريخمارك لكل طفل . ولم يلبث أن زاد سخاء النازيين فعدلوا فى شروط منح هذه الاعانات ، وخففوا من قيودها إلى حد كبير فى أكتوبر ١٩٣٧ ، ثم فى ابريل ١٩٣٨ حتى بلغ ماصاروا يدفعونه فى كل شهر (— كما ذكر النازيون أنفسهم فى صيف ١٩٣٩) حوالى ٣٠,٨٠٠,٠٠٠ ريخمارك لعدد من الأطفال يبلغ (٢,٥٠٠,٠٠٠) .

هذا إلى أن النازيين صاروا يصرفون أجوراً عالية لأصحاب الأسر الكبيرة . وذلك عدا تكريمهم للأمهات اللواتى يلدن أطفالا كثيرين ، حتى أعد الهر هتلر أوسمة خاصة تعطى للأمهات حسبما يكون لهن من أطفال ، فتنال ذات الأربعة أو الخمسة أطفال وساما حديديا وذات الستة أو السبعة وساما فضيا ، وذات الثمانية أو التسعة وساما ذهبيا . وعينت الدولة يوما مشهوداً ، هو يوم مولد الهر هتلر نفسه (١٢ أغسطس) من كل عام لتوزيع هذه الوسامات فى احتفال رسمى كبير ، وسمته ، يوم الشرف لجميع الأمهات ، وفضلا عن ذلك ضمنت الدولة راحة الحوامل فعملت على تخفيف أعباء العمل ، وإزالة المضنى منه عن كواهلهن ، كما أصدرت قوانين معينة لمعاقبة كل من تحدثه نفسه باهانة الأمهات أو الحوامل كما أن الدولة لم تلبث أن اتخذت اجراءات صارمة لمنع الإجهاض ، وحرمت ذيوع الموضوعات التى تبحث فى وسائل منع الحمـــل ، كما منعت بيع الأدوية أو الأجهزة الخاصة بذلك .

ومع هذا لم يقنع النازيون فى معركة الأطفال بما أدركوه من نجاح كان فى نظرهم مايزال محدوداً ، فطفقوا يبحثون عن وسائل جديدة وبخاصة عندما حمى وطيس القتال فى ميادين الحرب المختلفة وعظم عدد قتلاهم ، فهداهم التفكير السقيم إلى ابتكار أسلوب جديد للاكثار من النسل ، كان ومايزال منذ بدء الخليقة من الأمور التى حرمتها جميع الشرائع والأديان ، وأنكرتها المقاييس الخلقية انكارا شديدا ، هذا الأسلوب هو تشجيع التناسل خارج نطاق الزوجية الشرعية .

وقد برر النازيون تشجيعهم هذا العمل المنكر بضرورة توفر الكثرة العددية لديهم حتى يستطيعوا فرض سلطانهم على أوربا ثم على العالم فى النهاية ، وقد افتتح الهر هتلر نفسه هذه الحملة الجديدة فى سبيل الاكثار من الأطفـــال عن أى طريق ، فقال يتألف برنامج حركة النساء الوطنيات الاشتراكيات من مادة واحدة فحسب هى الطفل ! . ثم لم يأنف الهر هتلر من استخدام « الطرق » التى توقع فائدتها فى إغراء النساء على إتيان هذا المنكر ، من

ذلك أنه كان ينتهز فرصة انعقاد مؤتمر الحزب السنوى فى نورمبرج ، فيختار نخبة من الشبان الأشداء أصحاب الأجسام المتسقة ذات العضل المفتول ، ويجعلهم يسيرون فى عرض بديع أمام الجماهير ، وبينهم النساء طبعا — على ألا يرتدى هؤلاء الشبان سوى سراويل قصيرة وأحذية . وحدث فى عام ١٩٣٥ بعد عرض مثل هذا أن وقف (الفوهرر) يخطب الفتيات والسيدات الحاضرات ، فقال :

«وعندما يرى النساء هؤلاء الشبان (من جماعة العمل) يرتدون سراويلهم القصيرة ليس غير ويعرضون صدورهم عارية تماما ، فان النساء ولاشك سوف يرددن ما أجمل هؤلاء الشبان ! وما أحلى متعة المرأة بهم!» وليس بعد هذا التحريض الرسمى على أتيان الفاحشة شيء . وقدقال فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « إن الأمة الجرمانية ما كانت تستطيع اجتياز الأزمات العصيبة التى اعترضت نموها فى الماضى لو أن رجالها آثروا العيش مع أمرأة واحدة فحسب ! » وقال أيضاً : « سوف ينظر الريخ الألمانى فى المستقبل إلى المرأة التى لا أولاد لها ، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة (!) ، كعضو لا يتمتع بالحقوق الكاملة التى يتمتع بها بقية أعضاء هذا المجتمع . وعند الكلام فى هذا الصدد ، لاينبغى أن تكون جميع العلاقات الجنسية التى تسفر عن ولادة أطفال فى خارج نطاق الزوجية ، موضع مؤاخذة أو عقوبة قانونية ! »

ومع هـذا فقد كان هناك متحمسون لفكرة الإكثار من الأطفال غير الشرعيين بحيث يعتبر قول (روزنبرج) سائغا مقبولا . مثال ذلك ما جاء فى صحيفة من صحف (جبهة العمل) فى إحدى المناسبات ، إذ ذكرت أنه من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الأطفال غير الشرعيين أكثر صلاحية من الناحية العنصرية من الأطفال الشرعيين ، لأن الأطفال غير الشرعيين لابد وأن يكونوا بالضرورة ثمار حب أشد وأقوى عنفا . وقال الدكتور (لى) Ley رئيس جبهة العمل ورئيس تحرير هـذه الجريدة : « إننا نقاوم فى الحقيقة ميولا ضارة عتيقة بالية ؛ لأنه لاينبغى أن يترك الزواج حتى يصبح عقبة فى سبيل القوة الدافعة الطبيعية ! » أى الشهوة البهيمية بمعنى آخر .

وقد كان لهذه الأقوال وأمثالها آثار بعيدة فى المجتمع الألمانى . فقد نشر مكتب الإحصاء الفدرالى بسويسرة فى جريدة فرنكفورت اليومية Frankfurter Zeitung بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٣٦ ، إحصاء عن عدد الأولاد البكر الذين ولدوا قبل مضى تسعة أشهر على زواج والديهم ، فقال انهم يبلغون فى كل مائة : ١٧ فى فرنسا و ٢٧ فى ايطاليا و ٢٩ فى سويسرة و ٣٧ فى استراليا ونيوزيلنده و ٥١ فى سكسونيا الألمانية ! . ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية شجع الزعماء النازيون الإكثار من هؤلاء الأطفال غير الشرعيين بكل الطرق

وأيد كل من (هس) Hess و (هيملر) Himmler المبدأ الذى أذاعه الدكتور (لى) Ley عن عدم استمرار الزواج الشرعى عقبة تحول دون إطلاق العنان للغريزة الجنسية . فقال (ردولف هس): « أن كل مولود جديد له أهمية خاصة وقت الحرب ، لأن الحرب تكلف الأمة حياة كثيرين من خيرة رجالها ، ولذلك فانه عندما يذهب الشبان الذين ثبت نقاؤهم من الناحية العنصرية إلى الحرب بعد أن يتركوا وراءهم أطفالا لا تجرى فى عروقهم دماء آبائهم النقية ، وفى وسعهم نقل هذه الدماء إلى الأجيال المستقبلة ، بينما تجرى فى عروقهم كذلك دماء أمهات من الشابات سليمات البنية من الناحية الوراثية ، ولكن كان من المتعزر لسبب ما زواجهن من آباء هؤلاء الأطفال، عندئذ سوف يبذل كل جهد حتى تترك هذه الكنوز القومية دون أن تلق ماتستحقه من العناية » وقال ، (هنريك هيملر) ، « أن الواجب يقضى على السيدات والفتيات الألمانيات اللواتى يجرى فى عروقهن الدم الآرى النقى آن يصبحن أمهات لأطفال يلدنهم من آباء يذهبون إلى جبهات القتال المختلفة ، ولو اقتضى الأمر أن يولد هؤلاء الأطفال خارج نطاق الزوجية الشرعية ! » وقد جاء هـذا القول فى أمر أصدره (هيملر) فى ٢٨ اكتوبر ١٩٤٢ بوصفه رئيسا لقوة البوليس الألمانى ووزيرا للداخلية ، إلى جميع جند الحرس الأسود (S.S) ورجال البوليس ، يدعو فيه إلى الإكثار من « إنتاج » الأطفال سواء أكانوا شرعيين أو غير شرعيين ، ويطمئن الأمهات اللواتى يترملن من جراء وفاة آباء أطفالهن فى ساحات القتال سواء أكان هؤلاء الآباء أزواجا شرعيين أم غير شرعيين على مصير أطفالهن ، فيعدهن بأن الدولة ذاتها سوف تقوم بالانفاق عليهن والعناية بتربية أولادهن ، مادامت هذه الحرب قائمة ، وبعد انقضاء الحرب أيضا ، لأن واجب جند الحرس المختارين (S.S) . وواجب الشابات السليمات ممن يجرى فى عروقهن الدم الآرى النقى ، أن يحرصوا جميعا على أن يكون لدى دولة الريخ العدد العظيم من الآريين والآريات لضمان نقاء العنصر الجرمانى الخالص وخلوده .

وقد عزز الأساتذة الألمان هذا الرأى الأخير ، فذكر الأستاذ (أرنست بيرجمان) Ernst Bergmann ، ما معناه : « لامناص من أن تنظر الدولة التى تقوم على أساس معقول ! إلى المرأة التى لا ولد لها كامرأة محتقرة لا شرف لها ! ، فهناك الآن عدد كبير من الشبان الراغبين فى إنشاء الصلات الوثيقة بينهم وبين كثير من السيدات والشابات . وأنه لمن حسن الحظ أن يستطيع الشاب المنحدر من جنس طيب — أى الآرى — سد الرغبة الجنسية لدى عشرين شابة بل واشباعها ، ولا شك فى أن الفتيات من جانبهن يقبلن بسرور على تلبية الدعوة إلى الاكثار من الأطفال ، دون تردد لو اختفت من الوجود نهائيا فكرة الزواج الخاطئة

التى تدعو اليها الحضارة الزائفة زاعمة أن من الضرورى أن يتزوج الشاب زوجة واحدة وأن يكون للمرأة بعل واحـــد ، — إذ أنها تتعارض كل المعارضة مع جميع حقائق الطبيعة وسننها المعروفه ! » .

وإذا كانت هذه نصيحة الرجال المسئولين فى دولة الريخ حتى يكسبوا (معركة الأطفال) بأى ثمن ، وكانت هذه آراء زعمائهم فيما ينبغى أن يفعله الشبان والشابات فى دولتهم من أجل « ملء الأرض » بالأطفال ، رجال المستقبل ونسائه فى عالم النازية المنتظر ، فإنه ولا شك من الجهود الضائعة أن يحاول إنسان إقامة البرهان على أن المقاييس الخلقية قد تغيرت تغيرا كبيرا فى دولة الريخ الثالث حتى صارت تختلف تماما عما تواضع عليه البشر فى تحديد نوع العلاقات الجنسية التى ينبغى أن تسود كل مجتمع منذ نشأة الحضارة الإنسانية حتى الوقت الحاضر ويكفى للدلالة على مبلغ ما وصلت اليه هذه المعايير الأخلاقية من تدهور ، الإشارة إلى طراز جديد من الأعلانات التى كانت تنشرها الصحف الألمانيـــة . من ذلك ما نشرته صحيفة أسبوعية Süddeutsche Sonntagspost فى سبتمبر ١٩٤١ ، عندما أدرج « جندى فى العشرين من عمره له بشرة بيضاء وعينان زرقاوان » إعلانا يطلب فيه — « قبل التضحية بنفسه فى سبيل الزعيم والوطن ، أن يجتمع بامرأة ألمانية يستطيع أن يضمن لها حملا يؤتى ثماره طفلا كتراث يخلفه لعظمة ألمانيا ! » أو ما نشرته هذه الصحيفة نفسها « لفتاة ألمانية ترغب فى أن تصبح أما لطفل من والد جندى ، يقاتل فى سبيل القضية الأشتراكية ! » أو ما نشرته صحيفة أخرى فى إعلان الوفيات لإمرأة أرادت إحياء ذكرى والد طفلها (غير الشرعى) فقالت « من أجل الزعيم وألمانيا الكبرى ، قصف المنون عودك ولما تبلغ الثانية والعشرين يا خطيبى العزيز ووالد طفلى فى يوم ١٦ أغسطس ١٩٤١ وأنت تقاتل ضد البلاشفة » .

أما عـــدد الأطفال غير الشرعيين فى ألمانيا ، فقد بلغ المائة ألف فى كل عام . وتذكر الإحصاءات أن هذا العدد مساو لما وصلت إليه نسبة عدد الأطفال غير الشرعيين فى عهد جمهورية ويمار ، وأنه لمن المتعذر بتاتا فضلا عن ذلك معرفة عدد الأطفال الذين يولدون قبل مضى المدة القانونية للحمل وهى تسعة شهور .

* * *

وللمرء أن يتساءل ، وما مصير هؤلاء الأطفال من شرعيين وغير شرعيين فى دولة الريخ الثالث ؟ وكيف ينشأون ؟

والإجابة على هذا السؤال ، تعود بنا مرة أخرى لذكر المتاعب التى كانت تصادفها المرأة فى دولة الريخ الثالث. وأولى المشاكل التى كانت تعترضها عقب ولادة الطفل ، هى انتقاء اسم

المولود الجديد . وذلك أن النازيين وضعوا «لتنظيم» اختيار الأسماء فى دولتهم قواعد صارمة تقضى باختيار « اسم » من شأنه أن يظهر بوضوح « شخصية » الفرد العنصرية والقومية والجنسية. لذلك كان يتحتم اجتناب الأسماء اليهودية واختيار الاسماء النوردية وحدها ؛ وحتى هذه الاسماء كان ينبغى ألا يسبب النطق بها أى شك فى كون صاحبها نورديا خالصا . وكانت تقبل الاسماء التى من أصل أجنبى إذا شاع استعمالها من زمن قديم حتى صارت جرمانية مثل هانز ، ماريا والياصابات . وكان من الواجب اختيار الأسماء الملائمة لنوع الطفل ذكرا كان أو أنثى ، فلا يسمى الصبى (ماريا) كما درج الكاثوليك على ذلك فى بعض جهات ألمانيا وجعل القانون النازى من الصعوبة بمكان تغيير الأسماء واستبدال غيرها بها ولو أن السلطات الحكومية النازية أخذت لنفسها الحق بمقتضى هذا القانون نفسه فى تغيير أسماء من تريد من الإحياء ومن الأموات أيضا .

وكانت السلطات الحكومية تبرر عملها هذا بقولها إن من واجب وزارة الداخلية فى الحقيقة التدخل للفصل فيما إذا كانت الأسرة جرمانية الأصل آرية ، أو أجنبية أو من جنس غير آرى ، كما أن من حقها أيضا أن تتدخل للفصل فى صحة انتساب الأبن لأبيه أو لوالدآخر على أن يسرى قرارها على الأحياء والأموات معا . وقد شرح الدكتور (شميدت كليفنو) Schmidt-Klevenow أحد موظفى (المكتب الرئيسى للحرس الأسود (S.S) لشئون الجنس والوطن) ، مسوغات هذا التدخل فى إحدى صحف برلين بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٣٦ فقال : « من المعروف جيداً أن نسبة الأطفال البكر الذين تحمل بهم أماتهم قبل الزواج كبيرة ولذلك فإن الحزب (النازى) والدولة وبقية أعضاء الأسرة ينبغى أن يخولوا جميعا حق مناقشة شرعية الطفل »

وفى إبريل ١٩٣٨ صدر قانون يخول الحكومة الحق فى اتخاذ الإجراءات اللازمة للتأكد من صحة نسب كل طفل فى كل حالة تدعو فيها المصلحه العامة إلى ذلك سواء أبدى الوالدان ، أو أحدهما شكا فى صحة نسب الأبن أو لم يفعلا ذلك ويدل تدخل الحكومة فى أكثر الحالات التى طبق فيها القانون ، على أن غرض السلطات النازية الأول من هذا كله إنما هو التأكد من صحة آرية الأشخاص المشكوك فى جنسهم ، أو الأطمئنان إلى أنهم غير مصابين بعاهات أو أمراض وراثية .

أما المشكلة التالية ، فكانت تربية هؤلاء الأطفال . وقد ذكر الهر هتلر ما تفعله الدولة النازية لمعالجة هذه المشكلة . فقال فى إحدى خطبه فى برلين فى يوم أول مايو عام ١٩٣٧ ما معناه : « لقد بدأنا بالشباب ، إذ هناك بعض كبار السن السخفاء الذين لا يرجى منهم أى

نفع . . . بيد أن هذا لا يزعجنا فى شىء فنحن نأخذ منهم أطفالهم ، ونعمل على تنشئتهم كى يصبحوا مخلوقات بشرية المانية جديدة ، ونتعهد تربيتهم بكل دقة . والطفل فى سن العاشرة لا يدرك شيئا ولا يشعر بأهمية مولده أو نشأته ، ولا اختلاف بين طفل وآخر ، وفى هذه السن نأخذهم ونصنع منهم مجتمعا يظلون من أعضائه حتى يبلغوا الثامنة عشرة . ومع هذا فنحن أيضا لا ندعهم وشأنهم بعد هذه المرحلة ، بل نلحقهم بالحزب ، وبجماعة جند الهجوم (S.A) ، وبالحرس الأسود (S.S) ؛ وبعد ذلك يلحقون بالجماعات أو التنظيمات الأخرى أو يرسلون مباشرة إلى المصانع أو إلى جبهة العمل وإلى الخـــدمة العمالية ، ويلحقون أيضا بالجيش مدة عامين » .

وهذا ما كان يحدث ! فكان الأطفال يعيشون فى بيوتهم حيث يتكفل أباؤهم بالإنفاق عليهم حتى يبلغوا العاشرة . وفى أثناء ذلك يقوم النازيون بالأشراف والمراقبة ، حتى إذا وجدوا الآباء ينشئون أطفالهم تنشئة لا تتفق مع التعاليم والمبادىء النازية ، انتزعوا هؤلاء الأطفال من أحضانهم . وفى فبراير ١٩٣٧ ، ثم فى نوفمبر من العام نفسه ، أصدرت المحاكم الألمانية أحكاما تقضى باعطاء حق تربية الأطفال الذين شكت السلطات الحكومية فى عدم أهلية والديهم للقيام بتربيتهم ، للدولة — أى الحزب النازى نفسه .

وفى سائر مراحل التربية التى أشار إليها الهر هتلر فى خطابه ، كانت تنحصر مهمة النازيين فى قطع الصلة التى تربط بين هؤلاء الشبان والشابات ووالديهم ؛ وذلك بإخماد العواطف البنوية ، وتعويد الشابات والشبان الاعتزاز بحياة مستقلة ذات مسؤلية كاملة ، وتنفيرهم من « التقاليد البالية الضارة » التى حرص المعلمون القدماء على صونها وملاحظتها فى أثناء تربية النشء وتعليمه ، إذ كانت تقوم — فى نظر النازيين — على ضرورة كبت الغرائز الطبيعية ؛ ثم تنفيرهم من هؤلاء الأساتذة والمعلمين القدماء أنفسهم وتشجيعهم على الامعان فى احتقارهم وامتهانهم ، ثم تلقينهم مبادىء النازية وتعاليمها القائمة على افناء الفرد فى الدولة ، والتضحية من أجل الزعيم والإخلاص فى خدمة دولة الريخ الجديدة ، وما يقتضيه هذا الاخلاص فى مذهبهم من ضرورة التجسس على آبائهم وأقاربهم واحتقارهم .

وفى الواقع لم يكن من المتعذر على النازيين بلوغ مآربهم بتاتا بفضل التنظيمات والجماعات العدة التى أوجدوها وأشار إليها الهر هتلر فى خطابه ، والتى حتموا على الشباب الالتحاق بها فى أثناء عملهم وفى أوقات فراغهم ، والتى كان الغرض منها تنمية الأجسام القوية قبل أى شىء آخر . وقد شرحت إحدى الكاتبات E. O. Lorimer كيف سيطر النازيون على حياة الشباب فى دولة الريخ ، فقالت « تستغرق تنظيمات فرق الكشافة النازية التى تأسست فى عام ١٩٢٣

والالتحاق الأجبارى بها منذ أول ديسمبر ١٩٣٦ ، نشاط الصبيان فى كل لحظة من لحظات فراغهم بعد دراستهم وألعابهم الرياضية الاجبارية . فان الصبي بين العاشرة والثالثة عشرة يلتحق بجماعات الشبان الألمان حديثى السن، (Deutsches Jungvolk) ؛ وبين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يلتحق بجماعة الشبيبة الهتلرية (Hitler Jugend) ، وعند بلوغه التاسعة عشرة يجبر على العمل مدة ستة شهور فى (خدمة العمل) (Arbeitsdienst) ؛ ثم يقضى بعد ذلك مدة سنتين أخريين فى الخدمة العسكرية . وله بعد هذه المرحلة أن يدخل إحدى الجامعات أو يلتحق بعمل من الأعمال ، أو يحترف إحدى المهن التى يختارها ؛ وفى جميع هذه الحالات لا يكون الشاب حر التصرف فى حياته يوجهها كيفما شاء . والسبب فى هذا ما تحتمه الدولة من الانتماء إلى جماعة جنود الهجوم (S. A) أو الحرس الأسود (S. S) ، أو الانتماء إلى جبهة العمل (Arbietsfront) وهى بمثابة اتحاد وطنى عام لجميع المستخدمين والذين يخدمونهم ؛ أو أن ينتمى الى جماعة (انتاج الطعام)Reichsnährstand ، أو إلى غير ذلك من التنظيمات الخاضعة لاشراف الدولة . وفى سن الخامسة والثلاثين يدخل فى زمرة (القوة الاحتياطية)؛ وفى سن الخامسة والأربعين يعتبر ضمن القوات المستعدة للخدمة العسكرية وقت التجنيد العام Landsturm ويعنينا بعد ذلك معرفة ما إذا كان فى استطاعة الفتى بين العاشرة والتاسعة عشرة أن يجد متسعا من الوقت للدرس والتحصيل فى أثناء إقامته فى المعسكرات وفنادق الشباب (Youth Hostels) ، والقيام برحلات السير على الأقدام ، وممارسة الألعاب الرياضية وما إلى ذلك ؟ لا شك فى أن المشرفين على هذه الشئون جميعها لايدعون لحظة تمر من غير أن يزودوا هؤلاء الفتيان بقدر واف من تعاليم ودروس النازية . وكانت جميع هذه الدروس ، تدور حول تمجيد الحرب والقتال واحياء روح المغامرة . حتى أن كتب الأغانى التى وضعها النازيون للفتيان الألمان ، كانت حافلة بذكر المعارك والحروب ؛ كما أن الكتب المدرسية المعطاة لجماعة « الشبيبة الهتلرية »كانت تحمل الدعوة إلى انتظار المجد والشرف الرفيع بالموت فى ساحة القتال .

ولم يقنع النازيون بالمدارس العادية الموجودة فى دولة الريخ ، بل أنشأوا أنواعا جديدة من المدارس يتلقى فيها الأحداث والشبان « الدروس » التى يبغون تلقينها إياهم لتخريج الرجال الذين ينتظر اسناد مناصب الزعامة فى الحزب النازى اليهم . ومن هذه المدارس (مدارس أدولف هتلر) ، والمدارس الاعدادية Aufbau Schools (والمدارس الوطنية السياسية) Nationalpolitische Austalten التى كان يتعلم بها الشبان تمهيدا للالتحاق بالمدارس الحربية .

وقد تناول كثير من الكتاب الاخصائيين بالبحث والتمحيص مسائل التربية والتعليم فى ألمانيا النازية ، فوصلوا فى ذلك إلى نتائج هامة خلاصتها أن النازيين جريا على عادتهم المعروفة فى كل شأن من شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع فى دولتهم طبقوا فى شئون التربية والتعليم نظريتهم الفلسفية فى الحياة (Weltanschauug) واستطاعوا فى خلال سبعة أعوام أن يعيدوا تنظيم شئون التربية والتعليم فى كل درجاتها حتى يصلوا إلى أغراضهم ، وهى أغراض صرح بها وزير معارفهم فى حديث له نشرته صحيفة (فولكشير بوباختر) فى ١٣ فبراير ١٩٣٨ ، جاء فيه : « تنحصر المهمة التى تضطلع بها التربية عندنا فى تخريج الوطنيين الاشتراكيين ! » وقبل ذلك بثلاثة أعوام (١٩٣٥) أعلن (كروجر) W. Kruger مدير جامعة برلين أن غرض التربية والتعليم فى جامعته ، إنما هو الدعوة إلى محو البقايا المتخلفة من العصر الحر الماضى ، وإنشاء جامعة وطنية اشتراكية فى دولة وطنية اشتراكية جديدة . وكذلك وضح (بوملر) A. Boeumler أحد المشتغلين بالتربية والتعليم فى ألمانيا ، الغرض من التعليم فى بداية مراحله ، فقال إن المدارس الأولية ينبغى أن تصبح مدرسة لمثل الشعب العليا وفلسفته فى الحياة ، تحت حماية الدولة . وأما المدارس الثانوية فقد جاء فى أقوال وزارة المعارف الألمانية (١٩٣٨) مايبين الغرض منها ، وهو العمل على اقصاء (مثل الثقافة الانسانية) Biidung وافساح المكان « لمثل الرجل الجرمانى الذى تؤثر فيه الدماء التى تجرى فى عروقه والمصير التاريخى الذى ينتظره » .

وقد جرى النازيون على تطبيق مبدأ (الترابط والتوحيد) (Gleichschaltung) فى شئون التربية والتعليم ومعنى ذلك خضوع تلك الشؤون لرقابة الدولة واشرافها السياسى لأنه لما كان الغرض من التربية والتعليم اعداد الشبان النازيين الذين لايعرفون مؤثرا فى حياتهم أو موجها لها سوى (الدم و المصير التاريخى) — أى اعدادهم ليكونوا أدوات صالحة لخوض معارك الحروب المنتظرة لتحقيق السيطرة الجرمانية الصحيحة على أوربا والعالم — فقد صار من أهم واجبات الدولة الاشراف على تربية النشء وتكوينه . قال هتلر فى خطاب ألقاه يوم مايو ١٩٣٧ : « لن يسلم الريخ الحديث شبانه الأحداث إلى يد أى انسان ! » وأصبح من المنتظر أن تكون التربية المزمعة « تربية سياسية » نازية قبل أى اعتبار آخر . وابتداء من عام ١٩٣٧ استطاع النازيون تطبيق مبدأ (الزعامة المسئولة) فى الجامعات والمدارس حتى خرج الأمر فى الجامعات من أيدى المجالس والكليات والمديرين فى جميع مسائل التربية وشئون التنظيم إلى أيدى وزراء معينين خلعت عليها ألقاب الزعامة فى الجامعات المختلفة فكان لكل جامعة ثلاثة زعماء : زعيم الجامعة Führer يقوم باعمال المدير ، وزعيم يمثل

طائفة الأساتذة والمدرسين فى التنظيم المحلى للحزب (Dozentenführer) ، وزعيم يمثل جماعة الطلاب للغرض نفسه (Studentenfuhrer) ويختار زعيم الجامعة عمداء الكليات وبقية أعضاء مجالس الجامعات . وهذا بينما أضحت مجالس الكليات بمثابة لجان استشارية فقط . وبمقتضى قرار صدر فى (٣ مارس ١٩٣٩) أصبح جميع أساتذة الجامعات ومدرسيها فى عداد الموظفين المدنيين فكانوا يعينون فى وظائفهم من قبل الوزارة ، ولا يستطيعون الانتقال من جامعة إلى أخرى دون موافقتها ، ولو أن الوزارة نفسها تمسكت دائماً بحق نقل من تشاء منهم سواء أوافقوا على ذلك أم عارضوا فيه . وكذلك سيطرت الحكومة على المدارس سيطرة كاملة وكانت مهمتها فى هذا الميدان سهلة ، لأن المدرسين كانوا فى عداد الموظفين المدنيين منذ مدة طويلة (بمقتضى قانون قديم صدر فى عام ١٨٧٢) . ومع هذا فقد تعهد وزير المعارف النازى فى فبراير ١٩٣٣ بطرد كل شخص غير جرمانى من جميع المدارس الأولية ، والقضاء على كل ما هو غير جرمانى فى هذه المدارس ، بعنف وشدة ، وفى يولية من العام نفسه ، أنذر المدرسون بضرورة قطع صلاتهم بالحزب الاشتراكى الديمقراطى ، كما طلب اليهم ان يدرسوا كتاب (كفاحى) لأدولف هتلر دراسة عميقة ، ثم أرغم جميع الموظفين بالمدارس الثانوية على كتابة تعهد بان يطيعوا قوانين الدولة الوطنية الاشتراكية طاعة عمياء .

وقد عمد النازيون إلى القضاء على جميع المراكز الثقافية التى توقعوا معارضتها لنظامهم وتعاليمهم . فطهروا مكتبات المدارس من الكتب التى ألفها اليهود ، أو تضمنت أى امتداح لهذا الشعب ، أو قصرت فى إظهار الاحترام الكامل للشعب الجرمانى والرجل الآرى ، كما حتم النازيون على رجال المكتبات أن يختاروا ما يريدون شراءه من بين الكتب التى اعتبرتها وزارة المعارف ملاءمة .

وعند النظر فى برامج الدراسة النازية يبين مدى التغيير الذى أراد الهتلريون أن يدخلوه على التعليم ، وأثر هذا التغيير فى الناشئة . فقد أصدروا قراراً فى ١٣ سبتمبر ١٩٣٣ يحتم تدريس مادة (البيولوجيا) فى جميع المدارس الثانوية من أدنى الفرق إلى أعلاها ولو أدى ذلك إلى تضحية الرياضيات واللغة الأجنبية ، وفى ١٥ يناير ١٩٣٥ صدر قرار آخر يفسر هذه الخطوة جاء فيه أن (الفوهور) يريد أن يلم كل فتى وفتاة بالمدرسة بمسألة نقاء الجنس وضرورتها . ولذلك ينبغى أن يكون الغرض من تدريس البيولوجيا ، إظهار أهمية المحافظة على نقاء الجنس وأدراك ما فى امتزاج الأجناس من خطر ، ومعرفة المسألة اليهودية وقوانين نورمبرج ، والوقوف على حقيقة الإصلاح الذى تم من أجل تحسين الجنس نتيجة للفلسفة وللتشريع الوطنى الاشتراكى ، ومعنى هذا أن الغرض من تدريس البيولوجيا ليس إلا تخريج ناشئة تغلى فى صدورها مراجل الحقد على اليهود . وفضلا عن ذلك فان جميع برامج الدراسة تحتم تلقين

التلاميذ دروسا معينة فى الاجتماع والعلوم والرياضة والسياسة والاقتصاد والتاريخ ؛ على أن يتم هذا كله فى ضوء المبادىء والتعاليم النازية المعروفه . فلابد للتلميذ أو الطالب من أن يحضر دروسا تتناول القبيلة والجنس ، وعصر ما قبل التاريخ ؛ وأصل الإنسان والسلالات البشرية ، وتطور الشعب الألمانى من الناحية السياسية خلال السنوات المائة الأخيرة على وجه الخصوص .

هذه صورة موجزة لما كان يجرى فى داخل ألمانيا منذ تسلم النازيون أزمة الحكم بها ، ولكن قد يتساءل المرء ، إذا كان الحزب النازى قد أدخل كل هذه التغييرات فى حياة الشعب الألمانى ، وفرض سيطرته عليه ، بالتدخل فى شؤون أفراده الخاصة ، وانتهاك الحرية الشخصية ، وامتهان المرأة ، والقضاء على مئات الألوف من الألمان سواء أكان ذلك بقتلهم أو بتعقيمهم أو بخصيهم تحت ستار عدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء نافعين فى المجتمع النازى ؛ ثم إذا كان الحزب النازى قد ضرب بجميع المثل الأخلاقية والمبادىء الاجتماعية عرض الحائط ، وانتزع الأبناء من أحضان آبائهم ، ولقنهم إحتقار هؤلاء الأمهات والآباء حتى يفصم عرى الأسرة ويقوض أركانها ، ثم نشأ هؤلاء الأبناء والفتيات التنشئة التى يريدها استعدادا لخوض غمار الحرب لأحراز السيطرة العالمية إذا كان الأمر كذلك ، فهل رضى الألمان عن هذا كله ، وسلموا بتلك التغييرات العنيفة عن طيب خاطر وبغير أية مقاومة ؟

لاشك فى أن النازيين ، مثلهم فى ذلك مثل أية جماعة أخرى يعميها التعصب وتصم القسوة آذانها ، فتمضى فى تنفيذ برامجها لاتلوى على شىء ، — ولاشك فى أنهم استطاعوا الحصول على تأييد شطر من المجتمع الألمانى ؛ وهم الذين تمكنوا من البقاء فى الحكم سنوات أخمدوا فى أثنائها كل مقاومة ، وهيمنوا على تصريف شئون الشعب المادية والروحية . وقد يكون هذا الشطر كبير حقا . ولكن سنة العمران وطبيعة التقدم والنمو لا يمكن أن تهيىء الفرصة للطغاة دائما حتى يمضوا فى طغيانهم إلى ما لانهاية له . وقديما فى أشد عصور الطغيان والفساد كان تيـــار المقاومة الخفية يجرى محجوبا عن الأنظار ، ونشأ أفراد ووجدت جماعات ما كانت ترضى بالعيش فى ظلال الجور ، حتى إذا تضافرت عوامل الضعف والتفكك التى لا مناص منها فى كل مجتمع يقوم على أساس متداع ، بدأ تيار المقاومة ظاهرا جليا ، ثم اشتد جريانه حتى يجرف كل ما يعترض سبيله . وليست ألمانيا الا كغيرها من الدول التى حفظ التاريخ قصصها ، فقد كانت عوامل المقاومة موجودة منذ وصول النازيين الى الحكم ، ثم بقيت على نشاطها رغم ما بذله النازيون من جهد للقضاء عليها ؛ ومنذ بداية الحرب قويت

هذه المقاومة ، ثم زادت شدة وعنفا منذ تذوق الألمان طعم الهزيمة فى الميادين الروسية وقذفتهم طائرات الأمم المتحالفة بقنابلها وحممها ، وأقضت مضاجعهم مثابرة الشعوب المقهورة على المقاومة الإيجابية والسلبية فى أرجاء أوروبا المحتلة ، وظهر كأنما قد تخلت آلهة النصر نهائيا عن الشعب الألمانى المختار . وفى الفصل التالى بيان لهـذا كله ، ودليل على أن الدولة الوطنيه الاشتراكيه قد أخفقت أيما إخفاق فى تأليف تلك الـكتله الصلدة المتماسكة التى عدت تأليفها ووجودها فى قلب الريخ الألمـانى شرطا أساسيا لإحراز السيطرة على أوروبا ومن ثم على سائر أنحاء العالم .

الفصل السابع

ألمانيا الأخرى «غير النازية»

كان غرض النازيين من فرض سلطانهم الصارم على الحياة فى المجتمع الألمانى أن يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التى اعتبروا وجودها ضرورياً من أجل إحراز السيطرة العالمية فى النهاية ؛ وقد سبق كيف أنه حتى يتسنى لهم ذلك طفقوا منذ وصولهم إلى الحكم فى عام ١٩٣٣ ينظمون الحياة الألمانية ويعملون على توجيهها وجهة خاصة قائمة على فلسفة معينة ذات مثل عليا أوحت بها قرائح زعمائهم وفلاسفتهم ، وكانت متفقة فى جوهرها وتفصيلاتها مع أغراضهم القريبة والبعيدة فى ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعموا أركان ذلك (التوجيه المنظم) الذى أقرته فلسفتهم الجديدة والذى عرفه النازيون باسم Weltanschauung ، ومعنى ذلك على حد قول الدكتور (دنكان جونز) Duncan Jones تلك الفلسفة التى تفرض على صاحبها إدراكا خاصا لمعنى الحياة ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة العقيدة الدينية لديه فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص وتشعل فى نفسه جذوة التحمس الشديد لاذاعتها فى كل مكان دون أن تعتاق نشاطه الحدود السياسية وغيرها من الحواجز التى تفصل بين بلدان العالم ، كأنما مهمته فى الواقع التبشير بدين جديد . وكان من وسائل دعم ذلك التوجيه المنظم إرغام الشعب الألمانى على قبوله والقضاء على كل معارضة من جانب أولئك الذين ظلوا متشبثين بمثل الحياة العليا «القديمة» ، ورفضوا هــذه «البدعة» الجديدة ، فألقى النازيون بهؤلاء المعارضين فى غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال . ثم لجأوا إلى تطبيق قواعد العلوم النفسية لكسب معركة (التوجيه المنظم) لما كانوا يعلمونه من أثر الدعاية المنظمة القوية فى نفوس الأفراد وسلوكهم وأعمالهم فغدت الدعاية النازية المتقنة من وسائل التبشير بهذه الفلسفة الجديدة بين الألمان وبين شعوب الأرض قاطبة فادعوا أن النازية قد نجحت فى مهمتها نجاحا عظيما إلى حد أن الريخ الثالث أصبح نازياً لحماً ودماً فاستطاع الزعماء بفضل ذلك أن يوجدوا فى قلب دولتهم الجديدة كتلة نازية صلدة متماسكة لا يتطرق الضعف

إليها ؛ وكان غرض الهتلريين المباشر من ترويج هذا الادعاء أن يرغموا الشعب الألمانى نفسه على تصديق هذه المزاعم حتى إذا ظل هنـاك جماعة يتوقون إلى العيش الحر الطليق أسقط فى أيديهم أمام هذا السيل الجارف من الدعاية وأنـكروا آمالهم وأحلامهم وراضوا أنفسهم على العيش فى ظل السيطرة النازية إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وكان إدعاء النازيين أنهم أنشأوا كتلة نازية صلدة متماسكة فى قلب الريخ الألمانى من أكبر الأكاذيب التاريخية التى كاد ينخدع بها العالم . لأن الريخ الثالث لم يكن نازيا لحما ودماً ولأنه كانت هناك إلى جانب ألمانيا النازية ، ألمانيا « أخرى » تتألف من كل أولئك الذين ظلوا على الرغم من بطش الجستابو بهم ويئسهم من الحياة فى معسكرات الاعتقال يحملون فى قلوبهم البغض والكراهية للنازيين ويتربصون بهم الدوائر وينظمون حروباً من المقاومة الايجابية والسلبية فى داخل الريخ نفسه لا تقل فى خطرها عن مقاومة الشعوب المقهورة فى أوروبا النازية ذاتها .

والأدلة على ذلك كثيرة ، فانه على الرغم من نشاط الدعاية النازية أصر عدد من الألمان فى السنوات التى سبقت نشوب الحرب الهتلرية على وضع الكتب وإعداد البحوث والمقالات وإصدار النشرات والاحصائيات التى حرص النازيون من جانبهم على مصادرتها وإتلافها وتوقيع العقوبة على أصحابها — إذا عرف الجستابو أسماء الناشرين والمؤلفين — وكان أصحاب هذه المطبوعات السرية يحاولون تهريبها عبر الحدود الألمانية حتى يقف العالم الخارجى على حقيقة ما كان يحدث فى داخل الريخ الثالث . ولذلك شغل الجستابو ورجال الحدود بمهمة مصادرة هذه المطبوعات والمنشورات وإتلافها ثم معاقبة مهربيها .

وقد يخيل إلى المرء أن الانتصارات التى أحرزها النازيون فى ميدان السياسة الخارجية خصوصاً فى عام ١٩٣٧ كانت كفيلة باستمالة سواد الشعب الألمانى إلى تأييد النظام القائم والقضاء على كل معارضة داخلية ضد النازيين ؛ بيد أن الذى حدث كان على العكس من ذلك تماما . فقد ظلت هـــذه المعارضة « السرية » على شدتها حتى أن النازيين استطاعوا فى عام ١٩٣٧ إحصاء (١٢٠,٢٨٧) حالة طبعت فيها كتب ومنشورات سرية وغير ذلك من المطبوعات غير القانونية ، حدثت فى (٤٢٦) حالة منها التحامات دموية وتبودل إطلاق الرصاص بين البوليس النازى والألمان الذين اختاروا التضحية بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل تهريب هذه المطبوعات عبر الحدود إلى العالم الخارجى .

وقد أدرك النازيون على الرغم من الدعاية الكاذبة لتضليل أهل البلاد من جهة ولتضليل الرأى العام فى أوروبا وبقية أنحاء العالم من جهة أخرى أنه من المتعذر عليهم التفرغ لشئون

الحرب الخارجية ، تلك الحرب التى هيأوا لها العدة منذ وصولهم إلى الحكم فى ألمانيا إلا إذا شددوا الرقابة على مواطنيهم واتخذوا الأهبة للقضاء دون إبطاء على أية معارضة قد تنذر بتصدع « الجبهة الداخلية » ولما كانت مهمة الجستابو الأساسية إحكام هذه الرقابة فقد أعد (هنريك هيملر) he nrich Himmler رئيس قوة الجستابو وثيقة هامة عرفت باسم « وثيقة هيملر » وزعها على كبار رؤساء الجيش وضمنها أراءه فيما ينبغى اتخاذه من الوسائل والتنظيمات الكفيلة بضمان النصر عند وقوع الحرب المنتظرة ، ووقف العالم على أمر هذه الوثيقة فانكشف سرها فى عام ١٩٣٧ ، وكانت وثيقة مطولة — تتألف من حوالى ١٥,٠٠٠ كلمة — تحدث فيها هيملر عن ضرورة تنظيم جماعة الحرس النازى من أصحاب القمصان السوداء (S.S) — Schutz-Staffel تحت قيادته وكانوا فى ذلك الحين يبلغون ٢٠٠,٠٠٠ ، ثم أوضح بالتفصيل طرق تنظيمهم كما أشار إلى نوع التربية والتعليم الذى يجب اتباعه لأعداد الرجال المختارين ثم أفرد قسما خاصا من هذا التقرير لوصف نوع المعاملة التى ينبغى أن يعامل بها أصحاب الحظ العاثر الذين يلقون فى معسكرات الاعتقال ؛ وانتقل من ذلك إلى وصف أعمال هيئة الجستابو والأسلوب الذى يجرى بمقتضاه توزيع هذه الأعمال على أفرادها .

على أن أهم ما يسترعى النظر فى هذه الوثيقة هو عناية هيملر الكبيرة بوصف الأخطار التى تنجم عن وجود ماسماه فى تقريره ، بالجبهة الرابعة : أى الميدان الألمانى الداخلى ؛ فكان من أقواله عن هذه الجبهة : « لن نكون مشغولين فى الحرب المستقبلة بما يحدث فقط فى جبهة الجيش المقاتل برا أو فى جبهة الأسطول فى البحار أو فى جبهة سلاح الطيران فى الجو ، بل سوف يكون لدينا جبهة رابعة لميدان القتال (Kriegaschauplatz) ينبغى علينا مراقبتها والعناية بأمرها وهذه الجبهة هى ألمانيا الداخلية . . . ونحن فى حاجة كبيرة إلى عدد أكثر من معسكرات الاعتقال . ولقد أعطانى الزعيم (هتلر) سلطات واسعة تجعل من حقى إلقاء القبض على أى مخلوق أشتبه فى أمره . . . إذ يصبح ضروريا عند بداية الحرب إلقاء القبض على جماهير غفيرة . . . وسوف يتحتم علينا إعدام الجمهرة العظمى من هؤلاء الأسرى السياسيين رميا بالرصاص . . . ولذلك فمن الضرورى أن يحتل هذه البلاد مالا يقل عن ثلاثين فرقة من الفرق ذات شارة الجمجمة وعظام الموت Totenkopf- Surmbaenne . لأنه إذا عجزنا عن مراقبة هذه الجبهة الرابعة ؛ جبهة الوطن الداخلية ، لتعطيل نشاطها بأية وسيلة فان الجبهات الثلاث المقاتلة الأخرى فى البر والبحر والجو سوف تصاب من الخلف بطعنة نجلاء مافى ذلك ريب » ومن الواضح أن هيملر كان يشير فى قوله هذا إلى تلك الأقصوصة التى أذاعها القائد الألمانى المعروف لودندورف عقب هزيمة الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى إذ ادعى لودندورف

أن جماعة الخونة والشيوعيين هم الذين دبروا هزيمة القيصرية بفضل الثورة التى أشعلوا نيرانها فى داخل البلاد خلف ظهور المحاربين فى ميدان القتال ، وهكذا ذكر هيملر فى تلخيصه مخاطبا رجال الجيش إن من واجبهم بل من واجب كل إنسان يشغل مركزا مسئولا أن يدرك ما لهذا الميدان الداخلى من أهمية كبيرة « إذ فى هذا الميدان وحده سوف يتقرر مصيرنا عند نشوب الحرب وعلى النجاح أو الإخفاق فى هذا الميدان وحده يتوقف أمر حياتنا أو موتنا » ثم قال « وقد أصدر الزعيم إلى أمره لحل هذه المسأله بطريقة حازمة صارمة ، كما أعطانى سلطات لا حد لها لتنفيذ أوامره » .

هذا موجز تقرير هيملر وكان من الطبيعى ألا يضيع رئيس قوه الجستابو وقته سدى فى تفسير الموقف الداخلى فى ألمانيا ، وفى تفصيل الخطط التى يجب اتخاذها لمكافحة ما أسماه (الجبهة الرابعة) الداخلية إذا كان خطر هذه الجبهة ضئيلا أو أن المعارضة المتوقع ظهورها فى حالة نشوب الحرب ضئيلة لا وزن لها ، بل إن السلطات الحكومية ما لبثت أن اتخذت بعد نشوب الحرب بعض تدابير يتضح من صرامتها ومعارضتها لمبادىء القانون والعدالة مقدار ما كانت تخشاه هذه السلطات من أخطار المقاومة الخفية ، فقد أشارت إلى أحد هذه التدابير جريدة فرنكفورتر زيتونج فى عددها الصادر فى ٢١ يونيسة ١٩٤٠ فقالت « تهمل من الآن فصاعدا بمقتضى قرار أصدرته وزارة الدفاع مدة الحبس المنصوص عليها فى الأحكام الصادرة بالأشغال الشاقة مدة الحرب على شرط أن تكون هـــذه الأحكام قد صدرت فى جرائم ارتكبت فى أثناء الحرب ، ومعنى ذلك من الوجهة العملية أن أحكام الأشغال الشاقة تظل سارية من تلقاء نفسها طوال مدة الحرب الحالية » ، أى أنه لا يحدث إفراج عن أحد هؤلاء المحبوسين مهما قصرت مدة الحبس المحكوم بها عليهم ما دامت الحرب قائمة . وغنى عن البيان أن الجرائم التى يعنيها هذا الأمر كانت تلك التى اتصلت بأعمال المقاومة من إيجابية وسلبية فى داخل الريخ الألمانى وذلك منذ أخذت هذه المقاومه تشتد وتتسع رقعة نشاطها بعد قيام الحرب الهتلرية على وجه الخصوص وبالرغم من تلك الانتصارات الخاطفه التى أحرزها النازيون فى جبهات الحرب المختلفه ، إذ أنه عقب نشوب الحرب ألقى الجستابو القبض على مئات الأهلين وأعدموا منهم عددا كبيراً ثم ألقوا بما بقى منهم فى غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال ، وقد أمكن العثور على أسماء أشخاص عديدين من هؤلاء الضحايا أعضاء تلك « الجبهه الرابعه » التى تحدث عنها هيملر فى « وثيقه عام ١٩٣٧ » السابقه . وكان ذلك بفضل ما نشرته الصحف النازية نفسها بين وقت وآخر من أنبائهم . فقد درجت هذه الصحف على نشر أسماء الأفراد الذين ثبتت إدانتهم وصدرت أحكام ضدهم فضلا عن

أنها كانت تذكر نوع الجريمة التى ارتكبها هؤلاء واستحقوا من أجلها عقوبة الإعدام أو الحبس ، وقد ذكرت كذلك التواريخ التى نفذت فيها هذه العقوبات . ويتضح من القوائم التى نشرتها الصحف النازية وقتذاك أن عدد الأفراد الذين أعدمهم النازيون بين ١٩ اكتوبر ١٩٣٩ و ١٥ سبتمبر ١٩٤١ بلغ خمسين فى داخل الريخ نشرت الصحف النازية اسماءهم وتواريخ إعدامهم ونوع الجرائم التى ارتكبوها وكانت هذه الجرائم منوعة ، منها جريمة الخيانة العظمى وأعمال التخريب والاستماع إلى الإذاعات الأجنبية وإيواء الطيارين الأعداء والاشتراك فى أحزاب أو جماعات معارضة للنظام القائم وغير ذلك ؛ أما أولئك الذين قتلهم الجستابو وعرفت أسماؤهم بين ٢٤ اكتوبر ١٩٣٩ و ١٢ سبتمبر ١٩٤١ — أى فى الوقت الذى كان النازيون قد بلغوا فيه ذروة قوتهم وبسطوا سلطانهم على رقعة شاسعة من أوروبا — فقد بلغوا (٣٣) شخصا ؛ وفضلا عن ذلك فقد صدرت أحكام بالسجن تتراوح مدتها بين ١٢ ، ١٠٨ شهرا على عدد من الأفراد بلغ (٦٩) بين ديسمبر ١٩٣٩ ونوفمبر ١٩٤١ وذلك بسبب استماعهم للاذاعة البريطانية (B.B.C.) وأعدم واحد فى نورمبرج لهذا السبب نفسه فى ٢٠ مايو ١٩٤١ .

على أنه مما ينبغى ذكره أن الاحصائيات الآنفه — وهى كما هو ظاهر لغاية نهاية عام ١٩٤١ لا تشمتل على جميع ما صدر من أحكام بالحبس أو بالإعدام فى المانيا خلال هذه المدة فقد غصت السجون بالرجال والنساء بسبب الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية عموما أو إظهار الاحتقار عند الحديث عن حكومة الريخ أو السخر بشخص الزعيم هتلر أو ترويج الإشاعات والأخبار الكاذبة أو التى ينجم عن إذاعتها ضرر أو التسبب فى ضياع قطع الآلات من المصانع و (الورش) أو إبداء العطف على أسرى الحرب — باعطائهم بعض لفافات التبغ أو الأطعمة أو المشروبات ، أو معاشرة العمال الأجانب المسخرين فى خدمة الريخ معاشرة الصديق والخليل وقد منع النازيون الشابات الألمانيات على وجه الخصوص من معاشرة البولنديين كما منعوا الرجال الألمان من مخالطة البولنديات .

وواضح فى صرامة هذه الأحكام وكثرتها أن ألمانيا ذاتها كانت تعانى نوعا من المقاومة الايجابية والسلبية لا يقل فى شدته عن مقاومة الشعوب الأوربية المقهورة وقتذاك فاذا تذكرنا أن عدد القادرين على المقاومة الإيجابية كان قليلا من جراء تجنيد كل صالح للخدمة العسكرية فى ألمانيا وإرساله إلى ميادين القتال أو إلى البلدان المحتلة وأدركنا أن الاحصائيات التى جمعت والحوادث المتفرقة التى عرفت مما كانت تنشره الصحف النازية لا يمكن بأى حال أن تكون كاملة أو تصف كل ما كان يحدث من وقائع لأن النازيين إنما كانوا يقصدون بما ينشرونه

تذكير سواد الشعب بأنه من الخير كل الخير الاقلاع عن المقاومة والرضا بالعيش فى ظل النظام القائم ، وعرفنا أنه لم يكن من صالح النازيين بتاتا أن ينشروا على الملأ كافة ماكان يحدث من ضروب المقاومة خوفا من تصدع الجبهة الداخلية — إذا تذكرنا ذلك كله أمكننا أن نقف على مدى المقاومة التى كان يصادفها النازيون فى داخل الريخ الثالث نفسه .

بيد أن أكثر ماكان يخشاه هؤلاء فى الحقيقة إنما هو انتشار (التخريب) فى داخل المصانع الألمانية ، فقد وقعت حوادث من هذا النوع لاريب فى أنها كانت كثيرة وقد أمكن الوقوف على شىء منها مما نشرته الصحف النازية وقتذاك ، مثال ذلك ماحدث فى مصنع (شمنيتز) Chemnitz للأسلحة حيث وقع مالايقل عن (١٧٩) حادث إتلاف فى خلال شهر واحد (فبراير ١٩٤٢) ، أو ذلك التخريب الذى عطلت بسببه محطة (فورباخ) Forbach لتوليد الكهرباء ، ومما يجدر ذكره أنه قبل حدوث هذا التخريب ببضعة أيام وزعت عدة منشورات ضد النازية بين العمال وفى القرى المجاورة وألقى الجستابو القبض على كثيرين لهذا السبب ، وكان من حوادث التخريب ذات الخطر أيضا تلك الانفجارات التى خربت المصانع فى (سپانداو) Spandau قرب برلين فى الوقت نفسه .

وعلى ذلك كان متعذراً على المرء أن ينكر وجود المعارضة الداخلية فى ألمانيا ضد السادة النازيين على الرغم مما ابتكره هؤلاء من أساليب الدعاية لاقناع العالم الخارجى فى ذلك الحين بأن دولتهم قد أصبحت نازية لحما ودما . وفيما يلى سوف يجد القارىء الدليل تلو الدليل على أن النازيين لم يستطيعوا بتاتا إخماد هذه المعارضة رغم قسوتهم ، بل إن هذه المعارضة نبتت منذ وصولهم إلى الحكم وبقيت إلى وقت إنهيار دولتهم ، وكان من أسباب ازدياد قوتها نشوب الحرب الهتلرية ، إذ سرعان ما أظهرت الحرب بطلان دعاوى النازيين الذين وعدوا مواطنيهم بأنها سوف تكون حربا خاطفة تنتهى بعد شهور معدودة لا يلبث أبناء الريخ الثالث بعدها حتى يجدوا أنفسهم سادة شعوب العالم قاطبة .

وأسباب وجود هذه المعارضة الداخلية كثيرة ترتبط فى جوهرها ارتباطا وثيقا بتلك الخطة التى اتبعها النازيون منذ وصلوا إلى الحكم كى يؤلفوا كتلة صلدة متماسكة فى قلب الريخ الألمانى ، فجروا فى سياستهم الداخلية على أسلوب خاص كان الغرض منه أن يصبغوا الحياة العامة والخاصة فى الريخ الألمانى بصبغة نازية محتة . وعلى ذلك كان مصدر المعارضة الشديد أن شطراً كبيراً من الشعب الألمانى نفسه ماكان يرضى بتاتا أن يرى الزعماء الجدد يضيقون عليه السبل حتى يحرموه حرية اختيار نوع الحياة التى يريد أن يختارها ، فضلا عن أنهم كانوا يتدخلون فى عقائده الدينية ويعملون لفرض سيطرتهم على الكنائس والمذاهب المختلفة

ليرغموها على قبول تلك الفلسفة التى شاءوا أن يبنوا عليها مثلهم العليا فى الحياة وادعوا أنها فلسفة روحية تختلف كل الاختلاف عن الفلسفة القديمة التى قالوا إنها كانت يهودية مادية . زد على ذلك أن أساليب النازيين فى شئون التربية والتعليم — ما كانت لتجلب رضاء شطر كبير من الأهلين الذين راعهم أن يروا دعائم الأسرة تنهدم وفلذات أكبادهم يصبحون بانخراطهم فى سلك الشباب الهتلرى والحزب النازى نفسه ، من الغلاة المتطرفين الذين لا يعرفون لأهلهم كرامة ولا يعترفون للوالدين بحق من الحقوق ، ثم لا يترددون فى أن يبلغوا أمر آبائهم الى السلطات الحكومية إذا أظهر الآباء تذمراً من الأحوال السائدة أو تبرمانها فيكون جزاؤهم من جراء « تجسس » أبنائهم عليهم تمضية بقية العمر فى غياهب السجون أو معسكرات الاعتقال ولم يكن من المنتظر أن تخف وطأة المعارضة بعد قيام الحرب العالمية الثانية لانه سرعان ما نجم عن إخفاق النازيين فى إحراز النصر السريع الخاطف عدد من المشكلات لم يكن الزعماء النازيون قد اتخذوا العدة من قبل لمواجهتها اللهم إلا إذا كنا نعتبر الالتجاء إلى وسائل الحبس والاعتقال والإعدام حلولا مؤاتية لمعالجة المعضلات . وأهم هذه المشكلات نظام التموين وشدته ، ذلك بأن الأفراد العاديين ظلوا زمنا طويلا قبل نشوب الحرب الهتلرية محرومين كثيرا من ضروريات الحياة وكانوا يستعيضون عنها بما كان يقدمه لهم « علماء » النازيين وخبراؤهم من صنوف المعوضات ، Ersatz فى المأكل والمشرب والملابس ؛ وكان الفرد لا ينال حاجته من هذه المعوضات إلا بقدر معين وبمقتضى بطاقة التموين المعطاة له ؛ وقد أحكم النازيون الرقابة على شؤون التموين منذ عام ١٩٣٦ ، أى منذ بدأوا ينفذون (برنامج السنوات الأربع) المشهور بأشراف (هرمان جورنج) وكان الغرض من هذا البرنامج أن تصبح ألمانيا النازية دولة تعتمد على الاكتفاء الذاتى فى حياتها الاقتصادية ، فتنقص من الواردات ما أمكنها ذلك ؛ وتبذل كل جهد لزيادة الصادرات زيادة عظيمة حتى يجتمع لديها « فائض » تستخدمه فى جلب المواد الخام اللازمه لصناعة الحرب ؛ ومنذ عام ١٩٣٦ كذلك نظمت الدعاية النازية برنامجا واسعا على أساس « الاستغناء عن الزبدة والاكثار من صنع المدافع ! » ، فكان من الطبيعى أن يشتد حرمان الفرد عند نشوب الحرب ، وكان أول من أحس وطأة هذا الحرمان الشديد المرأة الألمانية ربة البيت التى وقع على عاتقها تدبير حاجتها وحاجات زوجها وأولادها . على أنه لما كانت أسباب المعارضة الداخلية الأخرى كثيرة يضيق المقام عن التبسط فى ذكرها فقد يكفى اختيار عدد منها لإقامة الحجة على أن (هنريك هيملر) كان صادقا عندما تحدث فى وثيقته عن وجود جبهة رابعة فى داخل المانيا . وأهم أسباب المعارضة تذمر المرأة الألمانية وغضبها من النازيين

واشتداد كراهية الأهلين لرجال الحزب النازى والخلاف الذى حدث بين مختلف الكنائس والمذاهب فى دولة الريخ والسلطات الحكومية وإقدام النازيين على الحرب مع الروس وتطور الموقف الحربى فى غير مصلحة الألمان عقب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب وافتضاح أمر هرمان جورنج وظهور كذبه عندما كثرت الإغارات ليلا ونهارا على برلين وعلى مراكز الصناعة والانتاج الألمانية بعد أن كان يؤكد لمواطنيه استحالة ذلك .

. . .

وكان تذمر المرأة فى ألمانيا النازية راجعا قبل كل شىء إلى صعوبة التموين ، فقد أدخل النازيون نظام (الوجبة ذات الصنف الواحد) Eintopfgericht قبل بدء الحرب العالمية الثانية بخمسة أعوام على الأقل وطلبوا إلى ربات البيوت التبرع بكل ما يمكن توفيره من نفقات تلزم لطهى أكثر من هذا الصنف الواحد « لصندوق إعانات الشتاء » الذى خصصه النازيون من سنوات مضت للانفاق منه على العاطلين أو الفقراء ؛ وخلال سنوات السلم عمد النازيون رغبة فى أن يتأكدوا من اتباع ربات البيوت لهذا النظام والعمل به إلى إرسال عمالهم من جنود الهجوم (S.A) أو الحرس الأسود (S.S) لفحص (مطابخ) البيوت والأطعمة التى بها من وقت لآخر ثم ما لبثوا حتى زادوا هذا التدخل بدعوى إنشاء « جبهة » جديدة لا غنى عن وجودها لنجاح برنامج السنوات الأربع ، أسموها « جبهة المطبخ » .

وفى عام ١٩٣٦ كان العثور على البن الجيد والشاى من الأمور المستعصية ، ثم اختفت (الزبدة) من عالم الوجود — بدعوى انفاق المال اللازم لانتاج أو شراء ذلك الطعام الكمالى فى صنع المدافع والأسلحة — ثم اختفى البيض وتبعه الخبز الأبيض واستعيض عنه بخبز مخلوط أدكن اللون تشمئز منه النفوس ، وقلت اللحوم وتعذر الحصول على الأطعمة المحفوظة ومنذ عام ١٩٣٦ كذلك خرجت الصحيفة الوطنية الاشتراكية Nationalsocialistische Korrespondenz تقول فى أحد أعداد نوفمبر ، أنه يجب أن يكون لدى الشعب الألمانى « معدة سياسية » ولذلك نصحت الجريدة بضرورة الإقلال من الدهنيات واللحوم والإكثار بدلا من ذلك من الأسماك والخضراوات ، ونصحت بتفضيل الخبز الأسود على الأبيض كما نصحت بأجادة المضغ للتأكد من استخلاص المواد المغذية فى الطعام ، وادعى النازيون أن الإكثار من الأكل خيانة للوطن ! ولم يكن فى استطاعة الفرد إذا أراد أن يسد رمقه أن يجد حاجته فى المطاعم العامة لأنها صارت لا تقدم سوى صحاف معدودة ؛ وقد حدث هذا كله قبل نشوب الحرب الهتلرية بمدة طويلة

ولما كان توزيع الأغذية جميعها قائما على نظام البطاقات فقد تحتم على المرأة أن تقف فى طوابير

أمام الحوانيت فى أوقات توزيع هذه الأغذية وبيعها وكثيرا ما كان يحدث أن تعود المرأة إلى بيتها دون قضاء حاجتها بسبب نفاد ما تريده ، وأدرك النازيون ما يسببه ذلك من تذمر السيدات وغضبهن فأعدوا طائفة من النساء مهمتهن ملاحظة « المشتريات » والتجسس عليهن حتى لا تتفوه إحداهن بشيء يهين سمعة السلطات الحكومية .

ثم سوغ النازيون هذا النظام بقولهم « ان كثيرا من ربات البيوت يتسلط عليهن الخوف الشديد إذا توقعن العجز عن شراء حاجاتهن وهذا الخوف لاسبيل إلى الخلاص منه لأنهن لايثقن بان هناك شيئا اسمه الغد يحصلون فيه على مايردن بل انك لتجدهن منتظرات خارج الحوانيت قبل أن تفتح أبوابها ، فيسببن بهذا المسلك الشقاء والتعب لا لأشخاصهن فحسب بل وللباعة والتجار كذلك » على أن تسلح المرأة بالبطاقة التى بيدها كان لايعنى أنها تستطيع دائماً الحصول على المقدار المدون بهذه البطاقة ، فقد حدث فى شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ مثلا أن اختفت البطاطس من الأسواق ، وبلغ عدد الحوانيت التى أرغمت على إغلاق أبوابها من جراء نقص الأغذية وعدم وجودها حتى ١٥ مارس ١٩٤٣ حوالى المائة ألف فى مختلف أنحاء الريخ ، وسبب ذلك زيادة متاعب المرأة الألمانية واضطرها إلى الشراء من (السوق السوداء) ثم الالتجاء إلى (المقايضة) ولما كانت السلطات الحكومية لاترى غضاضة كبيرة فى ذيوع هذه الوسائل غير القانونية للبيع والشراء فقد زاد عدد الأسواق السوداء زيادة عظيمة ، وأقبل الأهلون على نظام المقايضة بشغف كبير .

ولم يكن منشأ صعوبات المرأة فى عالم النازية نقص الأغذية وعدم وجودها فحسب ؛ بل أن النازيين كانوا قد بدأوا منذ مدة طويلة حملة واسعة حتى يقتصد الناس فى استعمال الصابون ومع قلة هذا الصنف كان النوع الموجود منه من المعوضات Ersatz مصنوعا من المواد الرديئة ويؤدى استعماله إلى بلاء الملابس مما خلق صعوبات جديدة للمرأة الألمانية لأن الحصول على ملابس جديدة كان قد أصبح من أشق الأمور وأبعدها منالا فى دولة الريخ الثالث ، وكان للنازيين فى هذه المسألة أفكار عجيبة ، فانهم كما كانوا يعتبرون الأكثار من الأكل خيانة للوطن فقد أعلنوا كذلك أن « ارتداء الملابس الجيدة ذات المنظر الحسن خيانة » وفضلا عن ذلك فانه لم يفتهم اصدار القرارات الصارمة لتنظيم استهلاك الملابس أو شراء الجديد منها .

مثال ذلك أنهم كانوا يحددون ما يجب أن يبلغه طول قمصان الرجال وعدد الجيوب فى بذلاتهم وحرموا الأكمام أو الذيول الطويلة إلى غير ذلك . وفى ١٨ مايو ١٩٣٧ كتب عمدة بلدة (بيرماسنس) Birmasens « من الملاحظ أن الأموات كثيراً ما يهيئون للدفن فى أردية ثمينة وزينات عظيمة ، ومن واجبى أن أسترعى انتباهكم لأمر من واجب كل مواطن أن

يعطيه ما يستحقه من عناية كبيرة ، ذلك أنه لا ينبغي دفن الموتى متدثرين بملابس أو أردية ثمينة وغالية ! ، وفي أول يناير ١٩٤٣ صدرت بطاقة جديدة للملابس يسري العمل بها مدة ثمانية عشر شهراً أنقصت مقدار المنسوجات المرخص باعطائها في أثناء هذه المدة ، وفضلا عن ذلك فإن أحداً ماكان في وسعه الانتفاع بهذه البطاقة إلا إذا أثبت حاجته الملحة إلى الملابس وأقام الدليل على أن ما يوجد لديه منها قد بات من المتعذر رتق فتوقها أو حياكة ما بلي من أجزائها ، وقد أعطى النازيون عمالهم الحق في فحص خزانات الملابس في البيوت للتأكد من أن المرأة لا تخفي في مكان ما ثيابا أخرى لم يتطرق إليها البلى ، وزادت محنة الملابس هذه عند نشوب الحرب مع روسيا ، ذلك أن الهتلريين أرغموا ربات البيوت على التبرع بالمعاطف والأردية الثقيلة والأغطية الصوفية (البطاطين) للجند المقاتلين في الجبهة الروسية ، وذلك علاوة على ما كانت المرأة ترغم على التبرع به عادة كل شتاء (لصندوق إعانة الشتاء) .

وقديما أكثرت الدعاية النازية من بذل الوعود لاستمالة المرأة الألمانية ، وكان من أهم هذه الوعود تهيئة البيوت الصحية الحديثة ذات الحدائق الصغيرة ، ولكنه لم يمر عام واحد على وصولهم إلى الحكم حتى كان قد أوقف بناء المنازل الجديدة ، ومنذ عامي ١٩٣٥ و١٩٣٦ قرر النازيون قصر جهودهم على الانتاج الحربي فسبب ذلك زوال حلم آخر من الأحلام اللذيذة التي كانت المرأة الألمانية تمني النفس بتحقيقها وكان من الأسباب القوية التي دفعتها إلى تأييد الحزب النازي في الانتخابات الأولى للريخستاج ثم لرياسة دولة الريخ ذاتها . وزادت محنة المرأة في ألمانيا عندما كثرت الإغارات الليلية والنهارية على المدن وهدمت قذائف الأعداء بيوتا عدة لا سبيل إلى إعادة بنائها ، ناهيك عن التفكير في بناء غيرها ، فنجم عن ذلك أن ارتفعت الايجارات ارتفاعا فاحشا حتى أن إيجار الشقة التي كانت مؤلفة من ثلاث غرف بلغ في برلين خمسة عشر جنيها انجليزيا في الشهر الواحد . على أن مشكلة السكنى هذه كانت مرتبطة بمشكلة أخرى لا تقل عنها خطراً نجمت عن تعذر العثور على الخادمات والمربيات والمرضعات ، وكان سبب ذلك ، تعبئة ، النساء جميعا في خدمة الحرب ، ثم صرامة النظام الذي تحتم على ربة البيت أن تتبعه إذا قدر لها العثور على خادمة من بين أولئك البولنديات اللواتي انتزعهن النازيون الفاتحون من أوطانهن وأرسلوهن في عربات البهائم للخدمة في البيوت أو العمل في مواخير الدعارة الرسمية ، إذ كان يتحتم على ربة البيت الألمانية ألا تسمح لخادمتها البولندية بالراحة من عملها أو تظهر نحوها شيئا من العطف والشفقة حتى إذا عرف عنها لين الجانب وحسن المعاملة حرمت في التو والساعة من خادمتها .

ولكن ماذا كانت الوسيلة التى استطاعت بها المرأة الألمانية وهى التى حتم عليها النظام النازى أن تعيش فى شبه عزلة ، ثم أقصاها عن جميع الوظائف أن تعبر بها عما شعرت به من حزن وألم ويأس علاوة على عجزها عن إدراك ما كانت تتطلبه الحرب من تضحيات لا غنى عنها فى عرف النازيين من أجل إحراز السيطرة العالمية ؟ وجدت المرأة الألمانية المتذمرة الحزينة المتألمة اليائسة وسيله مؤاتية لاظهار ما كانت تكنه من شعور فى إصرارها على نعى زوجها أو ولدها أو شقيقها أو أى عزيز لديها عقب ورود الأخبار منبئة بسقوطه فى ساحة الوغى بعيداً عن أهله وعشيرته ؛ فقد انقضى الزمن الذى كانت تجد فيه المرأة الألمانية عزاء وسلوى بل فخراً ومجداً فى موت عزيزها من أجل شخص (الفوهرر) العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة بعد ما امتد أجل الحرب وطالت الحملة الروسية على وجه الخصوص وتحطمت آمالها فى النصر السريع الخاطف وزاد عيشها سوءاً فى داخل الريخ ؛ وعبثاً صارت تحاول السلطات الحكومية إرغام الزوجات والأمهات على إتباع صيغة معينة عند النعى تنص على « سقوط المقاتل فى الميدان من أجل الفوهرر والوطن » . وكانت الصحف عند بداية الحرب تنشر قوائم النعى على هذه الصورة . ولكنها ما لبثت عند اشتداد سخط الزوجات والأمهات حتى أفسحت أعمدتها لأنباء النعى تصوغها المرأة كما تريد وتشتهى . فتذكر كيف أن عزيزها « قد عاد إلى الميدان بعد فترة وجيزة أمضاها بين أهله وعشيرته ، فلم ينقض يومان على عودته حتى قتل فى أرض أجنبية فى بلاد روسيا النائية الموحشة ! » . وهكذا تضمنت أنباء النعى إشارة صريحة إلى مقدار ما كانت تعانيه الأمهات والزوجات من آلام مبرحة ويأس عظيم لا يمكن أن يخفف من حدته القول بأن أبنائهن وأزواجهن إنما ضحوا بأنفسهم فى سبيل الزعيم العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة أو من أجل الوطن العزيز !

وكان مما زاد فى حزن المرأة الألمانية التى فقدت ولدها أو زوجها أنها كانت ترى عدداً كبيراً من الشبان الأقوياء والرجال الصالحين للخدمة العسكرية ينعمون بالوظائف التى أغدقها عليهم الحزب النازى فى داخل البلاد عند انخراطهم فى سلك « الشباب الهتلرى » أو « جبهة العمل » أو غير ذلك من الهيئات والمنظمات النازية ؛ وذلك عدا العدد العظيم من جنود الهجوم والحرس الأسود ورجال الجستابو الذين انتشروا فى أرجاء البلاد بحجة الاشراف على الجبهة الداخلية ، واعتمدت الحكومة عليهم فى دعم نفوذها والقضاء على أية بادرة من بوادر التمرد والعصيان فى الريخ الألمانى .

وقصة تلك القوات التى كانت تتألف منها شراذم الهجوم ووحدات الحرس الأسود وهيئة الجستابو عجيبة حقاً ، إذ أن توزيع هذه القوات عند بداية الحرب حدث على نحو

يضمن قبل أى شىء آخر تحقيق مآرب الزعماء النازيين ، فى ضرورة السهر على استتباب الأمر للحكومة ودعم أركان النظام القائم عن طريق مراقبة القوات المحاربة فى خطوط القتال الأماميةفضلاعن مراقبة الأهلين فى داخل الريخ نفسه . وبيان ذلك أن الهر هتلر أسرع عقب نشوب الحرب إلى تقسيم الحرس الأسود (.S.S) فريقين : فريق عهد إليه الاشراف والمراقبة على خطوط القتال فى وحدات صغيرة تنبث بين الجنود فى الجهات المختلفة فى الميدان الروسى خاصة وفريق استبقى فى داخل البلاد نفسها لتأييد سلطان الحزب النازى . وكانت مهمة الفريق الأول مراقبة الجنود المقاتلة ومنع انتشار روح التذمر بينهم والحيلولة دون حدوث أية حركة قد يقوم بها الجيش المحارب من أجل التقهقر أو الانسحاب مهما اشتدت ضربات العدو وعظمت خسائر الجيش ، وكان يطلق على هـــذا الفريق اسم (زملاء المحاربين) Waffen-S.S. وكان عددهم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ ؛ أما الفريق الثانى فقد بلغ عدد رجاله ٢٥٠,٠٠٠ ، وكان هتلر قد سمح لوحدات من الحرس الأسود أن تشترك فى القتال فى بداية الحرب عندما بدأ النصر يبدو سهلا رخيصا ، كما اشترك الحرس الأسود فى القتال عندما بدأ الزحف على روسيا ؛ غير أنه بعد أن تبين للزعيم أن الحملة الروسية لن تنقضى قبل الشتاء التالى (١٩٤١ — ١٩٤٢) أسرع فى استدعاء هذه الوحدات المقاتلة وجعل عملها مقصوراً على مناوشة العصابات الروسية فى المؤخرة ، وبعد ديسمبر ١٩٤١ اختص الحرس الأسود بأعمال الارهاب خلف الخطوط الأمامية ، فأصبحت مهمتهم أن ينقلوا الفلاحين الروس والنساء والأطفال من قرية إلى أخرى ومن مكان إلى آخر وتسليط سوط العذاب على أبدانهم جميعاً

ومنذ ديسمبر سنة ١٩٤١ تألفت كذلك من الحرس الأسود وحدات اتخذت مكانها فى مؤخرة الجيش الألمانى المحارب وكانت مهمتها السهر على منع حوادث التمرد والعصيان فى صفوف المقاتلين فى الخطوط الأمامية ومنع هؤلاء المقاتلين من التقهقر بشتى الوسائل ، وفضلا عن ذلك فقد عهد هتلر بمهمة مراقبة وحدات الجيش فى خطوط القتال الأمامية إلى جماعات من شراذم الهجوم (.S.A) ورجال الجستابو .

وبلغ عددالرجال الذين كانت تتألف منهم شراذم الهجوم حسب إحصاء أدلى به (لوتز) Lutze رئيس أركان حرب هـذه الشراذم إلى جريدة سويدية فى مايو ١٩٤٢ حوالى مليون وأربعمائة ألف جندى كان عدد الموجود منهم فعلا فى خطوط القتال (٩٨٩,٠٠٠) بينما ظل أكثر من أربعمائة ألف منتشرين فى أنحاء الريخ لتوطيد دعائم الحكم النازى ومراقبة الجبهة الداخلية . وكان عدد الجستابو فى تلك الآونة حوالى أربعمائة ألف وجد منهم فى داخل ألمانيا ذاتها حوالى ربع مليون بينما انتشر الباقون فى أنحاء أوربا المحتلة ،

فاذا أضيف عدد رجال الحرس الأسود (.S.S) إلى عدد جنود الهجوم (.S.A) ممن كلفوا مراقبة الجبهة الداخلية ، ثم أضيف إلى هذين الفريقين رجال الجستابو المنتشرون فى أرجاء الريخ الثالث لبلغ عدد الرجال الأشداء الأصحاء من هذه الفئات الثلاث (٩٠٠,٠٠٠) رجل أقاموا بداخل البلاد بدلا من الذهاب إلى خطوط القتال الأمامية والدفاع عن الفوهرر ومبادىء الوطنية الاشتراكية المقدسة وأرض الوطن العزيز ! وكان هذا الرقم الضخم لايشمل بطبيعة الحال أعضاء حزب النازى العاملين أو الموظفين فى هيئات الحزب ومنظماته المختلفة ذات الخلايا المتعددة الموزعة فى كل مدينة وقرية من مدن وقرى الريخ الألمانى ، وقد بلغ عدد هؤلاء الموظفين والأعضاء بعض مئات الألوف .

ومع أن وجود هذا العدد الضخم من الرجال الصالحين للقتال بعيدين عن ميادين الحرب كان وحده من أكبر العوامل التى سببت كراهية شطر كبير من الأهلين للحزب النازى وزعمائه فإن هذه الكراهية كانت ترجع أيضاً إلى ذلك الفزع العظيم الذى استبد بالأهلين من بطش قوات الحرس الأسود ورجال الجستابو وقسوتهم ، وليس أدل على مبلغ هذا الفزع مما روته جريدة سويدية Svenaka Dagbladet بعددها الصادر فى (مالمو Malmo) فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٢ من أن ثلاثة من الرجال انتحلوا شخصية أعضاء من الجستابو ودخلوا أحد المساكن فى برلين زاعمين أنهم إنما حضروا لاجراء تفتيش دقيق بأمر من السلطات الحكومية فمكنهم هذا الادعاء من الاستيلاء على جميع قطع الأثاث وغير ذلك من النفائس التى راقت فى أعينهم ، بينما وقف أهل البيت مكتوفى الأيدى لا يبدون حراكا يعقد الخوف ألسنتهم ويذهب الرعب برشدهم فبقوا على هذه الحالة مدة حتى إذا هدأ روع أحدهم وجد الشجاعة الكافية للذهاب إلى مركز البوليس يقص ما جرى ، ولكن أحداً لم يهتم بالبحث عن هؤلاء اللصوص . وفى الواقع لم يكن هذا الحادث الأول والأخير من نوعه ، فقد وقعت عدة سرقات مشابهة لهـــذه منذ وصل النازيون إلى الحكم وبدأت تنتشر فى طول البلاد وعرضها منظمات جنود الهجوم والحرس الأسود والجستابو ، حتى إن لفظ الجستابو كان وحده كفيلا بالقاء الرعب والفزع فى نفوس الأهلين ، ثم تطايرت الاشاعات عن نشاط هؤلاء الجستابو « المرعبين » وما كانوا يأتونه من جرائم وفظائع . وسرعان ما بلغت هذه الاشاعات حدا جعل السلطات الحكومية تبادر فى مارس ١٩٤٢ بتكذيبها تكذيباً قاطعاً وتحذر الأهلين من الاستماع إلى أولئك الذين كانوا « يروجون هذه الأباطيل » على حد قول الصحف النازية .

وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية . وقد بدأ عداء النازيين للكنيسة الكاثوليكية قبل وصولهم إلى الحكم بزمن

وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية وقد بدأ عداء النازيين للكنيسة الكاثوليكية قبل وصولهم إلى الحكم بزمن طويل يدل على ذلك بيان أصدره أساقفة بافاريا فى عام ١٩٣١ احتجاجا على الحركة النازية بسبب مبادئها المتعلقة بالعنصرية وتفضيل الجنس الآرى على ما عداه من الأجناس وموقف النازيين من الكتاب المقدس وتدخلهم فى أعمال القساوسة ومنع بعضهم من القيام بوظائفهم الدينية، فقد عمد النازيون فى أول الأمر إلى استجلاب مودة المعتدلين من رجال الدين الكاثوليك الذين أبدوا استعدادهم لتخفيف معارضتهم ضد النازية على أمل أن يفضى هذا التساهل من جانبهم إلى إزالة شىء من أسباب العداء الذى بدا مستحكما بين النازيين والكنيسة الكاثوليكية، وفى تلك السنوات الأولى التزم هتلر خطة الحيطة والحذر فى علاقاته مع الكاثوليك لأن شعور الكاثوليك فى ألمانيا ضد الشيوعية كان شعورا قويا فلم يكن من مصلحة النازية بتاتا إثارة عداء الكاثوليك ضدهم بدرجة ظاهرة؛ وأحرز هتلر انتصارا كبيرا عند ما استطاع أن يعقد مع الفاتيكان معاهدة (concordat) فى يولية ١٩٣٣ لأن إبرام ذلك الاتفاق كفل على حد قول النازيين أنفسهم اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالوطنية الاشتراكية اعترافا نهائيا. وكان الكونكردات ينص على أن يقسم كل أسقف عند تعيينه فى أسقفيته يمين الولاء للدولة الألمانية وحرم على القساوسة الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو مساعدة هذه الأحزاب مهما كانت أغراضها، أما النازيون فقد تعهدوا فى نظير ذلك بأن يعطوا الحرية الكاملة لمدارس الكاثوليك والجماعات الدينية الكاثوليكية ما دامت لا تهدف إلى أغراض سياسية ثم تعهدوا بعدم تدخل الدولة فى عقائد الأفراد وكل ما كان متصلا بشئون حياتهم الدينية، وألا يتعرضوا للأطفال الكاثوليك بشىء.

غير أن النازيين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم قبل هذا الاتفاق بشهور معدودة، كانوا يبيتون النية على نقض التزاماتهم عند أول بادرة؛ وفضلا عن ذلك فان مضيهم فى تنفيذ برنامجهم الداخلى لتأليف تلك الكتلة الصلبة المتماسكة التى أرادوا إنشاءها فى قلب الريخ الألمانى ما لبث حتى أثار ضدهم احتجاج الكنيسة الكاثوليكية، وكان سببا فى استحكام العداء بين النازيين والكاثوليك فى الريخ الثالث، فقد أصدر النازيون بعد مضى ستة أيام من توقيعهم الكونكردات قانون التعقيم، الذى سبق الحديث عنه، فأثاروا بذلك شعور الكاثوليك لأن التعقيم يتعارض مع عقائدهم الدينية ولا يمكن أن يوافقوا عليه بحال من الأحوال، وعدوا إصدار هذا القانون تحديا صريحا لهم وتوقع النازيون أن يمتنع الكاثوليك عن تنفيذه وأن ينقد القساوسة هذا القانون نقدا مرا؛ وتحقق ما توقعوه إذ ألقى الكاردينال (فولهابر) Faulhaber « عظة »

فى آخر عام ١٩٣٣ يبين فيها موقف الكنيسة الكاثوليكية رسميا من مسألة النسل والتعقيم وكأنما كان إفصاح الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها من هذا القانون كل ما يبتغيه النازيون حتى يعلنوا على الملأ أن رجال الدين الكاثوليك امتهنوا الكونكردات ونقضوا يمين الولاء الذى أقسموه للدولة الألمانية وأنهم مصرون على المضى فى عدائهم للوطنية الاشتراكية . وعلى ذلك شرع النازيون يكممون الصحف الكاثوليكية فى غير توان وفى بداية العام التالى (١٩٣٤) بدأ الفريد روزنبرج يعد حملته لانتزاع الشباب الألمانى من أحضان الكنيسة ولما كان هتلر يأخذ أهبته فى تلك الآونة لضمان نجاح الاستفتاء فى أقليم السار وانضمامه إلى ألمانيا وكان النفوذ الكاثوليكى فى هذا الإقليم قويا فقد رأى هتلر عدم الظهور بمظهر العداء الصريح للكاثوليكية، ووعد بصون حقوق الكنيسة الكاثوليكية.وتنفيذ مواد الكونكردات بكل أمانة ، غير أن هذه الوعود لم تكف لاقناع رجال الدين الكاثوليك بأن النازية لا تريد شرا بكنيستهم فأعد أساقفتهم فى اجتماعهم السنوى وقتذاك فى بلدة (فولدا) (خطابا رعويا) أظهروا فيه إنزعاجهم من سير الأمور وعدم اطمئنانهم اليه . ولكن أحدا من الأفراد لم يقرأ هذا الخطاب لأن الجستابو سرعان ما صادروه وأتلفوا كل أثر له . واشتد عداء النازيين للكاثوليكية فأعلن زعيم الشباب الهتلرى (بلدورفون شيراش) الحرب السافرة ضد المنظمات الكاثوليكية (مارس ١٩٣٤) ؛ وأسيئت معاملة فتيان الكشافة الكاثوليك فى كل ظرف ومناسبة ،وانتهز الهتلريون عودة فريق من هؤلاء الفتيان بعد زيارة قاموا بها إلى رومة فى غضون عام ١٩٣٥ ففاجأهم رجال البوليس السرى فى أثناء عودتهم واغتصبوا منهم آلات التصوير والمسابح والصلبان ومزقوا ملابسهم ، وفى العام التالى نشط عداء النازيين للكاثوليكية فأتموا خنق الصحافة الكاثوليكية ، وكانوا قد بدأوا يكممون أفواهها منذ وصولهم إلى الحكم رويدا رويدا . وفى عام ١٩٣٨ كانت قد حلت كل منظمات الشباب الكاثوليكى تقريبا ولم يبق فى الميدان سوى (الشباب الهتلرى) ودأب النازيون على إظهار الكاثوليك بمظهر أولئك الذين يضمرون العداء للدولة دائما ولا يحترمون القوانين ويلطخون سمعة الريخ الألمانى . فأصدروا قوانين لمنع تصدير النقد الألمانى إلى الخارج وكان معنى هذا تعذر سداد الديون المتراكمة على كل تلك الهيئات والمؤسسات الدينية التى اضطرت أيام تدهور المارك الألمانى فى عهد (جمهورية ويمار) إلى استدانتها من الخارج إلا إذا لجأت إلى التهريب لأن هذه الهيئات والمؤسسات الدينية لم تكن بطبيعة الحال تشتغل بالتجارة حتى يمكنها أن تسدد ديونها بفضل ما تصدره من سلع فلم تكن ثم وسيلة لتسديد الديون غير تهريب النقد ومخالفة أوامر الحكومة وفضلا عن ذلك فقد بدأ النازيون فى أوائل عام ١٩٣٧ حملة واسعة الغرض منها اتهام القساوسة

والرهبان والراهبات بسوء الخلق . ونشرت الصحف النازية بعد وبن كبيرة حوادث هذه الاتهامات المخزية ووعدت بتقديم ما لا يقل عن ألف من هؤلاء القساوسة والراهبات إلى المحاكمة ، وشجعت السلطات افراد الشعب على البحث عن مرتكبي الموبقات من رجال الدين الكاثوليك ولكن هذه الحملة الواسعة أسفرت عن أدانة خمسة وثمانين قسيسا من بين خمسة وعشرين ألفا فى الريخ ولم يثبت على راهبة ما أية تهمة من تلك التهم الشنعاء على أن هذا الفشل لم يمنع النازيين من الامعان فى اضطهاد رجال الدين الكاثوليك من أجل سلامة الدولة على حد قولهم ، لعدة أسباب من أهمها أن الكنيسة الكاثوليكية ذات ثقافة جنبية فضلا عن أنها لم تكن مؤسسة وطنية لأن اتجاهاتها وميولها مصطبغة بصبغة دولية ولا يمكن أن يعد أعضاؤها مواطنين بمعنى الكلمة لما كان لهم من علاقات مع سائر الكاثوليك فى الخارج . وهكذا استطاع النازيون فى غضون ثمانية أعوام من بدء سيطرتهم أن يلقوا فى السجون حوالى خمسة آلاف قسيس .

وعظمت محنة الكاثوليكية بعد نشوب الحرب الهتلرية ، وكان من وسائل إرهاقها مصادرة أملاك الكنائس والجماعات الدينية ، فصادر الجستابو فى عام ١٩٤١ مراكز (جماعة يسوع) وبيت الراهبات فى مونستر بوستفاليا ومراكز جماعة القديس أوغسطين بالقرب من (بون) فى الراين وبلغ عدد مراكز هذه الجماعة التى صادرها الجستابو حتى أواخر عام ١٩٤١ ثلاثة عشر مركزا . وفى مارس ١٩٤٢ أعلن أسقف برلين أن النازيين صادروا كثيرا من أملاك الكنيسة الكاثوليكية وفى أبريل من العام نفسه أغلق النازيون أديرة البندكتين فى شتى نواحى ألمانيا . ولكن فى عام ١٩٤٢ كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت الحرب ضد ألمانيا واشتدت غارات قوات الطيران البريطانية على المناطق الغربية لاسيما وأن الجيش الألمانى كان يزحف على روسيا ، وأخذت أركان الجبهة الداخلية فى التصدع على الرغم من قسوة النازيين وبطش رجال الجستابو . وفى هذه الظروف رفع رجال الكاثوليك أصواتهم فجأة يتحدون فلسفة النظام الهتلرى ويهددون بتقويض أركانه . وصحيح أن قادة الكاثوليك قالوا إن الامتثال لأوامر الدولة والخضوع لقوانينها واجب على كل فرد ، ولكنهم صاروا يطالبون فى الوقت نفسه بتغيير النظم القائمة وإنشاء نظام آخر بدلا من نظام الزعامة المسئولة ، فكان معنى ذلك تسديد ضربات المعارضة ضد النظام النازى بأجمعه . وألقى أسقف مونستر الكونت (جالن) Galen عظاته الثلاث المشهورة فى غضون شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤١ وحمل على وثنية النازيين حملة شديدة داعيا الآباء إلى إمعان النظر فى مستقبل أبنائهم ، والمسيحيين إلى اتباع تعاليم الكنيسة الصحيحة ، فلا يقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، ولا يتخذوا من دعوى

تخليص المرضى من آلامهم والمجتمع من المعتوهين مسوغا لارتكاب جرائم القتل ، وأطال الكونت (جالن) الحديث عن (الوصايا العشر) فوضح لمستمعيه إن مصادرة الأملاك — على غرار ما كان يفعل النازيون — سرقة صريحة ، وإن الحب الطليق ، وإنتاج الأبناء لخدمة الريخ خارج نطاق الزوجية ، زنا ومعصية ، وأن عدم احترام الآباء والأمهات عقوق ونكران وأن عبادة الطبيعة والدولة والجنس زيغ وكفران . وفى آخر العـــام نفسه ألقى الكردينال (فولهابر) عظة فى كتدرائية ميونخ عدد فيها الاتهامات التى كان يكيلها النازيون للكنيسة الكاثوليكية ثم أخذ يدحض هذه المفتريات الواحدة بعد الأخرى وأظهر ما كان يفعله النازيون — على حد قوله — لاقتلاع جذور الكنيسة . وفى مارس ١٩٤٢ قرىء فى الكنائس (خطاب رعوى) وضعه الأساقفة الكاثوليك وفى العام التالى كان أعداء الكنيسة الكاثوليكية للنازية سافرا ، فانفض كثيرون من حول الهتلرية ، وزادت مقاومة المتذمرين من نظام النازيين شدة على شدتها .

وكان مما قوى حركة المقاومة « الدينية » موقف النازيين من البروتستنتية فى ألمانيا فقد بدأوا بإحكام رقابة الدولة على الكنيسة البروتستنتية منذ استتب لهم الأمر فى الريخ فعينوا (قومسيريين) للاشراف على شئون الكنائس البروتستنتية فى بروسيا وسكسونيا وغيرها عام ١٩٣٣ ومنعوا نشر كل ما كان يتناول المسائل الكنسية (١٩٣٤) ، وارتكبوا غير ذلك من الأعمال التى أثارت المقاومة ضدهم . وألقى النازيون القبض على كبار رجال الدين البروتستنت فى ورتمبرج وبافاريا (١٩٣٤) وأرسلوا القساوسة البروتستنت خصوصا فى سكسونيا ونساو — هس إلى معسكرات الاعتقال ، وقبضوا على سبعمائة منهم فى أنحاء بروسيا لأنهم قرأوا من فوق المنابر احتجاجا ضد تلك « الوثنية الجديدة » التى أراد النازيون أن يستعيضوا بها عن الأديان جميعها (١٩٣٥) ونفوا عددا عظيما من القساوسة البروتستنت فى (بروسيا) وغيرها . وعندما ألف المعارضون البروتستنت كنيسة جديدة أسموها الكنيسة الاعترافيه ، حتى يتحرروا من القيود التى فرضها النازيون على الكنيسة البروتستنتية ، عطلت السلطات الحكومية إقامة الشعائر بالكنائس الاعترافيـة وصادرت أموالها وفرضت رقابة شديدة على مطبوعاتها غير أن التدابير النازية لم تخضد من شوكة الاعترافيين وظهر زعماء أمثال مارتن نيمولر وغيره قادوا المعارضة ضد الهتلرية بشجاعة فائقة وضحى كثيرون بأنفسهم فى سبيل تعزيز العقائد المسيحية الصحيحة فقدم (نيمولر) واخوانه مذكرة إلى الفوهرر — يتساءلون فيها عن نوايا النازية تجاه الديانة المسيحية (١٩٣٦) ثم تكررت احتجاجاتهم فى العام التالى وفى يوليه ألقى النازيون القبض على (نيمولر) وفى فبراير ١٩٣٨ قدموه للمحاكمة ثم أرسلوه

إلى معسكرات الاعتقال . وعندما بدأ الحرب اشتد الضيق على الكنائس الاعترافية (١٩٣٩) فلم يسعها إزاء انتصارات النازيين الباهرة فى مراحل الحرب الأولى وانتشار رجال الجستابو فى طول البلاد وعرضها سوى أن تطأطىء الرأس انتظارا لساعة الخلاص . وكانت الحرب التى شنها هتلر على روسيا مؤذنة بأن هذه الساعة لابد آتية . ذلك بأن الحرب الروسية كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى ازدياد المقاومة ضد النظام الهتلرى وتصدع الجبهة الرابعة نهائيا فضلا عن أنها كانت بمثابة المعول الذى هدم ذلك البنيان الشامخ : آلة الحرب النازية . فانه بمجرد أن سرى التذمر فى الجيش بين صفوف الجند وضباطهم وكبار قوادهم ، بات إنهيار ألمانيا أمرا لامفر من حدوثه .

فقد عرف عن الألمان من قديم الزمن أنهم يعنون بتنظيم الجيش عناية كبيرة ، ومع ذلك قد يخفى على الكثيرين أن الجيش الألمانى كان يعد أعظم الجيوش الديمقراطية إطلاقا بعد الجيش الأحمر وسبب ذلك أن الألمان حين خسروا الحرب العالمية الأولى ، رغبوا فى الانتفاع من دروس الهزيمة القاسية وقد وجدوا أن النظام القيصرى القديم كان من عوامل تلك الهزيمة إذ كان القواد والضباط والجنود يؤلفون طبقات منفصلة جعلت من المتعذر قيام الألفة والتفاهم بين الرتب العسكرية المختلفة . ولذلك حرص الألمان منذ أيام جمهورية ويمار ، على أن يزيلوا هذه الفوارق على الأقل بين الضباط وضباط الصف وبقية الجند وعندما وصل النازيون إلى الحكم درجوا على ذلك حتى خرج إلى عالم الوجود فى النهاية جيش (ديمقراطى) شديد التماسك دقيق النظام ، يشعر أفراده شعورا قويا بأنهم إنما يؤلفون مجموعة واحدة تربط بينهم جميعا أواصر التفانى فى خدمة الوطن . وعلى ذلك ظل الجيش الألمانى فى مراحل الحرب العالمية الثانية قوة متماسكة لايمكن أن يجد الوهن اليها سبيلا وكان من أسباب ذلك أن جميع الانتصارات التى أحرزها النازيون حتى منتصف عام ١٩٤١ ، كانت انتصارات سهلة لم تكلفهم جهودا كبيرة بل كانت كل القوة التى اعتمد عليها الألمان فى كسب معاركهم لاتزيد على ربع مليون رجل وحوالى اثنى عشرة فرقة من فرق الهجوم المصفحة وبضعة آلاف من رجال الطيران والغواصات . أى أن النازيين — بعبارة أخرى — اعتمدوا فى احراز انتصاراتهم على (الجيش المحترف) ، وعماده الجند المدربون الذين خدموا زمنا طويلا وتغلغلت فيهم روح التنظيم العسكرى الألمانى وعرفوا تقاليد الجيش الألمانى وحرصوا على الذود عنها ، ولكن الأحوال لم تلبث أن تغيرت عندما اضطر النازيون منذ أن بدأت الحرب الروسية فى يونيه ١٩٤١ إلى تجنيد كل شاب فى سن الخدمة العسكرية صالح لحمل السلاح فضموا إلى الجيش الألمانى فرقا جديدة جمعوا جنودها من بين أعضاء تلك (الجبهة الرابعة) التى كان

يخافها (هيملر) كل الخوف منذ عام ١٩٣٧ ويرى فيها عوامل انحلال عاجل أو آجل إذا تركت وشأنها ولم يفرض عليها (الجستابو) نطاقا من المراقبة الشديدة ولم يكن (هيملر) فى مخاوفه هذه مخطئا أو مغاليا .

فان هذه (الجبهة الرابعة) التى قام أعضاؤها ـ من الصناع والعمال والزراع والموظفين ، المدنيين ـ بجميع أنواع المقاومة الايجابية والسلبية فى داخل الريخ الألمانى ، على النحو الذى تقدم ذكره : لم يلبث أن ظهر نشاطها فى ميادين القتال أيضا . وبخاصة فى الميدان الروسى الكبير الذى كان يتطلب من الألمان حشد الألوف من شبان الريخ لمنازلة الجحافل الروسية ولاجدال فى أن تلك المقاومة كانت مقصودة فضلا عن أنها كانت نتيجة حتمية لما حل بالجنود من التعب والملل والشكوى من سوء التموين والتذمر من قلة الملابس والتعرض لبرد الروسيا القارص واليأس من احراز النصر السريع ، على نحو ما كان يعدهم به الهر هتلر من جانب ويغرر بهم الهر جوبلز بدعايته الواسعة العريضة من جانب آخر ، وقد ظهرت المقاومة فى أشكال متنوعة كان منها هروب المقاتلة الألمان وتسليمهم من غير قتال وامتناعهم عن تنفيذ أوامر الهجوم وتفضيلهم التقهقر فى الميدان على مواجهة العدو ثم التذرع بشتى الوسائل عقب وقوعهم فى الأسر واطمئنانهم إلى أنهم قد أصبحوا بعيدين عن مخالب الجستابو لاظهار كراهيتهم وبغضهم للنظام النازى وللزعيم ، وعصابته ، ومالبثت حوادث هذه المقاومة أن استرعت أنظار الروس عقب نشوب الحرب بينهم وبين النازيين وذلك على الرغم من أن انتصارات الألمان كانت قد جعلتهم فى الشهور الأولى من عام ١٩٤٢ على مقربة من لينينجراد وتجاوزت بهم (سمولنسك) ومكنتهم من التوغل فى الأوكرين ، فبدأ الروس يدرسون أحوال الهاربين والأسرى الألمان دراسة منظمة تلقى ضوءا كبيرا على حقيقة هذا النوع من المقاومة وسواء كانت هذه المقاومة ذات أثر فعال فى اندحار النازيين فى النهاية أو تضافرت عوامل أخرى أشد خطرا على تقويض دعائم الريخ الثالث فان وجود هذه المقاومة فى مراحل الحرب الأولى دليل على أن الهتلريين قد أخفقوا فى استمالة سواد الأمة الألمانية إلى تأييد ذلك النظام ، الذى فرضوه على ألمانيا فرضا ثم أرادوا تطبيقه على بقية أوروبا النازية ، وأسطع برهان على هذا الاخفاق ان الجندى الألمانى الذى عمد إلى الفرار من الخطوط الأمامية أوالتسليم أو عصيان الأوامر أو عدم الثبات أمام العدو فى بداية الحرب مع روسيا كان من غير شك لايجد فى تلك الفلسفة التى قامت عليها دعائم النظام النازى أية مثل عليا خليقة بتضحية النفس وبذلها رخيصة فى سبيل تحقيقها .

فقد أخذ عدد الهاربين من المقاتلة الألمان إلى الجيش الأحمر يزداد منذ بداية الحملة الروسية

حتى بلغ درجة جعلت من المتعذر الاعتقاد بأن حوادث الهرب كانت حوادث فردية ولا تدل على فقدان الرغبة فى القتال لدى شطر من الجنود الألمان فى الجبهة الشرقية . ومنذ ١٨ مارس ١٩٤٢ أشارت صحيفة النازيين الرسمية (فولكشير بيوبختر) إلى هذه الحالة إشارة خفية عندما قالت : « إن الجنود الألمان يفكرون فى البرد والقمل وغيره من كلام أكثر مما يفكرون فى وطنهم فإذا فتح جندى فاه فى الجبهة الروسية فعل ذلك دائما للشكوى من البرد أو من أن مطبخ الميدان لا يعد الطعام فى موعده ، أو من أن الخبز قديم أو غير ذلك من الشكاوى » .

وجاء فى مفكرة يومية عثر عليها الروس بين اوراق (الفريد روهيل) أحد الضباط الألمان الذين سقطوا فى الميدان الأوسط بالقرب من (أڤاوڤو) فى غربى موتزايسك فى آخر يناير ١٩٤٢ ما يؤيد إنتشار روح التذمر فى الجيش أبان الحملة الروسية فقد دون هذا الضابط فى مذكرته بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٤١ « أنه من الصعب على المرء أن يفهم ما يحــدث الآن ، فاننا نتقهقر . مع أننا لم نتقهقر فى بولندة ، ولم نتقهقر فى فرنسا أو اليونان ، ولكن هنا فى الروسيا ، بدلا من التقدم إلى الأمام بدأنا لسبب ما نتقهقر . وهذا أمر يصعب فهمه لاسيما وأن (الزعيم) أكد لنا أن الروس سوف يخرون صرعى وأن الحملة الروسية لابد منتهية فى ختام عام ١٩٤١ حتى يستطيع الانتهاء من الانجليز أيضا فى عام ١٩٤٢ ولكن هذه الآمال تنهار الآن كأنها بيت من الورق » ، وكتب الضابط أيضا فى ٨ يناير ١٩٤٢ : « لقد أصبح جنودنا غير أولئك الذين عهدناهم من قبل . أنهم الآن يلزمون الصمت ويصعب على المرء أن يجد من يتحدث اليه منهم بل إنه ليبدو عليهم التجهم وعدم الثقة وصحيح أن الجنود مازالوا يخشون باس الضباط ولكن العلاقات القائمة بين الطرفين قد تغيرت نوعا ما حتى أن الإنسان ليشعر بوجود توتر غير طبيعى وذلك نذير سوء » : وكتب فى اليوم التالى « اختفى من فرقتنا أمس ثلاثة رجال ، ولم يكن هذا الحادث الأول من نوعه . والظاهر أنهم هربوا أو سلموا للعدو ... » وكتب فى ٢٠ يناير : « اخترق الروس صفوفنا ثانية . ونحن فى خطر التطويق وخسارتنا جسيمة ، والجنود متجهمون . يبدو عليهم الوجوم ، وحبذا لو أمكن معرفة ما يجول بخاطرهم . ولكنهم يلزمون الصمت دائما . وهذا الصمت يرهق أعصابنا كثيرا » . وذكر فى ٢١ يناير : « لاشك فى أن الجنود يكثرون من الكلام فيما بينهم . ولم يعد النظام دقيقا . وحدث أمس أن الجندى (هانز إيبرت) أرسل الى مركز أمامى للمراقبة ولكنه سرعان ما رجع الى الجنود لاهثا مذعورا ولم يعد الى مركزه الا بعد أن هدد باطلاق الرصاص عليه » ، وفى ٢٢ يناير كتب يقول « تزداد نفسية الجنود سوءا يوما بعد يوم ... وقد حدث أمس أن رفض عدد منهم القيام بهجوم مضاد ، حتى اضطررنا الى تهديدهم

باطلاق نيران المدافع الرشاشة عليهم . وقد حاول ثلاثة من الرجال التسليم الى العدو ، فاعدموا رميا بالرصاص : ان النجدات التى تصل الينا هى من رجال الاحتياطى غير المدربين ... » .
وأخيرا دون فى مذكرته بتاريخ ٢٤ يناير : « وصلت الينا أوامر تحتم علينا عدم التقهقر خطوة واحدةوقد أنذر الضباط بأنهم سوف يقدمون الى المحاكم العسكرية اذا انسحبوا أو تقهقروا قبل أن تصل اليهم أوامر بذلك ، ولكن اصدار الأوامر شىء ، واطاعتها شىء آخر . ويبدو أن القيادة العامة لاتدرى بكل ما يجرى فى هذه الجهات على وجهه الصحيح ... ان معركة اليوم يقصد من ورائها الاستيلاء على (أفاروفو) ... » وفى هذه المعركة قضى صاحب المذكرات نحبه .

ومن أمثلة التسليم المقصود الى العدو ما وقع فى أكتوبر ١٩٤١ فى الجبهة الشمالية عندما أرغم جنود احدى الايات المشاة على رفع راية التسليم البيضاء فقد غادروا أماكنهم آخذين معهم ضابطهم وسلموا أنفسهم لرجال الجيش الأحمر . وقد حدث أن وقف أحد هؤلاء الجنود خطيباً يتنبأ بقرب انهيار النازية ويحض الجنود الألمان على وقف القتال . وحدث فى فبراير ١٩٤٢ أن عهد الى فريق من جنود المشاة بمهمة تغطية تقهقر الجيش ، ولكنهم بدلا من ذلك « لم يطلقوا رصاصة واحدة على العدو ؛ وعندما اقترب الروس منهم ، أرسل رئيسهم مندوبا يبلغهم رغبة جنوده فى التسليم . » وفى غير الميدان الروسى أمثلة عدة للهرب من الجيش والتسليم للعدو ورفض القتال حتى أن القيادة العليا الألمانية وجدت من الضرورى ارسال الجستابو وطائفة من الجنود المتحمسين للنازية للانضمام الى القوات المحاربة فى الميدان لمراقبة الهاربين أو الراغبين فى التسليم أو الممتنعين عن تنفيذ الأوامر والقبض عليهم وتقديمهم الى المحاكم العسكرية أو اطلاق الرصاص عليهم بدلا من ذلك فى التو والساعة . فقد حدث فى نوفمبر سنة ١٩٤١ أن رفضت وحدة ألمانية فى ليل Lille على حدود فرنسا الشمالية الشرقية مغادرة الثكنات والانتقال الى الجبهة الشرقية ، فاطلق الرصاص على تسعة وعشرين منهم ، والقى القبض على ثلاثمائة ؛ وأعدم فى الشهر نفسه ستة من الجنود الألمان فى بتسامو فى طرف فنلندة الشمالى لمحاولة الهرب ؛ وفى ٢٣ ديسمبر ١٩٤١ حدث فى قرية (ميايخوفو) بالقرب من (بلجورود) أن رفض تسعون جنديا اطاعة أوامر الهجوم فاطلق الرصاص عليهم وفى يناير ١٩٤٢ أطلق الرصاص على عدد من جند الآلاى السابع والثلاثين بعد المائة بسبب التمرد والعصيان ؛ وفى نفس الشهر أعدم ثلاثة عشر جنديا ألمانيا فى (اسن) وثمان فى (ليبزج) لرفضهم الذهاب الى الجبهة الشرقية ؛ وفى فبراير ١٩٤٢ أعدم ثلاثة وستون من الألمان فى (نانسى) بفرنسا لأنهم رفضوا الذهاب الى خطوط القتال الروسية ؛ وفى نفس الشهر هرب عشرة جنود فى أثناء نقلهم بالسكة الحديد من أحد المراكز بفرنسا وضبط واحد منهم فانتحر قبل محاكمته .

وثمة ظاهرة أخيرة تدل على مبلغ ما كان هناك من شعور عدائى مشترك بين أسرى الحرب الألمان نحو النازية وزعيمها أنه لم تكد السلطات السوفيتية فى معسكرات أسرى الحرب تسمح بتأليف الجمعيات الأدبية للخطابة والمناظرة وما الى ذلك حتى انتهز هؤلاء الفرصة للخوض فى مساوىء الوطنية الاشتراكية والتدمير الذى تم على أيدى الزعماء النازيين الذين ألقوا تلبية لأطماعهم وخدمة لمآربهم الشخصية بملايين الرجال من الألمان ومن حلفائهم «المكرهين» على التعاون معهم إلى ميادين القتال .

وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تشجع السلطات السوفيتية هذه الحركة فسمحت بذهاب الوفود من الأسرى الألمان لزيارة أسرى الحرب الرومانيين وغيرهم لنشر الدعوة ضد النازية وبيان مبلغ الأخطار التى تستهدف لها البلاد المحتلة من جراء تعاونها مع النازيين ، وزيادة على ذلك أذنت السلطات السوفيتية بعقد اجتماعات كبيرة يحضرها مندوبون عن معسكرات أسرى الحرب جميعا لتوضيح موقفهم من النازية وتوثيق العلاقات بين كافة أسرى الحرب على أساس التخلص من الهر هتلر والنازيين كخطوة لا غنى عنها لنشر ألوية السلام على أوربا وفى يناير ١٩٤٣ اجتمع فى أحد معسكرات اسرى الحرب فى الروسيا مندوبون عن سائر معسكرات الأسرى بلغ عددهم ٨٧٦ وكان معظم المندوبين من الألمان برئاسة (الأونباشى) ردولف وولف من برلين ثم كثرت اجتماعات اسرى الحرب فى الشهور التالية ، فحدث فى فبراير أن حضر إلى المعسكر رقم ٩٥ حوالى مائة وتسعون مندوبا يمثلون ١٢٤٢ من ضباط الصف فى المعسكرات الأخرى . وبعد أسابيع قليلة أى فى أواخر مارس عقد الإسرى الألمان الذين وقعوا فى الأسر بين ديسمبر ١٩٤١ وفبراير ١٩٤٢ اجتماعا فى المعسكر رقم ٧٤ واتخذوا قرارا طويلا ، ختموه بعبارة رنانة . «لتسقط الحرب ، وليسقط هتلر وعصابته ، وليحى النضال من أجل ألمانيا الحرة ؟» . وفى فبراير ومارس من العام نفسه أصدر ثمانية وعشرون ضابطا من أسرى الحرب الألمان فى روسيا نداء طويلا أذاعته المحطات الروسية وكذلك المحطات السرية فى الريخ الثالث عدة مرات ، أوضح فيه الضباط لأبناء وطنهم كيف غرر هتلر وعصابته بأهل البلاد وزجوا بهم من أجل أطماعهم الجنونية فى حرب يفنى فيها مئات الألوف من الشباب سدى وأنه لا يمكن أن تنتهى ما دام هتلر فى الحكم لأنه لن يعقد انسان أى صلح معه بينما تستطيع حكومة وطنية يؤيدها الجيش ويوليها الشعب ثقته أن تحصل لألمانيا على صلح خليق بأمة عظيمة ، فكان هـــذا النداء دعوة صريحة للثورة على النازيين فى المانيا .

وقد يتبادر الى الذهن أن أسرى الحرب كانوا مدفوعين لظروفهم الخاصة إلى إظهار هذا

العداء وهذا البغض نحو النازية وزعيمها ولكن الحقيقة كانت على عكس ذلك تماما ، بل إن هناك من الامثلة الكثيرة الأخرى ما يكفى لإظهار مبلغ التصدع فى الجيش الالمانى وقتذاك ولعل من أخطر هذه الحوادث ما وقع فى إقليم (الڤوج) الفرنسى على الحدود الشرقية بين فرنسا والمانيا فى فبراير ١٩٤٢ ، عندما التحم الجند الالمان مع حرس (هيملر) فى معارك دموية كما حدث بالقرب من باريس فى الوقت نفسه أن أعدم ثمانية من الجنود الألمان لارتكابهم جريمتى التخريب ومحاولة الهرب وفى (بار دوبيش) فى تشيكوسلوفاكيا سار الجنود الالمان فى مظاهرة كبيرة فطافوا بشوارع المدينة وهم يصيحون . « نطلب الصلح ونريد العودة إلى الوطن » فما لبث رجال (هيملر) أن حضروا مسرعين وأطلقوا الرصاص ، فقتلوا من المتظاهرين ثمانية وجرحوا ثلاثين وألقوا القبض على ستين منهم وحدث فى أوائل عام ١٩٤٣ أن اختفى فجأة عدد من القواد فى ظروف غامضة كان من بينهم الجنرال فون ريشناو عدا غيره من كبار الضباط الألمان . وقد أذاعت المحطات السرية الحرة الألمانية وقتذاك تفصيلات عن ظروف اختفائهم ثم إعدامهم بعد ذلك ويتبين من هذه التفصيلات أن احد عشر ضابطا من كبار رجال الطيران الألمانى الذين قتلهم (الجستابو) كانوا جميعا قد وقعوا بأسمائهم على « مذكرة » يعارضون فيها هيملر فكان توقيعهم على هذه المذكرة السبب المباشر اسفك دمائهم .

وكان (هيملر) قد طلب فى ذلك الحين أن يكون لدى فرق الحرس النازى من أصحاب القمصان السود (S.S) الخاضعين لرياسته قوة منفصلة من السلاح الجوى خاصة بها ؛ فلقى هذا الطلب معارضة شديدة من الجنرال (براوشيتش) ومن هيئة القيادة العليا للجيش الألمانى ومن جانب فريق من كبار الضباط وخصوصا فى سلاح الطيران وكانت حجة المعارضين أنه ينبغى الاحتفاظ بوحدة القيادة العليا العسكرية وعدم تجزئتها وأنه مادامت التنظيمات النازية الحزبية المعروفة ، وهى فرق الهجوم ، وفرق الحرس قد دخلت فى خدمة الجيش فقد أصبح من المتحتم عليها الخضوع التام لنظامه . وأمام هذه المعارضة ، رأى (هيملر) أن يلجأ إلى (هتلر) حتى يحصل على تأييده ولكن (هتلر) كما كانت عادته فى هذه الأمور ظل مترددا ورأى تأجيل الفصل فى هذا الموضوع ؛ وعندئذ وجد الضباط والقواد بدورهم وكانوا قد فاتحوا (هتلر) نفسه فى الأمر أن يستميلوا إلى جانبهم (هرمان جورنج) . بيد أن (جورنج) الذى كان قد بدأ يفقد فى تلك الأونة ذلك النفوذ القديم الذى تمتع به طويلا ، لم يلبث أن رأى من مصلحته عدم القطع برأى حاسم قد يرضى فريقا ويغضب فريقا آخر وفضل بدلا من ذلك أن تظل علاقاته طيبة مع الجماعتين . ولكنه لما كان يرى فى شخص (هيملر) منافسا

خطيرا له فقد لجأ إلى استخدام الجنرال (ميلش) وسيطا لدى كبار ضباط الطيران فى السلاح الجوى حتى يطلب اليهم إعداد « مذكرة » فى هذا الموضوع يرفعونها إلى هتلر ، متضمنة احتجاجا شديدا على مايريده (هيملر) . وقد أعد هؤلاء الضباط المذكرة فعلا ، وكان عددهم احد عشر وعلى رأسهم كل من (أوديت) ، (مولدرز) و (فون ڤيرا) و (ويلبرج) فكانت نتيجة ذلك أن اختفى الموقعون عليها فى أيام قليلة ، فجاء هذا الحادث دليلا جديدا . إلى جانب حوادث أخرى من نوعه على أن الضعف قد بدأ يتطرق إلى قوة الحرب الألمانية بسبب ذلك الانقسام القائم على وجه الخصوص بين المنظمات النازية العسكرية ، وهى تنظيمات حزبية وقوة الجيش المقاتلة النظامية فى ألمانيا . واحدث انقساما كبيرا بين كبار القواد الألمان فشل الألمان فى الاحتفاظ بستالينجراد فى أواخر عام ١٩٤٢ ، واضطرارهم إلى تسليمها للروس ثم التقهقر المستمر فى الجبهة الروسية منذ نوفمبر من العام نفسه إلى أواخر ١٩٤٣ ، وبدأ جماعة من الضباط الألمان فى الجبهة الروسية يضعون الخطط من أيام تسليم (فون باولوس) فى ستالينجراد لاسقاط هتلر ، وسرعان ما تطورت هذه الخطط بعد ذلك حتى أصبحت مؤامرة طفق أصحابها يضعون التدابير لاغتياله وكادت المؤامرة تنجح وقتذاك لولا أن الصدفة وحدها جعلت هتلر يغادر مركز القيادة قبل تنفيذها بحوالى خمس وعشرين دقيقة .

وكانت معركة ستالينجراد فاتحة شؤم على الجيوش الهتلرية . إذ انهالت عليها الضربات من كل جانب فنزلت القوات البريطانية والكندية فى جنوبى إيطاليا فى سبتمبر ١٩٤٣ واستمر زحفهم إلى الشمال طوال العام التالى وأزال سقوط (كاسينو) العقبات التى كانت تعترض سبيل الحلفاء فى الطريق إلى روما (مايو ١٩٤٤) فتقهقر الألمان بدون نظام أمام الغزاة . وفى أوائل يونية نزلت القوات البريطانية والأمريكية من البحر والجو على ساحل أوروبا الغربى فى مقاطعة نورماندیا فأعلن تشرشل فى مجلس العموم البريطانى فى ٦ يونيه ١٩٤٤ بدء الغزو وفتح الجبهة الثانية . وبدا كأنما قد أطبقت جحافل الحلفاء على « قلعة هتلر » التى ظلت مصدر رعب وفزع ردحا من الزمن وأنه لا مفر من تقويض أركانها بسرعة خاطفة وعندئذ أفاق الزعماء النازيون من غفلتهم . وكان من المتوقع أن يتضافروا على دفع هذه الكارثة التى نزلت بساحتهم ولكن بدلا من ذلك فوجىء العالم يوم ٢٠ يوليه ١٩٤٤ بإذاعة من برلين أن فريق القواد المتذمرين فى الجيش الألمانى منذ أيام الحملة الروسية أرادوا اغتيال هتلر ، ومع أن العناية الالهية وحدها ـ على حد قول اذاعتهم ـ هى التى أنقذت هتلر من الموت فى (أوبرسالزبرج) وأن جوبلز استطاع أن يحبط محاولة « عصبة كبار الضباط للاستيلاء على مبانى الحكومة فى برلين » فإن الأمر كان على جانب عظيم من الخطر إذ ثبت أن عددا من كبار القواد الذين

قادوا الجيوش الألمانية المنتصرة فى السنوات الماضية كانوا ضالعين مع المتآمرين أو كانوا على الأقل من الناقمين على هتلر وجماعته ، فعزل هؤلاء من مركز القيادة ، وكانوا الفيلدمارشال فون رونشتد القائد العام السابق للجيش الألمانى فى غرب أوروبا والفيلدمارشال فون براوشتش قائد القوات الألمانية البرية العام سابقا والفيلد مارشال فون بوك أحد قواد الجيش فى روسيا وزملاؤه الثلاثة فى الحملة الروسية الفيلد مارشال فون ليب والفيلد مارشال فون مانشتين والفيلد مارشال فون كلايست ، ثم الجنرال فون فالكنهاوسن القائد العام السابق فى هولنده وفضلا عن ذلك فقد تمردت وحدات من القوات البرية والبحرية وقام الأهلون بحركة عصيان واسعة فى المناطق الصناعية التى خربتها قذائف طائرات الحلفاء فى ستوتجارت وشواينفرت وبريمن وميونخ ونشبت الثورة بين وحدات من الجيش الألمانى فى جنوبى ألمانيا واشتبك الجيش مع الجستابو فى جهات مختلفة بألمانيا ووقعت مصادمات بين شراذم الهجوم وجنود الجيش الألمانى فى فرنسا فى بوردو وليموج ونيم ونانت وأعطى الفوهرر هيملر سلطات واسعة فقام الآخر بعمليات تطهير واسعة قاسية فانقض الجستابو على كل من اشتبهوا فى أمره يعدمونه رميا بالرصاص أو يرسلونه إلى معسكرات الاعتقال ، ونفذ الاعدام فى كثير من المقبوض عليهم وأودع غياهب السجون عديدون من العلماء والنبلاء ورجال المال والصناعة . وتألفت فى أوائل أغسطس ١٩٤٤ (محكمة الشرف) وكانت مهمتها عزل القواد الذين تحوم حولهم الريب فى الجيش ورفع أسمائهم إلى هتلر حتى يتخذ قرارا بتقديمهم إلى (محكمة الشعب الألمانية) فباشرت محكمة الشرف مهمتها وأصدرت قرارها بإدانة كثير من القواد وفصلهم من خدمة الجيش وبعد محاكمة دامت يومين أصدرت محكمة الشعب الألمانية أحكامها على ثمانين من القواد بالاعدام ثم نفذ فيهم الحكم شنقا .

ووسط هذا الاضطراب الشامل ظلت تجىء الأخبار السيئة من كل جانب منبئة بتحرج الأمور فى الميدان الروسى والجبهة الغربية وميدان إيطاليا ، ولم يحدث إعدام القواد المتآمرين أو الضالعين معهم أو انتحار فريق منهم أى تأثير فى بقية الضباط والقواد المتذمرين فى الجيش الألمانى حتى أنه فى أوائل سبتمبر كان شغل هؤلاء الشاغل إفساد جميع الخطط التى كان يضعها الفوهرر لمنع إطباق العدو على دولة الزعامة المسئولة ، فقد رفض الجنرال فون شولتز أن ينفذ أوامر هتلر له بتدمير أقصى ما يمكن تدميره من باريس حتى يتأخر زحف الحلفاء فى فرنسا وبلجيكا وعظم الشعور بأن إهتمام القواد الألمان كان منصرفا إلى محاولة إدخال قوات الحلفاء الزاحفة من الغرب إلى ألمانيا قبل وصول الروس اليها واعترف جوبلز بحرج موقف ألمانيا فى منتصف سبتمبر . وفى أواخر الشهر نفسه بعث فون رونشتد بتقرير عن سوء الموقف

فى الجبهة الغربية فاشتد القلق بالهر هتلر وفقد السيطرة على أعصابه إذ بات متيقنا من تدهور الروح المعنوية فى نفوس قواد الجيش الألمانى وذلك علاوة على ما كان يخامره من ريبة شديدة فى ولائهم أو فى عزمهم الصمود أمام العدو ، ولمس هتلر تدهور الروح المعنوية فى أقرب الناس صلة به وتطايرت الشائعات أن هيملر وجوبلز وجورنج وغيرهم من كبار رجال حكومة الريخ الثالث يعدون العدة للفرار من ألمانيا حينما يرون بوادر الانهيار التام تلوح للأبصار . ولكن إطباق الروس عليهم من جانب وقوات الأمريكيين والبريطانيين من جانب آخر، لم يدع لهؤلاء الزعماء والقواد فرصة للهرب ، وكان الروس أول من طرق أبواب برلين ، ونشطت طائرات الحلفاء فى تسديد الضربات القاصمة إلى قلب الريخ الألمانى . وكان على أثر إحدى هذه الغارات الشديدة أن لقى الهر هتلر حتفه تحت أنقاض دار المستشارية فى ١ — ٢ مايو ١٩٤٥ واختلفت مصائر بقية الزعماء فآثر جوبلز الانتحار أما بقية الزعماء فقد قدمهم الحلفاء المنتصرون إلى المحاكمة فى نورمبرج إحدى معاقل النازية وأصدرت المحكمة العسكرية الدولية حكم الاعدام على المرشال هرمان جورنج والمرشال ويلهلم كيتل والجنرال الفريد يودل وهانز فرانك ويوليوس شترايخر وسايس انكوارت ويواكيم فون ريبنتروب وأرنست كالتنبرونر والفريد روزنبرج وويلهلم فريك وفريتز سوكل وصدر حكم الإعدام أيضا غيابيا على مارتن بورمان الذى اختلفت الآراء فى مصيره كما حكمت بالسجن المؤبد على رودلف هيس والأميرال رايدر وولتر فونك وحكمت على الأميرال دونتز بالسجن عشر سنوات وبخمسة عشر عاما على فون نوراث وبعشرين سنة على بالدور فون شيراخ والبرت سبير وقد أفرج عن كل من هيالمار شاخت وهانز فريتش وفرانز فون بابن وكان إصدار الحكم بتاريخ أول أكتوبر ١٩٤٦ وقد نفذ حكم الإعدام شنقا فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٦ وأما جورنج فقد انتحر قبل تنفيذ الحكم بساعات وقد أحرقت جثث الأحد عشر زعيما فصارت رمادا تذروه الرياح .

الفصل التاسع

السلام الدائم

كانت خاتمة حياة الزعماء والفلاسفة النازيين على النحو الذى شهدناه قصاصا عادلا لجماعة توهموا أو زين لهم الشيطان أن باستطاعتهم أن يفرضوا سيطرتهم على العالم أجمع اذا هم أحكموا تدبيرهم فسلبوا الشعوب حرياتها ، وأرغموا الأمم على الخضوع لسلطانهم ولم تكن ثم مندوحة عن انهيار دولتهم فى النهاية لأن ذلك (النظام الجديد) الذى ابتكره خيالهم كان مبنيا على قواعد مستمدة من « فلسفة » هى أقرب الى الخلط منها الى شىء اخر : فلسفة تقسم الأمم والشعوب الى طبقات وطوائف من السادة المبجلين الذين توهموا أن من حقهم الأزلى فرض سيطرتهم وسلطانهم على بقية أبناء البشر لا لسبب سوى أن القدر على حد قولهم قد أجرى فى عروقهم دما نقيا وأنشأ هؤلاء السادة فى تربة لا تنتج غير الرجال الممتازين وأما من عداهم فمن الهوام والحشرات التى يجب ابادتها أو معاملتها معاملة الرقيق. وأى نظام ذلك الذى طمع النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية السياسية يريدون الرجوع بالعالم الأوروبى الى تنظيم عصور مضت وانقضت وصار ينظر اليه الناس على أنه مرحلة من مراحل التطور الإنشائى كان لابد للعالم من اجتيازها حتى يصل الى هذه الدرجة من الرقى المادى والمعنوى فى هذا القرن العشرين . وأى نظام ذلك الذى طمع فيه النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية الاقتصادية يريدون نهب الأمم وسلب ثروتها بطرق بعيدة عن الحق والقانون

لقد أفلح النازيون بتدابيرهم أن يستثيروا المقاومة ضدهم من كل جانب وعلى الرغم من أن دعايتهم المنظمة القوية كانت تذيع فى أرجاء العالم أن الفوهرر والقادة النازيين استطاعوا أن يجعلوا من دولة الريخ الثالث كتلة نازية لحما ودما فان عوامل الضعف كانت تعمل رويدا رويدا لتقويض أركان هذه الدولة ، وهل كان يتسنى للفوهرر وسائر الزعماء أن يخمدوا فى صدور تلك الشعوب المقهورة جذوة الأمل فى الخلاص من سلطانهم مهما امتد به الزمن وهم الذين حطموا حياة هذه الشعوب من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى أن أوروبا الآن ما تزال تعانى آثار الاحتلال النازى .

وقديما كان من برنامج النازيين أن يعيدوا تكوين البنيان الاقتصادى بأوروبا على نحو يكفل تحقيق غرضين أولهما جعل الجرمان الخلص أرباب الصناعة والمال وحدهم وأصحاب السيطرة والسلطان بفضل ما يسبغه النشاط الصناعى عليهم من قوة فيزدادون جاها ورقيا بينما تنصرف بقية الأمم فى القارة الأوروبية إلى العناية بشئون الزراعة فتنحط منزلتهم ويصبحون بمرور الزمن عبيداً أرقاء ، وأما الغرض الثانى فهو أن يحطموا كيان الأمم الأوروبية إلى حد يستحيل معه إعادة بنائها إذا قدر لدولتهم الانهيار وخيل إلى النازيين أنهم ما داموا فى دست الأحكام بأوروبا كانت عبقريتهم الفذة كفيلة وحدها برعاية النظام الذى وضعوه وأما إذا انقضى عهدهم لسبب لم يكن فى حسبانهم فلن يستطيع أحد من بعدهم منع أوروبا بأجمعها من الانهيار بعد انهيارهم ، ولا جدال فى أن النازيين أفلحوا فى تطبيق نظامهم الجديد وبالطريقة التى هداهم إليها تفكير فلاسفتهم وزعمائهم ؛ ولكنه لا جدال كذلك فى أن هذا النجاح نفسه كان المعول الذى هدم به النازيون بنيانهم الشامخ فى أوروبا . ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة

أولا أن نجاحهم فى تطبيق نظامهم الجديد حرك الشعوب فى البلدان المفتتحة إلى المقاومة بشتى ضروبها ، وأخفقت صرامة النازيين كما فشل الجستابو فى إقتلاع جذور هذه المقاومة بل صارت تشتد وتقوى كلما غلا النازيون فى تطبيق نظامهم فكانت قلعتهم الهتلرية (قلعة من الورق) ما لبثت أن تداعت أركانها عند أول طارق لأنها ما كانت تضم أقواما مستعدين لبذل نفوسهم من أجل الذود عنها ومنع العدو من إقتحامها ، وأما السبب الثانى فهو أن الوقت كان ألزم ما يكون لنجاح تطبيق هذا النظام من الناحية الاقتصادية بينما أقدم النازيون السكارى بنشوة الانتصار الخاطف ولذته على أجراء التغييرات الاقتصادية التى اقتضاها تطبيق النظام الجديد دون أن يتخــــذوا التدابير التى تكفل الاطمئنان الى أن سيطرتهم باقية مخلدة .

وأنى لهم أن يفعلوا ذلك فالأمر التى انتزعت من مواطنها بقضها وقضيضها وشتت أفرادها أو أرسلوا للعمل مسخرين فى خدمة الريخ فى أنحاء أوروبا المحتلة كان لابد لاستقرارها فى مواضعها الجديدة من عامل الوقت ، وفضلا عن ذلك فانه ما كان يكفى أن تنقل المصانع من الروهر مثلا إلى ألمانيا الجنوبية الشرقية أو يطلب إلى أهل المقاطعات الفرنسية الشمالية الشرقية أن يقصروا جهودهم على الزراعة أو تصدر الأوامر بابطال التعدين فى فرنسا المحتلة كذلك ، أو تهيئة بولندة لادماجها فى الريخ الصناعى بعد إبادة أهلها أو ترغم البلدان المفتتحة على اعتبار برلين عاصمة العالم النازى المالية أو غير ذلك من أباطيل الاقتصاد النازى فما كان يكفى ذلك كله لأن يخلق أوروبا خلقا اقتصاديا جديدا بين طرفة عين وانتباهتها ،

ناهيك بعدم ملاءمة هذا النظام لطبيعة تكوين القارة ذاتها وبحاجته إلى وقت طويل حتى ترسخ قواعده وتتوطد أركانه . فلما عجز النازيون عن كسب الوقت ، بات العمل الانتاجى معطلا فى بلدان أوروبا المفتتحة حتى إذا ما حانت الساعة وزحفت جيوش العدو عليهم استحال عليهم أن يجدوا موارد كافية لمتابعة إنتاج عتاد الحرب فعجل ذلك بهزيمتهم . وأما السبب الثالث فانه كان من مقتضيات العمل بهذا النظام الجديد أن يكون الريخ الثالث نفسه هو المحور الذى يدور عليه هذا النظام بأجمعه ومنذ استتب للنازيين الحكم والسلطان فى ألمانيا عملوا على تهيئة دولة الريخ - أو دولة الزعامة المسئولة - على حد قولهم لاحتلال المركز الذى كان ينتظرها فى عهدها الجديد ، فأحكموا تطبيق قواعد النظام الجديد فى ألمانيا قبل أن يطبقوه فى أوروبا المحتلة بنحو ستة أعوام ؛ فأوجدوا بذلك نواة تلك المقاومة الداخلية التى أرغمت هنريك هيملر على إعداد العدة لاخمادها قبل نشوب الحرب الهتلرية بعامين تقريبا . وكان من أثر نجاح النازيين الظاهر فى تطبيق النظام الجديد فى أوروبا نتيجة لانتصاراتهم الخاطفة الأولى أن زاد خطر الجبهة الرابعة الداخلية . وأخفق الجستابو فى داخل الريخ كما أخفقوا فى أوروبا المحتلة فى إخماد هذه المقاومة ولم تفلح السجون ومعسكرات الاعتقال ووسائل الابادة والتقتيل فى صون هذه الجبهة من التصدع وفضلا عن ذلك فقد انتقلت عدوى المقاومة إلى الجند والضباط والقواد ، فاضمحلت الروح المعنوية فى الألمان جميعا ، وكانت محاولة النازيين فى تأليف تلك الكتلة الصلبة المتماسكة فى قلب الريخ الثالث المعول نفسه الذى قوض دعائم سيطرتهم فى الداخل والخارج معا .

والآن وقد زالت دولة النازيين من الوجود بقضها وقضيضها حق لنا أن نتسائل ماذا يكون ذلك النظام الذى يجب أن يحل فى ألمانيا محل النظام النازى القديم . وهل يكفى أن يعد أقطاب الدول المنتصرة تلك الشعوب التى ذاقت الأمرين من احتلال النازيين لبلادهم بأنه ما دام النازيون قد زالت دولتهم ودمرت أنظمتهم ومنشآتهم وأعدم زعماؤهم أو انتحروا فان ذلك وحده ومن تلقاء نفسه كفيل بعودة الأمور إلى مجاريها ومؤذن بأن المستقبل لا بد منطو على العيش الرغيد والحياة المطمئنة الهادئة ؛ أم أنه لا مناص من التفكير العميق لابتكار أجدى الوسائل العملية لتحقيق هذه الآمال واتاحة الفرصة لتلك الشعوب حتى تتحرر من خوف الاعتداء عليها فى عقر دارها من جانب طغاة آخرين غاشمين ؟ أوهل يسمح المنتصرون باعطاء الألمان فرصة ثانية تمكنهم من السعى لفرض تلك السيطرة الجرمانية على أوروبا من جديد ؟

فى الماضى القريب ادعى أنصار سياسة « التسكين والتهدئة » أن هناك فروقا بين سواد الشعب الألمانى وطغمة النازيين ؛ وأن توقيع العقوبة على الجناة المسئولين عن الحرب الهتلرية

لا يقتضى إلحاق الأذى بالأمة الألمانية . واتخذوا دليلا على وجود هذه الفوارق تلك المقاومة الإيجابية والسلبية التى أبداها فريق من الألمان الناقمين على النازية ومع هذا فقد علمنا التاريخ أن الشعب الألمانى كمجموعة لا يقل فى نزوعه إلى السيطرة والطمع فى السيادة وخوض غمار الحرب من أجل تحقيق هذه السيطرة وتلك السيادة عن قادته وزعمائه ، وكذلك علمتنا التجارب القريبة أن هذا الشعب الألمانى الذى قد يبدو أفراده كل على حدة ، مساكين وادعين ، لا يقل فى مجموعه كأمة عن قادته وزعمائه اندفاعا وراء السيطرة والسيادة . ومن ميزات هذا الشعب القدرة على الانتعاش واجتياز الأزمات الاقتصادية بسرعة تدعو إلى العجب ؛ ولكنها تدعو فى الوقت نفسه إلى الاشفاق على بقية الشعوب المجاورة له ، لأن هذا الانتعاش الاقتصادى يقترن دائما بالرغبة فى الفتح والتوسع . فهل يسمح للألمان بأن ينتعشوا اقتصاديا بحيث يتمكنون من تجهيز آلة الحرب المخربة من جديد والقذف بالشعوب الأوروبية وبغيرهم من شعوب العالم فى أتون الحرب مرة ثانية ؟ . وما يزال الاعتقاد سائدا بأن منشأ الحرب الهتلرية والحرب العالمية الأولى كذلك هو حاجة ألمانيا إلى موارد طبيعية لا توجد فى بلادها ، ولا غنى عن جلبها من الخارج لتنظيم حياتها الاقتصادية . أى أن الدافع إلى الحرب الأخيرة كما كان الحال فى الحروب السابقة دافع اقتصادى ومع أنه مما يخرج عن موضوع هذا الكتاب مناقشة هذا الاعتقاد السائد عن جوهر العوامل التى أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية ، فانه مما يجدر ذكره أن كافة المحاولات التى بذلها أقطاب سياسة « التهدئة والتسكين » ، وبخاصة فى عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ باستخدام رجال المال والصناعة لاقناع النازيين بالعدول عن إثارة الحرب كان نصيبها الفشل . وكان أصحاب تلك السياسة يرمون إلى عقد اتفاقات اقتصادية مع الريخ الثالث لخدمة التجارة الألمانية فى أوروبا الجنوبية الشرقية وفى أفريقية الجنوبية (البريطانية) والسويد وغير ذلك من الأقطار . أضف إلى هذا أنهم حاولوا اقراض ألمانيا (فى لندن يوليه ١٩٣٩) ألف مليون من الجنيهات الانجليزية لمعاونتها على تحويل إنتاجها الصناعى الحربى إلى انتاج سلمى نظير أن يجرى الريخ الثالث تعديلا جوهريا فى سياسته الخارجية على أساس تخفيض تسلحه تحت مراقبة دولية واخلاء تشكوسلوفاكيا بيد أن النازيين ـ كما كان يتوقع ـ ما لبثوا أن رفضوا هذه العروض السخية وعلة ذلك أن دافع الحرب لم يصبح فى الحقيقة اقتصاديا صرفا كما كان الحال فى القرن الماضى على وجه الخصوص . لأنه منذ تقدم الفنون الصناعية ، وتطبيق الطرق العلمية الحديثة فى الصناعة بحيث أمكن إنتاج طراز الطائرات الجديدة أضحى النضال من أجل إحراز السيطرة العالمية هو الذى يحرك الحوادث ويكيف سياسة الدول فبدلا من أن تظل (الدولة الوطنية) وحدة التنظيم السياسى كما كان الحال فى عصور النشاط

الاقتصادى أضحت (القارة) وحدة ذلك التنظيم . وقد حاول أحد الكتاب المعاصرين (ه . ن . بريلسفورد) تلخيص ذلك فى قوله « كانت القاطرة البخارية سببا فى حدوث الانقلاب الصناعى كذلك كان استخدام الطائرة بداية عصر الوحدة القارية » ولم تكن محاولة النازيين فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوروبية سوى مظهر من مظاهر تلك العوامل الجديدة التى برزت فى ميدان السياسة الدولية من أجل إحراز التفوق والسيطرة على العالم وهذا مايفسر إخفاق الساسة « المهدئين » فى الفترة التى سبقت قيام الحرب الأخيرة . لذلك كان من العبث أن تعاد تجربة « التهدئة » مرة ثانية كعلاج لتجنيب الأمم والشعوب ويلات حرب أخرى يثيرها الألمان كما فعلوا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ومن العبث كذلك أن يرغب واضعو الصلح المنتظر فى أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل السيطرة النازية .

ولكنه إذا كان قد ثبت إخفاق سياسة « التهدئة والتسكين » فى إقناع الألمان بالعدول عن استخدام الحرب كوسيلة لفض مشكلاتهم الاقتصادية والسياسية مع بقية الأمم وكان معروفا أن التنظيم الذى بنى على أساس معاهدات الصلح فى فرساى فى عام ١٩١٩ ، وما تفرع عن هذه المعاهدات حتى عام ١٩٣٩ ، قد أسفر عن تمكن الألمان من إشعال نار الحرب العالمية الثانية ، ولا أمل لذلك فى سلام دائم إذا أعطى الألمان الفرصة لاعادة تمثيل الرواية من جديد فما القواعد التى ينبغى على الساسة أن يبنوا على هديها صرح السلام المنتظر ؟ وبعبارة أخرى ، ما ذلك النظام الذى يجب أن يجرى بمقتضاه تنظيم شئون العالم حتى يتجنب البشر ويلات الحروب فى المستقبل ؟

على أن البحث فى هذه المسألة لم يفت المفكرين والكتاب الإقتصاديين والسياسيين منذ نشوب الحرب الأخيرة وبعد انتهائها ، وقد ذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ولعل أصحاب التهدئة والتسكين أخفضهم صوتاً وأقلهم أنصاراً . أما أولئك الذين لايريدون أن يفوتوا تجارب الماضى القريب دون الاستفادة من عبرها ومواعظها ، فقد تنوعت آراؤهم فيما ينبغى اتخاذه من وسائل تكفل استمرار السلم فى المستقبل أجيالا عدة ولعل أظهر ماجاء فى هذا الصدد ، ماذكره (بول اينتزج) أحد أعلام المفكرين الأوروبيين فى الإقتصاد والسياسة فمن قوله أن هناك ولاشك نظام آخر فى الاستطاعة أن يشغل مكان النظام الجديد الذى أوجده النازيون ، وذلك بأن يطبق النظام الجديد الهتلرى تطبيقا عكسيا . أى أنه ينبغى أن يجرى ضد ألمانيا ذاتها تطبيق كافة المبادىء والقواعد التى ارادت أن تسترشد بها فى تحقيق سيطرتها على أوروبا والعالم . ومعنى ذلك أن يعامل الشعب الألمانى بالمعاملة القاسية التى لاقاها البولنديون التعساء من الألمان . فإنه لما كانت ألمانيا قد تعمدت إبادة الشعب البولندى باسلوب منظم

فهناك مايبرر تكليف البولنديين بأن يحكموا الأمة الجرمانية على أن نطلق يدهم حتى ينتقموا لأنفسهم مما أصابهم على يد الألمان باتباع نفس الوسائل التى اتبعها هؤلاء لأبادتهم وذلك بان يحشدوا الجماعات الغفيرة من الألمان ويطلقوا الرصاص عليهم أويحرموهم الطعام حتى يموتوا جوعا ويطردوهم من بيوتهم فى أثناء الشتاء حتى يهلكوا بردا إلى غير ذلك مما كان يفعله الألمان فى بولندة . وفضلا عن ذلك فإن تطبيق النظام الجديد النازى تطبيقاً عكسياً يعنى مصادرة الأطعمة الألمانية وموارد أغذية الشعب الألمانى وتقييد نشاط الألمان الإنتاجى والحد منه ، مادام الحكام أو الفاتحون ، البولنديون لايفيدون من هذا النشاط شيئا لمصلحتهم . ومن المتعذر أن يعارض انسان فى ذلك كله بحجة أن هذا الحل القاسى لا يتفق مع القواعد الخلقية أو المبادىء الإنسانية ، لأن ألمانيا فعلت ذلك وأكبر الظن أنها لن تتردد فى العودة إليه إذا سنحت أمامها الفرصة مرة أخرى فى المستقبل بيد أن مافعله الهتلريون فى الماضى القريب وما تزال الإنسانية تشكو آثاره مر الشكوى ، لايمكن أن تلجأ إليه الديموقراطية الصحيحة لحل مشكلة الحرية والسلم مهما كان حل هذه المشكلة متوقفا على مدى نجاحها فى إزالة الخطر الألمانى .

على أن هناك لحسن الحظ حل آخر ، قد لايفضى العمل به الى ضمان السلم ضمانا تاما ولكن من مزاياه على حد قول اينتزج تعطيل قدرة المانيا على فعل الشر تعطيلا كبيرا ولهذا الحل ناحية سياسية وأخرى إقتصادية . فمن الناحية السياسية ، يبدو عند تطبيق (النظام الجديد) تطبيقا عكسيا أن تجزئة الريخ بعد الحاق الهزيمة به أمر لامفر منه . ومعنى هذا أن تسترجع الدويلات والإمارات الكبيرة الألمانية ذلك الاستقلال القديم الذى تمتعت به قبل أن يتم اتحاد المانيا المعروف فى عام ١٨٧١ ، فتستعيد هذا الإستقلال كل من النمسا وباڤاريا ، وورتمبرج وبادن وسكسونيا وغيرها . وكذلك ينبغى أن تقام من (الراين) دولة حاجزة ، لأن استيلاء بروسيا على أرض (الراين) حديث العهد نسبيا ، ولذلك لا يتصف أهلها بتلك البروسيانية الصميمة ، على غرار مايظهر فى ألمانيا الشرقية . وفى هذه الامارات والدويلات المستقلة كافة ، ينبغى أن يكون التاج من نصيب الاسرات القديمة التى حكمت هذه البلاد فى الماضى ، والتى ما يزال لها اتباع ومريدون فى المانيا لأن من شأن ذلك مساعدة هذه (الدول الجرمانية) على الاستقرار ودعم استقلالها وبقائها منفصلة كل الإنفصال فى حياتها المستقلة الجديدة عن بروسيا ولكنه لما كانت بروسيا ذاتها من أيام فردريك الأعظم قد أقامت البرهان المرة بعد الأخرى على طغيانها وإمعانها فى العدوان ، واثارة الحروب ، فقد سقط حقها في أن تصبح دولة مستقلة ، ضمن مجموعة الدول الألمانية الأخرى المستقلة ومع أنه من

مقتضيات نجاح هذا الحل السياسى أن يحتل المانيا جنود الحلفاء المنتصرين فى الحرب الأخيرة إلا أن هذا الاحتلال ينبغى أن يكون احتلالا مؤقتا فى هذه الدول الألمانية المستقلة ، ماعدا بروسيا وقد تدعو الحاجة الى احتلال بروسيا وحدها احتلالا دائما .

ومن الناحية الاقتصادية يقتضى هذا الحل أيضا تطبيق (النظام الهتلرى الجديد) على ألمانيا تطبيقا عكسيا فمن المعروف انه كان من أهداف ذلك النظام أن تصبح ألمانيا مركز الصناعة وإنتاج الأسلحة وعتاد الحرب فى أوروبا ، ثم حرمان سائر الشعوب من صناعاتها على أن تصبح مهمة هذه الشعوب مجرد انتاج السلع التى تطلبها ألمانيا وتقديم العمال الأرقاء الذين يسخرون فى خدمة الصناعة الألمانية . ولذلك ينبغى حرمان ألمانيا المهزومة من صناعاتها الى حد بعيد فتمحى من الوجود كافة الصناعات المستخدمة فى انتاج معدات الحرب وأدوات القتال ، كما يجب تقليل الصناعات التى يمكن تحويلها لمثل ذلك هذا الى أنه يجب أن توضع الصناعات الباقية مباشرة تحت إشراف الأمم المنتصرة ورقابتها كما يجب الحد من قدرة ألمانيا على انتاج الخامات والنفط وأدوات الحرب الضرورية .

ولما كان حرمان المانيا من الصناعة يترتب عليه نقص ظاهر فى حاجتها إلى السكك الحديدية وطرق النقل السريع الأخرى ، فقد بات ضروريا خفض طاقة العمل فى الخطوط الحديدية ذات الأهمية العسكرية أما إذا نجم عن ذلك كله تعطل عدد كبير من العمال الألمان كما هو منتظر فإن تطبيق هذا النظام العكسى لايترك هؤلاء المتعطلين دون عمل إذ يجب استخدامهم أولا فى الأعمال الإنشائية فى البلدان التى وقعت فريسة فى قبضة الألمان إبان سيطرتهم فدمروا مصانعها ومبانيها وخربوا حقولها فإذا فرغ العمال من هذه الأعمال العمرانية استخدموا فى إقامة خطوط قوية من التحصينات فى البلدان التى تكرر فى الماضى اعتداء الألمان عليها . وفضلا عن ذلك يجب أن يتألف من هؤلاء العمال الألمان (مورد) لا ينضب له معين يوضع تحت تصرف الدول حتى تستقدم كل دولة من هذا (المورد) العدد الذى تريد استخدامه فى جميع الأعمال التى لا تتطلب مهارة فنية والسبب فى ضرورة وجود هذا (المورد) أنه لما كان من واجب الديمقراطية الصحيحة أن تسهر على دوام السلام وهذا أمر يستحيل تحقيقه إلا إذا احتفظ بجيوش جرارة فمن المنتظر أن تقل الأيدى العاملة فى هذه الدول من جراء تجنيد شبابها فى الخدمة العسكرية . ولذلك لا مندوحة عن أن تبحث هذه الدول عن وسيلة تسد هذا النقص المنتظر فى الأيدى العاملة بها ، فيصبح العمال الألمان ذلك (المورد) الدائم التى تستطيع الدول أن تستقدم منه ما تريده وكل هـــذا يتفق مع المبادىء التى كان يطبقها الألمان مع ضحاياهم ، مع فارق واحد ، هو أن العمال الألمان سوف يعاملون معاملة الأناسى .

أضف إلى هذا أنه كان يعرف عن نوايا ألمانيا إذا قدر لها الانتصار أنها تريد أن تنشىء من (الجنس الجرمانى الحاكم) جنسا مهمته الحرب والقتال والاضطلاع بالأعمال التى تتطلب مهارة فنية ليس غير بينما يستخدم ملايين العمال من بين الأجناس التى قد تخضعهم لسلطانها فى الأعمال «الوضيعة» ومن الممكن تنفيذ هذه الخطة بشكل عكسى فترغم ألمانيا على تقديم «الأيدى العاملة» ليحلوا محل الرجال الذين تتألف منهم تلك القوة العسكرية التى عليها صون السلم من أن يتعكر مرة ثانية إذا ما حدث الألمان أنفسهم أن يحاولوا مرة أخرى تحقيق أغراض عدوانية .

وهناك وسائل عدة لتطبيق مبدأ (المجال الحيوى) الألمانى تطبيقا عكسيا فقد سبق القول أنه كان من أهم أغراض (النظام الاقتصادى الجديد) الذى وضعه هتلر أن يجرى تعديل الحياة الاقتصادية فى البلدان المجاورة على نحو يجعل تكوينها ملائما لحاجات ألمانيا الاقتصادية . ولذلك فان عكس العمل بهذا المبدأ معناه منع الاقتصاد الوطنى فى هذه البلدان من أن يكون مكملا لنظام الاقتصاد الألمانى ، ولا جدال فى أن مثل ذلك من مصلحة هذه البلدان وسوف تجد فيه الضمان الكافى لسلامتها . لأنه إذا امتنعت البلدان عن إنتاج ما تحتاج إليه ألمانيا فان ألمانيا لن تستطيع أن تحصل على ما تريده من خامات ونفط وما إلى ذلك فلا يتجدد عندئذ عدوانها عليها وعلاوة على ذلك فإن خلو هذه البلدان من المنتجات اللازمة لألمانيا من شأنه أن يصرف الألمان عن الطمع فى غزوها وامتلاكها ، من ذلك أن زوال موارد النفط الرومانية يساعد ولا شك إلى حد كبير على تقليل مدى اعتماد ألمانيا على أوروبا الجنوبية الشرقية فى سد مطالب الحرب التى تحتاج اليها ومن الممكن استغلال موارد النفط فى رومانيا بسرعة عظيمة دون التقيد بأية اعتبارات تجارية حتى ينضب معين آبارها .

ولا تكون رومانيا موضع أطماع جديدة من جانب الألمان فى المستقبل وعلى كل حال يسود الظن اليوم أن موارد النفط فى رومانيا قد أشرفت على النضوب ؛ ولذلك كان من واجب الدول المحبة للسلام أن تبذل كل جهد بالتعاون مع رومانيا ذاتها لإخراج رومانيا من قائمة مناطق انتاج النفط الهامة فإذا أضيف هذا الى تحطيم منشئات صنع النفط كيميائيا بتحطيم مصانع تقطيره لأصبح من المتعذر على ألمانيا أن تغامر بحرب عدائية مرة ثانية .

وثمة مثال آخر . هو (فول الصويا) الذى شجعت ألمانيا على زراعته والإكثار من إنتاجه فى بلدان أوربا الجنوبية الشرقية فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب الأخيرة وفى أثناء سنوات الحرب أيضا وقد فعلت ألمانيا ذلك لأن هذا المحصول يستخدم غذاء للإنسان وعلفا للماشية ويمكن استخراج الزيوت منه واستعماله سمادا وينمو فول الصويا بكثرة عظيمة فى

الصين واليابان وغيرهما من بلدان الشرق الأقصى ولذلك يجب حرمان المانيا من الحصول عليه من أوروبا الجنوبية الشرقية حتى يكون اعتمادها كله فى سد حاجتها منه على (منشوكو) وغيرها من البلدان البعيدة إذ أنه لا معنى من الناحية الإقتصادية لأن يرخص بانتاج (فول الصويا) لبلدان لا تساعد أحوالها الطبيعية أو أجور العمال فيها على انتاجه بالكميات الهائلة التى تنتجها (منشوكو) ؛ ومن الأوفق ان تستورد ألمانيا حاجتها منه من (منشوكو) بطريق البحر الطويل . دون أن يشجع زراعة هذا الصنف فى أوروبا الجنوبية الشرقية إذ إهتمام ألمانيا بادخال زراعته فى هذه الأقاليم لم يكن عبثا . ولا جدال فى انه إذا ظلت أوروبا الجنوبية تنتج (فول الصويا) وتمد به ألمانيا فان الوقت لن يطول كثيرا قبل أن تجد المانيا ما يسهل عليها إثارة حرب عالمية ثالثة .

ومن مصلحة البلدان الجنوبية الشرقيـة فى أوروبا أن تعمل على إنشاء الصناعات بأرضها حتى تصبح دولا صناعية ولو إلى حـد محدود لأن ذلك من شأنه أن يقلل من اعتمادها على المصنوعات التى تستوردها من ألمانيا ، وتقتصر وارداتها من ألمانيا على بعض السلع الكمالية فبذلك تفقد الصادرات الألمانية أسواقها فى هـذا الجزء من أوروبا ؛ ويمكن الاستعاضة عن هذه الأسواق المفقودة بأن تظل الأسواق فى البلدان الواقعة وراء البحار مفتوحة لتصريف الصادرات الألمانية كما أن ألمانيا يجب أن تظل معتمدة كذلك فى وارداتها من النفط والخامات على ما تصدره اليها هذه البلدان النائية

وأما نتيجة هذا (النظام) فهى أن ألمانيا سوف تبقى معتمدة فى سد حاجاتها الضرورية على استمرار تجارتها الخارجية عبر البحار ولا يلحق ذلك أى أذى بها فى وقت السلم ، بينما يزيد فى مقدار الصعوبات التى تصادفها فى وقت الحرب زيادة كبيرة ، فلا تقـدم بسبب هذه الصعوبات المتوقعة على إشعال حرب ثانية .

بيد أنه لا مناص من أن يسفر تطبيق هذا (النظام) عن خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا . ولكنه لما كان من المتوقع أن تعنى ألمـانيا بالزراعة عناية كبيرة وترسل العمال الألمان إلى بلادهم دفعات من أجور الخدمة التى يحصلون عليها فى الخارج ويسرح الجيش الألمانى ويعفى الألمان من نفقات جيوش الاحتلال فى بلادهم . فان من شأن ذلك جميعه أن يخفف كثيرا من وطأة هبوط مستوى المعيشة فى ألمانيا ولو أنه من الطبيعى أن يظل هذا الهبوط ملحوظا ؛ ومع ذلك فهناك ما يمكن أن يجد فيه الشعب الألمانى ما يعوضه شيئا كثيرا عما قد يلقاه من شظف العيش وهو تيقنه من أن زعماءه لن يسمح لهم بأن يقذفوا بألمـانيا فى حرب جديدة وأن يستغلوا مواردها من أجل التسليح مرة ثانية وقد لا يرضى عن هذه الحال جيل من الألمان

نشأ على الاعتقاد بأن الجنس الجرمانى له وحده حق السيادة على سائر الأجناس . ولكن على العالم أن يواجه أمرين لا ثالث لهما : إما خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا وهو أمر لا مفر منه ، وإما الاستهداف لحرب جديدة ولذلك فانه من خطل الرأى أن يعارض أحد فيما ينتظر من خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا لأسباب إنسانية وكذلك من الخطأ معارضة ذلك بدعوى أن العالم سوف يخسر كثيرا إذا أضحى ثمانون مليونا من الجرمان يعيشون عيشة غير رخية إلى حد ما ووجه الخطأ فى مثل هذه الأقوال أن شيئا لا يمكن أن يعدل خطر تعرض العالم لأهوال الحرب مرة ثانية بل إن الاهتمام بصون السلام يجب أن يلغى إلغاء جميع الاعتبارات الأخرى ولا يمكن من غير شك أن ينظر إنسان إلى هذا النظام المقترح على أنه من الحلول المثالية لأنه من المتعذر الحصول على حلول مثالية ولا يعيش البشر فى عالم مثالى وكل ما هنالك أن يختار الانسان بين طائفتين من المزايا والأفكار ومن شأن تطبيق (النظام الجديد) تطبيقا عكسيا أو بعبارة أخرى العمل (بالنظام الجديد المعكوس) أن يقلل كثيرا من خطر نشوب حرب أخرى بفضل اتباع وسائل قد تبدو شاقة مرهقة إذا قيست بتلك التى أوجدتها معاهدة فرساى ولو أنها من الناحية الانسانية تفوق كثيرا ما كانت تتبعه ألمانيا .

ويتطلب تطبيق هذا (النظام الجديد المعكوس) وضع خطة محكمة للتنظيم الدولى وفى كل دولة على حدة . أى أنه ينبغى استخدام العمال الألمان (المجندين) أو (المسخرين) للخدمة فى أوروبا على نحو لا يسبب تعطلا عن العمل فى البلدان التى تستخدمهم ، فمن المعروف أن الحكومة الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رفضت أن يقوم العمال الألمان باعادة بناء المنشآت فى الجهات المخربة فى فرنسا بدعوى أن استخدامهم يضر بمصلحة العمال الفرنسيين وبمصلحة الصناعات الفرنسية وهذا صحيح ولا شك إذا اتبع نظام (الباب المفتوح) الذى لا يقيد الهجرة من بلد إلى آخر ولذلك سوف يجد العمال الفرنسيون ، وتجد الصناعات الفرنسية عند وضع خطة التنظيم المحكم ما يستنفد كل الوقت فى إنتاج السلع والبضائع التى تدعو الحاجة المستمرة إليها لسد المطالب اليومية والعادية ، وينجم عن استخدام العمال الألمان لذلك عدم الحاجة إلى خفض مستوى المعيشة من أجل تيسير العمل فى إعادة بناء الأملاك والمنشآت المخربة وعلاوة على ذلك فإنه بعد أن يتم هذا العمل الإنشائى ينبغى أن يوجد هذا التنظيم مجالا دائما لاستخدام العمال الألمان دون أن يترتب على ذلك تعطل العمال الوطنيين فى البلدان المختلفة وهناك ما يدعو إلى احتمال زوال الحاجة إلى بقاء الرقابة الدائمة على الدول الجرمانية غير البروسيانية إذ من المحتمل كثيرا أن تستقر الأمور فى هذه الدول فتقتصر عنايتها على النشاط السلمى بينما يدرك أهلها أن فى استطاعتهم وقد نبذوا جانبا أطماعهم فى غزو شعوب

العالم وإخضاعها لسلطانهم أن يبنوا لأنفسهم صرحا من الحياة المطمئنة الرضية . بل إنه ليكاد يكون أمرا مفروغا منه أن يؤدى إحكام رقابة الأمم المنتصرة على بروسيا إلى الحد من عجرفة البروسيين وكسر حدة أطماعهم الأشعبية ومن المسلم به أن هذه العجرفة والأطماع البروسيانية كانت المسئولة عن ذلك التخريب الذى حدث بأوروبا وتلك الآلام التى ما زالت تقاسيها الإنسانية .

والواقع أنه إذا أدركت بروسيا أنه لم يعد فى استطاعتها بعد هذه الهزيمة المنكرة أن تعود إلى التسلح مرة أخرى على نحو ما حدث بين عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٩ فان ذلك فى حد ذاته قد يضعف كثيرا ذلك الروح الحربى الذى يميز بروسيا من غيرها ولا يشجعه وقد يأتى الوقت الذى يمكننا أن نرى فيه الأمة البروسيانية وقد اتخذت مكانها بين مجموعة الأمم الحرة فى ظل المساواة الشاملة مساهمة فى تلك الجهود التى يجب أن يبذلها الجميع متضامنين من أجل رفاهية العالم وسعادة الإنسانية .

تلك حقيقة المشكلات التى يواجهها أقطاب الأمم المنتصرة بعد الحرب الأخيرة وإنا لنرجو الله صادقين أن يوفقهم وأن يستهدفوا رفاهية العالم وسعادة الإنسانية وهم يضعون شروط الصلح النهائية .

مصادر البحث

ا -- عن الموقف السياسى فى المـــانيا وأوروبا قبل ظهور النازية وفى عهدها .

ب — عن المانيا والنازية .

ح — عن النظام الجديد ، والمشكلات التى ترتبت على تطبيقه .

ى — عن أوروبا المحتلة ، والمقاومة .

ﻫ — عن أهداف الدمقراطيات المتحالفة ومشروعات السلام .

(ا)

1. Averoff, M. 3 Histoires d'une Resistance. Caire 1942.
2. .... La Lutte de la Grece, 28 oct 1940—30 Mai. 1941. Paris 1941.
3. Bojanov, B. Avec Stalint dans le Kremlin. Paris 1930.
4. Barbusse, H. Staline—Un Homme Nouveau. Paris 1935.
5. Biglaud, E. The Riddle of the Kremlin. London 1940.
6. Birdsall, B. Versailles Twenty Years After. London 1941.
7. Blue Book, The Govesnment—Documents Concerning German—Polish Relations and the Outbreak of Hostilities Between Great Britain and Germany on Sept. 3, 1939. London 1939.
8. Bruce, M. British Foreign Policy. London 1939.
9. Ciano, The Ciano Diaries 1939—1943, New York 1946.
10. Citrine, Sir W. My Finnish Diary. London 1940.
11. Clark. G.·N. Holland and the War. Oxford 1941.
12. .... Belgium and the War. Oxford 1942.
13. Duchess of Atholl. Search Light on Spain. London 1938.
14. Duff, Ch. A Key to Victory : Spain. London 1940.
15. Duff, S. G. Europe and the Czechs. London 1938.
16. Dutt, R. P. World Politics 1918—1936. London 1936.
17. Eastman, M. Stalin's Russia aud the Crisis in Socialism. London 1940.
18. Fischer, L. Stalin and Hitler. London 1940.
19. Franzero, C.M. Inside Italy. London 1941.
20. Garrat G. T. Europe's Dance of Death. London 1940.
21. ———————— Mussolini's Roman Empire. London 1938.
22. Gilbert, E. W. How the Map of Europe was Changed. 1938—1940 London 1940.
23. Golding, C. From Versailles to Danzing. London 1940.
24. Gunther, J. Inside Europe. London 1936.
25. Johnson, H. The Soviet Power. New York 1940.
26. Jackson J. H. Finland. London 1938.
27. Jerrold, D. Britain and Europe 1900—1940. London 1941.
28. Jones E. The Attack From Within. London 1941.
29. Lévy, L. Vérités Sur La France. London 1941.
30. Lippmann, W. U. S. Foreign Policy. London 1944.
31. Massock, R. G. Italy From Within. London 1943.

32. Melville, C. F, Balkan Racket. London 1941.
33. Nicolson, H. Why Britain is at War. London 1940.
34. Owen, F. The Three Dictators. London 1940.
35. Pares, B. Russia. London. 1941.
36. Pentad. The Remaking of Italy. London 1941.
37. Price, G. W. I know These Dictators. London 1937.
38. Salvemini and La Piana. What To Do With Italy. London 1943.
39. S. K. Agent In Italy. London 1943.
40. Sturmthal, A. The Tragedy of European Labour 1918—1939. London 1944.
41. Theimer, W. An A B C of Internatinal Affairs. London 1940.
42. Tissier, Lt. Col. Pierre. The Government of Vichy. London 1942.
43. Treves, P. Italy Yesterday Today and Tomorrow London 1942.
44. Ullmann, S. de. the Epic of the Finnish Nation. London 1944.
45. Volpe, G. Histoire Du Mouvement Fascite. Roma (?)
46. Ward, B. Italian Foreign Policy. Oxford 1941.
47. Waterfield, G. What Happened to France. London 1941.
48. Weaver, D. Front Page Europe. London 1943.
49. Werner, M. The Battle For The World. London 1941.
50. Woodward, E. L. The Origins of War, Oxford 1941.
51. Zacharoff. L. "We made a mistake." Hitler, London 1942.

(ب)

52. Banse, E. Germany, Prepare for War ! (Trans. Alan Harris) London 1935.
53. Bartlett, V Nazi Germany Explained. London 1933.
54. Borkenau, F. The New German Empire. London 1938.
55. (a). Cooper R.W. The Nuremberg Trial. Lodon 1947.
55. Brinitzer, C. and Grossband, B. Germans Versus Huns. London 1941
56. Dalton, H. Hitler's War : Before and After. London 1941.
57. Dodds, E. R. Minds In The Making. London 1941.
58. Duncan—Jones, A. S. The Crooked Cross. London 1940.
59. Einzig, P. Bloodless Invasion. London 1938.
60. Forster, E.M. Nordic Twilight London 1940.
61. Fraenkel, N. The Other Germany - London 1943
62. ——————— Help Us Germans To Beat The Nazis ! London 1940.
63. Gangulee, N. The Mind And Face of Nazi Germany. London 1942.
64. Gibbs, Ph. European Journey . . . London 1934.
65. Giles, O.C. The Gestapo. Oxford 1940.
66. Gregory, R. Science in Chains. London 1942.
67. Heiden, K. History of National Socialism. London 1934.
68. ——————— Hitler. London 1936.
69. ——————— One Man Against Europe. London 1939.
70. Hitler, A. My Struggle. London 1936.
71. Keane, R. Germany What Next ? London 1939.
72. Kirpatrick, C. Nazi Germany. Its Woman And Family Life. London 1940.
73. Knickerbocker, H.R. Is Tommorrow Hitler's. London 1942.
74. Knox, R. Nazi And Nazarene. London 1940.
75. Lend, E. Underground Struggle in Germany. London 1938.

76. Lichtenberger, H. The Third Reich (Trans. Koppel S. Pinson) London 1938.
77. Lorant, S. I was Hitler's Prisoner. London 1941.
78. Lorimer, E. O. What Hitler Wants. London 1939.
79. Moeller Van Den Bruck. German's Third Empire (Trans. E. O. Lorimer). London 1934
80. Mower, E. Germany Puts The Clock Back. London 1938.
81. Oliveira, A. R. A People's History of Germany. London 1942.
82. Rauschning, H. Hitler Speaks. London 1934.
83. Read, D. Ths Bnrning of the Reichstag. London 1934.
84. ———— Insanity Fair. London 1938.
85. Roberts, S. The House that Hitler Built. London 1938.
86. Schütz, W.W. German Home Front. London 1943.
87. Smith, A. D. Guilty Germans ? London 1942.
88. Sington, D. and Weidenfeld, A. The Goebels Expcriment. London 1942.
89. Strasser, O. History In My Time. London 1941.
90. Tabouis, G. Blackmail Or War. London 1938.
91. Thomas, K. Women In Nazi Germany. London 1943.
92. Thyssen, F. I paid Hitler. London 1941.
92. (a) Trevor- oper, H. R. The Last Days Of Hitler. London 1947.
93. Weaver, D. The Diplomacy of the Third Reich. London (?)
94. Wolfe, L. By Order of the Gestapo. London 1942.
95. Zarek. O. German Kultur. London 1943.

(ح)

96. Angell, N. You And The Refuggee. London 1939.
97. Beales, A.C.F. The Catholic Church And International Order. London 1941.
98. Carr, E.H. Propaganda in International Politics. Oxford 1940.
99. Chakotin, S. The Rape of the Masses. London 1940.
100. Deuel, W. People Under Hitler. London 1942
101. Einzig, P. Hitler's New Order in Europe. London 1941.
102. ———— Europe in Chains. London 1941.
103. Gentile, A-S. Le "Racisme" devant La Science. Caire 1942.
104. Hadham, J. God in a World at War. London 1941.
105. Harsch, J.C. Pattern o f Conquest. London 1942.
106. Hoden, M, A Diary of World Affairs. London 1941.
107. Horsefield, J.K. The Real Cost of the War. London 1941.
108. Huxley, J. Argument of Blood. London 1941.
109. Kuczymski, R. R. "Lviing-Space". Oxford 1940.
110. Lafitte, F. The Internment of Aliens. London 1940.
111. Miller, D. You Can't Do Business with Hitler. London 1942.
112. Parkes, J. The Jewish Question. Oxford 1940.
113. ———— An Enemy of the People : Antisemitism. London 1945.
114. Rauschning, H. Hitler wants the World! London 1941.
115. Reveille, Th. The Spoil of Europe. London 1942.
116. Ruppin, A. The Jewish Fate and Future. London 1940.
117. Samuel, M. The Great Hatred. London 1943.
118. Simpson, J. H. The Refugee Question. London 1939.
119. Slater, H. Home Guard for Victory. London 1941.

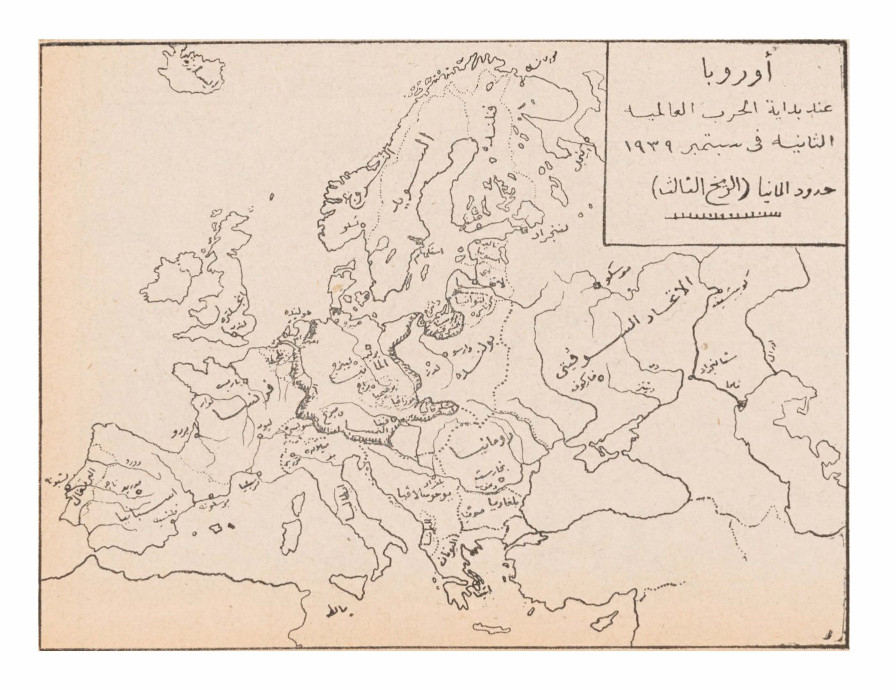
120. Thomas, J. Warfare by Words. London 1942.
121. Wilson, D. Germany's 'New Order,' Oxford 1941.

(د)

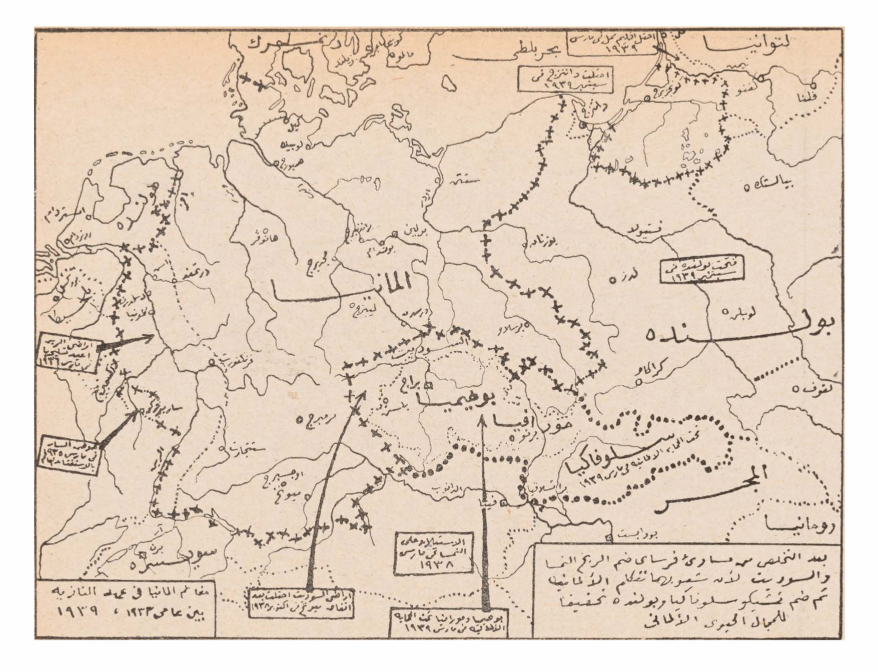
122. Amyntor. Victors in Chains-Greek Resistance 1942—3. London 1943.
123. Anonymous. "All Gaul is Divided..'' Letters From Occupied France. London. 1941.
124. Brome, V. Europe's Free-Press. London 1943.
125. De Jong, L. Holland fights the Nazis. London 1941.
126. Duff, S. G. A German Protectorate.The Czechs under Nazi Rule. London 1942.
127. Dutch, O. Pall over Europe. London 1942.
128. Europe Under Hitler. In Prospect and in Practice. [Roy. Inst. of Inter. Affairs . Oxford 1941.
129. Feuchtwanger, L. The Devil in France. London 1943.
130. Gathorne-Hardy, G. M. Norway and the War. London 1941.
131. Gudme, S. Denmark : Hitler's 'Model Protectorate'. London 1942.
132. Hasek, J. The Good Soldier Schweik. London. 1940.
133. Kernan, Th. Report on France London 1942.
134. Kraus, R. Europe in Revolt. London 1943.
135. Mackworth, C. Czechoslovakia Fights Back. London 1942.
136. 'Michael'. France Still Lives. London 1942.
137. Motz, R. Belgium Unvanquished. London 1942.
138. Myklebost, T. They Came as Friends. (Nazi-Occupied Norway). London 1943.
139. Palmer, P. Denmark in Nazi Chains. London 1942.
140. Polish Doctor-A. I saw Poland Suffer. London 1941.
141. Pruszynski, K. Poland Fights Back. London 1941.
142. Simon, V. The Gestapo at work in Norway. (Forward By..). London 1942.
143. Tayler, E. L. The Strategy of Terror. New York. 1940.
144. Segal, S. Nazi Rule in Poland. London 1943.
145. Sudjic, N. J. Yugoslavia in Arms. London 1942.
146. Volterkis, A. In Gestapo Service. Cairo 1944.
147. Woodman, D. Europe Rises. London 1943.
148. Worm-Müller, J. C. Norway Revolts against the Nazis. London 1941.

(هـ)

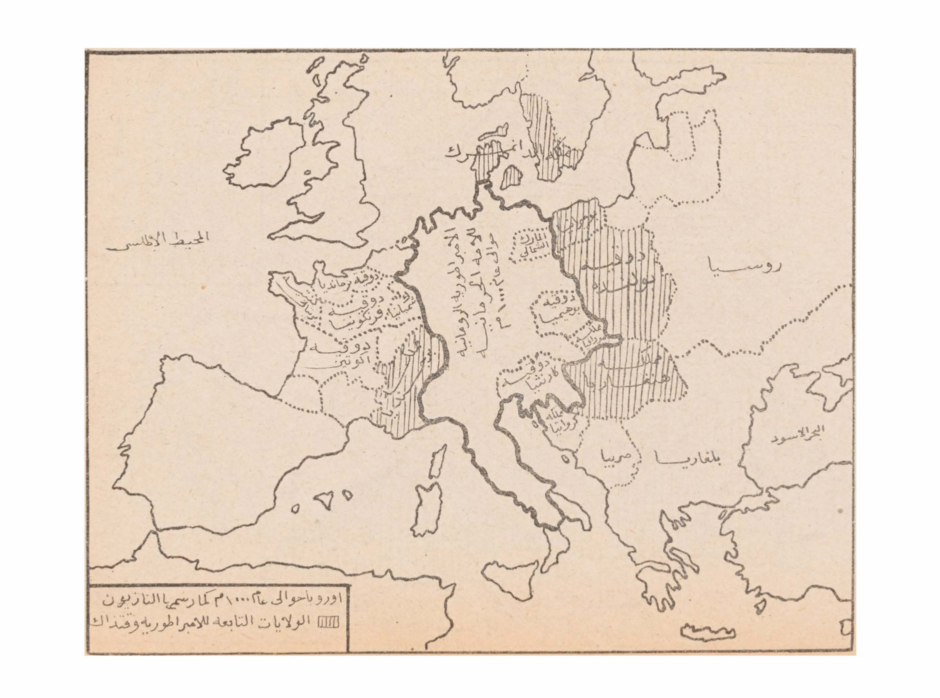
149. Acland, R Uuser Kampf. (Our Struggle). London 1949.
150. America Looks to the Future. (Four Speeches by American Statesmen). Oxford 1942.
151. Angell, N. The Great Illusion Now. London 1939.
152. ———————— Why Freedom Matters. London 1940.
153. Brailsford, H. N. America our Ally. London 1940.
154. Dallin, D. J. Russia and Postwar Europe. New Haven 1943.
155. Einzig, P. Appeasement Before, During, and After the War. London 1941.
156. Evans. R. Prelude to Peace. London 1943.
157. Glover, E The Psychology of Fear and Courage. London 1941.
158. Goodhart, A. Ouels Actes De Guerre Sont Justifiables ? Oxford 1941.
159. Hancock, W. K. Argument of Empire. London 1943.
160. ———————— Empire in the Changing world. London 1944.
161. Joad, C. E. M. what is at stake, and why not say so ? London 1940.
162. Laski, H. J. Where do we go from here ? London 1941.
163. Milne, A. A. War with Honour. London 1940.
164. Wells, H. G. The Common Sense of war and Peace. London 194.0



أوروبا
عند بداية الحرب العالمية
الثانية في سبتمبر ١٩٣٩
حدود ألمانيا (الريخ الثالث)
فنلنده
السويد
النرويج
أوسلو
استكهلم
لننجراد
موسكو
الاتحاد السوفيتي
خاركوف
ستالنجراد
إنجلترا
لندن
فرنسا
باريس
بردو
ألمانيا
برلين
بولنده
وارسو
رومانيا
بخارست
يوجوسلافيا
بلغراد
بلغاريا
صوفيا
اليونان
إيطاليا
إسبانيا
مدريد
البرتغال
لشبونه



مغانم ألمانيا في عهد النازية
بين عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٩
بعد التخلص من مساوئ فرساي ضم الريخ النمسا
والسوديت لأن شعوبهما تتكلم الألمانية
ثم ضم تشيكوسلوفاكيا وبولنده تحقيقاً
للمجال الحيوي الألماني
أراضي السوديت احتلت بعد
اتفاق ميونيخ في أكتوبر ١٩٣٨
الاستيلاء على
النمسا في مارس
١٩٣٨
بوهيميا ومورافيا تحت الحماية
الألمانية في مارس ١٩٣٩
أراضي الرين
أعيد تسليحها
في مارس ١٩٣٦
حوض السار
في مارس ١٩٣٥
بالاستفتاء
احتلت دانتزج في
سبتمبر ١٩٣٩
احتل إقليم ممل في مارس
١٩٣٩
فتحت بولنده في
سبتمبر ١٩٣٩
بحر بلطي
لتوانيا
ألمانيا
بولنده
بوهيميا
مورافيا
سلوفاكيا
المجر
رومانيا
سويسرة
هولنده
برلين
براغ
فينا
بودابست
كراكاو
لدز
بياليستك
لوبلين
ستتين
هانوفر
هامبورج
فرانكفورت
ميونخ
شتوتجارت
برن
لايبزج
برسلاو
بوزنان
كونجزبرج
دانتزج
سار بروكن
كولونيا

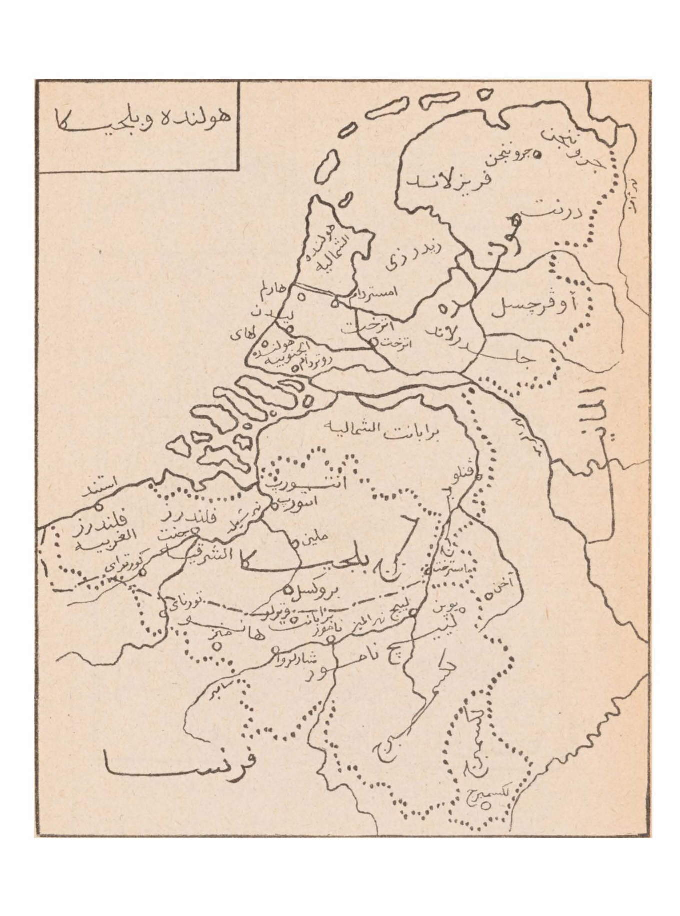

المحيط الأطلسي
الامبراطورية الرومانية
للأمة الجرمانية
حوالى عام ١٠٠٠م
دوقية نرمانديا
دوقية فرنكونيا
دوقية اكوتين
المارك الشمالي
دوقية بولنده
دوقية بوهيميا
دوقية كارنثيا
مملكة هنغاريا
مملكة كرواتيا
روسيا
صربيا
بلغاريا
البحر الأسود
اوروبا حوالى عام ١٠٠٠م كما رسمها النازيون
الولايات التابعة للامبراطورية وقتذاك



تقسيم بولند
ضم الى الاتحاد السوفيتي
ضم الى المانيا
تنازل عنه الاتحاد السوفيتي
الى لتوانيا في اكتوبر ١٩٣٩
استونيا
خليج
ريجا
لتفيا
نهر دوينا
لتوانيا
بحر بلطي
نهر نيمن
ضم الى بروسيا
الشرقية
دانتزج
بروسيا
الشرقيه
فلنا
بيالستك
بوزنان
وارسو
لدز
مستنقعات
بريبت
كراكاو
لفوف
سلوفاكيا
هنغاريا
رومانيا
سيليزيا
العليا



اسكندناوه و فنلنده ودول البلطيق



هولنده وبلجيكا
جرونجن
فريزلاند
درنت
زيدرزى
هولنده الشمالية
هارلم
امستردام
ليدن
لهاى
اترخت
هولنده الجنوبية
روتردام
آوفرجسل
جلدرلاند
برابانت الشمالية
انتورب
اسورب
استند
فلندرز الغربية
فلندرز الشرقية
جنت
كورتراى
ملين
بلجيكا
بروكسل
فنلو
ماسترخت
آخن
تورناى
واترلو
برابانت
ليبج
هانيه
نامور
شارلروا
لكسمبرج
فرنسا



تقسيم تشيكوسلوفاكيا


خريطه فرنسا فى يونيه سنة ١٩٤٠
انجلترا
القنال الانجليزى
دنكرك
كاليه
بولونيا
ارتوا
بكاردى
شربرج
نورماندى
باريس المحتلة
فرنسا
تور
فيشى
بريجور
بوردو
جوين
جاسكونى
فرنسا غير المحتلة
ليون
ساڤوى
بروڤانس
مرسيليا
تولون
نيس
كوبلنز
متز
نانسى
لورين
ستراسبورج
سويسرا
ايطاليا
اسبانيا
خط ماجينو
فرنسا المحتلة
اتجاه تراجع الحكومة الفرنسية
الحدود

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الثمن ٣٠ قرشاً